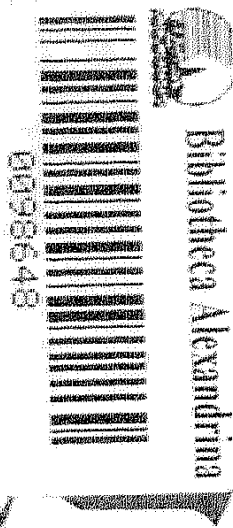


دوستويفسكي

الاعمال الأدبية الكاملة المجلد ٦

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

خاتمة
أمازوف





الأعمال الأدبية الكاملة
المجلد السادس عشر

دوستوييفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلداً

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٢٥٢٨٣٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

الإفوة كارمازوف

١

جميع الحقوق محفوظة

تقديم

لم يبارح المرض دوستويفسكى ، فنوبات الصرع ما تنفك تزداد ، وقد أضيف اليها احتقان الرئتين وعسر التنفس مع تقدمه فى السن . على أن الفترة التى تمتد من سنة ١٨٧١ الى يوم وفاته سنة ١٨٨١ ، يمكن أن تعد سعيدة اذا قيست بالفترات التى سبقتها ، وهى على كل حال خصبة الى أقصى حدود الخصوبة . هى سعيدة من الظاهر : ففيها تعاضم مجدد دوستويفسكى حتى انتخب عضوا فى الاكاديمية سنة ١٨٧٧ ، وحتى القى خطابه عن بوشكين سنة ١٨٨٠ ، فأصبح الناس يؤلهونه تأليها ، وأصبح يعترف له بأنه «الكاتب العبقري لروسيا كلها» ، تعترف له بذلك السلطات رغم جراته واستقلاله ، وتعترف له به الشبيبة اللبرالية رغم «الجن» ، ورغم المقالات «الرجعية» التى تضمها «يوميات كاتب» . والى جانب المجد هناك سعة الرزق ، فلئن كان ما يزال يتقاضى من الناشرين سلفا على انتاجه ، فانه يملك الآن منزلا صغيرا فى سترايا روسا ، وان حقوقه فى الملزمة الواحدة من كتاباته تبلغ ثلاثمائة روبل ، وان كتبه يعاد طبعا مرة بعد مرة ، فهو الآن لا يكتب والسكين على عنقه ان صح التعبير . وأكثر من هذا كله أنه ينعم بحياة عائلية رضية بهيجة : ان أنا جريجوريفنا امرأة مثال ، كزوجة ومديرة أعمال وسكرتيرة ، ودوستويفسكى يحبها ويحب أولاده ، فاذا قرأت رسائله اليها حين كان يضطر الى الغياب عن بيته ، رأيت هذه الرسائل تفيض رقة وعطفا وحنانا . والنسالة الوحيدة التى ألمت به فى هذه السنين انما هى موت ابنه الكسى عام ١٨٧٨ من نوبات الصرع الموروثة عن الأب . وحياته سعيدة فى الباطن أيضا ، أو هى هادئة نوعا من الهدوء فى أقل تقدير : لقد تخلص دوستويفسكى بجهد الارادة من داء القمار ، وسكن وجدانه بعض السكون فليس يعيث فيه ماكان يعيث فيه من تمزق . صحيح إن القلق مايزال يهز روحه ولكنه ليس قلق الحياة اليومية ، بل قلق المشكلات الفلسفية والمسائل الانسانية التى أوجت اليه بأهميات آثاره . وفى تلك الفترة انما كتب دوستويفسكى رواياته الثلاث: «الجن» ، و «المراهق» و «الاخوة كارامازوف» .

ان هذه الروايات الثلاث أفكار تحيا في اشخاص .

ان دوستويفسكى لا يعرض مذهبا فلسفيا جامدا يدعو اليه ويتعصب له . ان تعدد الاشخاص الذين يصورهم دوستويفسكى يتيح عرض تلك الأفكار في مختلف جوانبها ويتيح ابرازها بمزيد من الوضوح في تعارضها ، ويتيح اظهار الفروق الدقيقة بينها وتقليب الراى فيها على شتى وجوهها ، فلا يضع القارىء أمام حلول حاسمة أو قناعات قاطعة . ومن هنا يجىء اختلاف الاجتهاد في تحديد موقف دوستويفسكى ، وتفاوت الراى في تعيين اتجاهه وتعارض التفسير في تعريف الحل الذى ينتهى اليه . فمن قائل : ان دوستويفسكى قد صار الى المحافظة ، ومن قائل : بل انه عاد يتعاطف مع الثوريين ، ومن زاعم انه قد مضى الى أقصى التطرف القومى الروسى ، ومن زاعم انه ، على عكس ذلك ، قد فتنته أوروبا فتنكر لروسيا ، ومن مدع أنه قد ارتد الى أشد التعصب المسيحى الاورثوذكسى ، ومن مدع أنه على خلاف ذلك ما يزال يساوره الشك ، وينازعه الالحاد .

والواقع أن دوستويفسكى قد وصل من جهته الى حلول ، ولكن هذه الحلول مركبة لا بسيطة ، معقدة غير سهلة ، فان طبيعته كإنسان ، ووظيفته كروائى قد أملتنا عليه مجتمعتين أن يعرض لناقشة المشكلات أكثر من أن يخلص الى حلها . فما هى تلك المشكلات التى يثيرها دوستويفسكى ، أو ثور في نفس دوستويفسكى ؟

في قمة هذه المشكلات تقع المشكلة الميتافيزيقية : « كيف يتفق مع وجود الله ، الرحيم القادر ، وجود الشر ؟ » . لقد كتب دوستويفسكى الى زوجته سنة ١٨٧٥ يقول ان سفر أيوب يمرضه : « اننى أقرأ فى هذا السفر ثم ادعه ، وآخذ أسير فى الغرفة وأنا أكاد أبكى . . ان هذا السفر ، يا آنيا ، فذ ، ولكنه واحد من الأسفار التى أثارت دهشتى منذ أن كنت طفلا صغيرا . . » . وان الشر الاخلاقى ، ان ارادة انشر لدى الانسان ، هى التى عذبتة خاصة . لقد فهم دوستويفسكى أكثر من أى إنسان آخر قوة الاتحاد الغربى الحديث الذى لا يجحد الله فحسب ، بل يجحد الخليفة أيضا ، ويكفر بعله وجود العالم والحياة . لذلك نرى دوستويفسكى ، حين يتناول النقاد الليبراليون كتابه «الاخوة كارامازوف» ، فيقولون عن ايمانه بالله انه «رجعة» ، نرى دوستويفسكى يثور عندئذ ويهتف مستاء : « لا ، اننى لم أومن بالله ولم اعترف به كما يفعل طفل ، وانما أنا وصلت الى

هذا الايمان صاعدا من الشك والالحاد بمشقة كبيرة وعذاب اليم» • ليس
ايمان دوستويفسكى ايمان العجائز •

والمشكلة الثانية هي مشكلة الانسان : الانسان سر • ان للانسان
طبيعته السوية : « ان جميع البشر ، حتى الأوغاد منهم ، هم فى أكثر
الحالات ، أسدج وأبسط مما نتصور حين ننظر الى أفعالهم » • ولكن
هذه الطبيعة يمكن أن تفتح لقوى لا سبيل الى مغالبتها ، تأتي من أسفل
أو تهبط من أعلى • فالشر يتشبه بالانسان ويلتهمه التهاما «كحشرة» ،
«كعنكبوت» كرية ، « كرتيلاء » قاتلة اللدغ • ولهذا الشر صور شتى
مختلفة : هو الشهوانية ، والأناية ، والبخل ، والرغبة فى السيطرة ،
والحاجة الى تعذيب الآخرين والى تعذيب النفس أيضا ، ولو «لجرد القيام
بدور غير متوقع» • ولكن هذه الاندفاعات التى تأتي من غياهب « القبو »
تقابلها نداءات سماوية هى الثفانى ، والندامة ، والتوبة ، والحب ، وأحلام
ملهمة ، وبصيرة نافذة ، ووجد ونشوة • « ان الانسان واسع ، واسع سعة
رهيبه » • هو فى حجم الكون بأسره • روحه ميدان قتال «يصطرح فيه الاله
والشيطان» • ذلكم هو الاعتقاد الذى انتهى اليه دوستويفسكى بعد تجربة
السجن وخبرة الحياة ، غائضا فى قرارة النفس ، نفس الآخرين ، ونفسه
هو •••

وهنا تطرح مشكلة العلاقات بين هؤلاء البشر بعضهم وبعض ، ومشكلة
العلاقات بينهم وبين الله • ما قيمة المجتمع ؟ ان المجتمع يقوم على العدالة •
ولكن دوستويفسكى قد بلا عدالة البشر فى ذات نفسه ، وخبر نتائجها
فيما حوله • لقد درس دوستويفسكى أساليب القضاء ، وشهد محاكمات ،
وتحدث مع قضاة ، وتساءل عن العدالة قلقا ، فانتهى الى أن العدالة لا سلطان
لها على الانسان • هى تفصل المجرم عن المجتمع ، وتلقى فى نفسه اليأس ،
ولكنها لا تشفيه • انها خلو من الروح الانسانية • ولا قيمة الا للنفس ،
والدين وحده يقيم للنفس وزنا ، الدين وحده يحسب حساب النفس •
ليت الدولة تستطيع أن تصبح مسيحية ، ليتها تستطيع أن تنصهر فى
الكنيسة ، ليت المجتمع الذى يشبه أن يكون الآن وثنيا يستحيل الى
كنيسة ، الى كنيسة واحدة ، عامة ، شاملة ، مهيمنة ••• ولكن الكنيسة
فى الغرب ، فى أوروبا ، قد انتزعت من الانسان حريته لتحقيق سعادته ،
كما أن الاشتراكية تريد أن تقوم على أنقاض الدين ، تريد أن تكون ملحدة
لتحقق للانسان رخاءه ورفاهيته • ان النظم الاجتماعية التى تتصارع فى

أذهان الناس تشتمل كلها على مضیعة للانسان : تستوى فى ذلك الرأسمالية البورجوازية ، والاشتراكية المادية الالحادية . أفلا يمكن أن يتحقق نظام تتعاقب فيه الاشتراكية والمسيحية ؟ ان الابطال الحقيقيين فى نظر دوستويفسكى هم أولئك الذين « يؤمنون بالله والمسيحية ، ولكنهم فى الوقت نفسه اشتراكيون » ، ولعل روسيا مهیأة لان تجيء بحل ، لان الشعب الروسى لا يزال مؤمنا بالله ، كما أن الكنيسة الارثوذكسية لم تخضع لاغراء السلطة والحكم . تلك كانت أمنيات دوستويفسكى ونبوءاته . أكان رجعيا فى تفكيره ؟ أكان أعمى فيما تنبأ به ؟ ربما ! ولكن دوستويفسكى كان اشتراكيا على طريقته ، ويظل حقا أن المشكلات التى عذبت له تكن عبثا ، وربما ظل الانسان يطرحها أبد الدهر .

مهما يكن من أمر ، فتلك هى الآراء التى أراد دوستويفسكى أن يعبر عنها ، فأخذ يبحث لها عن اطار روائى . وسرعان ما وافاه ذلك الاطار الروائى : أسرة يمثل أبنائها الاتجاهات المختلفة التى يمكن أن تتجهها الشببية فى المجتمع الروسى . تلك هى أسرة كارامازوف . ان أبناء هذه الأسرة ، «الاخوة كارامازوف» ، يحملون عيوباً وراثية ، ولكن امكانيات جديدة تنضم الى تلك العيوب الوراثية . فأما أحدهم فهو شاب مثقف متحفظ ، فى نفسه بذور أخلاقية (انه نائر على وجود الشر) ، ولكن نزعتة العقلية هى قوة دمار وفناء : « اذا لم يوجد الله ، فكل شىء مباح » ، «أنا لم أستطع أن أفهم يوما كيف يمكن أن يحب الانسان قريبه» . ذلكم هو ايفان الذى سيجن . وأما الثانى فهو رجل متدفق الحيوية ثرثار ماجن ، ولكنه كريم طيب القلب ، ليس بذى ادعاء فكرى ، نفسه منفتحة للعواطف الخيرة وللتطهر بالالم ، ولكن ذلك لا يوقيه من الانكسار والانحدار . ذلكم هو دمترى الذى سيتهم بقتل أبيه ظلما . وأما الثالث فهو فتى سليم الفطرة بسيط الفكر طاهر القلب ، يسير فى الطريق القويم ، وينذر حياته لحب البشر وخدمة الناس والولاء للكنيسة . انه ، فى نظر دوستويفسكى ، الحياة والمستقبل . ذلكم هو أليوشا ، أصغر الاخوة كارامازوف .

قال أحد النقاد : « يبدو أن دوستويفسكى قد أراد أن يعبر فى الاخوة الثلاثة عن الجوانب الثلاثة لشخصه ، وعن المراحل الثلاث لحياته : فأما دمترى الشيلبرى فهو يصور المرحلة الرومانسية التى انتهت بدخوله

السجن ، واما ايغان فهو يمثل السنين التي أوشك فيها أن يستعيز عن الايمان الدينى بالاشتراكية الملحدة ، واما اليوشا فهو خاتمة المطاف ، هو العودة الى الشعب الروسى والى الارثوذكسية .

مهما يكن من أمر ، فان دوستويفسكى قد أعطانا فى « الاخوة كارامازوف » خلاصة أدبه وفكره . ففى هذه الرواية نجد التعارض الذى رأيناه فى رواية « المراهق » بين الاب والابن ، ونجد الصراع الذى رأيناه فى « الجن » بين الالحاد والقداسة ، ونجد هيكل ما رأيناه فى رواية « الأهل » من شخوص ومن تنافس بين غريمين : لقد كان اسم اليوشا فى مسودة « الاخوة كارامازوف » هو « الأهل » ، وجروشنىكا فى « الاخوة كارامازوف » تذكر بآناستازيا بطلة « الأهل » ، وايغان يذكر براسكولينكوف « الجريمة والعقاب » . وسمردياكوف يذكر بشخصية فوما فومتش فى « قرية ستيبانتشيكوف » . والمشكلة التى تطرح فى حلم « المفتش الكبير » قائمة بذورها فى قصة « الجارة » التى كتبها دوستويفسكى فى شبابه . ان « الاخوة كارامازوف » هى عالم دوستويفسكى كله مصغرا . ولكن صورة هذا العالم الآن تملك من الشفافية والوضوح وقوة البناء الفنى وتملك حتى من جمال الاسلوب ، مالم يصل اليه دوستويفسكى فى أى اثر من آثاره قبل ذلك . أما الاغوار التى هبط اليها فهى الاغوار نفسها ، وما أعمقها !

ولقد شعر دوستويفسكى بسعادة كبيرة حين فرغ من « الاخوة كارامازوف » ، وقد كتب يقول عندئذ : « أريد أن أحيأ وأن أكتب عشرين سنة أخرى » . كان ذلك فى ٨ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٨٠ ، ومات دوستويفسكى فى ٢٨ كانون الثانى (يناير) ١٨٨١ .

« **الآخوة كارامازوف** » (BRATIA KARAMAZOVY)
نشرت هذه الرواية فصولا في مجلة « **الرسول الروسي** »
سنتي ١٨٧٩ و ١٨٨٠ ، ثم صدرت أولى طبعتها
المتقلة سنة ١٨٨٠

الإخوة كارامازوف

١٨٨٠ - ١٨٧٩

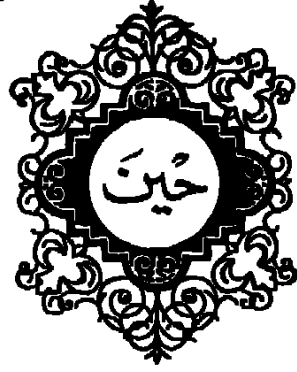
إهداء

إلى آباءنا جميعاً وبناتنا وبناتنا

« الحق الحق أقول لكم : ان لم تقع حبة الحنطة في
الارض وتمت فهي تبقى وحدها ، ولكن ان مانت تأتي
بثمر كثير » (*)

(انجيل يوحنا ، الاصحاح الثاني عشر ، ٢٤)

إلى القارئ



أشرع في قص حياة بطل ، ألكسى فيدوروفتش كارامازوف ، أشعر بشيء من الارتباك ، وهو ارتباك له ما يبرره له : اننى أسمى ألكسى فيدوروفتش هنا باسم البطل ، وأنا أعرف حق المعرفة أنه رجل عادى لا يمتاز بشيء ، وليس فيه من العظمة كثير ولا قليل ، لذلك أتوقع أن تجيء الأسئلة التى لا بد أن تطرح علىّ ، من هذا القبيل : « ماذا فى صاحبك ألكسى فيدوروفتش هذا من أمر فذ ، حتى اتخذته بطلاً ؟ ما الذى قام به من أعمال نادرة ؟ بماذا أصبح ذائع الصيت ، وأين ؟ ولماذا يجب علىّ أنا القارئ أن أضيع وقتى فى قراءة ما حفلت به حياته من أحداث وحرركات ؟ » •

وهذا السؤال الأخير هو الذى يُربكنى أكثر من سائر الأسئلة ، هو الذى يقلقنى أكثر من سائر الأسئلة ، لأننى لا أستطيع أن أجيب عليه بغير قولى « اقرأوا الرواية ، فلربما تفهمون » • وما عسى أن يكون موقفى اذا قرأ القارئ الرواية ، فلم يوافقنى على رأى ، ولم يشأ أن يسلم بأن صاحبي ألكسى فيدوروفتش شخصية فذة ؟ اننى مضطر الى أن أتساءل هذا التساؤل ، لأننى أتوقع ، على كثير من الأسف ، أن الأمر سيكون كذلك • فهذا الرجل يبدو لى فذاً ، ولكننى أشك أقوى الشك فى أن أصل الى اقناع القارئ بذلك • بل اننى لأراه بطلاً فعلاً ،

بمعنى من المعانى ، رغم أن فعله يظل غامضاً ، يصعب تحديده . وهل فى وسع المرء ، على كل حال ، أن يطلب الى الناس أن يكون سلوكهم واضحاً مفهومًا فى عصرٍ كهذا العصر الذى نعيش فيه ؟ على أن هناك أمراً يبدو ثابتاً ، هو أن هذا الرجل غريب ، شاذ ! والغرابة والشذوذ تسيئان الى السمعة أكثر مما تدفعان الى العطف والاهتمام ؛ وخاصة فى عصر يجهد فيه الناس أن يوحّدوا ما اختلف ، وأن يسدّدوا ما نشز ، التماساً لشيء من الوضوح والفهم فى هذه الفوضى العامة الشاملة . والشذوذ ، فى أغلب الأحيان ، سبيل الى التميز ، والتفرد . أليس كذلك ؟

مهما يكن من أمر ! اذا كنتم لا توافقون على هذا الرأى الأخير كل الموافقة ، واذا كنتم تحييون بأن « الأمر ليس كذلك » ، أو بأنه « ليس كذلك دائماً » ، فقد يردُّ الىّ هذا شيئاً من الثقة ببطلى ألكسى فيدوروفتش . لأن الانسان الشاذ ليس حتماً - ليس دائماً - ذلك الذى يتعد عن القاعدة ؛ حتى لقد يتفق ، خلافاً لهذا ، أن يحمل فى ذاته حقيقة عصره ، بينما يكون الناس ، جميع الناس ، من معاصريه ، قد ابتعدوا عن القاعدة الى حين ، كأنما دفعتهم عنها ريح هبت عليهم على حين فجأة

كان فى وسعى ، على كل حال ، أن أستغنى عن محاولة هذه التعليقات المربكة التى ليس لها قيمة ، وأن أدخل فى الموضوع رأساً بلا مقدمات : فاذا حظيت قصتى برضى القارىء ، قرأها دون ما حاجة الى هذا التمهد ؛ ولكن مصيبتى فى الأمر أتى أعرض تاريخ حياة واحدة بعينها ، فى روايتين اثنتين مستقلتين ، الثانية منهما أخطر شأنًا من الأولى ، لأننى أقصُّ فيها أعمال بطلى فى العصر الذى نعيش فيه ، فى الأيام التى نجتازها . أما الأولى فقد جرت أحداثها منذ ثلاثة عشر عاما ، وليست فى

حقيقة الأمر رواية ، وانما هي فصل بسيط يصور حياة بطلي في صدر شبابه . وكان يستحيل على أن أعدل عن هذه القصة الأولى ، ولو فعلت ، لاستحال فهم الأمور في الرواية الثانية . وهذا ما يفاقم حيرتى الأولى كثيراً : اذا كانت رواية واحدة تبدو لى ، أنا الذى أكتبها ، كثيرة على حياة بطل بلغ هذا المبلغ من الغموض والابهام ، فكيف أستطيع أن أتقدم الى الناس بروايتين اثنتين ؟ كيف أبرر لهم مثل هذا الادعاء العريض ؟

أشعر بأن الجهود التى أبذلها للإجابة على هذه الأسئلة تضيعنى ، لذلك أعدل عدولاً حاسماً عن محاولة أى تحليل . وواضح أن القارئ الذى أوتى نفاذ البصيرة قد أدرك دفعةً واحدة ما أهدف اليه من وراء ذلك ، وفهم أننى لم أزد على أن التمسست لنفسى العذر عن ذلك العدول ، ولا أشك فى أن تضييعى الوقت الثمين فى كلام لا طائل تحته قد أحققه . ولكن جوابى على هذه النقطة الأخيرة مائل فى ذهنى . لقد استرسلت فى كلام عقيم ، وأضعت فى ذلك لحظات ثمينة ، لسببين اثنين : أولهما اللياقة ، وثانيهما المكر . « وبهذا ألفت نظر القارئ الى ضرورة الحذر ، فى أقل تقدير » . ثم اننى لا يسوءنى كثيراً أن روايتى تنقسم قسمين ، مع الاحتفاظ بما فى « مجموعها من وحدة أساسية » . ان القارئ يستطيع ، بعد قراءة القصة الأولى ، أن يعرف بنفسه هل ينبغى له أن يحمّل نفسه عناء قراءة الثانية . وواضح أن لكل انسان حريته فى هذا كله ، بل ان فى وسع المرء أن يرمى الكتاب منذ قراءة الصفحات الأولى ، وأن يعقد النية على أن لا يعود اليه أبداً . على أن هنالك قراءً أوتوا حظاً من الرهافة ، فهم يريدون أن يمضوا فى قراءة الكتاب الى آخره ، مهما يكلفهم هذا

من عناء ، وذلك من أجل أن يستطيعوا الخلوص الى رأى يتصف بالحياة ، ويتفادى الزلل • وهذا هو شأن النقاد الرومن عامة ، على وجه التخصيص • واليهن انما أرتاح الآن : لقد قدمت لهم ، رغم ما يتصفون به من قوة الوجدان ومن الحرص على الدقة ، حجة مشروعة للتوقف عن القراءة عند الفصل الأول •

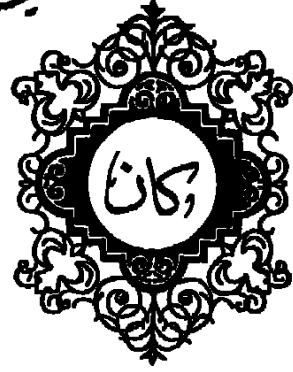
- هذه اذن مقدمتى • وانى لأعترف بأنها زائدة لا محل لها •
- ولكننى كتبتها ، ومن أجل ذلك أحتفظ بها • لا بأس •
- ولنتقل الآن الى الموضوع •

أجزء الأول

الباب الأول: قصة السيدة الصغيرة طيبة

١

فيدور بافلوفتش كارامازوف



ألكسى فيدوروفتش كارامازوف الابن الثالث
لمالك الأطيان فيدور بافلوفتش كارامازوف* الذي
اشتهر جداً في مقاطعتنا ، وأحدثت نهايته
الفاجعة التي ظلت بلا تفسير ووقعت منذ
ثلاثة عشر عاماً على وجه الدقة* ، ضجة كبيرة في الماضي (وما يزال الناس
يتحدثون عنها الى يومنا هذا) سأروي قصة نهايته تلك متى آن
الأوان ، وسأقتصر مؤقتاً على الاشارة الى أن هذا « البوميستشيك » (كما
كان يسمى عندنا ، رغم أنه لم يكد يعيش أبداً في أراضيه) كان انساناً
عجيباً . انه ينتمى الى ذلك النوع من الأفراد الشاذين - وهو نوع منتشر
انتشاراً كافياً والحق يقال - الذين يجمعون بين طبيعة سيئة رديئة منحنطة
وبين قدر كبير من السخف ، ولكن سخفهم سخف خاص ، فهم يعرفون
حق المعرفة كيف يصرفون أعمالهم المادية الصغيرة وليس فيهم من قلة
العقل الا المظهر . من ذلك أن فيدور بافلوفتش هذا قد بدأ من الصفر
ان صح التعبير . لقد كان مالكا صغيرا جدا ، يعيش على موائد الناس ،
يأكل تارةً عند هذا وتارة عند ذاك ، ويحيا حياة انسان طفيل تماماً ؛
ولكن وُجِدت عنده ، حين مات ، ثروة ضخمة تبلغ مائة ألف روبل عدداً
ونقداً . هذا لا ينفي أنه كان بين سكان منطقتنا من أكثرهم شذوذاً

وغرابة • أعود فأكرر أن شذوذه لم يكن هو الغباوة ، فان أكثر هؤلاء الشاذين لا يعوزهم الذكاء ولا يعوزهم الدهاء والمكر ، وانما الأمر أمر سخف ، سخف خاص ، سخف وطنى ان صح التعبير •

لقد تزوج هذا الرجل مرتين وأنجب ثلاثة أبناء ، فأما الأكبر فهو دمترى فيدوروفتش الذى ولد له من زواجه الأول ، وأما الآخران فهما ايفان والكسى اللذين ولدا له من زواجه الثانى • كانت امرأته الأولى من أسرة ميوسوف الغنية العريقة فى نبالتها التى كان أفرادها ملاكين أيضا فى مقاطعتنا • فاذا سألتنى كيف أمكن لفتاة تملك بائنة كبيرة بل وتتمتع بالجمال وتنعم الى ذلك بذكاء متفوق - ذكاء من هذا الذكاء الذى نلقاه كثيرا بين نساء جيلنا ولكنه لم يكن نادرا كذلك فى الماضى - أقول اذا سألتنى كيف أمكن لفتاة هذه مزاياها أن تتزوج « طرْحاً » نافهاً هذه التفاهة (كذلك يلعبه جميع الناس) قلت ان هذا أمر لا أحب أن أحاول تعليله وتفسيره • لقد أتبع لى أن أعرف على كل حال فتاة - هى من الجيل القديم الرومانسى - ظلت خلال سنين طويلة هائمة هياما عجيبا بحب رجل كان فى وسعها أن تتزوجه بسهولة كبيرة ، ولكنها مع ذلك انتهت الى أن تتخيل بنفسها جميع العوائق والعقبات الكأداء التى تحول بينها وبين تحقيق سعادتها ، فاذا هى فى ذات ليلة عاصفة ترمى نفسها من أعلى شاطيء وعمر يشبه أن يكون جُرْفاً ، واذا هى تقضى نحبها على هذه الصورة ضحيةً لنزواتها الخاصة ، دون أن يكون لها هدف الا أن تشبه أوفيليا بطلة شكسبير ؛ حتى أن فى وسع المرء أن يتصور أنه لو كان هذا الجرف الذى اختارته منذ زمن طويل متحمسةً له أشد التحمس ، لو كان أقل جمالاً وروعة ، ولو كان فى مكانه شاطيء منبسط عادى مبتذل ، اذن لأمكن أن لا يقع حادث الانتحار هذا • هذه قصة واقعية صادقة ، وهنالك من الدلائل ما يبيح لنا أن نعتقد



فيكتور بافلوفتش كارامازوف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفنا

بأن الأعمال التي من هذا النوع كانت كثيرة في حياتنا الروسية منذ جيلين أو ثلاثة أجيال . فعمل زواج آديلايد ايفانوفنا ميوسوفا قد كان هو أيضا ثمرة مؤثرات غريبة وخيال جامع ؛ لعلها أرادت بذلك أن تؤكد استقلالها النسوي ، وأن تخرق الأحكام الاجتماعية السائدة ، وأن تتحرر من طغيان أسرتها وتسلط أقرباتها . لعل خيالا طبيعياً قد أفتعها ، ولو خلال لحظة قصيرة ، بأن فيدور بافلوفتش ، رغم ما استقر في أذهان الناس عنه من أنه انسان طفيلي ، هو واحد من أشجع الرجال وأطرفهم في عصر التقدم هذا الذي يصارع أخطاء الماضي ، على حين أن الرجل لم يكن في حقيقة الأمر الا مهرجاً شريراً حقيراً لا أكثر من ذلك . وقد أضيف الى هذا أمر يؤثر في النفس ويلهب الخيال هو أن الزواج قد سبقه اختطاف ، فذلك ما سحر آديلايد ايفانوفنا وقتها عن نفسها . أما فيدور بافلوفتش فقد كان متهيئاً تهيؤاً خاصاً ، بحكم وضعه الاجتماعي ، لحل من هذا النوع ، لأنه كان يتمنى بكثير من الحماسة والحرارة في ذلك الوقت أن تعرض له فرصة نجاح في الحياة ، بأية وسيلة من الوسائل . فلا شك أن التسلك الى أسرة ممتازة والحصول على بائنة ضخمة كانا يغرياهن أيما اغراء . وأغلب الظن أن الحب لم يكن له أي شأن في هذا الزواج ، سواء من جهة الخطيبة ومن جهة الخطيب ، رغم ما كانت تنعم به آديلايد ايفانوفنا من جمال لا يُجحد ولعل ذلك كان حالة فريدة في حياة فيدور بافلوفتش الذي ظل طوال حياته انسانا تلتهب عواطف الحب عنده التهاباً شديداً ، لأنه بطبيعته شهواني يمكن أن يكلف في طرفة عين أي امرأة يقع عليها بصره ، شريطة أن يشجع . ومع ذلك كانت آديلايد ايفانوفنا المرأة الوحيدة التي لم تستر هواه ولا أضرمت عواطفه .

ولم تلبث آديلايد ايفانوفنا أن أدركت ، بعد الاختطاف رأساً ، أنها

لا تشعر نحو زوجها الا بالاحتقار . ولم تلبث عواقب مثل هذا الزواج في مثل هذه الظروف أن ظهرت . فرغم ان اسرة المرأة قد سارعت تدعن للأمر ولم ترفض أن تمهر الرجل بائة الهاربة ، فان حياة الزوجين سرعان ما أصبحت مضطربة عاصفة تتخللها المشاكل ولا تنقطع فيها المناقشات . وقد قيل ان المرأة عرفت كيف تبرهن في هذا الظرف على نبل ورفعة لم يبرهن على مثلها فيدور بافلووتش الذي استطاع ، كما نعرف اليوم ، أن يدبر أموره منذ البداية بحيث يأخذ منها ثروتها دفعة واحدة ، وهي ثروة تبلغ خمسة وعشرين ألف روبل ، فما كاد يقبض هذا المبلغ الضئيل حتى كانت الزوجة قد فقدت رأس مالها الى الأبد . أما القرية وأما المنزل الرخي الذي كانت تملكه في المدينة ، وهما جزء من البائة ، فقد ظل الرجل زمناً طويلاً يحاول بجميع الوسائل أن ينقلهما الى ملكيته بسند قانوني ، وكان يمكن أن يظفر بذلك حتماً لأن ما كانت تشعر به المرأة نحو زوجها من احتقار واشمئزاز ونفور بتوسلاته الوقحة التي لحياء فيها ، وبمطالباته المستمرة التي لا تنقطع ، كان قد حضّمها على أن تنازل له عن القرية والمنزل سأمًا وضجراً ورغبةً في التخلص منه ، لولا أن أسرة آديلايد ايفانوفنا قد تدخلت في الأمر في الوقت المناسب فوضعت حداً لهذه المكائد وحالت دون ذلك التبيد . وقد عُرِف من مصدر موثوق أن معارك حقيقية قد نشبت بين الزوجين ، وادعى بعضهم أن الغالب المنتصر في تلك المعارك لم يكن فيدور بافلووتش بل آديلايد ايفانوفنا ، المرأة السمراء ذات الطبع الحاد والارادة الجريئة والمزاج النزق والجسم القوى قوةً مدهشة . وقد انتهى الأمر بالزوجة الى هجر المنزل والفرار من عند فيدور بافلووتش مع طالب كان يعمل مربياً ويعيش في فقر مدقع وبؤس مهلك ، تاركةً لزوجها أمرَ الاهتمام بالصغير ميتيا الذي كان يومئذ في السنة الثالثة من عمره . وسرعان

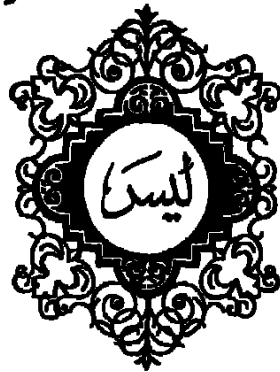
ما استغل فيدور بافلوفتش هذه الفرصة فأسكن في منزله نساءً من كل نوع ، وأخذ يتعاطى الشراب بغير رادع ولا قصد . وفي أثناء ذلك أخذ يطوف في أرجاء الاقليم متباكيا شاكيا من أن آديلاييد ايفانوفنا قد هجرته ، حاكيا شقاءة لجميع الناس . وكان وهو يفعل ذلك لا يتورع أن يقصَّ عن حياته الزوجية تفاصيل لا بد أن يحمر الزوج خجلاً من قصتها . وأغرب ما في الأمر أنه كان يجد نوعاً من اللذة في أن يمثل أمام الملاء هذا الدور المضحك ، دور الزوج الذي خاتته زوجته ؛ وكأنما كان يسره أن يكون وضعه هذا الوضع ، فهو يصف النازلة التي ألمت به مضيفاً إليها مزيئاً لها ، حتى لقد كان بعضهم يقول له في معرض السخر منه والتهكم عليه : « لكأنك يا فيدور بافلوفتش قد نلت ترقية أو ظفرت بترقيع ، فأنت تبدو مسروراً كل السرور رغم ألمك الشديد » . وزعم بعضهم أن فيدور بافلوفتش لم يسؤه أن تتيح له هذه المناسبة فرصة العودة الى تمثيل دور المهرج ، حتى لقد ألمع هؤلاء الى أنه يتظاهر عامداً بأنه لا يلاحظ ما في وضعه من أمور تبعث على الضحك ، وذلك من أجل أن يزيد ما يتصف به هذا الوضع من طابع هزلي مضحك . ومن يدري مع ذلك ؟ لعل جانباً من سذاجة كان له شيء من تأثير أيضاً ! وقد انتهى الرجل الى اكتشاف أثر امرأته الهاربة . لقد كانت المسكينة في بطرسبرج ، ذهبت اليها مع صاحبها الطالب ، وتحررت فيها تحرراً لا يخطر بالبال أن تتراجع عنه . اضطرب فيدور بافلوفتش لهذا النبأ اضطراباً شديداً ، وقرر على الفور أن يسافر الى بطرسبرج حتى دون أن يعرف هو نفسه الهدف الذي يسعى الى تحقيقه بهذا السفر . وكان يمكن فعلاً أن يسافر الى بطرسبرج لولا أنه حين اتخذ هذا القرار قد شعر أكثر من أي وقت مضى بأن من حقه أن يسكر سكرأ قوياً بغية أن يتشجع على القيام بهذه الرحلة .



ام اليوشا
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

وفيما كان يسكر هذا السكر علمت أسرة زوجته أن الشقية قد قضت نحبها • لقد توفيت المرأة فجأة في غرفة حقيرة تحت السطح من أحد المنازل ، فبعضهم يقول انها ماتت بمرض التيفوس وبعضهم يقول انها ماتت من البؤس والجوع اللذين هدماما تهديما • فلما تناهى هذا الخبر الحزين الى مسامع فيدور بافلوفتش كان في حالة سكر شديد ، فأخذ يركض في الشوارع زافعا ذراعيه الى السماء صائحا بأعلى صوته : «الآن حررت عبدك يا رب ! » ذلك ما رواه بعضهم ، ولكن في رواية أخرى أنه حين علم بالنبأ أخذ يتحبب انتحاب طفل صغير ، فاذا رآه الرائي أخذته به شفقة ، رغم ما يوقظه في النفس من اشمزاز وتقزز • وقد تكون الروايتان كلتاهما صحيحتين على كل حال ، فلعل الرجل قد اغتبط بما ظفر به من حرية ، ولكنه في الوقت نفسه بكى صادقا على تلك التي وهبت له هذه الحرية • ان في البشر - وحتى في أعتى المجرمين - من السذاجة والطيبة فوق ما قد تتخيل • وهذا يصدق علينا نحن أيضا •

كيف تخلص من ابنك الأول



من الصعب طبعا أن تتخيل كيف يتصور مثل هذا الرجل واجباته أباً ومربياً • لقد تصرف، من حيث هو أب ، التصرف الذي يجب أن نتوقعه منه : أى انه لم يعبا قط بالطفل الذى ولد له من آديلايد ايفانوفنا ، وأنه جهله جهلاً تاماً ، لا لأنه يضمّر للصغير كرهاً وعداوة ، ولا لأنه يحمل له حقداً وضحينة من حيث أنه زوج خاتمه امرأته ، بل لسبب بسيط جدا هو أنه قد نسى حتى وجود هذا الابن • وبينما كان الأب يزعج الناس بشكاواه ، ويصدّع رموسهم بنديه حظه العائر ، مع اتخاذ منزلة مكانا للفسق والمهر والفجر فى الوقت نفسه، فان خادما وفيا أمينا اسمه جريجورى قد حنا على الصغير ميتيا* الذى كان عمره عندئذ ثلاث سنين ، وضمّه اليه وعنى به، فلولا أن هذا الجادم قد تولى أمر الصبى لما وُجد من يهتم به ، ولما نهياً له قميص يُستبدل بقميص • زد على ذلك أن أسرة أم ميتيا قد بدا أنها نسيت الصبى هى أيضا فى الآونة الأولى • كان جدُّ الصبى ، وهو الشيخ ميوسوف ، أبو آديلايد ايفانوفنا ، قد بارح هذا العالم الى العالم الآخر ؟ وكانت أرملة ،

جدة الصبي، التي انتقلت الى موسكو، تعاني من آلام المرض ما لم يتح لها أن تتدخل في الأمر . أما أخوات آديلايد ايفانوفنا فكن قد تزوجن . فكذاك لبث الصبي ميتاً سنة كاملة مقيماً مع الخادم جزيجورى فى كوخ يسكنه فى آخر فناء المنزل . وأغلب الظن أن الأب لو تذكر ابنه فى مناسبة من المناسبات (وهو لا يمكن أن يجهل أن له ابناً على كل حال) لأسرع يطرده الى ذلك الكوخ ، حتى لا يكون الصبي عقبةً فى طريق عهده وفسقه وفجوره . ولكن حدث أن أحد أبناء عمومة المتوفاة آديلايد ايفانوفنا ، واسمه بطرس الكسندروفتش ميوسوف ، قد رجع فى ذلك الأوان من باريس . ان بطرس هذا ، الذى سيعيش فى المستقبل سنين طويلة خارج روسيا ، كان عندئذ شاباً فى شرح الشباب ، وكان رجلاً من نوع خاص يختلف كل الاختلاف عن أفراد أسرة ميوسوف : لقد نشأ وترعرع وتربى فى العواصم الكبرى ، وأحاله اقاماته فى الخارج رجلاً غريباً ، فكان أوروبياً الى أن أصبح فى أواخر حياته لبرالياً على طراز ١٨٤٠ - ١٨٥٠ ؛ وكان على صلة بأكثر المفكرين لبرالية وأشدهم تطرفاً فى زمانه ، سواء فى روسيا وفى خارج روسيا ، حتى لقد عرف برودون وباكونين* معرفة شخصية . فلما بلغ خاتمة المطاف من تجواله وترحاله كان يحلو له كثيراً أن يستحضر ذكرى مشاعره أثناء الأيام الثلاثة الأولى من ثورة شباط (فبراير) ١٨٤٨ التى قامت فى باريس ، وكان يحلو له كثيراً أن يفهم سامعيه فى هذه المناسبة أنه أوشك أن يشارك فى تلك الثورة ، حتى لقد وجد نفسه فوق المتاريس . كان هذا الرجل يملك ثروة مستقلة يمكن أن تقدر فى ذلك العصر بألف نفس* . وكانت أراضيها العظيمة تقع على مقربة من مدينتنا الصغيرة وتناخم أراضي ديرنا الشهير الذى أقام عليه ميوسوف منذ صدر شبابه ، أى بعد أن آلت اليه هذه الأراضي فوراً ، قضيةً طال أمدها فما تنتهى . والقضية تتعلق

بحقوق الصيد في النهر أو حقوق قطع الأشجار في الغابات ، أو غير ذلك مما لم أذكره ، وهي قضية تافهة في ذاتها ، ولكن صاحبنا قدّر أن من واجبه كمواطن صالح و انسان متوّر أن يقاضى « اكليركين » . فلما علم بمصير آديلايد ايفانوفنا التي لا شك أنه كان يتذكرها حتى لقد لاحظها في الماضي ، ولما علم بوجود الطفل الصغير قرر أن يتدخل في الأمر رغم ما كان يحمله لفيدور بافلوفتش من احتقار ، ورغم ما كان يحسه ازاء سلوكه من شعور الاستياء والاستنكار ، وهو شعور طبيعي في شاب . ففي هذه الظروف انما التقى لأول مرة بفيدور بافلوفتش فأبلغه صراحةً بغير لف ولا دوران أن في نيته أن يأخذ على عاتقه تربية الصبي . وقد روى فيما بعد ، خلال سنين طويلة ، كأنما ليرز أخلاق فيدور بافلوفتش ، أن فيدور بافلوفتش هذا ، حين سمع كلامه ، بدا عليه في أول الأمر أنه لا يفهم أيّ صبيّ يعنى ، وظهر عليه الاندهاش من أن يكون له ابن يسكن في مكانٍ ما من المنزل . وهبنا سلمنا بأن فيما رواه بطرس الكسندروفتش شيئاً من غلو ومبالغة ، فمما لا شك فيه أنه لم يبتعد عن الحقيقة كثيراً . فمن الحقائق الثابتة أن فيدور بافلوفتش كان طوال حياته يحب أن يمثل وأن يظهر على حين فجأة في دور ليس متوقفاً ، دون أن يكون هنالك داع الى ذلك ، ودون أن يجنى من ذلك نفعاً ، بل ربما لحقه منه ضرر في كثير من الأحيان . وتلك صفة تقع عليها لدى كثير من الناس قد يكونون على جانب عظيم من الذكاء ، فليست وفقاً على فيدور بافلوفتش وحده وليست خاصة به دون سواه . وصرف بطرس الكسندروفتش الأمور بهمة وحزم وحماسة ، فعيّن آخر الأمر وصياً على الطفل (بالاشتراك مع فيدور بافلوفتش) ، لأن هناك بقية من ميراث خلفته الأم هو منزل وأرض صغيرة . هكذا مضى ميتياً يعيش في منزل ابن عم أمه ، الذي لم يكن له أسرة فأسرع يعود الى باريس فيقيم

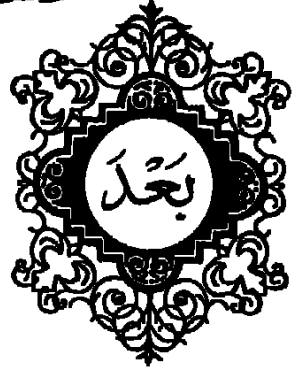
فيها اقامة طويلة بعد أن رتب أموره وتقاضى ريع أراضيه ، وعهد بالصبي الى احدى بنات أعمامه وهي سيدة من موسكو . وانتهى به الأمر ، أثناء حياته الباريسية الطويلة ، الى أن ينسى الصبي هو أيضا ، ولا سيما بعد ثورة شباط (فبراير) تلك الشهيرة التي أثرت في خياله تأثيراً كبيراً حتى أصبح فكره مشدودا اليها فلا فكاك له منها . وماتت السيدة الموسكوفية ، فانتقل الصبي الى منزل احدى بناتها المتزوجات . ويظهر أنه غير عثره بعد ذلك مرةً رابعةً ، ولكنني لا أريد أن أفيض في ذكر هذه التفاصيل الآن ، لا سيما وأنتى سأحدث كثيرا عن هذا الابن الأول من أبناء فيدور بافلوفتش ، وحسبى أن أسوق بعض الاشارات التي لا غنى عنها ، والتي بدونها يستحيل على أن أشرع في قصّ هذه الرواية .

فأقول قبل كل شيء أن دمترى فيدوروفتش هذا قد شبّ على الاعتقاد ، رغم أن لأبيه فيدور بافلوفتش ثلاثة أبناء ، بأنه يملك ثروة ضخمة سيؤول اليه أكثرها فيكفل له الاستقلال . وقد قضى مراهقته والسنين الأولى من شبابه حياةً مضطربة . لم يتم سنى دراسته في الكوليج ، ثم دخل مدرسة عسكرية ، وأرسل بعد ذلك الى القفقاس ، ونال هنالك ترقية . ولكنه تورط في مبارزة ، فجرّد من رتبته ، ثم استرد شاراته ، ثم راح يلهو ويقصف ، فبدد مبالغ لا بأس بها ومع ذلك فانه لم يبدأ بتلقى أموال من أبيه فيدور بافلوفتش الا حين بلغ مبلغ الرجال ، أما قبل ذلك فقد كان يعيش على ديون يتراكم بعضها فوق بعض . ولم يرّ أباه لأول مرة منذ تركه في طفولته ، ولم يعرفه ان صح التعبير ، الا بعد بلوغه سن الرشد بقليل ، وذلك حين جاء الى مدينتنا يناقش أباه في أمر ميراثه . ويظهر أنه نفر من أبيه دفعةً واحدة ، فلم يمكث عنده الا زمنا قصيرا ، ثم قفل واجما بعد أن حصل منه على مبلغ

من المال ، وأبرم مع أبيه اتفاقا غامضا على أن يرسل اليه أبوه ريع أرضه تباعا ، دون أن يستطيع حمل أبيه على أن يعين له قيمة الأرض وايرادها (هذه نقطة يجب أن تظل ماثلة في أذهاننا) • وقد أدرك فيدور بافلوفتش في تلك اللحظة ، ومنذ سمع الكلمات الأولى التي قالها ابنه (وهذه أيضا نقطة يجب أن نسجلها) أن الفكرة القائمة في ذهن ميتيا عن ثروته فكرة مغالية • وسرَّ الأب بذلك سرورا عظيما ، لأنه بيَّت أمورا تحقق له مصالحة • لقد لاحظ أن الفتى خفيف طائش مندفع تسيطر عليه أهواؤه الجامحة ، وتتحكم فيه رغباته العنيفة ، وأنه نافذ الصبر متعجل ، وانه الى ذلك يحب اللهو والقصف • فاستتج من ذلك ببساطة أن الشيء الذي يهم هذا الفتى خاصة هو أن يحصل على بعض المال لاشباع حاجاته المباشرة ، فمتى تحقق له ذلك هداً فوراً ، ولو الى حين طبعاً • أدرك فيدور بافلوفتش الفائدة التي يمكن أن يجنيها من هذه الصفة التي يتصف بها طبع ابنه ، وجنى هذه الفائدة فعلاً ، فكان يتحرر من مطالب ابنه بدفقات زهيدة من المال يرسلها اليه متقطعةً من حين الى حين • حتى اذا نفذ صبر ميتيا أخيراً ، عاد الى مدينتنا بعد أربع سنين ، ليسوتى قضية الميراث هذه تسوية نهائية مع أبيه ، فما كان أشد دهشته حين عرف أنه أصبح لا يملك شيئاً البتة ، فقد قبض بتلك الدفعات المتعاقبة مبالغ يصعب تحديدها على وجه الدقة ، ولكنها تتجاوز قيمة الأرض الموروثة على كل حال ، فهو المدين لأبيه الآن ، وليس أبوه مديناً له بشيء ؛ وما كان أشد دهشته حين عرف أنه بحكم الاتفاق الذي أبرمه مع أبيه أصبح لا يحق له أن يطالب بشيء البتة ! النخ النخ ••• صعق الفتى ، وأحس بأنه خُدع وغرَّر به ، وشعر بأن أباه يكذب عليه ، فثارت نائرتة حتى بدا كمن طاش لبه وذهب صوابه وجن عقله • تلكم هي الوقائع التي أدت الى

الكارثة .. الكارثة التي تتألف من سرد قصتها روايتي الأولى التمهيديّة،
أو قل يتألف من سرد قصتها البناء الخارجى لتلك الرواية . ومع ذلك
ينبغي لى قبل أن أعالج الرواية أن أتكلم عن ابني فيسندور بافلوفتش
الأخرين ، ينبغي لى أن أتكلم عن أخوى ميتيا ، وأن أذكر كيف جاء الى
هذه الحياة الدنيا .

الزواج الثاني ولينا الفزاش الثاني



أن تخلص فيدور بافلوفتش من ابنه ميتيا
ولمّا يكّد يبلغ الرابعة من عمره ، لم يلبث أن
تزوج مرةً أخرى • وقد دام زواجه الثاني
هذا زهاء ثمانى سنين • وكانت امرأته الجديدة،
صوفيا ايفانوفنا ، فى هذه المرة أيضا ، شابة فى ريعان الصبا ، من اقليم
مجاور ذهب اليه فيدور بافلوفتش فى صحبة يهودى صغير خقير من أجل
قضية تتعلق بشراء أرض • ذلك أن فيدور بافلوفتش ، على استرساله
فى اللهو والقصف والشراب والمجون والفسق ، لم ينقطع أثناء ذلك أبدا
عن الاهتمام باستثمار رموس أمواله، وقد عرف دائما كيف يصرّف شئونه
الصغيرة تصريفا فيه حكمة وتدبر ، ولكن بشيء من النذالة والغش فى
كثير من الأحيان كما يتوقع ذلك من مثله • وكانت صوفيا ايفانوفنا فتاة
يتيمة لم تعرف أسرتها يوما • انها ابنة شماس مغمور ، نشأت وترعرعت
فى منزل ارستقراطى ثرى هو منزل زوجة الجنرال فوردخوف ، التى
كانت تراقبها بعين يقظى ساهرة فهى تحسن اليها وتربيتها وتضطهدها فى
آن واحد • لست أعرف جميع التفاصيل ولكننى سمعت من يروى أن
هذه البنت الصغيرة التى كانت تعيش فى كنف الجنرالة وكانت مخلوقة
مسكينة عذبة دثة ، قد وُجدت ذات يوم تحاول أن تشنق نفسها بمسمار

فى شونة ، من فرط ما ضاقت بقسوة الفورات المستمرة والنزوات المتصلة
تصبها على رأسها هذه العجوز التى كانت فى الظاهر شريرة ، ولكنها
كانت فى حقيقة الأمر امرأةً جعلها الفراغ متسلطة تسلطاً لا يطاق ،
مستبدة استبدادا أحرق لا يحتمل . وقد خطب فيدور بافلوفتش الفتاة
فسألوا عنه ، فرفضوه . فما كان منه الا أن فعل ما سبق أن فعله فى المرة
الأولى ، فعرض عليها أن يختطفها . وأغلب الظن بل الأرجح أنها
ما كانت لتوافق على الهروب معه لو عرفت تفاصيل حياته خيراً مما عرفتھا.
ولكن السمعة السيئة التى نالها فيدور بافلوفتش لم تكن قد تجاوزت
حدود اقليمنا الى الاقاليم الأخرى ، وكانت الفتاة المسكينة لا تعرف الا
شيئاً واحداً هى أن وجودها فى قاع نهر من الأنهار خير من بقائها فى
منزل هذه السيدة المحسنة اليها . هكذا غادرت الشقية بيت محسنة الى
بيت محسن . ولم يقبض فيدور بافلوفتش فى هذه المرة قرشاً واحداً ،
لأن الجرارة قد غضبت غضباً شديدا فلم تهب للعروسين شيئاً عدا اللعنة.
على أن فيدور بافلوفتش لم يكن قد عوّل على الحصول على مال فى هذه
المرة ، وانما أغراه ما كانت تتمتع به الفتاة البريئة من جمال أخاذ ، وفتنه
ما رآه فى نظرتها من صفاء أحدث تأثيراً عميقاً فى نفس هذا الرجل
الشهوانى الذى كان لا يحفل الا بملذات الحس ، هذا الرجل الساقط
الذى لم تجتذبه فى المرأة حتى ذلك الحين الا المفاتن الخسسية . « ان
تينك السينين الصغيرتين البريئتين قد نفذتا الى نفسى عندئذ كسكين » :
كذلك اعتاد أن يقول فيما بعد ، وهو يضحك تلك الضحكة الساخرة
المهودة فيه . ومن الجائز أيضاً أن ذلك الافتتان بالبراة لم يكن لدى
فاسق مثله الا صورة من صور اللذة الحسية . وقد اعتقد فيدور
بافلوفتش ، لأنه لم ينل أى تعويض مالى ، أنه ليس عليه أن يتحرج مع
امراته أى تحرج ، واستغل شعورها بأنها « مذنبه » فى حقه هو الذى

« أنقذها من الجبل » ، واستقل من جهة أخرى ما يتصف به طبعها من عنوية مفرطة واذعان عجيب ، فركل بقدميه أبسط قواعد اللياقة التي توحىها الحياة الزوجية ، فكان يقيم حفلات الخلاعة والفجور على مرأى منها ، وكان يجيء الى البيت بنساء فاسقات ساقطات . ويجب أن أذكر ، في هذه المناسبة ، كسمة من السمات التي تميز هذه البيئة ، أن الخادم جريجورى ، الانسان المماحك المتجهم الغبي العنيد ، الذي كان قد ذكره زوجة سيده الأولى ، آديلايد ايفانوفنا ، قد انتحاز في هذه المرة الى صف الزوجة الجديدة ، ودافع عنها ، وكثيرا ما اختصم مع فيدور بافلوفتش في أمرها ، مستعملا في مخاطبته ألفاظا توشك أن لا تكون مقبولة من فم خادم . حتى لقد اتفق له ذات مرة أن وضع حدا لحفلة خليعة ، مستعملا القوة في طرد المخلوقات الفاجرة التي تجمعت في المنزل . وقد أصيبت هذه المرأة البائسة التي قاست من الارهاب والعذاب ما قاست منذ طفولتها ، أصيبت بنوع من المرض العصبى منتشر خاصة بين أبناء الطبقة الدنيا من الشعب وبين الفلاحات اللواتى يسمين بسبب هذه الاصابة « كليكوشى »* . ان هذا المرض الذى تصحبه نوبات رهيبية من نوبات الهستيريا ، كان يهوى بالمرأة الشابة فى بعض الأحيان الى حالة من الهذيان والخرف . ومع ذلك أنجبت هذه المرأة ابنين ، ولد أحدهما ، وهو ايفان ، بعد الزواج بسنة ، وولد الثانى ، وهو الكسى ، بعد ولادة الأول بثلاث سنين . وحين ماتت ، كان الصغير الكسى قد دخل السنة الرابعة من عمره . وانى لأعلم ، مهما بيد لكم هذا الأمر غريباً عجيباً ، أن ذكرى أمه قد بقيت ماثلة فى ذهنه طوال حياته ، ولو فى صورة تشبه أن تكون حلماً . وقد كان مصير هذين الابنين ، بعد موت أمهما ، شبيهاً بمصير أخيهما الأكبر ميتيا : نسيهما أبوهما نسيانا تاما ، وهجرهما هجرا كاملاً ، وضمهما اليه جريجورى فى كوخه مثلما ضمَّ اليه أخاهما من قبل . وهناك ، فى ذلك الكوخ ، انما

اكتشفتها الجزالة المعجوز المهووسة التي كانت لأمهما محسنةً ومنشئةً .
 كانت المعجوز ما تزال على قيد الحياة ، ولم تستطع خلال تلك السنين
 الثماني أن تغفر الاهانة التي ألحقت بها . وكانت طوال تلك الفترة تسقط
 أخبار « عزيزتها صوفيا » تفصيلاً ، فلما علمت نبأ المرض الخطير الذي
 ألمَّ بها ، كما علمت بأنباء اليثه الفاسدة الفاضحة التي اضطرت المسكينة
 أن تعيش فيها ، قالت مراراً كثيرة ، بصوت عالٍ ، أمام صديقاتها ومحبياتها:
 « لقد استحقت ذلك ، فان الله هو الذي يعاقبها على نكرانها الجميل
 وجحودها النعمة . . »

وبعد موت صوفيا ايفانوفنا بثلاثة أشهر تماما ، ظهرت الجزالة ذات
 يوم بشخصها في مدينتنا الصغيرة واتجهت رأساً الى منزل فيدور
 بافلوفتش . ولم تمكث عندنا أكثر من نصف ساعة ، ولكنها لم تضع
 وقتها سدى . كان ذلك في نحو المساء . ان فيدور بافلوفتش الذي لم
 يرها منذ اختطاف صوفيا مرة واحدة خلال تلك السنين الثماني قد هبَّ
 الى لقائها الآن وهو في حالة سكر لطيف . فما كادت تراه حتى صفعته
 منذ اللحظة الأولى صفتين مدويتين ، دون أن يراودها أي تردد ، ثم
 أمسكته من شعره وهزته في مكانه ثلاث مرات . ذلك ما رواه بعضهم .
 ثم اتجهت الى الكوخ الذي يوجد فيه الطفلان ، دون أن تنطق بكلمة
 واحدة ، فلما لاحظت بنظرة سريعة أنهما لم يُغسلا ويُنظفا ، وأن
 ملابسهما الداخلية لم تُغيَّر ، أسرع تصفع جريجورى أيضا ، وأعلنت
 له أنها ستأخذ الصبيين الى منزلها . ثم خرجت بهما كما كانا ، بعد أن
 لفتها بغطاء ، ووضعتهما في عربتها ، وعادت بهما الى مدينتها . لقد
 تلقى جريجورى هذه الصفة كما يتلقاها عبد خاضع مطيع ، دون أن
 ينطق بكلمة ، ودون أن يخرج عن أدبه ؛ بل لقد رافق السيدة المعجوز
 الى عربتها ، وقال لها وهو ينحنى حتى مستوى الحزام ، قال لها في اقتناع

كامل وايمان قوى : « ان الرب سيجزيها جزاءً حسناً بسبب هذين اليتيمين . » ، فصرخت الجزالة تقول له وهى تنصرف : « أنت مع ذلك أبله . » . وبعد أن قلب فيدور بافلوفتش الأمر على وجوهه المختلفة انتهى الى أن كل شيء قد جرى على ما يرام . ثم لم يضع بعد ذلك أية عقبة تحول دون موافقته الرسمية على أن يُربى الصبيان في منزل الجزالة وذئبل بتوقيعه جميع الشروط التى اقترحت عليه . أما الصفحات التى تلقاها فقد مضى يتباهى بها فى المدينة كلها .

وحدث أن توفيت الجزالة بعد ذلك بزمن قصير ، ولكنها أورتت كلاً من الطفلين فى وصيتها مبلغ ألف روبل ، وقد نصت الوصية على أن هذا المبلغ « مخصص لتعليمهما ، فما ينبغي أن ينفق منه شيء إلا عليهما ، ولكن على شرط أن يكفيهما حتى يبلغا سن الرشد ، لأن مثل هذا المبلغ الكبير كثير على طفلين مثلهما ، فاذا ظن بعض الناس أن هذا الميراث غير كاف فليتفضلوا بتدارك النقص من جيوبهم هم ، الخ الخ ، . اننى لم أقرأ وصية الجزالة ولكن قيل لى انها تضمنت أموراً غريبة من هذا القبيل ، وانها قد كتبت بعبارات طريفة عجبية . ومن حسن الحظ أن الوارث الرئيسى الذى آلت اليه أموال الجزالة كان رجلاً شريفاً هو ايفيم بتروفتش بولينوف سيد نبلاء هذه المقاطعة . وقد كتب الى فيدور بافلوفتش ولكنه لم يلبث أن أدرك أن هذا لن يدفع قرشا واحداً فى سبيل تعليم ابنه (رغم أن فيدور بافلوفتش ما كان ليرفض ذلك رفضاً مباشراً ، وانما هو يقتصر فى مثل هذه الحالة على المماطلة والتسويف ، وربما عمد أحيانا الى التدفق فى أقوال عاطفية) . قرر ايفيم بتروفتش عندئذ أن يهتم باليتيمين شخصياً ، وتعلق تعلقاً خاصاً بأصغرهما ألكسى ، فرباه فى أسرته نفسها خلال سنين . أرجو من القارئ أن تظل هذه النقطه ماثلة فى ذهنه . لئن استطاع هذان الشابان أن ينمعا فى حياتهما بتربية جيدة

وثقافة مناسبة ، فانما يرجع الفضل في ذلك الى ايفيم بتروفتشس هذا الذى كان انسانا يتمتع بطيبة عظيمة وشهامة كبيرة يندر أن تقع على مثلهما في غيره . انه لم يمسّ الروبيلات الألف التى ورثها كل من الصيين من الجنزالة ، فلما بلغا سن الرشد كان الألف قد صار بالفوائد ألفين . لقد أخذ الرجل على عاتقه تربية الصيين ، فأنفق على كل منهما أكثر كثيرا من الروبيلات الألف طبعا . لن أدخل هنا فى قصّ تفاصيل حياتهما أثناء الطفولة والمراهقة ، وانما أقصر مرة أخرى على اشارات لا غنى عنها . فأما عن الابن الأكبر ايفان فأقول انه أصبح مع الأيام مراهقاً يتصف بشيء من التجهم والانطواء . صحيح أنه لم يكن خجولاً ، ولكن كان يبدو أنه أدرك منذ السنة العاشرة من عمره أنه يعيش هو وأخوه فى أحضان أسرة هي أسرة أجنبية رغم كل شيء ، وأنهما يُربّيان فى هذه الأسرة من باب الرأفة والاحسان على وجه الاجمال ، وأن أباهما انسان شاذ يضيق المرء ذرعاً حتى بالكلام عنه ، النخ النخ . وقد أظهر هذا الصبى فى وقت مبكّر - منذ طفولته الأولى فيما يقال - استعدادا عظيما للتعلم وتفوقا واضحا فى الدراسة . اننى لم أطلع على التفاصيل ، ولكننى أعلم أن الفتى ترك أسرة ايفيم بتروفتشس وهو فى نحو الثالثة عشرة من عمره فيما يبدو ، فدخل مدرسة ثانوية بموسكو حيث عاش فى « بنسيون » عالم من علماء التربية واسع الخبرة ذائع الصيت فى ذلك الزمان ، كان أحد أصدقاء ايفيم بتروفتشس فى طفولته . وقد روى ايفان نفسه فيما بعد أن ذلك كله انما مردّه الى « ما يتصف به ايفيم بتروفتشس من حماسة شديدة لأعمال الخير » ، لان ايفيم بتروفتشس قد استقر فى ذهنه أن صبياً عبقرياً لا بد أن يتولى تربيته مرب عبقرى . على أن ايفيم بتروفتشس والمربى العبقرى كانا قد انتقلا كلاهما الى رحمة الله حين أنهى الفتى دراسته الثانوية فاتسب الى الجامعة . وقد تأخر استلام الروبيلات الألف

التي أوصت بها الجزائر الهوسية للطفلين والتي صارت بالفوائد ألفين، تأخر استلامها نتيجةً لسوء تدوين التدابير التي اتخذها إيفيم بتروفتش، وبسبب أنواع كثيرة من الإجراءات الشكلية والآجال الطويلة التي لا بد منها ولا غني عنها في بلادنا... لذلك كانت الستان الأوليان اللتان قضاها إيفان في الجامعة حافلتين بالمصاعب والمشقات • لقد اضطر الفتى أن يلتمس رزقه بنفسه أثناء تلك المدة ، مع استمراره على متابعة دراسته • يجب أن نذكر هنا أنه لم يخطر بباله في لحظة من اللحظات أن يستجد في ذلك الظرف بأبيه ، أما عن كبرياء وشمم في نفسه ، وأما عن احتقار وازدراء لأبيه ، وأما لأن عقله الهادئ قد حدثته بأنه ليس له أن يعوّل على الحصول من أبيه على معونة ذات بال • المهم أن المصاعب لم تفت في عضد الفتى ولا أضعفت عزيمته ، واستطاع أخيراً أن يجد عملاً • أخذ في أول الأمر يعطى دروساً في المنازل بأجر زهيد ، ثم استطاع أخيراً - بالسعي من إدارة تحرير إلى إدارة تحرير - أن يكتب للجرائد اليومية مقالات مقتضبة ، في حدود عشرة أسطر ، عن حوادث الشارع ، مذيلةً بتوقيع « شاهد عيان » • وقد أكد المؤكدون أن تلك المقالات القصيرة كان فيها من الفكر المتوقد والفكاهة اللاذعة ما كفل لها أن تصيب نجاحاً سريعاً • بذلك استطاع هذا الشاب أن يبرهن على تفوقه على أولئك الطلاب الكثيرين من الجنسيتين ، الذين يعيشون دائماً في عوز وفاقه ، ويلم بهم في عواصمنا البؤس والفقر والشقاء ، ويحاصرون إدارات تحرير شتى الجرائد والمجلات من الصباح إلى المساء • انهم في العادة لا يحسنون أن يبتكروا شيئاً غير تكرار طلبهم الأبدى ، وهو أن يكلفوا بترجمة بعض النصوص عن اللغة الفرنسية ، أو أن يقوموا ببعض أعمال المراسلة • فلما استطاع إيفان فيدوروفتش أن يصل إلى إدارات التحرير دبر أموره بعد ذلك بحيث يبقى على صلة بها ، ونشر أثناء الستينين

الأخيرة من دراسته الجامعية مقالات نقدية ودراسات طيبة عرض فيها لأنواع شتى من المؤلفات ، فأخذ يُعرف حتى في المحافل الأدبية . على أنه لم يظفر ، مصادفةً ، بأن يلفت إليه ، على حين فجأة ، انتباه دائرة من القراء أوسع كثيراً من ذلك ، الا في نهاية تلك الفترة ، فأصبح عدد كبير من القراء يتذكرونه منذ ذلك الحين ولا ينسونه . كان هذا في مناسبة طريفة جدا شائعة جدا . كان ايفان فيدوروفتش قد أنهى دراسته الجامعية ، وكان يتهاياً بالألفى روبل التي يملكها أن يسافر الى الخارج ، حين نشر ذات يوم ، في جريدة من كبرى الجرائد اليومية ، مقالاً غريباً التفتت اليه حتى أنظار غير المختصين من القراء ؛ والعجيب أن المقال يعالج موضوعاً لا يمت بصلة من الصلات الى ما انصرف اليه الشاب من اختصاص علمي (ذلك أنه قد تخصص في العلوم الطبيعية) . لقد تناول المقال مسألة القضاء الاكليركي * الذي كان في تلك الأيام يهز جميع العقول ويحرك جميع الأذهان . فبعد أن ناقش كاتب المقال مختلف الآراء التي وردت في صدد هذا الموضوع ، أبدى آراء شخصية . وقد تميز المقال خاصةً باللهجة التي كتب بها ، كما تميز بالنتيجة التي انتهى اليها ، وهي نتيجة تتصف بأنها جديدة غير متوقعة . ومع ذلك فان عدداً من أنصار الاكليروس قد عدوا الكاتب مؤيداً لهم ، بينما أخذ أنصار العلمانية ، وحتى الملحدون ، يعربون عن تأييدهم للكاتب واستحسانهم لما تضمنه مقاله . وأدرك بعض أهل الصحافة والذكاء أخيراً أن المقال ، من أوله الى آخره ، لم يكن الا مزحة وقحة ومهزلة ساخرة . وانما أذكر هنا هذه النقطة التفصيلية لأن المقال قد وصل بعد ذلك الى الدير الشهير الذي يقع على أبواب مدينتنا ، فاذا بمسألة القضاء الاكليركي تثير اهتماماً عاماً على حين فجأة . لقد قرىء المقال في المدينة فأحدث هزة قوية ؛ حتى اذا عُرف اسم كاتبه اشتدت حماسة الناس ، من حيث أن

الكاتب يرجع أصله الى مدينتنا ، ومن حيث أنه ، فوق ذلك ، « ليس الا ابن فيدور بافلوفتش ذاك بعينه » . وها هو ذا كاتب المقال يظهر في مدينتنا بنفسه في تلك الآونة نفسها .

تُرى ماذا كانت غاية ايفان فيدوروفتش من تلك الزيارة ، ولماذا جاء الى مدينتنا ؟ أذكر جيدا أنني قد ألقيت هذا السؤال على نفسى منذ تلك اللحظة شاعرا بشيء من القلق . ان هذه الزيارة المشؤمة التي كانت السبب في وقوع أحداث كثيرة ، قد ظلت في ذهني خلال زمن طويل ، بل ظلت في ذهني الى الأبد ، أمرا غامضا لم أستطع الى فهمه سبيلاً . انه لشيء غريب ، على وجه العموم ، أن يقرر شاب يبلغ هذا المبلغ من سعة الثقافة وشدة الكبرياء وكثرة الحذر ، فيما يبدو ، أن يقرر على حين فجأة أن ينجى الى منزل يبلغ هذا المبلغ من سوء السمعة ، أن ينجى الى أب كهذا الأب الذي جهله طوال حياته ، ولم يشأ يوما أن يعرف شيئاً عنه ، حتى نسى وجوده ذاته . والفتى يعلم حق العلم مع ذلك أن أباه الذي كان سيرفض قطعاً في أى ظرف من الظروف أن يعطى ابنه شيئاً من مال لو سأله ذلك ، كان في خوف متصل من أن ينتهى الامر بابنيه ، ايفان والكسى ، أن يطلبوا منه بعض المال واحدا بعد آخر . ورغم ذلك فهذا هو ايفان يسكن منزل أب كهذا الأب ، ويقضى فيه شهرا بعد شهر ، وهذان هما الرجلان يتفاهمان أحسن تفاهم ! ان هذا الأمر لم يدهشنى وحدى ، بل أدهش عددا آخر من الناس أيضا . وكان بطرس ألكسندروفتش ميوسوف ، قريب زوجة فيدور بافلوفتش الأولى ، الذى سبق أن تحدثت عنه ، كان في ذلك الحين يقيم عندنا في الأرض التي يملكها بضواحي مدينتنا . فلقد رضى أن يترك باريس الى حين ، بعد أن اتخذها مقراً له . ان بطرس ألكسندروفتش ميوسوف هذا كان من أشد الناس دهشة حين تعرف بالشاب ايفان ، فاهتم به وأصبح يحس

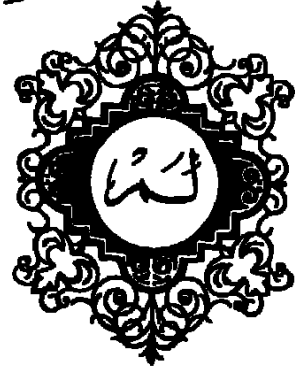
بالمناقسة بينه وبينه في شئون العلم والثقافة العسامة ، على شيء من ألم يستشعره خفياً • كان يسر الينا في كثير من الأحيان أثناء تلك الفترة حين يتحدث عنه ، قائلا : « هذا رجل ذو كبرياء • ولن يصعب عليه أن يجني رزقه • ماذا جاء يفعل هنا ؟ واضح أنه لم يأت الى أبيه ليحصل على مال ، لأن أباه لن يعطيه شيئاً • أما أن يسكر وأن يسترسل في المجون فذلك ليس من أذواقه وميوله ، ومع ذلك فإن الشيخ أصبح لا يستطيع الاستغناء عنه ، من شدة تعلقه به ! » • هذا صحيح • ولقد كان واضحاً أن الشاب يؤثر في أبيه بعض التأثير ، وكان يبدو أن أباه يطيعه في بعض الأحيان ، رغم أن طبعه ليس بالطبع الاجتماعي كثيراً ، ورغم أنه يكون في بعض المناسبات شرساً ، حتى لقد أخذ الأب يحتشم في سلوكه قليلاً •••

ولم يعلم أحد الا بعد ذلك بزمن طويل ان ايفان فيدوروفتش قد كان من أسباب مجيئه أن أخاه الأكبر دمترى قد طلب منه ذلك ليهتم بمصالحة • وفي هذه الفترة بعينها ، أثناء اقامته تلك بمدينةتنا ، انما عرف ذلك الأخر الذي لم يكن قد رآه من قبل في يوم من الايام ، رغم أنه قد أخذ يرأسله قبل سفره الى موسكو في موضوع قضية هامة تتعلق خاصةً بدمترى فيدوروفتش • وسأشرح للقارىء ماذا كانت تلك القضية ، حين يجيء أوان الكلام عليها • ومع ذلك يجب أن أقول اننى حتى بعد أن اطعلت على هذه الظروف الخاصة ، ظلمت أجد سلوك ايفان فيدوروفتش سراً محيراً ، وظلمت أعد زيارته لمدينتنا أمراً لا أجد له تعليلاً ولا تفسيراً •

أضيف الى هذا أن ايفان فيدوروفتش كان يُشعر الناس بأنه يتدخل وسيطاً في النزاع الناشب بين أبيه وأخيه الأكبر دمترى الذي ساءت علاقته بالأب الى حيث أقام عليه دعوى قضائية •

أعود فأقول ان هذه الأسرة الصغيرة قد وجدت نفسها تجتمع في تلك اللحظة لأول مرة ، فاذا ببعض أفرادها الذين لم يسبق لهم أن التقوا يوما ، يتعارفون في هذه المناسبة . ان الابن الاصغر ، ألكسى فيدوروفتش ، هو الوحيد الذي كان يقيم منذ سنة في مدينتنا التي وصل اليها قبل أخويه . ما أصعب أن أتحدث عن ألكسى هذا في هذه القصة التي هي تمهيد للرواية ، قبل أن أبرزه الى المكان الأول من الأحداث ! ومع ذلك لا بد أن أعزم أمرى على قول بضع كلمات تكون مقدمة للدخول في موضوعه أيضا ، ولو لأوضح ، منذ الآن ، طابعا غريبا جدا تتصف به هذه القصة : اننى مضطر في الواقع الى أن أقدم بطلا للقارئ في مسوح فتى يتأهب للترهب . انه يعيش في ديرنا منذ قرابة سنة ، متهيئا لأن يعتكف فيه الى آخر حياته فيما كان يبدو .

اليوشا، اليوشا الثالث



بكن قد تجاوز العشرين من عمره بعد (لقد دخل أخوه ايفان في الرابعة والعشرين ؛ أما أخوهما دمترى فهو يشارف على الثامنة والعشرين) • أريد أن أقول على وجه الاجمال ان القتي اليوشا لم يكن فيه شيء من تعصب ديني في رأبي ، لا ولا كان صوفياً ؛ واذا شئت أن أكشف عن جوهر رأبي فيه قلت : انه ، بكل بساطة ، انسان يفيض قلبه حباً للبشر ، وذلك منذ السنين الأولى من حياته • فلئن اختار طريق الاعتكاف في الدير ، فما ذلك الا لأن هذا الطريق كان يبدو له في تلك الآونة النسييل الوحيدة التي يجب أن تسير فيها حياته ، والملاذ المثالي لنفسٍ مفتونة بالنور والمحبة ضد ظلمات الكره والبغض في هذا العالم • أضف الى ذلك أن هذا الطريق لم يجتذبه الا بفضل التقائه بذلك الراهب الشيخ من رهبان ديرنا ، وهو الشيخ زوسيماس* الذي عدّه الشاب انساناً فذاً وتعلق به عندئذ تعلقاً شديداً فيه كل الحرارة الأولى التي تتدفق في قلبه الظامئ • على أنني لن أنكر أن هذا الشاب كان منذ تلك الآونة غريب الأطوار جداً ، حتى لقد كان كذلك منذ المهد • سبق أن ذكرت ، في هذا الصدد ، أنه بعد أن فقد أمه في السنة الرابعة من عمره ، قد ظلت ذكراها ماثلة في خياله طوال حياته ، فهو

يرى وجهها ويرى ملاطفاتها » كأنها حاضرة في هذه اللحظة نفسها أمامي ، • ذلك ما كان يقوله • انكم تعلمون أن ذكريات من هذا النوع قد ترسخ في النفس ، حتى في سنٍ أصغر ، وحتى منذ السنة الثانية من العمر ، ولكنها لا تكون في مثل هذه الحالة الا نقاطاً مضيئة مبعثرة تبرز من وسط الظلام ، أو أجزاءً منفصلةً من لوحة كبيرة انطفاً سائرها وبلغته الظلمات ، باستثناء تلك التفاصيل التي بقيت وحدها ساطعة • وذلك بعينه ما حدث له : لقد احتفظ الفتى بذكرى أمسية ساجية من أمسي الصيف ، ونافذة مفتوحة ، وأشعة مائلة ترسلها الشمس الغاربة (وهذه الأشعة المائلة هي ما يتذكره خيراً مما يتذكر أى شيء آخر) ، وصورة مقدسة في ركن من الغرفة ، وسراجٍ صغير يشتعل أمام الصورة ، والأمم راکمةً على ركبتيها ناشجةً منتجةً قد ألم بها نوع من الهستريا وأخذت تطلق صرخات حادة وأنات موجعة ، ثم اذا هي تمسكه بذراعيها على حين فجأة وتشدها الى صدرها شداً قوياً يؤلمه ، وتبتهل الى السيدة العذراء أن تحميه ، وأن ترعى هذا الطفل الذي كانت الأم تمده الى الأيقونة كأنما لتضعه في حوى أم الرب ••• وتظهر خادمة الطفل فجأة في الغرفة ، فيبدو في وجهها زعر شديد ، وتسارع تنتزع الطفل من بين يدي أمه • يا لها من لوحة ! لقد انحفرت صورة وجه الأم في ذاكرة أليوشا في تلك اللحظة • وهو يؤكد أن الوجه كان مروّعاً ولكنه كان جميلاً جداً ، هذا على قدر ما يستطيع أن يتصوره • ولكن كان ينذر أن يعزم أليوشا أمره على الكلام عن هذه الذكرى • لقد كان أليوشا أثناء طفولته ومراهقته قليل الافصاح عن نفسه ، بل لقد كان صموتاً ، لا عن شك وحذر طبعاً ، ولا عن خجل أو وجل ، ولا عن تجهم في الطبع والمزاج ••• أبداً ••• بل بسبب شيء خاص في نفسه ، بسبب اهتمام داخلي ، شخصي تماما ، لا شأن له بالآخرين ، يبلغ عنده من خطورة

الشان أنه ينسبه حتى وجود الناس • ومع ذلك كان أليوشا يحب البشر • وكان مظهره يدل على أنه عاش حياته كلها في اندفاع ثقة بالناس ، ومع ذلك لم يعده أحد في يوم من الأيام امرأ غراً أو ساذجاً • كان في نفسه شيء لا أدري ما هو ، شيء يشعر الآخرين شعوراً واضحاً بأنه لا يريد أن يحكم على أخيه الانسان ، بأنه يأبى أن يتهم أو يُدين ، وبأنه لن يرضى بحال من الأحوال أن يلقي اللوم على الملأ • حتى لقد كان يبدو أنه يقبل كل شيء دون أن يحكم عليه ، ولكن بمرارة حزينة في كثير من الأحيان • ووصل من ذلك الى أن لا يدهشه شيء ، وأن لا يخيفه شيء ، وذلك منذ غضارة صباه • وفي منزل أبيه ، الذي كان ماخور فحش وعهر ، كان الفتى يقتصر ، وهو الذي بلغ العشرين من عمره محافظاً على عفته وطهارته ، كان يقتصر على الابتعاد صامتاً اذا شعر بأنه لا يستطيع أن يحتمل رؤية هذا المشهد أو ذاك ، ولكن دون أن يظهر عليه شيء من الاحتقار أو النقد لأي انسان • أما أبوه ، الطفيلي القديم الذي كان لهذا السبب سريعا الى ادراك الاهانة والشعور بها ، فقد استقبله في أول الأمر بشك وحذر وريبة ، وشعر نحوه بعواطف ليس فيها ود كثير (• انه مسرف في الصمت تجاهي ، مسرف في التفكير دون أن يقول شيئاً) ، ولكنه أصبح بعد أسبوعين في أكثر تقدير يعاقه ويضمه الى ذراعيه في كل لحظة • صحيح أنه كان يفعل ذلك بدموع السكران وعواطف المخمور • ولكن كان واضحاً مع ذلك أنه يجبه جبا صادقا عميقاً ، كما لم يجب رجل من نوعه أحداً •••

وكان جميع الناس يحبون أليوشا على كل حال • لقد أيقظ عواطف المحبة والمودة له في نفوس كل من عرفوه ، وذلك منذ طفولته • وأياماً كان يعيش في منزل المحسن اليه والمربي له ، ايفيم بتروفنش بولينوف ، بلغ من رضى جميع أفراد الأسرة عنه ومن اعجابهم به انهم كانوا يعدونه

ابنا من أبناء الأسرة تماما ، رغم أنه قد دخل ذلك المنزل طفلا صغيرا فهو عاجز عجزاً تاماً عن أى مكر أو حساب ؛ لقد دخل أليوشا ذلك المنزل وهو فى سنٍ يجهد فيه الكائن الانسانى كل شىء عن فن الممالة والتملق والارضاء ، أى فن اجبار الآخرين على حبه . لقد أوتى أليوشا موهبة حمل الآخرين على حبه بحكم طبيعته ، فكأن هذه الموهبة قد ولدت معه ، فالناس يحبونه من تلقاء أنفسهم ، دون أن يحتال هو لذلك . هكذا كان شأنه فى المدرسة أيضا ، رغم أنه كان فى ظاهره من أولئك الأطفال الذين لا بد أن يوقطوا فى رفاقهم الحذر والشك ، وأن يجلبوا لأنفسهم سخريات زملائهم ، بل وعداوتهم فى كثير من الأحيان . لقد كان يتفق لأليوشا كثيراً أن يعتزل رفاقه فى فترات الراحة بين الدروس ، فيغرق فى التأمل . كان أليوشا يحب كثيرا ، منذ طفولته ، أن ينزوى فى ركن من الأركان يقرأ كتابا من الكتب ؛ ومع ذلك فقد أحبه التلاميذ حبا عظيما ، حتى لقد ظل طوال حياته المدرسية أثر رفاقه غير منازع . كان لا يتحمس الا نادرا ، بل وكان لا يبدو فى العادة مرحاً ، ولكن يكفى أن تنظر اليه حتى تدرك أن ذلك لا يرجع الى نفوره من الناس ، وانما هو انسان ذو نفس هادئة صافية راقية . وكان لا يحاول أن يظهر قيمته لرفاقه ، ولعل هذا هو السبب فى أنه كان لا يخشى كذلك أحدا . ولكن الصيبة لم يلبثوا أن أدركوا أنه لا يزهو بشجاعته ولا يُدلى بها ، بل يظل بسيطا منطلقا على طبيعته وسجيته ، كأنه لا يشعر بشجاعته وجراته وجسارته . وكان لا يحتفظ أبدا بذكرى اساءة نالته أو اهانة ألحقت به . وكثيرا ما كان يتفق له أن يبادر الى مخاطبة الشخص الذى ناله بالاساءة أو ألحق به الاهانة ، وذلك بعد وقوع الحادثة بساعة واحدة ، فكان يبدو فى كلامه عندئذ من الثقة والهدوء ما يشعر المرء بأن شىئا لم يحدث بين الرفيقين . كان لا يبدو عليه ، فى مثل تلك المناسبات ، أنه

يريد أن ينسى الاساءة أو يغيرها عامدا ، وانما هو يرى أن الاساءة لم تحدث ، فكان ذلك يفتن الصبية ويسحرهم فورا . ولم يكن فيه الا صفة واحدة أغرت رفاقه ، في جميع فصول المدرسة ، من أولها الى آخرها ، بأن يمازحوه ، لا عن رغبة خيثة في السخرية بل لأن ذلك كان يفرحهم ويشيع في نفوسهم المرحة ، ذلك هو حياة الشنديد ، وخفزه العظيم المرتبط بالحنسة والعفة . ان الأحاديث التي يتبادلها التلاميذ عن النساء ، والتعابير التي يستعملونها في هذا المجال ، كانت أمورا لا يطبق الصبي أليوشا أن يسمعا . ومن المؤسف أن هذه الأحاديث وهذه التعابير لا تنفصل عن الحياة المدرسية ولا يمكن استئصالها منها . ورب تلاميذ أطهار النفس والقلب ، رب تلاميذ ما يزالون أطفالا صغارا ، يجدون لذة كبيرة في أن يتحدثوا في هذه الأمور ، بصوت عالٍ في كثير من الأحيان ، وأن يصفوا صورا أو مشاهد قد يستحي حتى الجنود في الثكنات أن يتكلموا فيها . الجنود ؟ ألا أن هؤلاء ليجهلون أو لا يفهمون ، في كثير من الحالات ، أمورا أصبحت في أيامنا هذه مألوفة أو شبه مألوفة عند الأطفال الصغار من أبناء الطبقات المثقفة والطبقات العليا من الشعب . والحق أن ذلك لا يجب أن يُعدّ فجورا ، أو حتى استهتارا ، لأنه ليس لديهم صادقا ولا عميقا ، وما هو اذن بالخروج عن الأخلاق حقا ، وانما هو نوع من الاباحية الكلامية الخارجية السطحية التي يحلو للتلاميذ أن يعدوها علامة رهافة في الذوق ، ودليل جرأة خليقة بأن تُقلد . فلما لاحظ التلاميذ أن هذا «الفتى الشهم أليوشا كارامازوف» يسارع الى سدّ أذنيه حين يدور الحديث على « هذه الأمور » ، أصبح يلذ لهم أن يتحلّقوا حوله ، ويأخذوا ينطقون بعبارات بذيئة وهم يبعدون يديه عن أذنيه بالقوة . فكان الفتى عندئذ يتخبط بينهم ، ويرتمي على الارض ، ويخفي وجهه ، ولكن دون أن ينطق بكلمة ، ودون أن يثور ، وانما هو يتحمل

الاساءة صامتا • وانتهى الامر بالتلاميذ الى أن تركوه وشأنه ، وعدلوا عن معاملته معاملة « بنت » ، حتى أن السخرية حول هذا الموضوع قد حلَّ محلها نوع من الرأفة به والعطف عليه • وكان أليوشا من جهة أخرى تلميذا متمسازا ، ولكنه لم يكن أول تلاميذ صفه في يوم من الأيام •

ظل أليوشا يواظب على مدرسة المقاطعة سنتين بعد موت ايفيم بتروفتش • ان أرملة ايفيم بتروفتش الحزينة التي لا يجد العزاء الى قلبها سيلا قد سافرت بعد وفاة زوجها فورا الى ايطاليا ، وأقامت هناك زمناً طويلاً مع أسرتها كلها التي تتألف من نساء فقط • فانتقل أليوشا الى منزل سيدتين تمتان الى أسرة بولينوف بقربى بعيدة ، ولم يكن قد رآهما قبل ذلك ، حتى لقد كان يجهل هو نفسه ما هي الترتيبات التي استقبلته هاتان السيدتان على أساسها • تلك سمة بارزة من سمات طبعه، هي أنه كان لا يهيمه أبدا أن يعرف بأى مال يعيش وعلى نفقة من يعيش! كان من هذه الناحية يختلف كل الاختلاف عن أخيه الأكبر ايفان فيدوروفتش الذى عاش حياةً شديدة البؤس والفقر والعوز خلال السنتين الأوليين من دراسته الجامعية ، وعمل عملاً مضمياً من أجل أن يجنى رزقه ، وشعر منذ الطفولة بكثير من المرارة والمذلة والهوان لأنه كان يأكل خبز البر والاحسان فى منزل الرجل الذى كفله • على أننا لا نستطيع أن نقسو فى الحكم على هذه السمة الغريبة فى طبع ألكسى ، اذ يكفى أن نعرفه قليلاً حتى نقنع بأنه كان فى شئون المال واحداً من أولئك الشبان المجانين الذين اذا هبط على أيديهم مبلغ ضخم من المال عرضاً لم يترددوا أن يهبوه لأول قادم متى سألمهم ذلك أو أن ينفقوه فى عمل من أعمال الخير ، أو أن يتيحوا لوغد حاذق أن يسطو عليه ويسلبهم اياه • وفى وسعنا أن نؤكد أن أليوشا كان يجهل قيمة المال

بوجه عام ، وانما يجب أن نفهم هذا الكلام على المجاز لا على الحقيقة
 طبعا . كان ألبوشا اذا أعطى شيئا من المال ليكون في جيبه ينفق منه عند
 الحاجة (وهو لا يطلب شيئا من ذلك في يوم من الأيام) كان يتفق له
 اما أن يظل المال في جيبه أسابيع طويلة لا يعرف ماذا يصنع به ، واما أن
 ينفقه بلا حساب فاذا بكل شيء يختفى في غمضة عين . ان بطرس
 ألكسندروفتش ميوسوف ، وهو رجل من أكثر الناس دقة في شئون
 المال ، ومن أشدهم تقديسا للأمانة البورجوازية ، قد قال عن ألكسى يوما
 بعد أن لاحظته عن كذب : « لعل هذا الفتى هو الانسان الوحيد في هذا
 العالم الذى يمكنك أن تتركه وحيدا بلا مورد في وسط مدينة كبرى
 لا يعرفها ، ثم اذا هو لا يهلك من الجوع والبرد . . . انه سيدبر أموره
 عندئذ بأيسر طريقة . . . فسرعان ما سيأخذه أحدهم فيطعمه ويسكنه . .
 ولن يكلفه ذلك أى جهد ولن يحمله أية مذلة . . والشخص الذى
 سيضمه اليه لن يشعر بعبئه ، بل لعله سيجد في ذلك لذة كبرى . . »
 لم يتم ألبوشا دراسته في الكوليج . كان قد بقى عليه أن يقضى
 في المدرسة سنة أخرى حتى يتم دراسته فيها ، حين أعلن في ذات يوم
 للسيدتين اللتين كان يقيم في منزلهما أنه سيذهب الى عند أبيه لأمر
 يتويه . نذبت السيدتان حظه كثيرا ، حتى لقد حاولتا أن تصداه عن
 عزمه . ولم تكن الرحلة تكلف نفقة باهظة ، واذ خشيتا أن يرهن ساعته
 - وهى هدية أهدتها اليه أسرة المحسن اليه قبل سفرها الى الخارج -
 فقد زودته بمبلغ وافر من المال ، وأعطيتاه ثيابا جديدة وملابس داخلية .
 ولكنه رد اليهما نصف المبلغ قائلاً انه يحرص حريصاً مطلقاً على أن
 يسافر في الدرجة الثالثة من القطار . فلما وصل الى مدينتنا أبى أن
 يجيب عن الأسئلة الأولى التى ألقاها عليه أبوه (« ماذا دهاك ، يا بنى ،
 حتى جئت الى قبل أن تتم دراستك ؟ ») ، حتى لقد أظهر من الشرود

والتأمل أكثر مما عهد فيه • ذلك ما قيل • وسرعان ما عُرِف أنه كان يحاول أن يعرف مكان قبر أمه • وقد اعترف هو نفسه ، على كل حال ، بأن ذلك هو السبب الوحيد الذي دفعه الى المجيء • ولكنى لا أعتقد أن هذا السبب كاف لتعليل رحلته هذه • ولعله كان يجهل هو نفسه في تلك الآونة الأسباب العميقة التي حملته على المجيء ، ولعله كان لا يستطيع أن يقول ما هي تلك القوى التي انبجست فجأة في كيانه ثم صعدت الى سطح نفسه فدفعته دفعا لا سبيل الى مقاومته في هذه الطريق الجديدة التي كان يجهلها ولكنه لا يملك أن يتجنبها • لم يستطع فيدور بافلوفتش أن يدله على المكان الذي دُفنت فيه زوجته الثانية • انه لم يزر قبرها مرة واحدة منذ شيّع جنازتها ، وقد أصبح بعد انقضاء ذلك العدد كله من السنين لا يتذكر أين دفنت •••

هنا يجب أن أقول كلمة عن فيدور بافلوفتش • لقد أقام فيدور بافلوفتش قبل هذه الأحداث التي نصفها الآن ، أقام مدةً طويلة بعيدا عن مدينتنا • انه بعد وفاة زوجته الثانية بثلاث سنين أو أربع ، قد سافر الى جنوب روسيا ، واستقر في أوديسا حيث عاش عدة سنين متصلة • وهناك ، في أوديسا ، تعرف بعدد كبير من « أنواع اليهود » على حد تعبيره ، حتى أصبح يُستقبل « لا في منازل يهود فحسب ، بل في منازل عبريين أيضا » • فمن حقنا اذن أن نقدر أنه في تلك الفترة من حياته انما نمى وحسن وجوده فنه في تصريف الأعمال وارباء الأموال • ولم يعد الى مدينتنا ليستقر فيها تماما الا قبل وصول أليوشا بثلاث سنين • وقد لاحظ الذين كانوا يعرفونه أنه قد شاخ كثيرا ، رغم أنه لم يبلغ سن الشيخوخة بعد ؛ كما اكتسب عادات فيها مزيد من الاستهتار والوقاحة • من ذلك مثلا أن هذا المهرج القديم أصبح يحاول الآن في كثير من الغطرسة والمعجرفة أن يخفض الآخرين الى هذا المستوى ؛

وأصبح يتعاطى الفحش والفجور والغش لا كما كان يتعاطى ذلك كله في الماضي ، بل بطريقة أدعى الى النفور وأبعث على الاشمئزاز أيضا • ولم يلبث أن فتح في مديرتنا عدة دكاكين لبيع الخمرة • وواضح أنه كان يملك رعوس أموال ربما كانت تبلغ مائة ألف روبل أو شيئا قريبا جدا من ذلك • وصارع كثير من سكان مدينتنا ومديرتنا يقرضونه أموالاً ، لقاء فوائد طيبة بطبيعة الحال • وقد ضعف وتضعف وتفعضن في الآونة الأخيرة ، وأصبح فيما يبدو لا يملك من الثقة ما كان يملكه منها في الماضي ؛ وأصبح سلوكه أقل تروياً وتأنياً ووعياً ، حتى لقد برهن في بعض المناسبات على شيء من التبلد والخبل ، فهو ما يكاد يشرع في أمر حتى يتركه الى غيره ، وهو يبغثر جهوده يمنة ويسرة بلا رابط يربط بينها وبلا استمرار يصل بعضها ببعض • وأصبح يسكر مزيدا من السكر ، فلولا خادمه الأمين جريجورى الذى دلف الى الشيخوخة قليلاً هو أيضا ، والذى كان يسهر عليه سهر المربي أو المريية تقريبا ، اذن للقى فيدور بافلوفتش كثيرا من المتاعب والهموم • على أن مجيء ألكسى قد أثر فيه من الناحية النفسية تأثيراً حسناً فيما يظهر ، فكأنه أيقظ في نفس هذا الرجل الذى شاخ قبل الأوان عواطف كانت مخنوقة منذ زمان طويل • كان كثيرا ما يقول لابنه أليوشا : « هل تعلم يا أليوشا أنك تشبه كليكوشا كثيرا ؟ » ، (كذلك كان يسمى امرأته المتوفاة ، أم ألكسى •) • واستطاع أليوشا أخيرا ، بفضل جريجورى ، أن يهتدى الى قبر كليكوشا • لقد قاده الخادم فى ذات يوم الى مقبرة المدينة ودلّه على صفيحة من الصلب كانت مهجورة فى مكان ضائع ، وقد نقش عليها اسم المتوفاة وأصلها وسنها وتاريخ وفاتها ، بل لقد كتبت عليها فى أسفل هذه الوقائع بضعة أبيات مقفاة من شعر المناسبات الذى جرت العادة أن تزين بها قبور أبناء الطبقة المتوسطة من الناس • والامر المدهش أن هذه

الصفحة المعدنية انما كانت قد وضعت في ذلك المكان بعناية جريجورى الذى أمر بها للمرحومة كليكوشا ودفع ثمنها منه ، وذلك بعد أن سافر فيدور بافلوفتش الى أوديسا . لقد حاول جريجورى أن يذكر مولاه مرارا بأن المتوفاة ليس لها ضريح ، ولكنه لم يظفر منه بطائل ، وسافر فيدور بافلوفتش غير عابئ بالتبور ، وغير حافل بالذكريات . لم يظهر أليوشا أى انفعال أمام قبر أمه؛ واستمع بغير اهتمام الى مارواه جريجورى جاداً متعلماً متحذلقاً عن اللوح المعدني كيف صنعه ؛ وانطوى على نفسه بضع لحظات خافضاً رأسه ثم انصرف دون أن ينطق بكلمة ، ثم لم يعد الى زيارة المقبرة مرة أخرى ربما خلال سنة كاملة . على أن تذكر الماضى هذا قد أثر في فيدور بافلوفتش بعض التأثير ، فتصرف تصرفاً لم يكن يتوقع منه . أخذ ألف روبل دون أن ينبئ أحداً بذلك ، ومضى بها الى ديرنا يسأل أن تتلى صلوات على روح زوجته ، لا زوجته الثانية، أم ألكسى ، المسكينة كليكوشا ، بل زوجته الأولى آديلايد ايفانوفنا ، تلك التى كانت تضربه . وفى ذلك اليوم نفسه أيضاً ، سكر سكرأ شديداً وقال بحضور أليوشا كلاماً أسوأ من شق الرهبان . لا شك أن فيدور بافلوفتش كان قليل الدين الى أقصى حد ممكن ، ومن المشكوك فيه أن يكون قد أشعل طوال حياته شمعة بقرش واحد أمام أيقونة . غير أن أفراداً من هذا النوع قد يتفق لهم أن يغزوهم على حين فجأة سيل من عواطف غريبة وآراء عجيبة ، على نحو لم يكن فى الحسبان ، ولكنه موقت على كل حال .

سبق أن قلت انه قد تفضن وجهه . والحق أن وجهه كان يحمل فى تلك الآونة آثاراً تدل دلالة واضحة على طراز الحياة التى عاشها ، وأنواع الأهواء التى عصفت به . فالى الجيوب الطويلة المنتفخة التى كانت قد تشكلت تحت عينيه الصغيرتين اللتين تظلان دائماً باحتين مفتشتين

وقحيتين ساخرتين ، والى الغضون الصغيرة العميقة الكثيرة التي كانت تخذد وجهه الذي كان صغيرا ولكنه مليء بالشحم ، قد أضيفت الآن ، تحت ذقنه الدقيقة ، مخدة من لحم سميك مستطيل كأنها كيس صغير ، تضيء على وجهه سيماء شهوانية حيوانية منقرّة • وكان له أيضا فم كبير نهيم متفخ الشفتين ، تظهر فيه بقايا أسنان صغيرة سوداء توشك أن تكون قد تقست تماما • فكلما فتح فاه للكلام سال منه اللعاب متاثرا • ولقد كان يحب أن يتندر على وجهه ، ولكنه كان راضيا عنه على كل حال ، فيما يظهر ؛ كان يلح في كلامه خاصة على شكل أنفه الذي كان صغيرا دقيقا جدا ولكنه شديد التقوس • كان يقول : « هو أنف روماني حقا ، فاذا ضمنت اليه ذقني المزروجة كنت تري نيلا من نبلاء روما في عصر الانحطاط • » • كان فيدور بافلوفتش يبدو معجبا بوجهه معتزا به •

بعد أن اهتدى أليوشا الى قبر أمه بزمن قصير أعلن لأبيه فجأة أنه ينوى أن يدخل الدير وأن الرهبان مستعدون لاستقباله فيه مبتدئا • وأضاف الى ذلك قوله ان ذلك هو أعظم أشواق نفسه وأحرز أمنياتها ، وانه في هذه اللحظة الخطيرة من حياته يسأل أباه بكل احترام أن يأذن له بدخول الدير • وكان الشيخ يعلم من قبل أن الراهب العجوز زوسيما الذي انزوى في الدير واعتكف فيه قد أثر تأثيراً قويا في « ابنه الطيب العذب » •

قال بعد أن أصغى مطرقاً صامتا الى شروح أليوشا الذي لم يدهشه قراره هذا مع ذلك :

– لا شك أن هذا الشيخ زوسيما* هو خير أولئك الرهبان ••• هيم ! ••• ذلك اذن ما تصبو اليه نفسك يا بنى الطيب اللطيف • (كان

قد شرب ، فهذا فمه يتسع فجأة في ضحكة سكران عريضة لا تخلو من مكر وخبت (... هم ! ... لقد تنبأت أنا بأنك ستتهي الى حيث انتهيت ، هل تعلم ؟ هانت ذا قد عزمت أمرك الآن . انك تملك ألفي روبل هما لك وحدك ... تلك ذخيرة طيبة ... أما أنا يا ملاكى فلن أتركك قط ، حتى اننى مستعد ، اذا لزم الأمر ، أن أدفع للدير كل ما سيطلبه منى . ولكن اذا لم يطلبوا شيئا ، فلن نجبرهم اجبارا ، لن نزعجهم ... أليس هذا صحيحا ؟ ثم انك لست بالمتلاف الذى ينفق كثيرا ، ولست تحتاج من المسال الى أكثر مما يحتاج طائر من طيور الكنارى ... تكفيك حبتان فى الأسبوع ... اننى أعرف ديرا يملك ، فى خارج المدينة ، دورا صغيرة . وجميع الناس يعلمون أن هذه الدور تضم « زوجات الدير » ... ذلك هو الاسم الذى تسمى به تلك النسوة هناك ... ان عدد هاته الزوجات ثلاثون فيما أعلم . لقد ذهبت الى هناك ، وأعترف أن الأمر شائق ، فى نوعه طبعا ، من ناحية التنوع . ليس ثمة الا عيب وحيد ، هو التعصب القومى ، فالنساء جميعا روسيات ليس بينهن فرنسية واحدة ، مع أن من السهل استقدام أجنبيات ، لأن المال لا يعوز رهبان الدير ، ومتى عرفت الفرنسيات ذلك جئن ذرافات ووحداننا ... أما هنا فلا شيء من ذلك ! ليس للدير زوجات ... وعسدهم مائتان هؤلاء الرهبان ! لا شيء هنا الا العفة والشرف . هم أناس أطهار ... أعترف أن ... هم ... أتريد أن تكون راهبا ؟ اننى أرثى لحالك قليلا يا ألبوشا ، صدقنى ! هل تعلم أنتى تعلقت بك ؟ على كل حال ... رب مصيبة نافعة ، مصائب قوم عند قوم فوائد : سوف تدعو لنا الله على الأقل نحن الضالين ، عسى أن يعفو عنا ويغفر لنا ، ذلك أننا قد أئمنا كثيرا على هذه الأرض . اننى أتساءل منذ زمن طويل : « ترى من ذا الذى سيصلى لنا فى يوم من الأيام ؟ هل فى العالم كله انسان يمكن أن

يصلى لنا؟ ، • يا ولدى المسكين ، اننى غيبى جدا فى هذه الأمور ، لو علمت ••• غيبى جدا ، صدقنى ! ••• ولكن مهما أكن غيبا فى هذه الأمور فقد فكرت فيها مع ذلك ، فكرت فيها طويلا • صحيح أننى لم أفكر فيها أحيانا كثيرة ، ولكننى فكرت فيها • قلت لنفسى : « يستحيل أن تسمى الشياطين انتقاطى بمجارفها حين أموت » ، ثم تساءلت : « مجارف؟ من أين لها المجارف ؟ وممَّ صنعت هذه المجارف ؟ ألهما صنعت من حديد ؟ فأين صنعت اذن ؟ أعل عندهم اذن مصنعا ؟ » • ان الرهبان ، هناك ، فى الدير ، يؤمنون مثلا بأن فى الجحيم سقفا • أما أنا فلا مانع عندى من أن أعتقد بوجود الجحيم ، ولكن شريطة أن لا يكون له سقف • اننى أوثر على ايمانهم ايمانا ألطف ، ايمانا أكثر ضياء ، ايمانا أقرب الى مذهب لوثر بمعنى من المعانى • ثم ألا يستوى أن يكون للجحيم سقف وأن لا يكون له سقف ؟ انظر الى مسألة الجحيم هذه ما أسخفها ! ولكن اذا لم يكن ثمة جحيم ، لم يكن ثمة مجارف أيضا ؛ وبدون مجارف لا تجرى الأمور ، فنعود الى ذلك السؤال نفسه ••• من عسى يلتقطنى بعد موتى ، من عسى يحملنى على مجرفة ؟ وما عسى يحدث اذا لم تلتقطنى الشياطين ؟ أين تكون « الحقيقة » عندئذ فى هذا العالم ؟ لا بد اذن من اختراعها ، هذه المجارف ، من أجلى أنا خاصة ، من أجلى وحدى ، لأننى مذنب خالغ العذار يا أليوشا ، لو علمت ! ••••

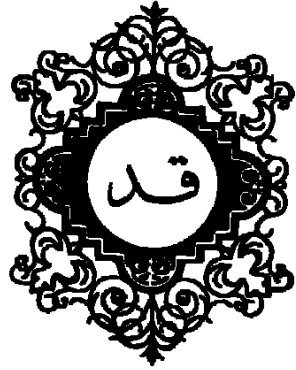
قال أليوشا بصوت عذب جاد وهو يتفرس أباه بانتباه :

- لا ليس فى الجحيم مجارف •

- هه ! هى اذن أطياف مجارف فحسب ؟ فهمت ! فهمت ! هذا يذكرنى بفرنسى وصف الجحيم كما يلى : « رأيت طيف حوذى * كان ينظف طيف عربية بطيف فرشاة » • من أين عرفت يا طائرى الصغير

أن ليس ثمة مجارف ؟ ان عشت عند الرهبان لتقولنَّ غير هذا الكلام •
 اذهب اليهم على كل حال • ستبحث لديهم عن « الحقيقة » ، فاذا وجدتھا
 تعال الىَّ فحدثني عنها ، فيكون الموت بعد ذلك أقل قسوة على ، لأنني
 أكون قد عرفت ما ينتظرني في الآخرة ! ثم ان الدير مكان يناسك أكثر
 من منزلي الذي يعيش فيه أب سكير مع هاته النساء ••• رغم أنك بما
 لك من عفة وطهارة لم تتسخ يوماً بهذه الأشياء ، كما لا يمكن أن يتسخ
 بها ملاك • لا أدري هل تستطيع البقاء أيضاً مع هؤلاء الرهبان ••• لذلك
 آذن لك أن تلتحق بالدير ! ••• انني أعتد على سلامة حكمك وحصافة
 رأيك • ليس الذكاء ما يموزك • ان النار تشتعل ثم تنطفئ • فمتى
 شفيت رجعت الىَّ • لسوف أنتظرك • أنت الانسان الوحيد في هذا
 العالم الذي لم يتهمني ولم يدنني ، ذلك ما شعرت به ، ذلك ما أعرفه
 يا صغيري الطيب الشهم ، وهل كان يمكن أن لا ألاحظه ؟
 قال الأب ذلك وأخذت دموعه تهطل • انه عاطفي : هو خبيث
 وعاطفي معا ♦

مشايخ الرباهان



يميل بعض قرائي الى الاعتقاد بأن الشاب، الذي أتحدث عنه انسان مريض شديد الاندفاع ذو طبيعة فقيرة ، وانه واحد من أولئك الحالمين الصفراء وجوههم الضعيفة صحتهم الضاوية أجسامهم • والواقع أن ألبوشا كان في تلك الآونة عكس ذلك : انه مراهق في التاسعة عشرة من عمره فياض العافية شديد المهابة مورث الخدين مضى النظرة؛ بل لقد كان جميل الوجه قوى البنية • وهو مربع القامة بنى الشعر ، له وجه متسق القسما على شيء من الاستطالة، تسطع فيه عينان شهابوان قاتمتان متباعدان تفيضان حياة • انه يبدو شاردا الذهن كثير التفكير ، وهو في الظاهر هادىء همدوا كبيرا • رب قائل يقول ان تورده الخدين لا ينفى شدة التعصب الدينى ولا ينفى الميل الى الصوفية • ولكنى أعتقد أن ألبوشا كان واقعا أكثر من أى انسان آخر • صحيح انه اكتسب فى الدير ايمانا بالمعجزات وأنه كان صلبا جدا فى هذه الناحية ، ولكن المعجزات لا تستطيع فى رأى أن تززع فكر انسان واقعى • ذلك أن المعجزات ليست هى التى تولد الايمان لديه • ان الواقعى الحقيقى اذا كان غير مؤمن يستطيع دائما أن يجد فى نفسه القوة والقدرة على انكار معجزة من المعجزات ، فاذا أكدت هذه المعجزة نفسها

بحادثة لا سبيل الى جحودها آثر أن يشك في صدق حواسه على أن يسلم بالواقع . حتى اذا قرر أخيرا أن يعترف بهذا الواقع عدّه ظاهرة طبيعية كانت الى ذلك الحين مجهولة لا أكثر . ان المعجزات لا تولد الايمان لدى الواقعي . بالعكس : فان الايمان هو الذي يستدعى لديه المعجزات . فمتى أصبح مؤمنا سلّم بالمعجزات حتما ، بحكم واقعيته نفسها . لقد أعلن الرسول توما * أنه لن يؤمن بشيء قبل أن يرى ، ولكنه حين رأى هتف يقول : « أنت الهى يا رب ! » . فهل المعجزة هى التى أدت به الى الايمان ؟ أغلب الظن أن لا وأنه انما آمن لأنه كان يريد أن يؤمن ، بل لعله كان مؤمنا ايمانا عميقا ، من قبل ، فى أعماق كيانه منذ كان يقول : « لن أوّمن ما لم أشاهد . »

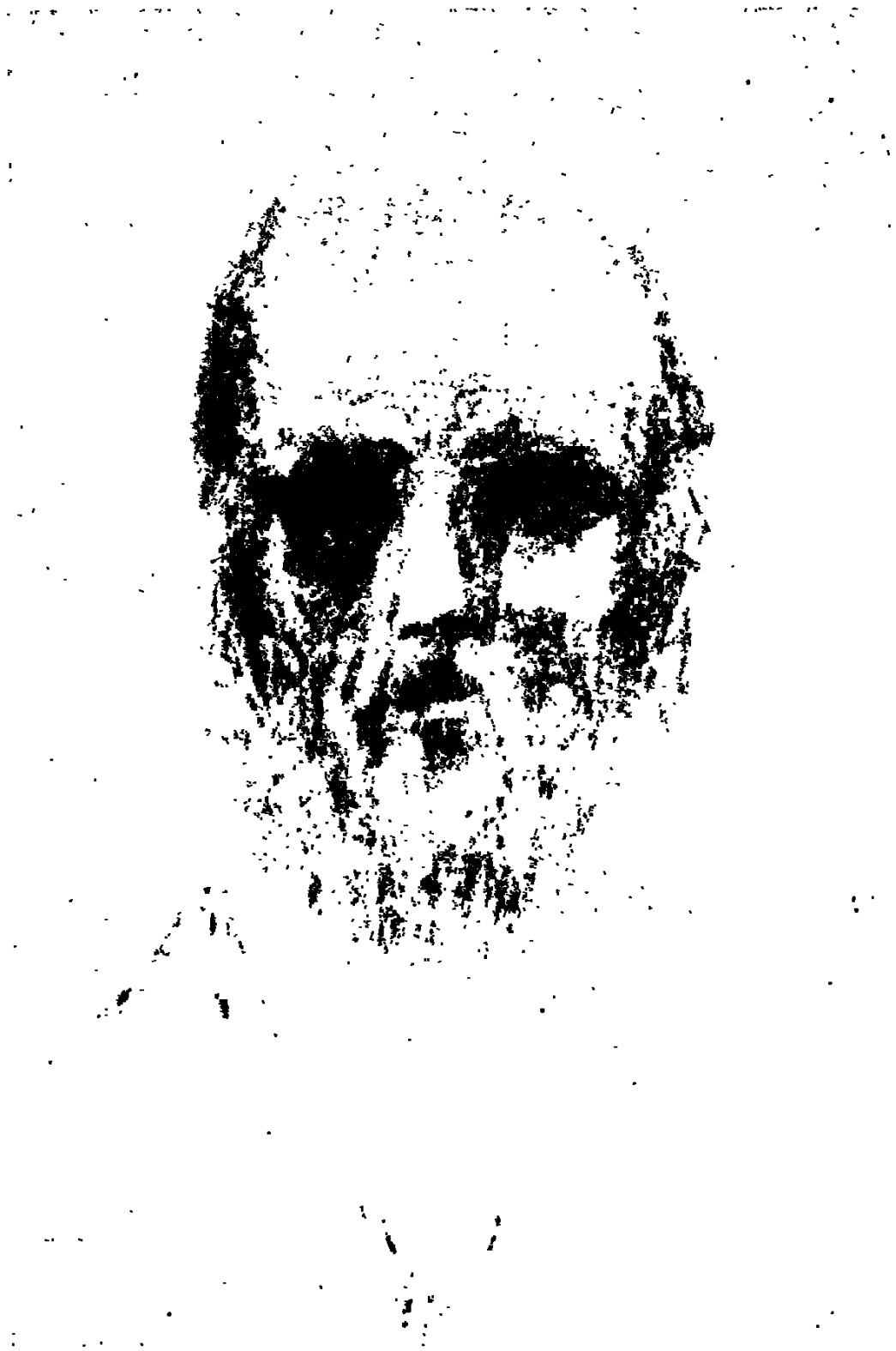
وقد يُظن أن ألبوشا كان محدود العقل قليل الذكاء ، بدليل أنه لم يتم دراسته فى الكلية ، النخ . فأما أنه قطع دراسته فذلك أمر لا أنكره ، غير أن حسابانه رجلا غبيا أو محدودا أمر فيه ظلم كبير . ولا أستطيع هنا الا أن أكرر ما سبق أن قلته : وهو أنه لم يختر هذه الطريق الا لأنها الطريق الوحيدة التى كانت تجتذبه فى تلك الآونة ، لأنها الطريق الوحيدة التى تتيح له فرصة رائية هى أن يتمكن مرة واحدة من حل الصراعات القائمة فى نفسه ومن الخلاص من عالم الظلمات والانطلاق نحو النور . تذكروا أيضا أن هذا الشاب كان من أبناء جيلنا بعض الشيء ، أى كان انسانا ذا طبيعة صادقة شريفة تريد « الحقيقة » وتسعى اليها وتؤمن بها . فلما اهتدى اليها أصبح يرغب رغبة عارمة فى أن يقف على خدمتها كل روحه ، وأن يؤكد ايمانه بأفعال من غير ابطاء أو تلكؤ ، وأن يثبت عقيدته بالتضحية على الفور ، يحرقه الشوق الى العدول عن كل شيء فى سبيلها والزهد بكل شيء من أجلها ، ولو كان هذا الشيء هو الحياة ذاتها . من المؤسف أن الشباب الذين من هذا النوع لا يدركون

أن التضحية بالحياة قد تكون بين جميع انواع التضحيات أقلها صعوبة في كثير من الأحوال ، وان الزامهم انفسهم ببذل الجهد الشاق خلال خمس سنين أو ستة من الدراسة - ولو لمضاعفة وسائل تأثيرهم وأدوات عملهم بالمعرفة المكتسبة - بغية أن يخدموا بعد ذلك العقيدة التي يريدون ان يندروا انفسهم لها ، وبغية أن يحققوا أعمالهم التي يحلمون بها تحقيقاً أتم وأكمل ، اقول ان الزامهم انفسهم ببذل هذا الجهد يتطلب شجاعة أكثر من الشجاعة التي تتطلبها التضحية بحياتهم . تلك صورة أخرى من التضحية قد تفوق في كثير من الأحوال قوى هؤلاء الشباب . صحيح أن أليوشا قد اختار طريقاً تعارض الطريق التي كان يسلكها في ذلك الزمان أكثر معاصريه ، ولكنه اندفع في هذه الطريق برغبة قوية حارة في الفعل والعمل لا تقل عن رغبة الآخرين . انه منذ فكر تفكيراً عميقاً فافتتح بوجود الله وخلود الروح قال لنفسه على نحو طبيعي تماماً : « اننى أريد أن أعيش للخلود ، واننى أرفض التسويات وأنصاف الحلول » . ولو قد انتهى الى نتيجة أخرى فافتتح بأنه لا وجود لله ولا وجود للخلود لما اختلف الأمر ، ولأصبح على الفور ملحداً واشتراكياً (لأن الاشتراكية ليست نظرة الى مسألة الطبقة العاملة فحسب أو ما يطلق عليه اسم « الدولة الرابعة » ، وانما هي قبل كل شيء نظرة الحادية وتجسيد حديث للكفر بالدين . انها قصة برج بابل القديمة التي أراد البشر أن يشيدوه بلا اله كما يحاولون ذلك الآن ، لا ليرتفعوا من الأرض الى السماوات ، بل لينزلوا السماء الى الأرض) . ما كان لأليوشا أن يتصور أن يظل يعيش كما كان يعيش في الماضي . لقد قيل : « هب كل ما تملك واتبعنى اذا أردت أن تبلغ الكمال » ، فحدث أليوشا نفسه قائلاً : « هل فى وسعى أن أهب روبلين فحسب ، بدلا من أن أهب » كل شيء ، ؟ واذا أردت أن أستجيب لنداء « اتبعنى » فهل أكتفى بالذهاب الى

الصلاة ؟ ، • من الجائز أن يكون الدير المجاور لمدينتنا قد احتل مكانا في ذكريات طفولته ، وأن تكون أمه قد مضت به الى الدير في الماضي للصلاة ؛ ومن الجائز أن تكون رؤيا الأشعة المائلة ترسلها الشمس الغاربة أمام الأيقونة التي كانت ترفع أمه ذراعها نحوها وتمده اليها ، من الجائز أن تكون هذه الرؤيا قد جذبتة أيضا • ونهما يكن من أمر فقد جاء الى مدينتنا في ذلك الوقت مفكراً حالماً ، ربما للاستطلاع وحده ، ربما ليرى هل يعطى « كل شيء » أم يعطى روبلين فحسب • ولكنه التقى في الدير بشيخ الرهبان ذاك •

انه شيخ الرهبان زوسيم ، كما سبق أن أشرت الى ذلك • وقد آن لي أن أقول هنا بضع كلمات عن الدور الذي يمثله ، على وجه عام ، شيوخ الرهبان في أديرتنا • سوف أحاول ، رغم اننى أشعر ، على أسف ، بأننى لست بالعالم الكفء في هذا المجال ، وبأن معارفى ليست راسخة جدا في هذه الشؤون ، سأحاول أن أشرح الأمر شرحاً موجزاً سطحياً • ويجب أن أذكر قبل كل شيء ان المختصين في هذه الأمور والمطلعين عليها يؤكدون أن شيوخ الرهبان والمؤسسة التي يمثلونها لم تظهر لدينا في الأديرة الروسية الا في عهد متأخر بعض التأخر ، في عهد لا يكاد يرجع الى أكثر من مائة سنة ، على حين أنها وجدت في الشرق الأرثوذكسى كله ، وخاصة على جبل سينا وجبل آثوس منذ أكثر من ألف عام • ويقال ان شيوخ الرهبان هؤلاء قد وجدوا في روسيا في أزمنة بعيدة ، أو لعلهم وجدوا فيها ، ولكن ما أحاق ببلادنا بعد ذلك من مصائب ، وما حل بها من الغزو التتارى والاضطرابات الداخلية وانقطاع الصلات بالشرق بعد سقوط القسطنطينية ، قد قضى على هذه المؤسسة فلم يبق لشيوخ الرهبان وجود • ثم لم تقم هذه المؤسسة مرة أخرى بعد ذلك في بلادنا الا في نهاية القرن الماضى على يد أحد كبار

المناضلين منا في سبيل الايمان ، ألا وهو الناسك بائسى فيلتشوفسكى *
(كان يسمى ناسكاً) ، وعلى يد مرديه ، غير أنها لم توجد خلال تلك
المدة كلها ، وهي تقارب مائة عام ، الا في عدد صغير من الأديرة ، بل
لقد أثار عدوة شديدة لها وصلت أحيانا الى حد الاضطهاد والتعذيب
كما لو كانت بدعةً خارقة . ويقال ان هذه المؤسسة قد نمت خاصةً
(في روسيا) في الصحراء الشهيرة ، صحراء كوزلسكايا أوبتينا * . أما
متى دخلتُ الدير المجاور لمدينتنا ، ومن أدخلها الى هذا الدير ، فذلك
أمر اعترف بأننى أجهله ، ولكنى أعرف أن قد تعاقب على هذا الدير
ثلاثة شيوخ ، آخرهم زوسيم . كان زوسيم يحس أنه يوشك أن
يموت من الضعف والمرض ، وكان لا يُعرف من الذى سيحل محله اذا
مات . ان لهذه المسألة شأنًا خطيرا بالنسبة الى ديرنا الذى لم يكن يملك
شيئا يمكن أن يكفل له الشهرة : فلا رفات قديسين ، ولا أيقونات لها
معجزات معترف بها ، بل ولا أساطير جميلة تضمن للدير أن يرتبط
بتاريخنا القومى . ان هذا الدير لم يشارك فى أى عمل باهر ، ولم
يسهم فى أى عمل وطنى . انه لم يحصل على المجد ولم يصبح شهيرا
فى روسيا كلها الا بفضل مشايخه الذين كانوا يجذبون الحجاج ذرافات
من جميع أنحاء البلاد ، من مناطق تبعد عن مدينتنا آلاف الفراسخ ، رغبة
فى رؤية هؤلاء الرجال والاستماع اليهم . فما هو الشيخ على وجه
التحديد ؟ انه السيد المطلق الذى يسيطر على النفوس والارادات ،
ويحتوى فى ذاته جميع ما تجيش به نفوس مرديه من صبوات وأفكار .
فحين يختار المرید شيئا لنفسه يتنازل عن حرته ، ويلزم نفسه بطاعة
مطلقة ، ناسيا ذاته كل النسيان . والذى يختار هذا النظام القاسى ،
ويرضى تعلم الحياة على هذه الطريقة الرهيبة ، انما يفعل ذلك بارادته،
أملًا فى أن يصل ، بعد محنٍ طويلة ، الى التغلب على ذاته ، والى



الشيخ زوسيم
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورسكوف

أن يكتسب هكذا ، بالطاعة المتصلة المستمرة ، الى الحرية الحقيقية : أى يتخلص من ذاته ويفلت من مصير أولئك الذين يطوفون في طريق الحياة دون أن يصلوا الى معرفة أنفسهم ، ودون أن يستطيعوا اكتشاف حقيقتهم . ونظام المشايخ هذا لم ينشأ من تأمل مجرد نظري ، وانما نشأ في الشرق من ممارسة يرجع عهدا الى أكثر من ألف عام ، قبل أن يدخل الى بلادنا . ان الواجبات التي تشد الراهب الى شيخه تمضي الى أبعد من مجرد « الطاعة » التي كانت سائدة على الدوام في أديرتنا الروسية . فان الرابطة التي تربط الراهب بشيخه في هذا النظام تفرض نقية دائمة لا حدود لها ، هي نوع من الاعتراف المستمر للشيخ في اتصال روحي أصبح لا يقبل الانفصام بحال من الأحوال . يحكى مثلا أن راهبا مبتدئا من رهبان هذا النظام ، في القرون الأولى من المسيحية ، أبى أن يخضع لقاعدة فرضها عليه شيخه ، فترك الشيخ والدير وذهب الى بلد آخر ، ذهب من سوريا الى مصر ، فيما يقال ، فاشتهر في البلد الجديد الذي مضى اليه بمزايا رفيعة وأعمال عظيمة ، واستطاع أخيرا أن يظفر بمجد الاستشهاد حين مات في سبيل الدين . وأخذت الكنيسة تستعد لدفنه على أنه قديس من القديسين ، فما كاد الكهنة يفرغون من تلاوة الصلوات ، حتى رأوا التابوت التي يضم رفات الشهيد يرتفع فجأة ويخرج من الكنيسة مسرعا ، وتكرر ذلك ثلاث مرات . وعرف أخيرا أن هذا القديس الذي استشهد انما خالف في الماضي أوامر شيخه وخرج على طاعته وهجره ، فلذلك لا يمكن أن ينال الغفران ، رغم جميع أعماله العظيمة ، مالم يأذن بذلك شيخه . واستدعى الشيخ ، ولم يمكن دفن الراهب الا بعد أن أعفاه شيخه من واجب طاعته . تلكم أسطورة قديمة طبعا ، ولكن اليكم قصة حديثة صادقة : اعتكف راهب من الرهبان الذين كانوا يعيشون في عصرنا * ، اعتكف في دير بجبل آثوس ، وهذا شيخه

يأمره فجأة بأن يترك جبل آتوس هذا الذي ارتبط به الراهب ارتباطا شديدا وتعلقت به نفسه تعلقا عظيما وأصبح يؤثره على كل ما عداه من أرجاء ، لأنه وجد فيه شاطئ الأمان ؛ أمره الشيخ أن يذهب أولا الى بيت المقدس فيحجج الى الأماكن المقدسة ، وأن يعود بعد ذلك الى شمال روسيا ، الى سيبيريا • قال له الشيخ : « هنالك مكانك لا هنا » • حزن الراهب حزنا شديدا ، واستبد به كرب خانق ويأس مضمي ، فمضى الى القسطنطينية ، وسعى الى رئيس البطارقة ، وتوسل اليه أن يعفيه من واجب الطاعة • ولكن البطريق أجابه بأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك ، رغم رتبته ، وبأنه لا توجد ولا يمكن أن توجد في العالم أية سلطة يمكنها أن تعفيه من هذا الواجب ، الا شيخه الذي فرضه عليه وألزمه به • هكذا يتمتع المشايخ بسلطة يمكن أن تصبح في بعض الأحوال مطلقة غير ذات حدود • وذلكم هو السبب في أن أنصار هذا النظام قد تعرضوا في كثير من أديرتنا في أول الأمر لمعارضة شديدة أوشكت أن تستحيل الى اضطهاد • ولكن الشعب قد أجل المشايخ اجلالا كبيرا وقدسهم تقديسا عظيما • من ذلك مثلا أن مشايخ ديرنا كانوا يستقبلون زوارا يتوافدون عليهم حشودا غفيرة من صغار الناس أو من علية القوم ، يظهرون لهم اكارهم واعجابهم ويُسرتون اليهم ، في مذلة ، بما يساور نفوسهم من ريب وشكوك ، وبما ارتكبوا من خطايا وآثام ، وبما يقاسون من عذاب وآلام ، طالين اليهم أن يسدوا اليهم بالنصح وأن يمدوهم بالتوجيه والارشاد • وقد استاء خصوم المشايخ من هذه الحظوة التي نالوها وهذه الثقة التي اكتسبوها فادعوا فيما ادعوا أن هذه الطريقة بدعة طائشة تفسد قداسة الاعتراف ، مع أن ما كان يبوح به الرهبان المبتدئون أو الأشخاص العاديون لهؤلاء المشايخ لم يكن يتم على أسلوب الاعتراف • غير أن نظام المشايخ هذا قد استقر أخيرا في بلادنا ، وامتد شيئا فشيئا الى

أديرتنا • يجب أن نعترف ، مع ذلك ، أن هذا الأسلوب الذي يرجع
عهده الى أكثر من ألف عام ، والذي كان الهدف منه تحقيق اصلاح
روحي للانسانية يرفعها من العبودية الى الحرية ، ويحقق لها كمالاً
روحياً ، يمكن أن يصبح في بعض الأحوال سلاحاً ذا حدين ، وأن يخلق
لدى بعضهم ، لا تواضعا وسيطرة كاملة على الذات ، بل غطرسة خيثة
وعنجهية شيطانية ، أى أن يؤدي الى استعباد النفس بدلا من تحريرها •
ان الشيخ زوسيمو هو الآن في الخامسة والستين من عمره ، كان
في سالف الزمان « بوميسستشيك » انخرط في العسكرية في صدر شبابه ،
وعمل ضابطا في القفقاس • لا شك أن شيئا ما كان ينبع من روحه ،
فأحدث في نفس أليوشا تأثيرا قويا • كان أليوشا يعيش في الحجره نفسها
التي كان يعيش فيها الشيخ ، وقد عطف الشيخ على أليوشا عطفاً كبيراً ،
فارتضى أن يكون له ولياً حميماً • يحسن أن نذكر هنا أن أليوشا ، رغم
أنه يعيش الآن في الدير ، لم يكن قد ارتبط بعد بأية قاعدة ، ولم يكن
قد تقيد بأية أصول ، فهو يستطيع أن يغيب عن الدير ما شاء له هواه أن
يغيب ، وربما غاب عن الدير أياماً بكاملها • ولئن ارتدى مسوح الرهبان ،
فلقد فعل ذلك بإرادته ، حتى لا يتميز عن الرهبان في شيء • على أن
من الواضح أنه كان يجد في ذلك رضى وغبطة أيضاً • ولعل خيال
أليوشا المراهق قد افتن افتناناً قويا بهالة السلطة ومهابة المجد اللتين
كانتا تحيطان بشيخه • ويقان ان زوسيمو هذا كان قد اكتسب من طول
ما استقبل خلال هذه السنين الكثيرة كلها جميع أولئك الذين كانوا
يجيئون اليه فيفتحون له قلوبهم راغبين رغبة قوية عنيفة في أن يسدى
اليهم بنصائحه أو أن يشفيهم بأقواله ، قد اكتسب قدرة غريبة على معرفة
النفوس ، وموهبة عظيمة في النفاذ الى أعماق القلوب ؛ حتى لقد أصبح
فيما يقال ، بعد الذي سمعه من اعترافات وعرفه من أسرار وما أفضى به

إليه ذلك العدد الغفير من الناس من شجّون قلوبهم ولواعج ضمائرهم الخفية المستسرة ، قد أصبح قادرا منذ أول نظرة يلقيها على وجه زائر مجهول على أن يحزر الغاية من مجيئه والرغبة التي تجيش في نفسه وحتى الآلام الخبيثة التي تعذب ضميره ، فكان بهذه القدرة على التنبؤ يوقظ الدهشة ويبعث الاضطراب فيمن يلقونه لأول مرة ، حتى ليكاد يرمى في قلوبهم الذعر حين يكتشف سر قلوبهم من قبل أن يفتحوا أفواههم بكلمة واحدة . وقد لاحظ أليوشا مع ذلك أن أكثر الأشخاص الذين كانوا يدخلون على الشيخ دون أن يعرفوه ، من أجل أن يتحدثوا معه حديثا حميما لأول مرة ، كان يبدو عليهم عند وصولهم اضطراب وخوف ، حتى إذا خرجوا بعد ذلك من عنده كان جميعهم أو جميعهم تقريبا يخرج رابط الجأش ثابت الجنان هادئ النفس مطمئن البال مشرق الوجه متهلل الأسارير ، وأن أشد الوجوه ظلماً وجهامة في أول الأمر كان عندئذ يشع بضياء السعادة . ومما خطف بصر أليوشا من جهة أخرى أن الشيخ لم يكن قاسيا البتة . بالعكس : لقد كان حين يتحدث إلى الناس أميل إلى الفرح والمرح . وكان الرهبان يؤكدون أن الشيخ يحب خاصة أولئك الذين تحمل ضمائرهم عددا أكبر من الآثام ، وأن عاطفته تنصرف إلى من هم بين الناس أكثرهم خطايا . صحيح أنه كان بين رجال الدير ، حتى في نهاية حياة الشيخ ، رهبان يحملون له كرهاً ويشعرون نحوه بحسد ، ولكن هؤلاء كانوا قلة قليلة ، وكانوا لا ينتقدونه صراحة ، رغم أن بينهم شخصيات شهيرة كان لها في الدير نفوذ كبير ، كذلك الراهب الذي كان من أقدم رهبان الدير ، والذي اشتهر بما كان يأخذ به نفسه من صيام عن الطعام والكلام . غير أن أكثر الرهبان قد انحازوا إلى الشيخ نهائيا ، وكان بينهم من يحبونه حبا عميقا من صميم القلب ، بل إن منهم من أخلصوا له إخلاصا يوشك أن يكون تعصبا ،

فكان هؤلاء لا يترددون أن يعلنوا ، خافضين أصواتهم مع ذلك ، أن هذا الشيخ قديس ، وأنه لا يجوز أن يتطرق الى الأذهان أى شك فى أنه قديس ؛ واذ كانوا يتنبأون بموته قريبا ، فقد كانوا يتوقعون أن تحدث معجزات مباشرة ، وكانوا يسعدون سلفا للمجد الذى سيناله الدير فى مستقبل قريب ، لأنه سيضم رفات انسان مثله . وكان أليوشا يؤمن ايمانا جازما بما للشيخ من قدرة على المعجزات ، مثلما كان مقتنعا اقتناعا قاطعا بصدق حكاية التابوت الذى اندفع الى خارج المعبد . لقد شهد أليوشا مرارا استقبال زوار يصطحبون أولادهم أو أهلهم المقعدين ، جاؤا يسألون الشيخ أن يضع يديه عليهم وأن يدعو الله لهم ، فما هو الا زمن قصير قد لا يتجاوز يوما واحدا اذا هم يعودون فيرتمون على قدمي الشيخ شاكرين له أنه شفى مرضاهم ! لم يخطر على بال أليوشا أن يتساءل هل تمَّ الشفاء بمعجزة أم كان الشفاء تحسنا طبيعيا فى حالة أولئك المرضى ، لأن ايمانه بما يملكه الشيخ من قدرة فوق الطبيعة كان ايمانا عميقا ، ولأن مجد شيخه قد أصبح فى نظره نصراً شخصيا له ، كان قلبه يشعر بفرح عميق ، وكان وجهه يضيء بسعادة عظيمة ، حين كان الشيخ يقرب من جمهرة الناس البسطاء الذين ينتظرونه عند مدخل المنسك ، حاجين اليه من جميع أرجاء روسيا ، بغية أن يروه وأن ينالوا مباركته : كانوا ينحنون أمامه ، ويبكون ، ويقبلون يديه ، بل ويقبلون الأرض التى سار عليها ويصبحون صيحات الوجد والنشوة . وكانت النساء تمد اليه أطفالها أو تجيئته برجالها ليشفيهم . فكان الشيخ يحدثهن ، ويتلو دعاء قصيرا ، وباركهن قبل أن يصرفهن . وقد أصبحت نوبات المرض فى الأونة الأخيرة تبلغ من اضعافه فى بعض الأحيان أن لا يملك من القوة ما يمكنه من ترك حجرته ، فكان الحجاج ينتظرون خروجه أياما بكاملها . ان أليوشا يرى أن من الطبيعى أن يحب الحجاج هذا الشيخ حب العبادة .

انه يفهم لماذا يرتمون على قدميه ويكون حناناً حين يرون وجهه • كان أليوشا يشعر شعوراً قويا بأن نفساً مذعنة كنفس الشعب الروسي ، نفساً يرهقها العمل والعذاب ، ويضنيها الظلم الأبدي والخطايا اليومية خاصة - خطايا الناس وخطايا هي - كان أليوشا يشعر أن نفساً كهذه لا يوجد بالنسبة إليها حاجة أقوى ولا عزاء أعظم من أن تملك هيكلًا أو قديساً تستطيع أن تركع أمامه متعبدة قائلة : « انا نعيش في الخطيئة والكذب والغواية ، ولكن لا ضير ... ما دام يوجد في مكان ما على هذه الأرض قديس وانسان هو خير منا ؟ فهذا الانسان يملك الحقيقة على الأقل ، ويعرف أين هي الحقيقة ، فلا يمكن اذن أن تهلك الحقيقة في هذا العالم ، ولسوف نعرفها نحن أيضاً في ذات يوم ، لأنها ستسود العالم ، كما جاء في الكتاب . » • كان أليوشا يعلم أن الشعب يحس ويفكر على هذا النحو ، وكان هو يفهم الشعب • فأما أن الشيخ هو القديس وهو الانسان الذي عهد اليه الرب بالحفاظ على الحقيقة للشعب ، فذلك أمر كان أليوشا لا يشك فيه لحظة واحدة ، وكان يؤمن به ايماناً لا يقل عمقاً عن ايمان الفلاحين الباكين وزوجاتهم المريضات أو عن ايمان الفلاحات اللواتي يمددن صغارهن الى الشيخ ؛ ولعل يقينه من أن الشيخ سيهب للدير بعد وفاته مجدداً خارقاً كان أرسنخ وأقوى من يقين أي راهب آخر . ثم ان قلبه قد أصبح منذ زمن يزخر بمزيد من حماسة عميقة تلهبه يوماً بعد يوم • وكان لا يقلقه أن يتصور أن قداسة هذا الشيخ أمر استثنائي في هذا العالم رغم كل شيء • كان يقول لنفسه : « أي بأس في هذا ! انه قديس ، وان قلبه يضم سرّاً بعث جميع البشر ، فيه تكمن القدرة التي ستكفل انتصار الحقيقة على هذه الأرض بغية أن يصير جميع الناس قديسين وأن يحب بعضهم بعضاً ، فلا فقراء ولا أغنياء ، ولا متكبرين ولا مستذلين ، لأنهم جميعاً سيصبحون كأبناء الرب ، وسيسود ملكوت

يسوع المسيح ، ، ، ذلك كان الحلم الذي يملأ قلب أليوشا .
ويظهر أن وصول أخويه اللذين لم يكن يعرفهما حتى ذلك الحين
قد أحدث في نفس أليوشا أثراً كبيراً في تلك الآونة . لقد تفاهم مع
أخيه غير الشقيق ، دمترى فيدوروفتش ، تفاهما أسرع وأعمق من
تفاهمه مع أخيه الشقيق ايفان فيدوروفتش ، رغم أن ايفان قد وصل قبل
دمترى . كان يرغب رغبة قوية في أن يعرف أخاه ايفان عن كذب ، ولكن
رغم أنهما يعيشان تحت سقف واحد منذ شهرين ، ورغم أنهما يلتقيان
كثيراً ، لم يحدث بينهما أي تقارب حقيقي : فأما أليوشا فكان يظل صامتاً .
لا يتكلم ، ويبدو أنه ينتظر شيئاً ما أو ينطوي على نفسه في نوع من
الخشية أو من الحرج الداخلي ؛ وأما ايفان الذي لاحظ أليوشا نظراته
الطويلة المنفرسة في البداية ، فقد بدا أنه سرعان ما عزف عنه فأصبح
لا يهتم به . وكان أليوشا يعزو قلة تكررات أخيه الى ما بينهما من فرق
في السن والثقافة . غير أن تعليلاً آخر كان يساور فكره أحياناً ، فكان
يتساءل : ألا يمكن أن تكون قلة تكررات ايفان ناشئة عن سبب ما يزال
يجهله ، عن سبب لا يدركه البتة ؟ لقد كان يبدو له ان ايفان مشغول
البال دائماً بشيء ما ، بمسألة نفسية لعلها خطيرة جداً ، وأنه يتطلع الى
بلوغ هدف لعله رفيع جداً وصعب جداً ، فما يتسع وقته كثيراً لأن يلتفت
الى أخيه وأن يفكر فيه . أفلا يكون هذا هو السبب الحقيقي الوحيد
لموقفه منه ، وذهوله عنه ؟ وكان هنالك أمر آخر يقلق أليوشا : ألا يمكن
أن يشتمل هذا الموقف على شيء من الاحتقار يشعر به عالم ملحد تجاه
راهب مبتدئ غبي ؟ لقد كان أليوشا يعلم أن أخاه لا يؤمن بالله . ان
مثل هذا الاحتقار - اذا وجد - قد لا يكدر أليوشا ، ومع ذلك كان
أليوشا ينتظر ، بقلق غامض تخالطه خشية ، اللحظة التي يقرر فيها
أخوه أن يقترب منه . أما دمترى فيدوروفتش فقد كان يتحدث عن أخيه

ايفان بكثير من الاحترام ، ويتكلم عليه بلهجة فيها حماسة عظيمة . ومن دمترى انما عرف أليوشا جميع تفاصيل القضية التي خلقت بين الأخوين في الآونة الأخيرة هذه الصلة الحميمة وشدت أحدهما الى الآخر شداً وثيقاً . وكانت هذه الحماسة التي يظهرها دمترى في تقدير أخيه ايفان تكتسب مزيداً من الدلالة في نظر أليوشا لأن دمترى كان بالقياس الى ايفان رجلاً لا يكاد ينعم بأى حظ من ثقافة ، فاذا قارنا بين الأخوين وجدناهما يبلغان من عمق اختلاف أحدهما عن الآخر في الطبع والشخصية أن من الصعب على المرء أن يتصور انسانين بينهما من قوة التآفر وشدّة التفاوت ما بين هذين الأخوين .

وفي تلك الفترة بعينها انما تم اللقاء العائلي أو قل الاجتماع العائلي في حجرة الشيخ زوسيميا بين جميع أفراد هذه الأسرة المتآفرة ، وذلك حادث كان له في أليوشا تأثير كبير . الحق أن الحجبة التي اتخذت ذريعة لهذا اللقاء كانت باطلة . ان الخلاف الناشب بين دمترى فيدوروفتش وأبيسه فيدور بافلوفتش حول الميراث وتصفية الحساب كان قد بلغ في تلك اللحظة أوجه ، وان العلاقات المتوترة الى أقصى حدود التوتر بين الأب وابنه كانت قد أصبحت لا تطاق . وان فيدور بافلوفتش هو الذي اقترح - مازحاً فيما يظهر - أن يُعقد اجتماع في حجرة الشيخ زوسيميا بغية الوصول الى التفاهم بروح أقرب الى المسودة وأدنى الى الصفاء ، دون اللجوء الى تدخل الشيخ في الأمر بالضرورة : ذلك أن منزلة هذا الانسان المحترم وشخصيته كفيلتان بأن تؤثرا في الجميع تأثيراً يهدى النفوس ويصالح القلوب . وقد تخيل دمترى فيدوروفتش ، الذي لم يسبق له أن زار الشيخ يوماً والذي لم يكن يعرفه حتى بالنظر ، تخيل طبعاً أن الغرض من هذا الاجتماع انما هو تخويفه بسلطان هذا الشيخ . ومع ذلك قبل دمترى هذا التحدي ، لأنه كان في سرّه يلوم نفسه على الحدة العنيفة

والنزق الشديد فيما كان يوجهه الى أبيه من قارص الكلام وهاجر القول أحيانا كثيرة في الآونة الأخيرة • ويحسن أن نذكر هنا أنه كان لا يسكن في منزل أبيه ، كأخيه ايفان فيدوروفتش ، وإنما كان يقطن وحيدا في الطرف الآخر من المدينة • وقد حدث أثناء هذه الظروف أن بطرس ألكسندروفتش ميوسوف الذي كان يقيم في مدينتسا آنذاك ، أن تبني الرأي الذي اقترحه فيدور بافلوفتش • انه ، وهو اللبرالي على طراز سنوات ١٨٤٠ - ١٨٥٠ ، المتحرر من العقائد الكافر بالأديان ، قد ساهم في هذه القضية مساهمة فعالة ، ربما عن ضجر وسأم ، وربما عن رغبة طائشة في السخرية والاستهزاء • وقد انتهى فجأة أن يرى الدير وأن يرى « قديس » الدير • واذ كانت الدعوى القائمة بينه وبين الدير قد طال عليها الأمد ، واذ أن النزاع بينه وبين الدير على تعيين حدود أراضيهِ وحدود أراضي الدير ، وعلى الحقوق الغامضة في قطع أشجار الغابات وصيد أسماك النهر ، لم يكن قد حُسم حتى ذلك الحين ، فقد أسرع ينتهز هذا الطرف متعللا بأنه يريد أن يكلم كبير الرهبان* شخصا ، فسي أن يكون ذلك وسيلةً لتصفية الخلاف بالود دون احتكام الى القضاء ! وقد ذكر في تأييد رأيه هذا أنه اذا دخل الدير على هذه النية الحميدة فيمكن أن يُستقبل استقبالاً لطف وأكرم من الاستقبال الذي سيستقبل به ، لو ذهب الى الدير بدافع الاستطلاع والفضول لا أكثر • وقد أتاحت هذه الاعتبارات المختلفة تحريك بعض المؤثرات في داخل الدير ، وفعلت فعلها في الشيخ المريض الذي أصبح منذ زمن لا يكاد يبارح غرفته ، وأصبح يرفض بسبب حالته استقبال زائريه الذين ألفوا أن يقدوا اليه • لقد وافق الشيخ على الاجتماع ، وحدد موعد للقاء ، واقصر الشيخ على أن يقول لأليوشا وهو يتسم : « ما أنا في الحقيقة حتى يحق لي أن أكون حكماً بينهما ؟ » .

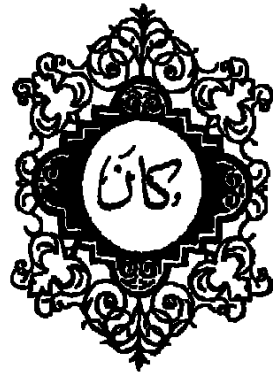
حين علم أليوشا بأمر هذا الاجتماع قلق قلقا شديدا واضطرب اضطرابا عظيما . لا شك ان أخاه دمترى هو بين مائر ذويه الذين تقسمهم هذه المنازعات والمشاجرات ، هو الشخص الوحيد الذى يمكن أن يأخذ هذا الاجتماع مأخذ الجد . أما الآخرون فلعلمهم لا يذهبون الى الدير الا لبواعث طائشة وأسباب سخيفة قد تسيء الى الشيخ وتجرح شعوره . كان أليوشا يدرك ذلك حق الادراك . فأخوه ايفان والسيد ميوسوف لن يأتيا الى الدير الا بداعى حب الاستطلاع ، وربما بداعى الفضول الفظ الغليظ . أما أبوه فليس بالمستبعد أن يكون فى نيته تمثيل مهزلة ساخرة مهرجة . ذلك أن أليوشا ان كان يحسن الصمت ، فلقد كان يعرف أباه ، بل كان يعرفه معرفة عميقة . يجب أن أكرر أن هذا القتي كان أذكى فؤاداً وأنفذ بصيرة مما كان يتخيل أكثر الناس . لذلك أخذ ينتظر يوم اللقاء واجف القلب مهموم النفس . صحيح أنه كان فى قرارة نفسه يتمنى كثيرا أن تنتهى هذه المنازعات العائلية على نحو من الأنحاء . غير أن اهتماماته الأساسية كانت منصرفة الى الشيخ ، فكان يرتعد قلقاً عليه ، وحرصا على مجده ، وكان يخشى أن يلحقوا به اهانة أو أن يمسوه بسوء ، وكان يخشى خاصة السخريات اللطيفة المهذبة التى يمكن أن يعمد اليها ميوسوف ، وغمزات الاحتقار التى يمكن أن يدسها أخوه العالم ايفان ، وكان يتخيل هذا كله سلفا . خطر على باله فى لحظة من اللحظات أن ينذر الشيخ ، أن يقول له كلمتين عن أهله هؤلاء الذين يستعدون لزيارته ، ولكنه بعد أن فكر فى الأمر آثر أن يصمت فلا يقول شيئا ، واقصر فى عشية اليوم المحدد للزيارة أن يبلغ أخاه دمترى بواسطة صديق لهما كليهما أنه يحبه كثيرا وانه يعتمد على وعده . واحتار دمترى فى أمر هذه الرسالة وأخذ يفرض الفروض ويخمن التخمينات فى فهم معناها ، ذلك أنه لا يتذكر أنه قطع على نفسه لأليوشا أى عهد ،

ثم أجاب أخاه في رسالة مكتوبة بأنه سيبدل قصارى جهوده في سبيل أن يسيطر على نفسه وفي سبيل أن يتجنب أي « صغار » ، وأضاف إلى ذلك قوله انه على احترامه العميق للشيخ وأخيه ايفان ، واثق ثقة عميقة بأن الأمر لا يبدو أن يكون اما فحاً يُراد له أن يقع فيه ، واما مهزلة منحطة يُراد تمثيلها ، وختم رسالته بقوله : « ومع ذلك فانتى أوتر أن أبلغ لساني على أن أقول كلاما يؤذى هذا الانسان المقدس الذي تجله وتعظمه . » • غير أن هذه الرسالة لم تكن كفيلاً بأن تطمئن أليوشا •

الباب الثاني: اجتماع في غير محله

١

الوصول الى الدير



ذلك في صبيحة يوم من أواخر شهر آب (أغسطس) ، يوم مضيء حار . ان لقاء الشيخ قد حدثت له الساعة الحادية عشرة والنصف ، بعد نهاية الصلاة الثانية فورا . ولكن أصحابنا الزائرين لم يروا أن من الضروري أن يحضروا الصلاة ، فوصلوا الى الدير لحظة انتهاء القداس . كانوا قد ركبوا عربتين . فأما الأولى فهي مركبة أنيقة من مركبات السادة يجرها حصانان جوادان ، فيها بطرس الكسندروفتش ميوسوف ، وفتى يصحبه في نحو العشرين من عمره ، اسمه بطرس فومتش كالجانوف ، وهو يمت الى ميوسوف بقربى بعيدة . ان على هذا الشاب أن يدخل الجامعة قريبا ، ولكن ميوسوف الذي كان الشاب يعيش في تلك الفترة عنده ، يريد أن يصبطحبه الى الخارج حيث يستطيع أن يتم دراسته بمتابعة المحاضرات في جامعة زوريخ أو جامعة فيينا . لم يكن كالجانوف قد عزم أمره واتخذ قراره بعد . فهو الآن واجم مفكر يبدو ذاهلاً . هو فتى قوى البنية طموح القامة حلو الوجه ، ولكن نظرته تجمد في بعض الأحيان جمودا غريبا : كان يتفق له في بعض الأحيان ، كما يتفق ذلك لجميع كبار الداهلين ، أن يحدق الى الناس تحديقا طويلا دون أن يلمح حتى وجودهم . وهو

في العادة كثير الصمت قليل الكلام ، لا يخلو من شيء من خراقة ، ولكنه يتحمس في بعض الأحيان - اذا خلا الى صديق - فينطلق عندئذ على سجيته ، ويفصح عن نفسه ، ويضحك دون تحرج ، بل ودون سبب ظاهر . على أن هذه الحماسة تزول بسرعة كما شبت بسرعة . والفتى حسن الهندام دائما ، على شيء من تأنيق . وهو يملك ثروة حسنة تكفل له الاستقلال منذ الآن ، ولكنه ينتظر مواريث أضخم وأعظم . ولقد كان صديقاً لأليوشا .

وأما العربية الثانية فقد ركبها فيدور بافلوفتش وابنه ايفان فيدوروفتش ، وهي عربية عتيقة مهترئة مترنحة مقرقة ، ولكنها فسيحة ، يجرها حصانان عجوزان أشهبان كانا يلقيان عناءً في اللحاق بمركبة ميوسوف ويتركان لها دائما أن تسبقهما .

أما دمترى فيدوروفتش فقد تأخر ، رغم أنه قد أبلغ يوم اللقاء وساعته ، منذ الليلة البارحة .

ترك الزائرون عربتهما قرب السور أمام الفندق واجتازوا أبواب الدير سيراً على الأقدام . يظهر أن أحداً من هؤلاء الزائرين ، باستثناء فيدور بافلوفتش ، لم يسبق له أن رأى الدير قبل اليوم ؛ أما ميوسوف فانه لم يضع قدميه في كنيسة من الكنائس منذ ثلاثين عاماً . كان ينظر حوالية بشيء من الاستطلاع ، دون أن يتنازل مع ذلك عن التظاهر بعدم الاهتمام وقلة الاكترات . ولكن ما من شيء في داخل هذا الدير كان يمكن أن يلفت انتباه فكره الملاحظ ، الا تلك المباني الدينية والمباني الضرورية لحياة الرهبان المشتركة ، وهي مباني ليست على حظ وافر من جمال فن العمارة . كان أواخر المصلين يخرجون من الكنيسة ويرسمون اشارة الصليب وهم ينزعون قبعاتهم عن رؤوسهم ؛ وهم أناس

من عامة الناس بينهم عدد قليل من طبقة اجتماعية أعلى ، وسيدتان أو ثلاث سيدات ، وجرال عجوز جدا . كان هؤلاء جميعا قد نزلوا في الفندق . وسرعان ما احتشد المتسولون حول أصحابنا الزائرين ، ولكن أحدا لم يهتم بهم ولم يلتفت اليهم ، باستثناء بتروشكا كالجانوف ، فقد أخرج من حافظه نقوده قطعة عشرة كوبيكات ، وسارع يدهسها مضطرباً بعض الاضطراب - لا أدري لماذا - سارع يدهسها خلسة في يد إحدى هاته الفقيرات وهو يقول لها بصوت لا يكاد يبين : « توزعوها جميعا » . لم يُبد له أحد ملاحظة على ما فعل ، فما كان له اذن أن يضطرب ، ومع ذلك فان صمتهم هذا قد بدا أنه زاد اضطرابه .

استغربوا أن أحدا لم يجيء لاستقبالهم في الدير . يظهر أنهم كانوا يتوقعون أن يُنتظروا بل وأن يُستقبلوا استقبالا فيه حفاوة . ألم يتبرع واحد منهم للدير بألف روبل في الآونة الأخيرة ؟ أليس الثاني منهم رجلاً غنياً جداً من أصحاب الأطيان ، عدا أنه على جانب عظيم من الثقافة ، وعدا أن هؤلاء الرهبان جميعا قد يتوقف أمرهم عليه وقد يصبحون رهناً به فيما يتعلق بحقوق الصيد في النهر اذا جرت القضية مجرى يتفق ودعواه ؟ ومع ذلك لم تجيء أية شخصية رسمية لاستقبال هؤلاء الزوار ! أجال ميوسوف نظرة ذاهلة على أحجار القبور المجاورة للكنيسة ، وهم أن يقول ان أهل هؤلاء الموتى لا بد أن يكونوا قد دفعوا مبالغ طائلة من المال حتى حق لهم أن يدفون موتاهم في مكان يبلغ هذا المبلغ من « القداسة » ، ولكنه صمت ولم يقل شيئاً ، ثم اذا بالسخرية اللبرالية تحرك في نفسه نوعاً من غضب فقال فجأة وكأنه يخاطب نفسه :

— لا يعلم الا الشيطان من الذي ستتجه اليه في هذه الفوضى . . .

وعلينا مع ذلك أن نسرع فان الوقت يمضي . . .

وفى تلك اللحظة اقترب منهم سيد متقدم فى السن ، أصلح ، متلطف النظرة • انه يرتدى معطفاً فضفاضاً من معاطف الصيف • رفع الرجل قبعته ، وقدم نفسه اليهم جميعاً ، بصوت متعذب مترقق ينطق الجيم زائياً ، قائلاً انه الملاك ماكسيموف من إقليم تولا • وسرعان ما أدرك حيرة القادمين فقال :

- ان الشيخ زوسىما يقطن الصومعة فى مكان منزوٍ على مسافة أربعمائة قدمٍ من الدير • فيجب للذهاب اليه اجتياز الغابة الصغيرة ، هذه الغابة الصغيرة •••

فأجاب فيدور بافلوفتش :

- أعرف أن منسكه يقع وراء الغابة الصغيرة ، ولكننا نسينا الطريق اليه ، لأننا لم نجىء الى هنا من زمان طويل •••••

قال الرجل :

- يجب اجتياز هذا الباب ، ثم السير رأساً فى الغابة ••• الغابة الصغيرة •• هياً بنا •• هل أستطيع أن •• انى أنا أيضاً ، أنا أيضاً •• الطريق من هنا ، من هنا ! ••

خرج الجميع من الباب وساروا فى الغابة • كان مالك الأطيان ماكسيموف ، وهو رجل فى نحو الستين من عمره يسير الى جانبهم ، بل قل يكاد يركض الى جانبهم ركضاً ، وهو يتفرس فيهم بنسوع من استطلاع متشنج لا يطاق ، وقد اتسعت عيناه اتساعاً يدعو الى الدهشة • قال ميوسوف بلهجة قاسية :

- يجب أن أقول لك اتنا ذاهبون الى هذا الشيخ لأمر تتعلق بنا وحدنا ، وقد فزنا بالحصول على موعد لمقابلة هذه « الشخصية » ، فلعلك

تدرك اذن أننا مع شكرنا لك على أنك تدلنا على الطريق نسألك أن
لا تصحبنا في الدخول عليه •

– لقد كنت عنده ••• كنت عنده ••• هو فارس عظيم ••

قال الرجل ذلك وهو يصفق بأصابعه في الهواء •

سأل ميوسوف :

– من ؟ من هذا الذى تصفه بأنه فارس ؟

– الشيخ ، الشيخ العظيم ، هذا الشيخ ••• شرف هذا الدير

ومجده •• زوسيمًا •• ذلك الشيخ •

وفى تلك اللحظة لحق بجماعة الزوار راهب قصير القامة ، شديد
النحول ، شاحب اللون جداً ، يرتدى برنساً ، فقطع على مالك الأتيان
حديثه المضطرب المفكك • توقف فيدور بافلوفتش وميوسوف • وخطبهم
الراهب يقول بأدب عظيم وهو ينحنى أمامهم حتى ليكاد يبلغ رأسه
مستوى الحزام :

– ان الأب الأكبر يرجوكم ، بكثير من التواضع ، أن تشرفوه ،

حين عودتكم من الصومعة ، بالمجىء اليه جميعاً لتناول طعام الغداء •

ثم التفت نحو ماكسيموف ، فأضاف يقول له :

– وأنت أيضاً مدعو •

هتف فيدور بافلوفتش يقول وقد طار لبه فرحاً بهذه الدعوة :

– سأجىء ، سأجىء حتماً ••• لن أتخلف عن المجىء ! اعلم أننا

قد تعهدنا جميعاً بأن نتصرف هنا باحتشام • هل تجىء أنت أيضاً يابطرس

ألكسندروفتش ؟

- سؤال غريب ! أكنت أجيء الى هنا لولا حرصى على أن أرى جميع عاداتهم ؟ ولكن الشيء الوحيد الذى يقلقنى الآن هو أنتى فى صحبتك يا فيدور بافلوفتشس !

- نعم ! وما رأيكم فى دمترى فيدوروفتشس الذى لم يتنازل أن يصل حتى الآن ؟

- ليته لا يصل أبدا ! أملك تظن أنه يسرنى أن أجد نفسى مقحماً فى جميع هذه القضايا الوسخة ، وأن أحتمل فوق هذا صحبتك ؟

قال ميوسوف ذلك ، ثم أردف يقول وهو يلتفت نحو الراهب :

- اتنا تقبل الدعوة ، اشكر الأب الأكبر باسمنا •

فأجاب الراهب :

- أنا باق معكم ، لأننى مكلف باصطحابكم الى الشيخ •

قال مالك الأطيان ماكسيموف مزقزقاً :

- أما أنا فذهاب أثناء ذلك الى الأب الأكبر رأساً • أنا ذاهب اليه

حالا •

قال الراهب متردداً :

- الأب الأكبر مشغول الآن ، ولكن اذا كنت تحرص على أن •••

قال ميوسوف بصوت عالٍ بينما كان الملاك ماكسيموف يتجه نحو

الدير بخطاه القصيرة السريعة :

- يا للعجوز الصغير المزعج !

فعقب فيدور بافلوفتشس فجأة بقوله :

– انه يذكرني بفون سون ! *

– كل شيء يذكرك بفون سون ؟ أى شبه بينه وبين فون سون ؟
وهل رأيته أنت ، فون سون هذا ؟

– رأيت صورة له • قد لا يشبهه بلامع الوجه ، ولكنه يشبهه
بشيء يصعب تحديده ••• هو نسخة عن فون سون • أنا لا يخطئني
الظن أبداً في مثل هذه الأمور • تكفيني نظرة واحدة ألقها على
الوجه •••

– طيب • لا بد أن تكون لك هذه القدرة على كل حال • ولكن
لا تنس يا فيدور بافلوفتشس ما قلته أنت نفسك منذ قليل : لقد قطعنا على
أنفسنا عهداً ليكون سلوكنا هنا محتشماً • تذكر هذا • راقب نفسك •
انتى أطلب اليك ذلك جازماً قاطعاً اياك أن تأخذ في تمثيل دور المهرج •
انتى أرفض أن أؤخذ بجريرتك وأن أحمل وزرك •

قال ميوسوف ذلك ثم أضاف يقول للراهب :

– أرايت أى نوع من البشر هو ؟ يمينا انتى أخشى أن أذهب في
صحبتة الى عند أناس محترمين •••

ارتسمت على شفتى الراهب الرقيقتين الداويتين ابتسامة ناعمة
صامتة لا تخلو من بعض المكر ، ولكنه لم يجب بشيء • لقد كان واضحاً
كل الوضوح أنه انما يتعمد الصمت شعوراً منه بكرامته الشخصية •
قطب ميوسوف حاجبيه مزيداً من التقطيب • وقال يحدث نفسه : « شيطان
يأخذ جميع هؤلاء الرهبان مع أوضاعهم الخارجية المدروسة بعناية ،
الثابتة منذ قرون ! ما هذا كله الا سخف ودجل ! » •

صاح فيدور بافلوفتشس يقول :

– هذه هي الصومعة ! هذا هو المنسك ! لقد وصلنا ! الحديد موصل
والباب مغلق !

وأخذ يرسم اشارة الصليب بحركات عريضة أمام صور القديسين
التي تزين المدخل فوق الباب وعلى جانبيه • وقال :

– لكل دير قواعد تجب مزاعاتها • هم هنا خمسة وعشرون قديساً
على وجه التقريب ، يشدون الأمن والسلامة والخلاص في هذا المنسك،
يتفرس بعضهم في بعض ويأكلون الكرنب المخلل • ولكن ما من امرأة
واحدة يُسمح لها باجتياز هذا الباب • ذلك أعجب شيء هنا ، ولكنه
حقيقة • فكيف نعلل ، رغم هذا ، أن الشيخ يستقبل في هذا المكان
سيدات في بعض الأحيان كما قيل لي ذلك ؟

بهذا السؤال ختم فيدور بافلوفتش كلامه ، متجهاً به الى الراهب •
– ان نساء من عامة الشعب توجد هنا في هذه اللحظة نفسها •
تستطيع أن تراهن : انهن ينتظرن قرب الرواق جالسات أو راقدات •
أما سيدات المجتمع الراقى فقد خصصت لهن في الرواق ، ولكن على
الطرف الآخر من السياج ، غرفتان صغيرتان هذه نوافذهما تراها من
هنا • فالشيخ يذهب اليهن من ممر داخلي متى أحس بأنه قادر على ذلك،
دون أن يجتاز السياج طبعاً • وثمة سيدة من مالكات الأطيان هي الآن
هناك مع ابنتها المريضة تنتظر الشيخ : انها السيدة هوخلاكوفا • أغلب
الظن أن الشيخ قد وعد بلقائهما رغم أنه قد بلغ من الضعف منذ زمن
أنه أصبح لا يكاد يخرج •

– هناك اذن ممر يؤدي من المنسك الى السيدات • لا يذهبن بك
الظن أيها الراهب المحترم الى أن في كلامي هذا شيئاً من غمز ! حاشاء •••
فأنا انما أقول هذا الكلام بغير نية البتة ! هل تعلم أن زيارات النساء ،

فى جبل آتوس ، ولا شك أن ذلك قد ذُكر لك ، ليست وحدها ممنوعة ، وإنما يُمنع هناك أيضاً وجود الأناث من أى نوع من أنواع الحيوان فلا دجاجة ولا أوزة ولا أية عجلة صغيرة يمكن أن يحتمل وجودها هناك ؟

- فيدور بافلوفتش ، اذا استمررت فسأصرف وأتركك وحدك !
ولئن انصرفت أنا ليُخرجُكَ من هنا جراً من كفيك ! إننى أحذرك

- وددت لو أعرف ما الذى يزعجك منى يابطرس ألكسندروفتش؟
كذلك قال فيدور بافلوفتش ، ثم صاح يقول فجأة وهو يجتاز سياج المنسك :

- انظر الى وادى الأزهار هذا الذى يعيشون فيه !

حقاً ان الناظر يرى أزهاراً رائعة نادرة ، وان لم ير وروداً فى هذا الأوان . لقد زُرعت أزهار فى كل ركن خال . وكان واضحاً أن يداً ماهرة صناعاً هى التى تعنى بالأزهار فى كثير من الحب . ان هناك أحواض أزهار بين القبور وعلى طول الجدران . والبيت الصغير الذى يضم حجرة الشيخ ، والذى كان مبنياً بـخشب ومؤلفاً من طابق واحد مع رواق أمام المدخل ، يزدان هو أيضاً بالأزهار تطوّقه من كل جهة .

- قل لى : هل كان الأمر على هذه الحال فى عهد الشيخ السابق ، الشيخ فارسونوف ؟ يُقال انه كان يكره الترف وان الأناقة كانت تغضبه كثيراً حتى ليتفق له أن يرفع عصاه على سيدات .

كذلك قال فيدور بافلوفتش وهو يقترب من درجات المدخل .
أجاب الراهب الصغير قائلاً :

- كان مظهر الشيخ فارسونوف يومه حقاً في بعض الأحيان أنه انسان بسيط ، ولكن ما أكثر السخافات والأكاذيب التي قيلت في حقه ورويت عنه ! انه على كل حال لم يرفع عصاه على أحدٍ في يوم من الأيام ! انتظروا هنا لحظةً يا سادة • سأبلغ الشيخ قدومكم •

اتسع وقت ميوسوف لأن يدمدم قائلاً لفيدور بافلوفتش :

- أحذرك آخر مرة يا فيدور بافلوفتش ••• أحسن التصرف ، والا جعلتك تدم ! •••

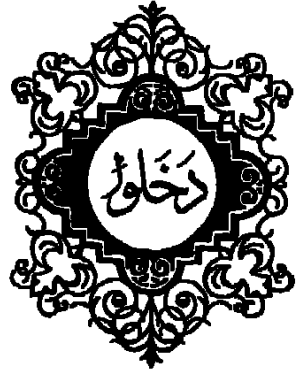
فأجابه فيدور بافلوفتش ساخراً :

- لا أستطيع أن أفهم ما الذي يجعلك تثير الأعصاب الى هذه الدرجة • أهى خطاياك تعذب ضميرك ؟ أنت خائف من قدرة هذا الشيخ ؟ يقال انه يقرأ في أعين الناس ، ويستشف كل ما يجيش في الضمائر وكل ما يثوى في قرارة النفوس • هل يجوز لرجل باريسى تقدمي مثلك أن يقيم هذا الوزن كله لرأى هؤلاء الرهبان ؟ الا أن هذا ليدهشنى منك قليلاً ، هل تعلم ؟

لم يتسع وقت ميوسوف للرد على هذه السخريات ، لأنهم قد دعوا الى الدخول • وكان يشعر ، وهو يدخل ، بحق يلم به وغيط يغزو قلبه •

قال يحدث نفسه : « اننى أعلم ما سيحدث الآن • أنا أعرف نفسى • سوف تور أعصابى ، سوف أغضب ••• سوف أتحمس ، فبذلك أخفض قدرى : وأغض من قيمة آرائى • ، • »

الخروج العرقي



الحجرة في نفس الوقت الذي ظهر فيه الشيخ على عتبة مهجته تقريباً • كان في الحجرة كاهنان من رهبان المنسك ينتظران فيها خروج الشيخ اليهما • ان أحدهما هو الأب القيسم على مكتبة الدير ، والثاني هو الأب بائسي • ان الأب بائسي رجل مريض جداً رغم انه غير طاعن في السن كثيراً ، وهو يعد على جانب عظيم من العلم • وكان هنا لك فتى يبدو في الثانية والعشرين من عمره ، قد وقف في ركن من الحجرة (ولقد ظل واقفاً حتى نهاية الاستقبال) • انه طالب سيصبح في المستقبل لاهوتياً ، والدير وهذه الفرقة الدينية يهتمان به لسبب من الأسباب ويشملانه بالرعاية والحماية • هو شاب طويل القامة ، نضر المحيا ، عريض الوجنتين ، تضىء وجهه عينان شهاوان طويلتان ضيقتان تعبران عن ذكاء واتباه • وكان وجهه يفصح عن كثير من الاحترام والتوقير ، ولكن بغير غضاظة ولا مذلة • انه لم يسلم على الزائرين الذين دخلوا الحجرة ، دالاً بهذا الامتناع على انه لا يعد نفسه نداً لهم ، بل شخصاً ثانوياً مرعوساً •

دخل الشيخ يصحبه أليوشا ومترهب مبتدىء • نهض الراهبان

الكاهنان فسلّمنا على الشيخ سلاماً عميقاً وانحنياً له حتى لامست أصابعهم الأرض ؛ ثم تبادلنا كلمات المباركة وقبلنا يدي الشيخ ، فباركهما الشيخ أولاً ثم ردّ عليهما التحية منحياً أمام كل منهما تلك الانحناءة نفسها لاسماً بيديه الأرض . ولقد تم هذا الاحتفال بكثير من الوقار والمهابة ، لا كما يتم طقس من الطقوس المألوفة اليومية ، حتى لقد كانت الحركات التي قاموا بها مشبعة بانفعال صادق وعاطفة حقيقية . ومع ذلك أحسّ ميوسوف انهم يسكبون فيها شيئاً من التصنع والافتعال . وكان ميوسوف في مقدمة صحبه . وكان يقول لنفسه - وذلك أمر فكّر فيه طويلاً منذ الليلة البارحة - ان عليه من باب اللباقة وحدها ، مهما تكن آراؤه الخاصة ، ان يقترب من الشيخ وأن يتلقى مباركته (ما دامت السنة قد جرت بذلك في هذا المكان) ، أن يتلقى مباركته على الأقل ما دام لا يريد أن يقبل يده . ولكنه حين رأى هذه التحيات الاحتفالية وهذه القبسات التي طبعها الرهبان على يدي الشيخ لم يلبث أن تراجع عن قراره ، فاكتفى بأن حيّ الشيخ تحية عميقة منحياً له الانحناءة الكبيرة التي ينحنيها رجل مهنّب من رجال المجتمع الراقى ثم تقهقر نحو كرسيه هادئاً رصيناً وقوراً . واقضى فيدور بافلوفتش أثره فحاكاه في كل حركة من حركاته حتى لقد بدا أنه يقلده تقليداً ، ولعله فعل ذلك عامداً . وسلّم ايغان فيدوروفتش هو أيضاً سلاماً رصيناً مهذباً ؛ أما كالبجانوف فقد بلغ من الاضطراب أنه نسي أن يسلم . وأنزل الشيخ يده التي كان قد رفعها مباركاً ؛ وبعد أن حيّاهم مرةً أخرى رجاهم أن يجلسوا . صعد الدم الى خدي ألبوشا . لقد كان يشعر بالخجل والخزي من ذويه . ان ما أوجسه وتنبأ به قد تحقق .

جلس الشيخ على أريكة صغيرة من خشب الآكاجو ، قديمة الطراز جداً ، مغطاة بجلد ؛ وأجلس ضيوفه ، باستثناء الراهبين الكاهنين ، صفّاً

واحدًا أمام الجدار المقابل مشيراً لهم إلى مقاعد أربعة من خشب الآكاجو مغطاة بجلد أسود رثٍ جداً • وجلس الراهبان الكاهنان على الجانبين ، أحدهما قرب الباب والثاني أمام النافذة • أما الطالب وألوشا والمترهب المبتدئ فقد ظلوا واقفين • إن الحجرة ضيقة قليلة الاتساع تُشعر بأنها عتيقة بالية كل البلى ، والأثاث الذي فيها عادي فقير يقتصر على ما هو ضروري لا غنى عنه • وهذان أصيصان للزهر يزينا حافة النافذة ، وهذه طائفة كبيرة من الأيقونات تتكدر في ركن من الغرف ، أحداها للسيدة العذراء ، وهي أيقونة كبيرة جداً يرجع تاريخها إلى عهد سابق على الاشتاق الديني * • وعلى جانبي العذراء صور " مقدسة أخرى في صناديق من معدن لامع محفور ؛ وبعدها بقليل يرى الرائي تماثيل أطفال لهم أجنحة ، وبيضا من خزف ، وصليا كاثوليكيا مع أم محزونة تضم الصليب بذراعيها ، وعددا من نسخ أجنبية للوحات كبار الرسامين الطليان في القرون الخوالي ، وهذا كله قد اختلط بعضه ببعض فوضى ؛ وإلى جوار تلك الصور الفنية التي لها قيمة كبيرة يرى الرائي عدة صور لیتوغرافية روسية شعبية تافهة تمثل قديسين وشهداء ، هي من تلك الصور التي تباع في جميع أسواق البلاد بكوبك واحد • وهناك صور لیتوغرافية أخرى هي وجوه أساقفة من الروس قدماء أو حالين تزين الجدران الأخرى من الغرفة • طاف ميوسوف على هذه « التفاهات » بنظرة سريعة ، ثم حدّق إلى الشيخ • إن ميوسوف يعد نفسه ثاقب النظرة نافذ البصيرة ، غير أن ذلك ضعف يمكن أن تغفره له حنماً إذا نحن تذكرنا أنه قد بلغ الخمسين من عمره ، وهي سنٌ يكون فيها الانسان الذكي الذي ينتمى إلى المجتمع الراقى وينعم بمركز وطيّد قد تعود أن يحترم نفسه كثيراً ، على غير شعور منه في بعض الأحيان •

لم يعجبه الشيخ في الوهلة الأولى • والحق أن في وجه الشيخ

شيئاً يمكن أن لا يرضى غير ميوسوف أيضاً • هو رجل قصير القامة محدودب الظهر مترنح الساقين ، عمره خمسة وستون عاماً فحسب ، غير أنه يبدو أظمن في السن بسبب مرضه الذي يُظهره أكبر من عمره بشر سنين في أقل تقدير • وان وجهه النحيل الضامر المعروق مخدّد كله بفضون صغيرة تكثر حول العينين خاصة • وليست عيناه بالكبيرتين ، غير أنهما واضحتان صافيتان ، فيهما كثير من الحركة والسطوع ، بحيث لا يرى المرء منهما الا نقطتين مضيئتين • ولم يبق من شعره الا خصلتان شائتان على الصدغين • أما لحيته الدقيقة فهي صغيرة قليلة زهيدة ؛ وأما شفتاه اللتان كثيرا ما تعبران عن الدهاء فانهما تبدوان أرقّ من سيور الجلد ؛ وأما أنفه فهو دقيق على غير طول ، يشبه منقار طائر صغير •••

حدث ميوسوف نفسه قائلاً : « ان كل شيء فيه يدل على ان له طبيعة كالحية شرسة ، وعلى أن فيه زهواً سخيلاً وكبرياء مسكينة » • وأحس ميوسوف باستياء من نفسه •

ودقت الساعة تقطع الصمت • ان ساعة صغيرة بخسة الثمن كانت معلقةً بالحائط ومزوّدة بنواس ، قد ترجع صوتها يدق اثنتي عشرة دقة متتابعة سريعة ، مؤذناً بحلول الظهر • فصاح فيدور بأفلوفتش يقول :

- هو الموعد المحدد ولما يصل ابني دمترى فيدوروفتش • أرجو أن تعذرني أيها الراهب المقدس جدا (ارتعش اليوشا حين سمع قول أبيه هذا « أيها الراهب المقدس جدا ») • لقد تعودت أنا أن أكون دقيق المواعيد ، فلم أتأخر عن موعدٍ في يوم من الأيام دقيقة واحدة ، لأنني أتذكر أن دقة المواعيد هي أدب الملوك •

- ولكنك لست ملكاً فيما أعلم •••

كذلك دمدم يقول ميوسوف الذى كان منسذ ذلك الحين لا يكاد يستطيع السيطرة على نفسه • فأجابه فيدور بافلوفتش بقوله :
 - صحيح • لست ملكا • ثق يا ألكسندر بتروفتش أنتى أعلم حق العلم أنتى لست ملكا ، لا يراودنك فى هذا شك ! ولكن هذا شأنى دائماً : أقول كلاما فى غير محله ، كلاما لا معنى له •

قال فيدور بافلوفتش هذا ثم صاح يضيف بانفعال مفاجىء غريب :
 - يا صاحب القداسة ، ان أمامك رجلا هو مهرج عريق • كذلك أقدم اليك نفسى • هذه عادة قديمة راسخة وا أسفاه ! ولكن لئن كنت أكذب فى كثير من الأحيان ، ولئن كنت أكذب عامدا ، ولئن كنت أكذب كذبا لا معنى له ولا داعى اليه ، فانتى لا أفعل ذلك الا فى سبيل أن أضحك الناس وأن أبهجهم • أليس من واجب الانسان أن يبهج أخاه الانسان ؟ اسمع ••• منذ سبع سنين مثلاً ذهبت الى قرية صغيرة لعقد بعض الصفقات ، فلم البث أن انعقدت الصلات بينى وبين بعض المهرة من تجار القرية • قررنا أن نزور الايسبرافنك (رئيس الشرطة) الذى كنا نأمل أن نفوز بمساعدته وكان علينا من جهة أخرى أن ندعوه الى الغداء • استقبلنا الايسبرافنك • انه رجل ضخيم طويل أشقر متجهج المظهر • ان الأفراد الذين هم من هذا النوع هم أخطر الناس حين يكون الأمر أمر أعمال وصفقات • ان أكبادهم مريضة ، نعم أكبادهم ، هل تفهمون ؟ قررت أنا أن أهجم عليه مجابهةً ان صح التعبير ، فقلت له بلهجة منطلقة هى لهجة رجل من رجال المجتمع : « هلاً تنازلت ياسيدى الايسبرافنك ، فكنت لنا نابرافنك * بمعنى من المعانى ؟ » ، فما كان منه الا أن أجاب قائلاً : « ماذا ؟ كيف ؟ أى نابرافنك ؟ » • فسرعان ما أدركت أن كل شىء قد ضاع • صمت الرجل قاسى النظرة كالح الهيشة صعب المراس • حاولت أن أعتذر • قلت : « لقد سمحت لنفسى بمزاحة بريئة

بغية أن أشبع المرح في الجو . وأنت تعلم أن نابرافك هو اسم أكبر رئيس أوركسترا عندنا ، ونحن ان كنا في حاجة الى شيء فالى نوع من رئيس أوركسترا يحقق لمشروعنا الاتساق والانسجام » . ظننت أنني قدمت له بهذا الكلام تفسيراً معقولاً قائماً على تشبيه سليم ، أليس هذا صحيحاً ؟ ، فأجابني قائلاً : « عفواً ، أنا ايسبرافك ، ولست أقبل أى تلاعب بالألفاظ فى موضوع الوظائف . . . » قال ذلك وأدار لى ظهره وانصرف . ركضت وراءه صائحا : « أنت الايسبرافك ! أنت ايسبرافك لا نابرافك . . . ولكنه هزّ كتفيه ببرود وقال : « لا تحاول . . . لقد سميتى نابرافك ، فحسبنا هذا ! » . هكذا غرقت صفقتنا فى الماء . . . فهل رأيت كيف أنا ؟ ان رغبتى فى أن أكون لطيفا تسيء الى دائما فى هذه الحياة . من ذلك أتى قلت فى ذات يوم ، منذ سنين كثيرة ، لشخصية لها نفوذ وتأثير : « زوجتك يا سيدى حسامة اذا دغدغت ، ، وكنت أقصد بهذه الكلمة معناها المجازى ، كنت أقصد أنها سريعة التأذى اذا أسىء الى كرامتها ، الى مبادئها الأخلاقية . ولكن الرجل أسرع يسألنى فجأة : « أنت دغدغتها اذن ؟ ، ولم أملك أن أقاوم رغبتى فى المزاح ، فما كان منى الا أن قلت له : « والله . . . دغدغتها قليلا ، وهكذا ، . . . فليتك رأيت ما أصابنى فى ذلك اليوم من دغدغة ! . . . غير أن هذه الحادثة قديمة جدا ، بعيدة العهد جدا ، بحيث لا أستحي الآن أن أرويها . فانظر كيف أسأت الى نفسى دائما فى هذه الحياة !

دمدم ميوسوف يقول باحتقار :

– وانك لتستأنف الاساءة الى نفسك فى هذه اللحظة .

وكان الشيخ يتفرس فيهما صامتا ، واحدا بعد آخر .

– صحيح يا بطرس الكسندروفتش . . . ولكننى أعرف ذلك ،

وفد تبنأت به منذ فتحت فمى • وكنت أعلم أيضا أنك ستكون أول من يلاحظ هذا • وفى مثل هذه اللحظات ، يا صاحب القداسة ، حين أدرك أن المزحة لم تنجح ، يتصلب خدائ فكأنهما يلتصقان بالفكين ، حتى لأشعر من ذلك بتشنجات ! ذلك يرجع عهده الى أيام شبابى ، الى الأيام التى كنت فيها طفيليا أعيش على موائد النبلاء أصحاب الأملاك ، وألتمس رزقى بتلك المهنة ! أنا مهرّج يا صاحب السعادة ، أنا مهرّج حقيقى ، مهرّج مفطور على التهريج ، وان شئت فقل يا صاحب السعادة اننى انسان بسيط أبله ! ••• قد تكون الروح التى تحركنى غير طاهرة ، أنا لا أجد ذلك ، ولكنها روح صغيرة • فلو كانت روحا كبيرة قوية اذن لاخترت لها مسكناً أفضل • على أنها ما كانت لتختارك أنت أيضاً يا بطرس الكسندروفتش ، لأنك لست بالمسكن الحسن لها ! ومع ذلك فأنا مؤمن ، مؤمن بالله ، لم يساورنى الشك الا فى الآونة الأخيرة ، وهأنذا الآن أمامك ، يا صاحب السعادة ، أنتظر كلمة تحررنى من اسارى • أنا يا صاحب السعادة مثل الفيلسوف ديدرو • لا شك أنك سمعت أن هذا الفيلسوف ، أيها الراهب المقدس جدا ، قد جاء يوماً الى البطريرك افلاطون فى عهد الامبراطورة كاترين* ، فما ان دخل عليه حتى أعلن يقول فى برود : « الله غير موجود » • فرفع الرجل العظيم المقدس ابهامه وقال له باللغنة السلافونية : « الطائش يقول فى سرّه : الله غير موجود » ، فأخذ الآخر بهذه الكلمات فاذا هو يرتبى فجأة على قدمى الكاهن صائحاً : « آمنت ، آمنت ، عمّونى ! » • وسرعان ما تم تعميده على الفور ، فالأميرة داخكوف* أمسكته على حوض التعميد ، وبوتمكين كان عرّابه •••

فاطمه ميوسوف يقول بصوت يرتعش فيه الغضب ، وكان قد أصبح منذ مدة طويلة عاجزاً عن كبح جماح نفسه :

– فيدور بافلوفتش ! هذا لا يطاق ! أنت تعلم تماماً أنك تكذب ،
وأن هذه القصة السخيفة لا أصل لها ، أنت تعلم ذلك ، ففيم هذا
التمثيل ؟

فهتف فيدور بافلوفتش يقول في حماسة فرحة :

– كنت طول حياتي أشعر شعوراً غامضاً بأن هذه القصة كاذبة
لا أصل لها . والآن أيها السادة سأقول لكم الحقيقة كلها . غفرائك أيها
الشيخ العظيم ! ان هذه النقطة الأخيرة التي ذكرتها عن تعويد ديدرو انما
اخترعتها في هذه اللحظة نفسها ، وتخيلتها وأنا أرويها ، ولم تكن قد
خطرت ببالي مرة واحدة من قبل ، وانما أنا أضفتها رغبة في مزيد
من الملاحه . . . اننى أمثل هذا التمثيل ليرضى عنى بطرس السكندروفتش
مزيداً من الرضى . ثم اننى لا أدري أنا نفسى فى بعض الأحيان لماذا
أفعل ذلك . أما عن ديدرو ذلك ، وعن قول الأسقف : « الطائش يكفر
بالله ، ، فتلك نقطة سمعت السادة القرويين فى هذه المقاطعة يروونها منذ
أكثر من عشرين عاماً ، وذلك فى شبابه أيام كنت أعيش عندهم ؛ حتى
أن عمك نفسها يا بطرس الكسندروفتش ، عمك المحترمة ما فرا
فوميتشنا كانت تحب أن ترويها بين ما كانت تحب أن ترويها من أمور .
وجميع الناس مقتنعون حتى هذا اليوم بأن ذلك الملحد ديدرو قد ذهب
الى البطريرك أفلاطون ليناقدشه فى مسألة وجود الله .

نهض ميوسوف نافد الصبر ، شاعراً أنه فقد كل سيطرة له على
نفسه . لقد جن غضباً ، وأدرك أنه أصبح من ذلك مضحكاً هو أيضاً .
ان ما يجرى فى هذه الحجره لهو فى الواقع أمر مستحيل لم يسبق أن
جرى مثله من قبل . فمنذ ثلاثين عاماً أو أربعين تتوافد على هذا المكان ،
حتى فى عهود المشايخ السابقين ، حشود كثيرة من الزائرين ، ولكن
أولئك الزائرين جميعاً بغير استثناء كانوا يجيئون ممثلين بروح الاحترام

والخشوع والتقديس • ان جميع أولئك الذين سُمح لهم بأن يتخطوا عتبة هذه الحجرة كانوا يدركون أنهم نالوا حظوة كبيرة وظفروا بنعمة عظيمة ؛ وان عددا كبيرا منهم كان اذا دخلها ارتمى على الأرض راکعاً وظل على هذه الحال الى آخر الزيارة • وان أكثر الزائرين ، حتى أعلاهم مقاماً ، وأغزرهم علماً - وقد كان بينهم أناس يتصفون بحب التقدر وكثرة المشاكسة والمييل الى الالحاد - أقول كان أكثر الزائرين الذين يجيئون الى الدير من باب الفضول أو لسبب آخر من الأسباب ، يلزمون أنفسهم بواجب أولى بسيط هو أن يتقيدوا عند دخولهم الى الحجرة جماعةً أو عند دخولهم اليها لمقابلة خاصة ، أن يتقيدوا طوال مدة وجودهم في هذا المكان المقدس باتخاذ وضع يتصف بأقصى الاحترام والأدب واللباقة ، وما من أحد منهم أخلّ يوماً بهذا الواجب أو خرج على هذه القاعدة ؛ لا سيما وأن الدير كان لا يطالب بأى مال ، وأن كل شيء فيه يتم محبةً واحساناً من طرف وتوبةً وندامة من طرف آخر ، وبدافع الظمأ الى الحقيقة والرغبة القوية في حل مشكلة نفسية صعبة أو تجاوز ساعة أليمة من حياة القلب • كذلك كانت تجزى الأمور دائماً ، ثم اذا بفيدور بافلوفتش هذا يندفع فجأة في تهريج لا يليق بهذا المكان، تهريج لا بد أن يحدث في نفوس من يرون هذا المشهد أو في نفوس بعضهم على الأقل استغراباً شديداً ودهشة أليمة • فأما الراهبان الكاهنان اللذان ظل وجهاهما هادئين على كل حال فقد كانا يرقبان ردّ الفعل عند الشيخ بانتباه رصين وقور ، ويبدو عليهما أنهما يهمان أن ينهضا مثل ميوسوف تماماً • وأما أليوشا فقد كان خافضاً رأسه مجاهداً مصابراً باذلاً قصاراه حتى لا يبكى • ان ما يدهشه خاصة هو أن أخاه ايفسان فيدوروفتش ، وهو الوحيد الذي كان يمكن أن يتدخل في الأمر ، قد لبث ساكناً على كرسيه ، غاضباً بصره ، ينتظر نهاية هذا المشهد بنوع من

استطلاع ليس فيه اكترات أو اهتمام ، كأنه غريب عن هذه القضية لا علاقة له بها ولا شأن له فيها • وأما راكيتين (وذلك هو اسم الطالب) الذى كان أليوشا يعرفه أيضا حق المعرفة ، ويكاد يعده صديقا قريبا جدا ، فان أليوشا لم يجرؤ حتى أن ينظر اليه ، لأنه كان يحزر ما يدور فى فكره من معان وخواطر (وهو الوحيد الذى يحزرها فى هذا الدير على كل حال •) •

بدأ ميوسوف يقول وهو يلتفت نحو الشيخ :

- سامحنى ••• لا شك أنك تعدنى شريكا فى هذه المهزلة الحقيرة . ان ذنبى الوحيد هو أننى تصورت أن كل انسان ، حتى ولو كان من نوع فيدور بافلوفتش ، لا بد أن يحرص على أن يسلك سلوكا حسنا لا تقا أمام شخص محترم مثلك ••• فلو كنت تنبأت بأننى سيكون على أن أعتذر عن مجرد الدخول الى هذا المكان فى صحبته ، اذن •••

لم يكمل بطرس الكسندروفتش جملته ، وكان قد بلغ ذروة الاضطراب ، فهم أن يخرج من الغرفة ، ولكن الشيخ صده عن عزمه وأوقفه • قال له وهو ينهض على ساقيه النحيلتين ويمسك بطرس الكسندروفتش من يديه ، ويجلسه على مقعده من جديد :

- لا تخش شيئا ، أرجوك ••• هدىء روعك ، أرجوك ••• ان زيارتك تسرنى كثيرا وتبهجنى بهجة خاصة •

وبعد أن حيا مرة أخرى ، عاد الى مكانه يجلس على الأريكة الصغيرة •

صاح فيدور بافلوفتش فجأة يقول :

- تكلم أيها الشيخ العظيم ، قل : هل تؤذيك حرارتى هذه ، هل يسوء اليك اندفاعى هذا ؟

وكان فيدور بافلوفتش قد أمسك ذراعي المقعد بيديه كمن يستعد لأن ينهض واثباً اذا جاء جواب الشيخ موجبا لذلك ، فقال له الشيخ بصوت قاطع جازم :

- أرجوك ملحاً أن لا تقلق وأن لا تتخرج • لا تكره نفسك على شيء ، وتصرف كما لو كنت في منزلك ••• واياك أن تشعر بالخزي من نفسك خاصة ، فان شعورك بالخزي من نفسك هو بعينه أصل البلاء •

- أتصرف كما لو كنت في منزلي ؟ أتريد أن تقول ان عليّ أن أطلق نفسي على سجيتها وأن أظهر على طبيعتي ؟ ألا ان هذا لكثير ، بل انه لجميل مسرف في الجمال ، ولكنني أوافق ••• انني أقبل ما تقترحه عليّ شاعرا من ذلك بتأثر شديد وانفعال قوي • اسمع أيها الأب المبجل! لا تدفني الى حالة الطبيعة ، لا تجازف فتفعل هذا ••• عليّ انني لن أمضي بعيدا هذا البعد كله ، ولن أصل الى درجة الانطلاق على السجية والظهور على حالة الطبيعة • وليس ما أقوله لك هنا الا تنبيهاً • أما فيما عدا ذلك فان كل شيء ما يزال غارقا في ظلمات الجهل ، رغم ما قاله بعضهم في وصف طبيعة نفسي • ان هذه الملاحظة تستهدفك أنت يا بطرس الكسندروفتش ! أما أنت أيها الانسان الذي هو ضياء" كله ، فانني أضع عند قدميك اعجابي مندفعاً بغير حدود •

ثم نهض ورفع يديه الى السماء وقال :

- « بورك البطن الذي حملك ، وبورك الثديان اللذان أرضعاك* ، نعم الثديان ••• انك حين نصحتني منذ هنيهة بأن « لا أشعر بالخزي من نفسي ، لأن هذا هو أصل البلاء » ، قد نفذت الى سريرتي وقرأت في أعماق قلبي • ذلك بعينه هو ما أحسه • انني أشعر دائما ، حين أدخل على الناس ، بأنني أخبت من غيري ، وأن الآخرين جميعا يعدونني

مهرتجاً ، فأخاطبهم عندئذ بيني وبين نفسي قائلاً : « ليكن ... سأمثل دور
المهرج طائفاً مختاراً ، ولست أخشى رأيكم ، لأنني أعرف أنكم جميعاً
شر مني وأجدر بالاحتقار والازدراء ! ، ذلك هو السبب أيها الشيخ
العظيم في أنني أهرج ... انني أهرج لشعوري بالخزي ، لشعوري
بمذلة عميقة ! انني لانعدام ثقتي بنفسي اضطرب فأمثل دور المجنون !
آه ... ليتني ، حين أدخل على الناس ، أستطيع أن أكون واثقاً من أن
كل واحد سيعدني على الفور خير انسان وأذكى انسان في العالم ، اذن
لأصبحت عندئذ رجلاً من أنبل الرجال ... »

قال ذلك ثم ارتدى راحته على حين فجأة يقول :

... ماذا يجب عليّ أن أعمل ، يا معلم ، حتى أظفر بالحياة الأبدية ؟
انه ليصعب عليّ المرء أن يقول في تلك اللحظة هل كان الرجل
ما يزال يمثل ويهرج ، أم كان قد استولى عليه حقاً انفعال كبير ؟ ...
نظر اليه الشيخ وقال له مبتسماً :

... تعرف أنت نفسك ، منذ زمن طويل ، ما الذي يجب عليك أن
تعمله ، فليس الذكاء هو ما يعوزك . امتنع عن الاسراف في الشراب ،
لا تستسلم للفجور ، وتخلّ خاصةً عن عبادة المال . أغلق دكاكين بيع
الخمرة ، أغلق دكاكين أو ثلاثة منها على الأقل اذا لم تشأ أن تغلقها كلها .
وقيل هذا وذاك ، لا تكذب ... فذلك أهم شيء ...

... أملك تشير الى ما رويته عن ديدرو ؟

... لا ... ليس الأمر أمر ديدرو ... فانما الشيء الأساسي أن
لا تكذب على نفسك . ان من يكذب على نفسه ، ويرضى أن تنطلي عليه
أكاذيبه ، يصل من ذلك الى أن يصبح عاجزاً عن رؤية الحقيقة في أي

موضع ، فلا يعود يراها لا في نفسه ولا فيما حوله .
لهذا السبب ، الى فقد احترامه نفسه واحترامه غير .
لا يحترم أحدا ، أصبح لا يحب أحدا ، فاذا هو من أجل أن يذم الأمور .
أصبح بغير حب ، يستسلم للأهواء ويندفع وراء الملذات الخسيسة هذه
فيهوى عندئذ الى قاع الرذيلة ، ويصل من ذلك الى درجة الحيوانية من
وما هذا كله الا لأنه يكذب بغير انقطاع ، يكذب على غيره ويكذب على
نفسه . ان من يكذب على هذا النحو يسرع كذلك الى اهانة نفسه .
ألا يشعر المرء بكثير من اللذة في بعض الأحيان حين يحس أنه مهان ؟
وهو يعلم مع ذلك أنه ما من أحد قال له كلمة سوء ، وانما هو اخترع
الاهانة بنفسه اختراعاً في سبيل التلذذ بها ، وكذب على نفسه ، وبالغ
وغالى تزييناً للموقف وزخرفة للوضع ، وحمل كلمة من الكلمات على
غير معناها ، جاعلاً من الفأرة جبلاً هو يعلم ذلك ، ولكنه يسارع
الى اهانة نفسه ، ويهين نفسه متلذذاً تلذذاً يبلغ حد الفرح ، فاذا هو
يصل من ذلك آخر الأمر الى الشعور بكره حقيقي ولكن انهض
عن الأرض ، أرجوك . . . اجلس في مكانك ، أرجوك ، تلك كلها
أوضاع كذبٍ أيضاً . . .

– أيها الانسان المقدس ، اسمح لي أن أقبل يدك العزيزة
اللطيفة ! . . .

لقد نهض فيدور بافلوفتش بوثة ، واقرب من الشيخ بحرارة
وقوة ، وطبع قبلة رنانة على يده الضاوية المعروقة .

– تماما ، تماما ، هذه هي الحقيقة . ان في اهانة المرء نفسه لذة .
لقد أحسنت الافصاح عن هذه الحقيقة . وتلك أول مرة أسمع فيها هذا
الكلام . لقد ظلمت طوال حياتي أهين نفسي ، نشدناً للذة ، بل وطلباً
للجمال ، لأن الاهانة ليست متعة فحسب ، بل يمكن أن يكون فيها جمال

فنى أيضا • ذلك ما نسيت أن تضيفه الى كلامك أيها الشيخ العظيم !
 سوف أدون هنا في دفترى الصغير • لقد كذبت ، كذبت بغير انقطاع عن
 الكذب طوال حياتى ، فى كل يوم ، وفى كل ساعة • أنا فى الواقع كذب
 يحيا ، أنا للكذب أبوه ! لا بل لست للكذب أباه ••• لعل هذا التعبير
 بقايا جملة قرأتها فبقيت فى ذاكرتى فاستيقظت الآن •• والأولى أن أقول
 اننى ابن الكذب لا أبوه ••• يكفينى كبراً أن أكون ابن الكذب •••
 ولكن يا ملاكى الطيب ، أحسب أن كذبة كالكذبة التى قلتها حين تكلمت
 عن ديدرو ، أمر مباح من حين الى حين ، أليس كذلك ؟ ان كذبة كهذه
 لا تسيء الى أحد ، لا تؤذى أحداً ، على حين أن هناك أكاذيب ضارّة •••
 بالمناسبة ، أيها الشيخ العظيم ••• لقد أوشكت أن أنسى ••• اننى أنتظر
 منذ ثلاث سنين أن تتاح لى فرصة القاء سؤال عليك • كنت أريد أن أتعلم
 منك ، كنت أريد أن أجيء الى هنا لهذا الأمر خاصة ، كنت أريد أن
 أعرف منك الحقيقة حول هذه النقطة تفصيلاً • ولكن أصدر أمرى أولاً
 الى بطرس السكندروفتش بأن لا يقاطعنى • اليك ما كنت اريد أن
 أعرفه : هل صحيح أيها الأب المبجل ان كتاب أسماء الشهداء القديسين
 بروى فى موضع من مواضعه قصة قديس قام بمعجزات واستشهد فى
 سبيل ايمانه ، أى قطعوا رأسه ، فاذا هو ينهض ، فيتناول رأسه من
 الأرض ، ويعاقره فى حنان ، ثم يسير مدة طويلة ، حاملاً رأسه بيديه ،
 حانيا عليه ملاطفاً له * • قولوا لى أيها الآباء الطيبون ، أهذا صحيح أم لا ؟
 قال الشيخ :

- بل هو غير صحيح •

وقال الراهب قيّم المكتبة :

- لم يرد ذكر هذه القصة فى أى موضع من مواضع كتاب أسماء

الشهداء • من هو القديس الذي تقصده ؟

- أنا لا أعرف عن هذا شيئاً • أنا أجهل كل شيء عن هذه الأمور •
لا شك في اني خُذعت و ضللت • لقد سمعت أحداً يروي هذه
القصة • وهل تعلمون من رواها لي ؟ لم يروها لي أحد غير بطرس
السكندروفتش هذا الذي ثار على منذ هنيهة بصدد ديدرو ! هو الذي
روى لي هذه القصة ، نعم هو •••

- هذا كذب • أنا لم أرو لك هذه القصة ! ثم اني لا أكلمك
أبدأ ، ولا أتحدث اليك يوماً !

- اعترف بأنك لم تروها لي أنا • ولكنك رويتها في اجتماع كنت
أنا فيه • حدث ذلك منذ ثلاث سنين • ولئن كنت أتذكرها هذا التذكر
الواضح فلأنك قد زعزعت ايماني في ذلك المساء ، بتلك القصة
المضحكة ••• نعم يا بطرس الكسندروفتش ! أنت لم تعرف ذلك ، وما كان
لك أن تتنبأ به ، ولكنني عدت الى منزلي في ذلك اليوم وأنا أشعر بأن
يقيني قد ترنح ، ولم يزد منذ ذلك اليوم على أن يهبط مزيداً من
الهبوط • انك يا بطرس الكسندروفتش قد كنت السبب الحقيقي في
سقوطي الأخلاقي ، وا أسفاه ! ليست القضية الآن قضية ديدرو •••

كان فيدور بافلوفتش يتكلم بلهجة فيها لهجة الانفعال ونبرة التأثر ،
ولكن كان واضحاً لنا جميعاً في هذه المرة انه عاد يمثل ويهرج • ومع
ذلك شعر ميوسوف بأنه أوذى ايذاءً شديداً أليماً • فدمدم يقول :

- يا للسخف ! انك لاتقول الاحماقات ! من الجائز حقاً أن أكون
قد رويت هذه القصة مرة ••• ولكنني لم أكن أخاطبك أنت ! كنت قد
سمعت أنا هذه القصة ••• حدث ذلك في باريس • أكد لي فرنسي أن
هذه القصة الواردة في كتاب أسماء الشهداء تتلى عندنا أثناء القداس •

وكان هذا الفرنسي رجلاً متقناً قد تعمق دراسة احصائيات روسيا تعمقاً كبيراً ، وكان قد عاش في بلادنا زمناً طويلاً ... أنا لم أقرأ كتاب أسماء الشهداء بنفسى ... ولست أنوى أن أقرأه على كل حال ... ما قيمة أحاديث تجرى بها الألسن على مائدة طعام ؟ لقد حدث هذا أثناء عشاء ...

— أثناء عشاء ... ها ... ها ... يا للعشاء الجميل الذى كلفنى
ايمانى ! ...

كذلك قال فيدور بافلوفتش ساخراً !

فانفجر ميوسوف يصيح :

— ما شأنى أنا بايمانك ؟

ولكنه سرعان ما تاب الى هدوئه فقال بلهجة احتقار :

— انك تدنس كل ما تلمسه يداك !

فنهض الشيخ عندئذ مخاطباً جميع الحضور :

— معذرةً أيها السادة ، اننى مضطر أن أترككم لحظات • هناك

زوار ينتظرونى وقد وصلوا قبلكم !

ثم أضاف يقول بمرح وهو يلتفت الى فيدور بافلوفتش :

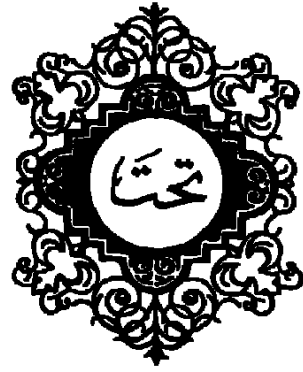
— أما أنت فاترك الكذب ! • • صدقنى • •

وخرج • واندفع اليوشا والمترهب المبتدىء ليمسكاه ويساعده على هبوط السلم • كان اليوشا قد نفذ صبره ، وقد أسعده أن ينصرف ، وأسعده كذلك أن الشيخ قد استقبل الأمر مرحاً دون غضب • وكان الشيخ يتجه نحو الرواق ليبارك أولئك الذين كانوا ينتظرونه هناك ،

غير أن فيدور بافلوفتش وجد السبيل الى استيقافه عند العتبة • قال بصوت
مخلتج :

- أيها الانسان المقدس جدا ، اسمح لى أن أقبل يدك العزيزة
اللطيفة مرة أخرى • ذلك أن المرء يستطيع أن يتفاهم معك دون أن يفقد
حبه للحياة وأقباله عليها وميله إليها • لا تظنّ أنّى أكذب هكذا طول
الوقت وأننى لست الا مهرّجاً • الحق أنّى فعلت هذا عامداً من البداية
الى النهاية ، فعلته عامدا لأختبرك وأمتحنك ! لقد أردت أن أتأكد من
أنك رجل انساني ، ومن أن شخصى الهينّ يمكن أن يؤكد ذاته دون
أن يصدّم كبرياءك • فى وسعى الآن أن أشهد لك شهادة جميلة : ان
فى وسع الانسان أن يتنفس بحضورك • والآن لن أتكلم قط ، لن أقول
كلمة واحدة • سأجلس على هذا المقعد ، فألبث ساكناً حتى النهاية •
الكلام الآن لك يا بطرس الكسندروفتش ! تستطيع منذ هذه اللحظة أن
تمثل دور الشخص الرئيسى • • مدة عشر دقائق •

إيمان نساء الشعب



قرب الرواق الخشبي المتاخم للحاجز الخارجي من السور ، كان يزدحم جمهوز ليس فيه هذه المرة الا نساء . ان عددن نحو من عشرين فلاحه . لقد أبلغن أن الشيخ سيخرج اليهن ، فاحتشدين ينتظرنه . وقد ذهبت السيدتان هوخلاكوف أيضا الى الرواق ، ولكنهما ذهبتا الى المكان الموقوف على ذوات المكانة من الزائرات . هما أم وابنتها . ان السيدة هوخلاكوف الأم ، وهي امرأة غنية جداً أنيقة الهندام دائماً ، ما تزال تبدو شابة ، وهي لطيفة باشة ، شاحبة الوجه قليلاً ، لها عينان توشكان أن تكونا سوداوين على سطوع شديد وحركة قوية . انها لم تتجاوز الثالثة والثلاثين من عمرها ، وقد مات عنها زوجها منذ خمس سنين . أما ابنتها ، وهي في الرابعة عشرة من العمر ، فهي مصابة بشلل في الساقين . لقد أصبحت الصبية المسكينة عاجزة عن المشي منذ ستة أشهر ، فهي الآن تخرج على كرسى متحرك . ان لها وجهاً رائعاً فتاناً ، قد أضواء المرض قليلاً ، لكنه على جانب عظيم من اللطف والبشاشة ، بل ان شيئاً من المكر يترأى في عينيها الصغيرتين القامتين اللتين لهما أهداب طويلة . لقد كانت أمها تنوى

منذ الربيع أن تمضى بها الى الخارج ، غير أن أعمالاً بدت في أرضهما فأجبرتهما على البقاء في روسيا طول الصيف ؛ وهما لا تقيمان في مدينتنا الامند أسبوع ، لا لزيارة الدير بل لقضاء بعض الاعمال في الواقع ، غير أنهما قد جاءتا الى الشيخ مرة أولى منذ ثلاثة أيام ، وهما تعودان الآن الى الدير على غير توقع ، رغم أنهما تعلمان حالة الشيخ الذي أصبح لا يكاد يستقبل الزائرين بسبب ضعفه وسوء صحته • لقد توسلنا بكثير من الاحاح أن يُمنَّ عليهما « بأن تسعدا برؤية هذا الشافي العظيم مرة أخرى » • وبانتظار ظهور الشيخ اتخذت الأم مكاناً على كرسي قرب مقعد ابنتها المتحرك ؛ وعلى بعد خطوتين منهما كان يقف راهب عجوز لا ينتمى الى ديرنا ، ولكنه كان ماراً بالمدينة • لقد ترك ديره الى حين ، وهو دير غير مشهور يقع في منطقة نائية بشمال روسيا • ان هذا الراهب العجوز يريد هو أيضاً أن يحظى بمباركة الشيخ • ولكن الشيخ الذي ظهر على الرواق في تلك اللحظة انما اتجه أولاً الى طبقة الشعب • تدافع الجمهور نحو درجات المدخل التي لا تزيد على ثلاث ؛ ومن على هذه الدرجات الثلاث انما يطل على الحقل الرواق الذي لا يرتفع كثيراً عن سطح الأرض • توقف الشيخ على الدرجة العليا من هذه الدرجات ، وتلفح بجبته وأخذ يبارك النساء اللواتي يزدحمن أمامه • قدمت اليه كليكوشا كانت تجرها امرأتان تمسكانهما من يديها ، فما ان لمحت المسكينة الشيخ حتى أخذت تطلق صرخات حادة رهيبة تدل على هذيان ، وهي ترتعش ارتعاشاً قوياً من أخمص قدميها الى قمة رأسها ، كأنها تعاني آلام ولادة • وضع الشيخ جبته على رأس المريضة ، وتلا دعاءً قصيراً ، فاذا بالمرأة تصمت وتهدأ • لا أدري ماذا يحدث الآن ، ولكنني في أثناء طفولتي قد أتبع لي مرارا أن أرى وأن سمع هاته النسوة المرضيات في قرانا وفي أديرتنا • كان يؤتى بهن الى الصلاة معولات أو

نايحات كالكلاب ، فيملأن بصرخاتهن أرجاء الكنيسة • فما ان يُقرَّب من القربان المقدس حتى يزول عنهن «المس» فجأة ، ويستعدن هدوءهن كاملاً الى حين • لقد كانت المريضات تهدأ بعد الاقتراب من القربان المقدس في كل مرة ، الى أن توافيهن حالة « المس » ثانية • وقد أدهشني ذلك كثيراً في طفولتي وترك في نفسي أثراً قوياً • ولكنني حين سألت عن سرِّ هذا الأمر قال لي بعض الملاكين ، وقال لي معلمو مدرستي خاصة ، ان ذلك كله ليس الا تظاهراً كاذباً ، وأن هاته النسوة كسالى لا يردن أن يعملن ، وان من الممكن دائماً ردهن الى الصواب باظهار شيء من القسوة • حتى لقد رويت حكايات في بيان صحة هذا التفسير • ومع ذلك علمت بعد ذلك من أطباء مختصين ، على دهشة مني ، أن الأمر ليس أمر تظاهر كاذب ، وأن هذا في الواقع مرض رهيب تصاب به النساء ، وأن هذا المرض منتشر انتشاراً واسعاً في روسيا خاصة ، وأن مردّه الى ما تتصف به ظروف حياة المرأة في أريافنا من قسوة شديدة ؛ فهذا المرض يرجع الى أن الفلاحات في بلادنا يقمن بأعمال مرهقة بعد نفاس شاق أليم لم تحتمله أجسامهن بسبب قلة العناية الطيبة بهن ؛ تضاف الى ذلك آلام من أنواع شتى ، جسدية ونفسية ، مردها الى ما ينالهن من ضرب مبرح ، والى ما يصيبهن من سوء المعاملة ، والى ما يلزم بهن تبعاً لذلك من كمد وكرب ويأس ، لأن بعض النساء لا يستطعن احتمال محنٍ قد يعدها غيرهن عادية لا غرابة فيها • فأما ذلك الشفاء العجيب الذي تُنقذ به نساء مصابات بهذا المس متى أدنين من القربان المقدس - وهو شفاء يدعى بعضهم تعليه بالتظاهر الكاذب ، وحتى بخداع مقصود يخرجهن « رجال الدين » اخراجاً مسرحياً - فالحق أنه يرجع هو أيضاً الى أسباب طبيعية ؛ ثم ان النساء اللواتي يدنين المسوسات من القربان المقدس ، والمسوسات انفسهن خاصة ، مؤمنات ايماناً عميقاً



كليكوشا

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

كإيمانهم بحقيقة راسخة ثابتة ، أن الروح الخيثة التي حلت فيهن لا تستطيع احتمال وجود القربان المقدس ، فإذا هي تبارحهن متى دنون منه وانحنين له • لذلك لا بد أن يحدث اهتزاز شامل قوى في جسم هاته النسوة المصابات بمرض عصبي نفسي مما منذ يُواجهن بالقربان المقدس ؟ فهذا الاهتزاز نتيجة طبيعية لتوقع الشفاء الذي لا بد منه في نظرهن ، ولانتظار البرء الذي لا محيص عنه حتماً ، وهو نتيجة طبيعية لإيمانهم بالمعجزة إيماناً ليس له حدود • فلذلك كان يحدث الشفاء ويتم البرء ، ولو إلى حين قصير • وهذا بعينه هو ما وقع في الحالة الراهنة حين خلع الشيخ على المريضة جبته وتلا دعاءه •

كان بين الجمهور الذي ازدحم حول الشيخ نساء كثيرات أخذن يبكين خائناً وخشوعاً وحماسة • واندفعت نساء أخريات تريد أن تقبل ثيابه على الأقل • وراحت قلة منهن ترتل بصوت خافت رتيب • باركهن الشيخ جميعاً ، وتحدث مع بعضهن • وكان يعرف الكليكوشا التي قدمت إليه • انها من قرية مجاورة تقع على مسافة مئة فراسخ من الدير ؛ وما هذه أول مرة يؤتى بها إليه على كل حال •

قال الشيخ وهو يشير إلى امرأة أخرى لم تطعن في السن بعد ، ولكنها نحيلة ضاوية معروقة ، لها وجه ليس ملوِّحاً ولكنه مسود اسودادا غريباً (كانت راكعةً على ركبتيها تحديق إلى الشيخ بنظرة ساكنة جامدة ، وفي وجهها شيء من الوجد والنشوة) :

– هذه آتية من مكان أبعد •

فقالت المرأة بصوت كأنه الغناء وهي ترجع رأسها ترجيحاً متواتراً موقعاً ، وقد أسندته إلى راحة إحدى يديها :

– نعم يا أباي ، أنا آتية من مكان بعيد ، من مكان بعيد جداً ، يبعد

عن هنا ثلاثمائة فرسخ •

كانت المرأة تتكلم بلهجة هي الى التريل أقرب . ان بين أفراد الشعب أناسا يتألمون ألماً أحرس مدعناً ، هو ألم ينطوي على ذاته ويعتصم بالصمت . غير أن هناك أناسا يتألمون ألماً متفجراً ينطلق انتحابات على حين فجأة ، ثم اذا هو يعتصم بعد ذلك بالتريل . وهذه حالة تلاحظ على النساء خاصة . وليس هذا الألم أقل من ألم الصامتين . ان التريل لا يخفف عن النفس الا لأنه يحيى جروح القلب بلا انقطاع ، وينكوها بغير توقف . ان هذه الصورة من صور الألم لا تتطلب عزاء ولا تسعى الى سلوى ، لأنها تغتذى من الشعور بسعة أبعادها ، فالتريل انما يعبر عن الحاجة الى النزول الى هوة الألم وقاع العذاب .

استأنف الشيخ يقول وهو يتفرس فيها باتباه :

— لعلك من سكان المدن ؟

— أنا من المدينة أيها الأب الطيب ، نعم . . . وان أكن قروية الأصل . نحن من سكان المدن لأننا نعيش في المدن . ومن أجل أن أراك انما جئت الى هنا أيها الأب الطيب . لقد حدثونا عنك ، أيها الأب ، فرووا أشياء كثيرة . لقد دفنت ابني ، ابني الصغير . . . فخرجت أضرب في الأرض حاجة ، فمررت بثلاثة أديرة ، فقبل لي هنالك : « اذهبي اليه أيتها المسكينة نانا سيوشكا* . . . اذهبي لرؤيته هو . . . يقصدون أنت . . . اذهبي لرؤيته . . . رؤية الأب العزيز جدا . . . » هكذا جئت اليك . أمس اعترفت وتناولت ، وهأنذا الآن أمامك .

— لماذا تبكين ؟

— أبكى صغيري أيها الأب الطيب . كان عمره ثلاثة أعوام الا ثلاثة أشهر* . انني أبكى ابني ، أبكى صغيري . ذلك ما يعذبني . كان آخر أبنائي . كان لنا أنا وزوجي المسكين نيكيوشكا* أربعة أبناء . ان

الأطفال لا يبقون عندنا • انهم يتركوننا يا أبانا المحترم ، انهم يتركوننا •
 دفنت الثلاثة الأول ، فسرعان ما تعزيت عنهم • أما ذاك ، الأخير ، فأنى
 لا أستطيع أن أنساه • يخيل الىّ اننى أراه ، هنا ، أمامى ، أراه طول
 الوقت • جفّت نفسى ، يس قلبى • أنظر الى ملبسه ، الى قميصه
 الصغير ، الى حذاءيه ، فأخذ أنشج وأتجب • أعرض أشياء أمامى
 لأتأملها ••• أستعرض جميع بقاياها التى تذكرنى فأبكي • قلت لعزيرتى
 نيكيتوشكا ، زوجى : « دعنى أمضى ••• أريد أن أضرب فى الأرض
 حاجةً ، • زوجى حوذى • ولسنا فقراء أيها الأب الطيب • عندنا مال •
 لا ترتبط حياتنا بأحد ، لا نحتاج الى أحد • نملك خيولا وعربة تنفق
 عليها من مالنا • فيم ينفعا هذا كله الآن ؟ وقد انحدر عزيزى نيكيتوشكا
 الى طريق الضلال حين تركته • أخذ يشرب • أنا أعلم ذلك • وما هذه
 أول مرة • كان يضعف كلما حولت عينى عنه • ولكننى الآن لا أحفل
 بذلك • استوت عنبى جميع الأمور • أصبحت لا أفكر فيه • تركت
 المنزل منذ ثلاثة أشهر • نسيته • نسيته كل شيء • أصبحت لا أريد أن
 أتذكره • وما عسانى أفل معه ؟ لقد أنهيت صلتى به ، أنهيت صلتى
 بجميع الناس • لا أريد أن أرى منزلى بعد الآن يوما ، لا منزلى ولا
 رزقى ، لا أريد أن أرى شيئا البتة !

قال الشيخ ببطه :

— اسمعى أيتها الأم الطيبة ! فى يوم من الأيام رأى قديس كبير
 من قديسى الماضى ، رأى فى الهيكل أمّا تبكى ابنها الذى فقدته مثلما تبكين
 ابنك الآن ••• كان ابنها طفلا صغيرا كابنك ، وكان ابنا وحيدا أخذه
 الرب اليه • قال لها القديس : «ألست تعلمين اذن أن جميع الصغار الذين
 من هذا النوع يملكون جرة كبيرة أمام عرش الرب ؟ ليس بين الناس
 فى ملكوت السماء كله أحد أجراً من هؤلاء الصغار ! انهم يقولون

للرب : « لقد وهبت لنا الحياة أيها الرب ، فما ان رأينا الحياة حتى استرددتها منا ! » هم يكلمون الرب بهذه الجرأة ؛ وهم يتوسلون الى الرب أن يرفعهم فورا الى مصاف الملائكة ، وهم يعرفون كيف يلحون في ذلك . . . وقال لها القديس بعد ذلك : « يا امرأة ! كفى اذن عن البكاء ، وابتهجي وافرحي ، ما دام الأمر كذلك ، لأن ابنك يسكن الآن قرب الرب بين الملائكة ! » بهذا حدث القديس في الماضي المرأة التي كانت تبكي . ولقد كان قديسا عظيما فلا يمكن أن يكذب على تلك المرأة . فاعلمني هذا أنت أيضا أيتها الأم الطيبة ، اعلمي أن ابنك الصغير يسكن الآن قرب عرش الرب ، فهو سعيد ، وهو فرح . . . وصلى للرب من أجله . كفاك بكاء . . . ابتهجي وافرحي ! . . .

كانت المرأة تصغي الى الشيخ مسندة رأسها الى احدى يديها ، غاضة بصرها . وتنهدت تنهداً عميقاً .

– بمثل هذه الأقوال انما كان يعزبني زوجي المسكين نيكيتا ! كان يقول مثلما تقول : « لماذا تبكين أيتها المرأة الطائشة ؟ لا شك في أن ابنا هو الآن قرب الرب مع الملائكة . . . كان يقول لي هذا الكلام ، ويبكي هو نفسه ، وكنت أنا أرى أنه يبكي مثلما أبكي . . . قلت له : « أعلم ذلك يا نيكيتا . . . أعلم أن ابنا هو الآن عند الرب ، وأين عساه يكون ان لم يكن عند الرب ؟ ولكنه ليس عندنا يا نيكيتا ، ليس معنا ، ليس جالسا الى جانبنا كما كان يجلس الى جانبنا من قبل ! ليتني أستطيع أن أراه مرة أخرى ، مرة واحدة ، مرة واحدة لا أكثر . . . وأن أنظر اليه ، أن أنظر اليه مرة واحدة ، صغيري الحبيب ! لن أقرب منه ، سأختبئ في ركن ، وسأصمت ! آه . . . أن أراه مرة أخرى ، ولو دقيقة واحدة ! ليتني أسمعه يلعب في فناء المنزل ، ثم يناديني بصوته الصغير كما كان يفعل : « ماما ! أين أنت ؟ » ليتني أسمعه يركض في الغرفة

على قدميه الصغيرتين ، ليتنى أسمع وقع خطواته على الأرض :
 تك .. تك ... ولقد كان يجيء الى - اننى أتذكر هذا كثيرا ، كثيرا
 جدا - يجيء الى راکضا صائحا ضاحكا .. آه .. ليتنى أسمع وقع
 خطواته ، خطواته الصغيرة ، فأعرف أنه هو ... ، ولكن لا ...
 يا أيها الأب الطيب ... لن أسمعه بعد اليوم قط ... انظر ... هذا
 حزامه الصغير ... أما هو فقد ذهب ، ولن أراه بعد الآن فى يوم من
 الأيام ، ولن أسمعه بعد الآن فى يوم من الأيام ! ..
 قالت المرأة ذلك وأخرجت من عبثها الحزام الصغير المزخرف ،
 حزام ابنها الغائب ، فما ان رآته حتى هزها الشيع ، فسارعت تخفى
 عينيها يديها ، وأخذت الدموع تسيل من خلال أصابعها متدفقة على حين
 فجأة فى كل جهة من الجهات .

قال الشيخ :

- هذه راشيل ، راشيل القديمة ، تبكى صفارها ولا يعزيها عن
 فقدم شيء * . ذلك هو حظكن فى هذا العالم أيتها الأمهات ! لا تتعزى
 يا امرأة ، فليس العزاء هو ما أنت فى حاجة اليه . لا تتعزى ... بل
 ابكى ما استطعت الى البكاء سيلا . ولكن تذكرى وأنت تبكين ، تذكرى
 فى كل مرة ، أن صيک الصغير هو أحد ملائكة الرب ، وانه يراك من
 علياء السماء ، وأنه ينظر اليك ، ويفتبط لدموعك ، ويلفت اليها انتباه
 الرب . ستظلين خلال زمن طويل تسكين هذه الدموع ، دموع الأم
 المفجوعة بابنها . ولكن بكاءك سيستحيل أخيرا الى فرح هادى ، وستصير
 دموع المرارة التى تحسبها الآن الى عبرات حنان وادع ، وعاطفة
 ساجية ، وتطهر روحى . سوف تتخلصين من الخطيئة . أما ابنك فسأصلى
 من أجل راحة روحه . ماذا كان اسمه ؟

- الكسى ، أيها الأب الطيب .



امراة مؤمنة في الدين
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كودساکوفا

٥٥

- اسم جميل • مولاه هو القديس ألكسى أحد أولياء الله •

- نعم يا أبانا ! ألكسى أحد أولياء الله !

- ما أعظمه من قديس ! سأذكره فى صلواتى * • وسوف أصلى من أجلك أنت أيضا أيتها الأم الطيبة ، لأنك تتألين ، وسوف أصلى من أجل زوجك كذلك حتى لا يصيبه سوء . ذلك أن هجرتك اياه خطيئة ، هل تعلمين ؟ عودى الى البيت لتسهرى عليه وتعتنى به • ان ابنك حين يرى من علياء السماء أنك تركت زوجك سوف يبكى عليكما كليكما • فهل تريدان أن تدمرى راحة نفسه وأمن روحه ؟ انه حى ، حى لأن النفس لا تموت • ولئن غاب عن منزلك ، انه لقريب منك ولو لم تراه • فكيف يمكن أن يجرى إليك اذا كنت قد كرهت منزلك وبيتك ؟ من عساه يزور اذا لم يستطع أن يجد الاثنين ، أمه وأباه معاً ؟ انه يظهر لك فى المنام فتعذبان ، فعودى الى منزلك يرسل إليك أحلاماً تهديء روعك ! ارجعى الى زوجك أيتها الأم الطيبة ، ارجعى اليه منذ اليوم !

- سأعمل بما تقول أيها الأب ، سأرجع الى منزلى ، سأتابع نصيحتك ! لقد قرأت ما فى قلبى ! أواه يا عزيزى نيكيتا ، يا عزيزى نيكيتوشكا ، يا طائرى الصغير ، انك تنتظر أوتى ، وانى لأبته •••

عادت المرأة ترتل كلامها ترتيلاً ••• ولكن الشيخ كان قد دنا من عجوز قصيرة طاعنة فى السن جدا ، لا ترتدى ما يرتديه الحجاج ، وانما هى تلبس ثوباً عادياً من ثياب المدينة • كان فى وسع المرء أن يرى فى عينها أنها جاءت لأمر بعينه من الأمور ، وأنها تريد أن تتكلم فى هذا الأمر • قدمت نفسها للشيخ على أنها أرملة رجل كان من ضباط الصف فى الجيش • انها تسكن فى مدينتنا غير بعيد • وقد خدم ابنها فامسنا فى مركز من مراكز الشرطة ، ثم سافر الى ايركوتسك بسبيريا • كتب

اليها رسالتين في البداية ، ثم انقطعت عنها أخباره منذ سنة • أرادت أن تسأل عنه وأن تتقصى أنباءه ، ولكنها لا تعرف الى من تتجه ••• قالت :
 - ان ستيانيدا ايلينشنا بدرياجينا ، وهي تاجرة غنية ، قالت لي :
 « هلمنى فخذى منذ اليوم شيئاً من المال يا بروخورفنا ، واحمليه الى الكنيسة ، بغية أن تتلى الصلوات على روح ابنك ، فيتذكرك ويحن الى المنزل فيكتب اليك • • • ذلك ما فالته لي تلك المرأة • وقد أكدت ستيانيدا ايلينشنا أن هذه وسيلة مضمونة نجحت دائماً • • • غير أن فى نفسى شكوكا ••• فقل لي ، وأنت ضياؤنا ، أهذا صحيح أم لا ، وهل يجب على أن أتبع نصيحتها ؟

- دعيك من فكرتك هذه ! ألا تستحين أن تلقى سؤالاً كهذا السؤال؟
 كيف يخطر ببالك أن يُصلّى على روح ابنك وهو ما يزال حياً؟ أتفعلين هذا وأنت أمه؟ تلك خطيئة كبرى تشبه خطيئة السحر ! ولكن هذه الخطيئة ستُغفر لك بسبب جهلك ! والأولى أن تتضرعى الى ملكة السماء ، التى تسارع الى الشفاعة والحماية ، أن تسهر على صحة ابنك ، وأن تغفر لك هذه الفكرة الآثمة التى خطرت ببالك ! واسمعى ماسأقوله لك أيضا يا بروخوروفنا : ان ابنك سيرجع اليك قريباً ، أو سيكتب اليك حتماً • كونى على ثقة • وانصرفى الآن بسلام • ان ابنك حى • صدقنى •

- جزاك الله خيراً أيها المحسن الينا ، الشفيح لنا ، يا من تصلى من أجلنا جميعاً ، وتستغفر عن خطايانا •

فى أثناء ذلك لاحظ الشيخ فى الجمهور نظرة حادة شاخصة اليه محدقة فيه ، هى نظرة فلاحه شديدة التحول يبدو عليها أنها مصابة بالسل ، على أنها ما تزال شابة • كانت تنظر اليه صامتة ، وكأن عينيهما

تسألان شيئاً من الأشياء ضارعتين متوسلتين ، ولكنها تخشى أن تقترب فيما يبدو • سألهما الشيخ :

– وأنت ماذا تريدين أيتها الأخت الحبيبة ؟

فقلت بصوت بطيء خافت :

– أنقذ نفسي أيها الأب الحبيب !

ثم جثت على ركبتيها وانحنت ساجدة على الأرض •

– لقد أئمت يا أبته ، وأنا خائفة من الثمن •

فعد الشيخ على الدرجة الدنيا ، واقتربت المرأة منه وهي ما تزال

جائئة •

بدأت تقول بما يشبه الهمس ، بينما كان يهزئها نوع من التشنيج :

– ترملت منذ ثلاث سنين • كنت شقية مع زوجي • كان هرماً

وكان يضربني كثيراً • ففي ذات يوم ، بينما كان مريضاً متمدداً على

سريره ، نظرت إليه وقلت بيني وبين نفسي : « ما عسى تكون حياتي إذا

شفى من مرضه ونهض من جديد ؟ » • في تلك اللحظة انما برقت في

ذهني تلك الفكرة الخبيثة •

– انتظري لحظة •

كذلك قال الشيخ ثم دنا من المرأة ووضع أذنه على شفيتها •

تابعت الفلاحة رواية قصتها بهمس يبلغ من الخفوت أن المرء

أصبح لا يكاد يسمع كلمة مما تقوله • ولم تطل مسارتها •

سألهما الشيخ :

– أهذا منذ ثلاث سنين ؟

- نعم منذ ثلاث سنين • لم أكن أفكر في الأمر من قبل • أما الآن
فقد صرت مريضة • ان خواطر مظلمة تملأ جوانب نفسي •
- أأنت آتية من مكان بعيد ؟
- من مكان يقع على مسافة خمسمائة فرسخ من هنا •
- هل ذكرت هذا في الاعتراف للكاهن ؟
- نعم •• ذكرت مرتين •
- هل قبلوا أن تتاولى القربان المقدس ؟
- قبلوا • ولكنني خائفة ، خائفة من الموت •
- لا تخشى شيئاً ! هدئي روعك ! اطمئني بالأمان ! لا تدعى للخوف
أن يستولى عليك ، واطردى الحزن من نفسك • اجعلى الندامة مستقرة
في قلبك قوية عميقة ، فيغفر الله لك كل شيء • ليس على هذه الأرض
ولا يمكن أن يكون على هذه الأرض خطيئة تبلغ من الهول أن الرب
لا يمكن أن يغفرها لمن ندم عليها صادقاً • ثم ان الانسان لا يمكن أن
تبلغ خطيئته هذا المبلغ ، ولا أن يقترف آثاماً كبيرة الى حيث تستفد رحمة
الرب التي لا حدود لها • أفتظنين أن في هذا العالم ذنباً يمكن أن يفوق
الحب الالهى ؟ اندمى ، اندمى بنفسك كلها ، واطردى من قلبك كل
خوف • ثقي أن الرب يجبك أكثر مما تستطيعين أن تتصورى ، وأنه
يجبك حتى في خطيئتك ، ورغم هذه الخطيئة • ان الآثم الذي يندم
ويتوب قد أعدت له في الآخرة أفراح أكبر من أفراح عشرة لم يأتبوا
فما ندموا * • كذلك قيل من زمان بعيد • امضى • لا تخشى شيئاً • ولا
تحملى للبشر حقداً • انسى الاساءات • اغفرى في قلبك للمتوفى ما ألحقه
بك من سوء وما نالك به من أذى ، وصالحيه في قرارة نفسك • أنت
تحيين ما دمت تشعرين بالندامة • وما دمت تحيين فأنت لله ••• ان الحب

قادر على كل شيء ، انه ينقذ كل شيء . لئن كنت ، أنا الخاطيء ، أشاركك
أملك وأندب حظك ، فما بالك بالرب ! ان الحب غنى عظيم يمكن أن
يهب لنا الكون كله ، وأن يجعلنا نكفر لا عن خطايانا نحن وحدها ، بل
عن خطايا الآخرين أيضا . انصرفي الآن بسلام ، وكوني بعد اليوم بلا
خوف .

قال الشيخ ذلك ورسم اشارة الصليب عليها ثلاث مرات ، وتناول
صورة مقدسة كان يحملها في عنقه فوضعها في عنق الفلاحة . حيثه
الفلاحة صامتة وانحنت حتى الأرض . ونهض الشيخ ببطء ، وأشرقت
نظراته حين وقعت على امرأة تفيض صحة وسناء وهي تحمل بذراعيها
رضيعاً .

— أنا آتية من فيشجوريه يا أبانا الطيب .

— من فيشجوريه ؟ قطعت اذن ستة فراسخ حاملةً هذا الصبي
على ذراعيك ؟ فيم ترغين ؟

— أردت أن أراك فقط . لقد سبق أن جئت إليك ، ألا تتذكر ؟
ان كنت قد نسيته فليست ذاكرتك اذن بالقوية . لقد قالوا عندنا انك
مريض ، فأردت أن أراك بعيني . واني لأنظر إليك الآن فما ألاحظ أنك
مريض . دعك من هذا ! لتعيشن عشرين سنة أخرى ان شاء الله .
ما أكثر الذين يدعون لك ويصلون من أجلك ، فكيف يمكن أن
تمرض ؟

— أشكرك أيتها المرأة الطيبة ، أشكرك من كل قلبي !

— لي عندك رجاء آخر ، وان يكن هيناً . اليك خمسين كوبكاً فأهدها
يا أبت لامرأة أخرى ، لامرأة أفقر مني . لقد قلت لنفسى وأنا في طريقي

الى هنا : « سأدفع هذا المال اليه هو ، فانه أدري منى بمن يستحق أن يوهب له » . . .

– شكراً ، شكراً أيها القلب الطيب . هذا يسرنى . سوف أفعل ما تطلين . هل طفلك هذا بنت ؟

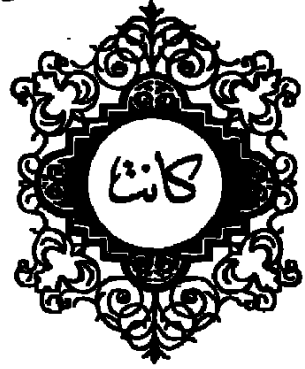
– بنت أيها المبارك ! اسمها الزابيث .

– بارك الله فيكما كليكما ابنتك الزابيث . لقد أفرجت قلبي أيتها الأم الطيبة . الى اللقاء يا أصدقائي ، الى اللقاء يا أعزائي ، يا أولادى الطيبين .

بارك الشيخ الحجاج وحياتهم جميعاً تحية عميقة .

٤

السيدة الضعيف (بما نراها)



السيدة الزائرة تبكى بكاءً رقيقاً هادئاً من تأثرها
برؤية الشيخ وهو يتحدث الى العامة وباركها ؛
وكانت تجفف عبراتها بمنديل صغير • انها
امرأة من الطبقة العليا حساسة جداً صادقة
الطيبة كثيراً • فلما اقترب الشيخ منها أخيراً ، تلقتة بكثير من العاطفة
المتدفقة قائلة :

— ما كان أعمق انفعالي ، وأشد اضطرابي حين رأيت هذا المشهد
المؤثر •••

وقطع الاحتياج كلامها فلم يتابعه • ثم استأنفت تقول بعد لحظة :
— اننى أفهم أن يحبك الشعب • وأنا أيضاً أحب الشعب ، أنا أريد
أن أحبه • وكيف لا يحب المرء شعبنا الروسى الرائع هذا ، كيف لا يحب
المرء هذا الشعب العظيم الطفل فى آن واحد ؟

— كيف حال ابنتك ؟ كنت تريدين حديثاً آخر معى ؟
— أوه ••• لقد ألححت فى طلب هذه المنة • توسلت وتضرعت ،

وكنت مستعدة لأن أجتو على ركبتى ثلاثة أيام بلياليها تحت نوافذك فى سبيل أن تستقبلنى • لقد جئناك ، أيها الشافى العظيم المقدس ، لنعبّر لك عن شكرنا الحار ، لأنك قد شفيت ابنتى ليزا من مرضها ، شفيتها شفاء تاماً ، وبماذا ؟ بأن دعوت لها يوم الخميس الماضى ووضعت يديك عليها ! ان علينا أن نسارع الى تقييلهما ، هاتين اليدين المباركتين ، وأن نظهر لك تأثيرنا ، وأن نعرب عن تبيجلنا وتقديسنا •

- شفيتها ؟ كيف هذا ؟ اننى ما زلت أراها ممتدة فى مقعدها •••
 - ولكن الحمى التى كانت توافيها فى الليل قد زالت زوالاً تاماً ، زالت منذ يومين ، منذ ذلك الخميس تماماً (كذلك أسرعت تضيف السيدة قولها هذا بشيء من العصية) • وأكثر من ذلك أن ساقها قد اشتدتا وقويتا ، لقد استيقظت هذا الصباح معافاةً تماماً ، بعد أن نامت طول الليل • أنظر الى ألوان خديها وبريق عينيها ! كانت قبل الآن ما تنفك تبكى ، وها هى ذى الآن تضحك مرحةً كل المرح سعيدة كل السعادة • أصرت اليوم اصراراً مطلقاً على أن تنهض قائمة ، واستطاعت أن تقف على ساقها ساعة كاملة دون أن تُسند • وقد راهنتى على أنها ستكون بعد خمسة عشر يوماً قادرة على أن ترقص • استدعيت طبيينا الدكتور هرتسنشتوبه ، فهزّ كتفيه وقال : « اننى لا أفهم شيئاً ! هذا أمر خارق! » • فكيف تريد بعد هذا أن لا نجثك ونحن نحترق شوقاً الى أن نظير اليك ، وأن نصيح تعبيراً عن عرفاننا بجميلك ؟ أشكرى له صنيعه يا ليزا ، عبّرى له عن عميق امتنانك •••

اكتسى وجه ليزا الجميل الضاحك، هيئة الجسد ، ونهضت على كرسياها ما استطاعت النهوض ، ونظرت الى الشيخ ضامةً يديها • ولكنها لم تستطع أن تكبح جماح نفسها ، فاذا هى تنفجر ضاحكةً على حين

فجأة • قالت وهي تشير الى أليوشا خجلةً غاضبةً كطفل لم يملك أن يسيطر على نفسه وأن يمتنع عن الضحك :

– هو السبب ، هو السبب !

لو ألقى أحد في تلك اللحظة نظرة على أليوشا الذي كان واقفاً وراء الشيخ على بعد خطوة منه ، للاخط الحمره الشديدة التي اصطبغ بها خداه فجأة • وومضت شعله في عينيه اللتين سارع يفضهما •

تدخلت الأم قائلة :

– عندها رسالة تريد أن تنقلها اليك يا ألكسي فيدوروفتش •

وأضافت الفتاة تقول وهي تلتفت نحو أليوشا بحرارة وتمد اليه يداً صغيرة يكسوها قفاز أنيق :

– كيف حالك ؟

التفت الشيخ نحو أليوشا وألقى عليه نظرة متببهة • ودنا الفتى من ليزا فمدَّ إليها يده وهو يتسّم ابتسامة غريبة فيها كثير من الارتباك والخرج • وحاولت الفتاة أن تصطنع هيئة الجسد والوقار والرصانة • وقالت له وهي تناوله رسالة صغيرة :

– كلفتني كاترين ايفانوفنا بأن أوصل اليك هذه الرسالة • انها ترجوك كثيراً أن تجيء اليها ، أن تجيء اليها بأقصى سرعة ، ومن غير ابطاء • انها تريد أن تراك حتماً ، وتأمل أن لا تخيب ظنّها •

– تريد أن أزورها ؟ أنا ؟ ••• لماذا ؟

كذلك دمدم يقول أليوشا وقد ظهرت في وجهه دهشة واضحة • وسرعان ما اكتست سحنته تعبيراً عن همٍ أظلمت له عيناه •

قالت الأم تشرح :

– أوه ... الأمر أمر دمترى فيدوروفتشن طبعا ... وأمر هذه الأحداث كلها أيضا ... لقد اتخذت كاترين ايفانوفنا قرارا في هذا الشأن • ولكنها تريد أن تراك أولاً ... لماذا؟ لا أدري ... ولكنها تصر اصرارا شديدا على أن تراك بأقصى سرعة • ستزورها ، أليس كذلك ؟ عليك أن تزورها حتما ! ... العاطفة المسيحية نفسها تأمر بذلك •

عاد أليوشا يقول بلهجة تعبر عن تلك الدهشة نفسها :

– ولكننى لم أرها فى حياتى الا مرة واحدة !

قالت الأم :

– ولكنها انسانة نادرة المثال ، عظيمة النقاء ، سامية النفس ... ولو بسبب ما قاست من آلام على الأقل ... تذكر ما عاتته وما تزال تعانيه • وفكّر أيضا فيما ينتظرها ... أليس هذا رهيبا ، أليس رهيبا ؟

قال أليوشا بعد أن تصفح الرسالة المقتضبة العجيبة التى لا تشتمل على أى إيضاح ، ولا تزيد على أن تدعوه الى زيارتها بالحاح :

– طيب ... سأذهب ...

صاحت ليزا تقول وقد تحمست على حين فجأة :

– أوه ! ... ما أجمل هذ منك وما أنبله ... تباً لى ... لقد قلت لأمى : « لن يذهب حتماً ... سوف يرفض قطعاً ... لأنه اعتكف فى الدير ، • انك طيب جداً ، نبيل جداً • لقد قدّرت دائما أن لك نفسا رائعة ، ويسرنى أن أقول لك ذلك اليوم •

تدخلت الأم تقول بلهجة قاسية :

- ليزا ! ...

ولكنها لم تلبث أن ابتسمت ، ثم أضافت تخاطب أليوشا :

- لقد تركتنا جميعا نحن أيضا يا ألكسى فيدوروفتش ! أصبحت
لا تزورنا أبداً ، مع أن ليزا أسرت الى مرتين أنها لا تشعر بارتياح الا
بحضورك .

رفع أليوشا عينيه اللتين كانتا مطرقتين الى الأرض ، واحمر من
جديده ، وابتسم مرة أخرى دون أن يعرف لماذا ! وكان الشيخ قد انصرف
عنه فهو لا يلاحظه . كان الشيخ قد أخذ يكلم الراهب المار بالمدينه ،
الذى كان كما سبق أن قلنا ينتظر قرب مقعد ليزا . كان واضحا أن هذا
الراهب واحد من أولئك الرهبان العاديين جدا الذين ينتمون الى فرقة
رهبانية غامضة ، ويملكون أفكارا محدودة جامدة ، ولكن يحركهم ايمان
عميق جدا ، ايمان ثابت على طريقتهم الخاصة . ذكر الراهب للشيخ
انه آت من منطقة نائية بالشمال ، من مدينة أوبدورسك* ، وأنه ينتمى الى
دير فقير جدا بسان سلفستر ، دير لا يضم الا تسعة رهبان . باركه
الشيخ ، ودعاه أن يزوره فى حجراته متى حلا له ذلك .

سأله الراهب فجأة وهو يومئ الى ليزا باشارة رصينة ذات أبهة :

- ما تلك القوة التى تتيج لك أن تحقق مثل هذه الأمور ؟

كان الراهب يشير الى « الشفاء » بمعجزة .

فقال له الشيخ :

- لم يحن حين الكلام عن الشفاء بعد . ليس التحسن شفاء تاما ،
وربما كان مرد هنا التحسن الى أسباب أخرى . واذا كان ثمة معجزة
مع ذلك ، فليس الأمر الا أمر قوة واحدة هى القوة التى تصدر الينا
عن النعمة الالهية . لا شئ يتم الا بإرادة الله .

وأردف الشيخ يقول متجهاً بالكلام الى الراهب :

- تعال زرني أيها الأب ، قبل أن يوافيني أجلى • اننى مريض ،
واننى أحس أن أيامى معدودات •

صاحت أم ليزا تقول :

- لا •• لا ••• ان الرب لن يحرمننا منك ! ستعيشى طويلاً ،
طويلاً جداً • ما عسى يكون مرضك ؟ ان فى وجهك كثيراً من الحياة
والفرح والسعادة •

- صحيح أننى أشعر أن حالتى اليوم أحسن كثيراً مما كانت ،
ولكننى أعلم أن هذا لن يدوم • أنا أعرف الآن مرضى معرفة كاملة •
تقولين اننى أبدؤ فرحاً • فاعلمى أنه لا شىء يمكن أن يفرحنى كما
يفرحنى أن أسمع منك هذه الملاحظة • لأن الانسان انما خلق للسعادة ،
والذى يشعر بسعادة كاملة يحق له أن يقول : « لقد حققت ارادة الله
فى هذا العالم » • ان جميع الأتقياء ، ان جميع القديسين ، ان جميع
الشهداء كانوا سعداء فى جميع ظروف الحياة •

هتفت الأم تقول :

- ما أجمل هذا الكلام الذى تقول ! ما أعظم وما أرفع هذه المعانى
التي تعبّر عنها كلماتك ! ان كل كلمة تقولها تمضى الى القلب رأساً •
ولكن أين هى السعادة ؟ من ذا الذى يستطيع أن يقول انه سعيد ؟ يا من
تلطفت فأذنت لنا بأن نراك اليوم مرة أخرى ، هلاًّ تحمّلت أن أفضى
إليك اليوم بما سكتُ عنه أثناء زيارتنا السابقة ولم أجرؤ قط أن أتحدث
عنه فى المرة الأولى ! دعنى أكلمك فيما يعذبنى كثيراً منذ زمان طويل ،
منذ سنين • اننى أتألم • اننى شقية ! آه ••• معذرة •

قالت السيدة ذلك وهي تضم يديها أمامه في سورة مفاجئة من
الانفعال •

– ما الأمر ؟

– اننى أتألم ••• من فقدى الايمان ؟

– أنت لا تؤمنين بالله ؟

– ليس هذا ••• اننى لا أجرو حتى أن أفكر فى هذا • وانما أنا
أشك فى الحياة الأبدية • ذلك لفر لم أستطع أن أستينه ! وما من أحد ،
ما من أحد يستطيع أن يهب لى جوابا عن هذه المسألة ، ما من أحد
يستطيع أن يقدم لى حلاً لهذه المشكلة • اصغ الى : أنت انسان تشفى
المرضى وتعرف أغوار النفوس • لست أطعم طبعاً فى أن أفوز بثقتك ،
لست أطعم فى أن تصدقنى تصديقاً كاملاً ، ولكننى أؤكد لك ، أقسم
لك بأعظم ما فى هذه الحياة ، أنتى لا أتكلم فى هذه اللحظة طيشاً وخفة •
صدقنى : ان فكرة الحياة الآخرة هذه تؤلنى الى حد العذاب ، الى حد
الرعب ، الى حد اليأس • لا أدرى الى من يجب أن أتجه ••• لقد ظلمت
مترددة فى هذا الأمر طول حياتى • ولكننى أجازف الآن فأكشف لك
عن دخيلة نفسى • يا رب ! ما عساك تظن بى من ظنون ؟ ما عساك ترى
فى من رأى ؟ (قالت ذلك وهي تعقف يديها) •

أجابها الشيخ قائلاً :

– لا تهمنى برأى • أنا مقتنع بصدق ما تعانين من قلق •

– أشكر لك ذلك أعمق الشكر • اننى أغمض عينى وأفكر • أقول
لنفسى : « ان جميع البشر يؤمنون ، فما تعليل هذا ؟ ألا يذهب بعضهم
الى أن الدين قد نشأ من الخوف الذى أحدثته فى نفس الانسان فى الماضى

قوى الطبيعة العاتية ، وأن لا شيء من ذلك موجود فى الواقع ؟ ، ثم أقول
لنفسى عندئذ : « واذن فانتى أنا التى آمنت طوال حياتى سأموت فما يبقى
منى بعد الموت شيء ، ما يبقى الا قليل من العشب على قبرى ، كما قرأت
هذا الكلام لكاتب من الكتاب ؟ ذلك أمر مخيف ، ذلك أمر مرعب !
فكيف ، كيف أرتد الى الايمان ؟ على انى لم أؤمن الا فى طفولتى ،
وكان ايمانى بغير شعور البتة ، بغير تفكير قط . . . فكيف ، كيف السبيل
الى البرهان على الحقيقة ؟ ، لقد جئت أسألك فى مذلة وتواضع أن
تيرنى يا أبتاه ! فاذا أفلتت منى هذه الفرصة اليوم ، فلن يستطيع أحد
أن يجيبنى فى يوم من الأيام . أليس هذا صحيحاً ؟ انى أريد أن أفتح
ما أشقانى ! انى أنظر حولى فما أرى أحداً يقلقه هذا الأمر ، وان جميع
الناس ، أو جميع الناس تقريبا ، لا يحفلون به ولا يكثرثون له ، وانى
الوحيدة التى لا تطيق احتمال هذا الشك . أمر رهيب ، أمر رهيب .

– هو رهيب فعلاً . ولكن لا سبيل فى هذا المجال الى برهان
ومع ذلك يستطيع الانسان أن يصل الى اليقين .

– كيف ؟ بأية طريقة ؟

– بمعاناة الحب الفعال . حاولى أن تحبى أقرانك حبا فعلاً غير
منقطع . فكلما ازددت حبا ازددت اقتناعا بوجود الله ، وازددت اقتناعاً
بالحياة الأبدية . متى وصلت الى نسيان نفسك فى حب الآخرين نسياناً
تاماً ، أصبح يقينك كاملاً فلم يساور نفسك بعد ذلك أى شك . تلك
حقيقة من حقائق التجربة ، تلك حقيقة مؤكدة . . .

– أقول : الحب الفعال ؟ هذه مشكلة أيضاً ، ويا لها من مشكلة !
انظر يا أبتاه : انى أبلغ من حبى الانسانية أنه يتفوق لى فى بعض
اللحظات – صدقنى – أن يخطر ببالى أن أدع كل شيء ، وأن أنفصل

حتى عن ليزا لأصبح راهبة من راهبات المحبسة ! اننى أغمض عيني ، وأفكر ، وأحلم ، فأشعر فى نفسى أثناء تلك اللحظات بقوة لا تغالب • ما من جروح ولا من قروح متقيحة يمكن أن تخيفنى • أنا أشعر بأننى مستعدة لأن أضمّدها ، لأن أغسلها بيدي ، وأتمنى لو أصبح حارسة للمرضى قرب هؤلاء الأشقياء ، وأن أقبل جراحهم •

— انه لحسن جدا وجميل جدا أن ينصرف فكري الى هذه الأمور بدلا من أن يفكر فى أشياء أخرى كثيرة • بدأت أعتقد أنك ستتهين فى يوم من الأيام الى أن تقومى بعمل جليل فعلاً •

تابعت السيدة تقول بحرارة وكأنها خارجة عن طورها حماسة :
 — نعم ، ولكن الى متى أستطيع أن أحتمل مثل هذه الحياة ؟ ذلك هو السؤال الأساسى ، ذلك هو ، بين جميع الأسئلة ، السؤال الذى يعذبنى أكثر من سائر الأسئلة • اننى أغمض عيني وأسأل نفسى : «أتراك تستمرين طويلاً فى هذا الطريق اذا لاحظت أن المريض الذى ستغسلين قروحه لا يظهر لك امتنانه ولا يعبرّ لك عن شكره فوراً ، وانما هو يرهقك بنزواته ، دون أن يقدرّ بل ودون أن يلاحظ اخلاصك للانسانية المعذبة ، وتفانيك فى سبيلها ؟ وما عساك تفعلين اذا هو ثار عليك ، وأغلق لك القول ، أو شكاك الى الادارة (وذلك ما يفعله فى كثير من الأحيان أولئك الذين يعانون آلاماً شديدة) ؟ أتراك تستمرين فى حبك أم لا تستمرين ؟ » • ولقد أجبت نفسى عن هذا السؤال ، هل تصور ؟ أجبت نفسى عن هذا السؤال قائلة : « اذا كان هنالك شىء يمكن أن يطفىء جذوة حبى » الفعال ، فوراً ، فذلك الشىء انما هو نكران الجميل • • معنى هذا على وجه الاجمال اننى لا أقبل أن أفعل الا بأجر ، وأنتى أطلب بأن يُجزى حبى على الفور مديحاً وحباً • وما لم أتل هذا الجزاء ، لا أستطيع أن أحب أى انسان !

كذلك اتهمت المرأة نفسها في سورة صدق جامع ، حتى اذا فرغت من كلامها حدثت الى الشيخ وقد بدا في وجهها عزم يوشك أن يكون تحدياً .

قال الشيخ :

— ذلك بعينه ما حدثني به طيب منذ زمان طويل . كان رجلاً مسناً ينعم بحظ وافر من الذكاء . وكان يتكلم بصدق واخلاص كما تتكلمين ، ولئن تكلم مازحاً ، لقد كان الحزن ظاهراً في مزاجه . قال : « انى أحب الانسانية ، غير أن هناك شيئاً فى نفسى يدهشنى : كلما ازداد حبى للانسانية جملةً واحدة ، نقص حبى للبشر أفراداً ، أى أشخاصاً لهم حياتهم الخاصة » وقال هذا الطيب يسرُّ الى بدخيلة نفسه : « انه ليتفق لى كثيراً أثناء اندفاعى فى الأحلام أن تستبد بى حماسة شديدة ورغبة عارمة جامحة فى خدمة الانسانية ، حتى لقد ارتضى أن أٌصلب فى سبيلها اذا بدا هذا ضرورياً فى لحظة من اللحظات . ومع ذلك لو أريد لى أن أعيش يومين متتاليين فى غرفة واحدة مع أى انسان ، لما استطعت أن أحتمل ذلك . انى أعرف هذا بتجربة . فمتى وجدت نفسى على صلة وثيقة بانسان آخر أحسست بأن شخصيته تصدم ذاتى وتجوور على حرىتى . انى قادر فى مدى أربع وعشرين ساعة على أن أكره أحسن انسان : فهذا يصبح فى نظرى انساناً لا يطاق لأنه مسرف فى البطء فى تناوله الطعام على المائدة ، وهذا يصبح فى نظرى انساناً لا يطاق لأنه مصاب بزكام فهو لا ينفك يمخط . انى أصبح عدواً للبشر متى اقتربت منهم . . . وأضاف الطيب يقول مؤكداً : « ولكننى لاحظت فى كل مرة انى كلما ازدادت كرها للبشر أفراداً ، ازدادت حرارة حبى للانسانية جملةً . . . »

— فما العمل فى هذه الحالة ؟ ما العمل ؟ أليس هذا مدعاة لليأس

تماماً ؟

- كلا . . . انه ليكفى أن تشعرى من ذلك بأنك تعيسة شقية . افعلى ما تستطيعين أن تفعلى ، وسيُحسب لك هذا . ولقد فعلت منذ الآن كثيراً ما دمت قد استطعت أن تقرئى فى قلبك بهذا العمق كله وهذا الصدق كله . واذا كنت لم تحدثينى بمثل هذا الصدق ، حتى فى هذه اللحظة ، الا لتسمعى منى ثناءً على حبك للحقيقة ، كما فعلت ذلك ، فانك لن تصلى طبعاً الى شىء على طريق الحب الفعال ، وستضيع حياتك فى أحلام لا أكثر . ولكن من المؤكد أنك ستسعين عندئذ قلقك بصدد الحياة الآخرة ، بل وستنهين الى أن يهدأ بالك فيما يتعلق بهذا الأمر ، بطريقة أو بأخرى .

- لقد دمرتنى ! الآن أدركت ، فى هذه اللحظة وحدها ، حين سمعت كلامك ، أنتى كنت لا أتوق فى الواقع الا الى سماع ثنائك على صدقى فى الاعتراف لك بعجزى عن احتمال تكران الجميل . لقد نفذت الى دخيلتى ، وكشفت عن قرارة قلبى ، وحملتى على أن أفهم نفسى بنفسى .

- أصحيح هذا الذين تقولين ؟ أنتى بعد اعترافك هذا قد اقتنعت بصدقك كل الاقتناع ، وأيقنت بأن لك قلباً طيباً . فاذا لم تبلغى السعادة ، فلا تنسى أنك سائرة فى الطريق السليمة ، فلا تجيدى عنها . واهربى من الكذب قبل كل شىء ، اهربى من جميع أنواع الكذب ، ولا سيما كذب الانسان على نفسه . راقبى ذاتك وافضحى الكذب فى نفسك كل ساعة ، وكل لحظة . وتجنبى الاشمئزاز أيضاً ، تجنبى الاشمئزاز من الناس ومن نفسك على السواء : ان ما قد يبدو لك فى طبيعتك شراً انما يصفيه وينقيه ويطهره مجرد شعورك به . حاربى الخوف كذلك ، وما الخوف على كل حال الا ثمرة من ثمرات الكذب . لا يصدنك عن ملاحقة الحب ما قد تثيره فىك عيوبك من رعب أو يأس ، لا تدعى حتى لأفعالك السيئة نفسها أن تهزمك فى هذا الكفاح . يؤسفنى أنتى لا أملك أن أقول لك شيئاً فيه

مزيد من التشجيع : ان الحب الفعال شيء قاسٍ رهيب اذا قيس بالأحلام التي يحلمها المرء عنه • ان من يحلم بالحب يشعر بظماً الى عمل مباشر بطولى يحققه بسرعة وينال به اعجاب الناس؛ حتى لقد يصل بهذه الطريقة الى التضحية بحياته راضياً شريطة أن لا يدوم الأمر زمناً طويلاً ، وانما يتم بسرعة ، كما لو كان على مسرح تراه الأبصار وتمدحه الألسن • ولا كذلك الحب الفعال ، فانه يقتضى جهداً ويتطلب صبراً ، وهو بالنسبة الى بعضهم كالعلم يجب تحصيله • وثقى مع ذلك أنك حتى فى اللحظة التي ستلاحظين فيها مذعورةً أن جميع جهودك ضاعت سدىً بغير جدوى ، فتعترفين بأنك قد ابتعدت عن الهدف بدلاً من أن تقتربي منه ، ثقى أنك فى تلك اللحظة نفسها تكونين فى الواقع قد بلغت الهدف ، وسترين عندئذ بوضوح كامل ما قد أحدثه الرب فى نفسك من فعل هو المعجزة ، فان حب الرب يكون طوال تلك المدة قد شدَّ أزرك وقاد خطاك وأرشدك الى الصواب على نحو لا تعرفين سره • معذرةً اذا كنت لا أستطيع أن أبقي معك زمناً أطول ، فان هناك أناساً ينتظروننى • الى اللقاء •

كانت المرأة تبكى • ثم هتفت تقول كأنما هى ثابت الى نفسها على حين فجأة :

– ليزا ، ليزا ، لا تنس أن تباركها • باركها !

فقال الشيخ مازحاً :

– هى لا تستحق حتى أن تحب • لقد لاحظتُ كيف أنها لم تزد على أن تتسلى هنا • لماذا كنت تسخرين من أليوشنا طول الوقت ؟

كانت ليزا ، فعلاً ، قد انصرفت منذ البداية الى لعب ماكر • لقد لاحظت منذ الزيارة الماضية أن أليوشنا يضطرب ويحاول أن لا ينظر اليها، فكان هذا يسليها كثيراً • فهى اليوم ترقب نظرتة وتترصدها بالحاح •

واذ لم يستطع أليوشنا أن يقاوم نداء العينين اللتين كاتتا تحددان اليه،

فقد كان يرفع رأسه دائماً رغم ارادته ، كأن قوة عليا تحركه ، فينظر الى الفتاة هو أيضاً ، فاذا بالفتاة تأخذ تضحك مثبته نظرها عليه ، فيضطرب اليوشا مزيداً من الاضطراب ويغضب . وانتهى أخيراً الى أن أدار لها ظهره واحتبأ وراء الشيخ . ولكنه التفت من جديد بعد بضع دقائق ، بتأثير تلك القوة القاهرة نفسها ، ليعرف ألا تزال الصبية تراقبه أم هي كفت عن ذلك ، فاذا هو يلاحظ أن ليزا التي مالت عن كرسيها المتحرك حتى تكاد تخرج منه لتراقب الفتى بمزيد من الانتباه ، كانت تنظر اليه من جانب ، منتظرةً بالحاح شديد أن يرفع عينيه نحوها ، فلما فأجأت نظرته اليها أخيراً انفجرت تضحك في قهقهة بلغت من الاندفاع المبالغت أن الشيخ نفسه لم يحتملها ، فقال للفتاة :

– لماذا تحاولين أن تضايقيه أيها الصبية الشريرة ؟

فاحمر وجه الفتاة على حين فجأة احمراراً لم يكن في الحسبان ، والتمعت عينها ، واكتسى وجهها هيئة الجذ الشديد ، وأجابت بقتة بلهجة استياء عنيف ، وبعبارات سريعة عصبية ، أجابت تقول :

– ولماذا تركني هو ؟ لقد لعبنا معاً حين كنا طفلين صغيرين ، وكان يحملني بذراعيه ، وكان يجيء في الماضي الينا ليعلمني القراءة ، هل تجهل ذلك ؟ ومنذ سنتين فقط ، أكّدت لي ، حين ودعنا ، أنه لن ينساني في يوم من الأيام وأنا سنظل صديقين دائماً الى الأبد ! وهذا هو الآن يشبه أن يكون خائفاً مني كأنني سأكله ! لماذا لا يقترب مني ؟ لماذا لا يكلمني ؟ لماذا لا يجيء الينا ؟ أنت الذي تمنعه ؟ نحن نعلم مع ذلك أن في امكانه أن يخرج بحرية . وليس عليّ أنا أن أناديه ، وانما واجبه هو أن يجيء ، اذا كان لا يزال يتذكر . ولكن لا ! هو يحقق لنفسه الأمن والسلام والخلاص ، أليس كذلك ؟ ولماذا ألْبستموه ثوب الراهب هذا الطويل ؟

••• انه يتعرض للسقوط على الأرض اذا ركض •••

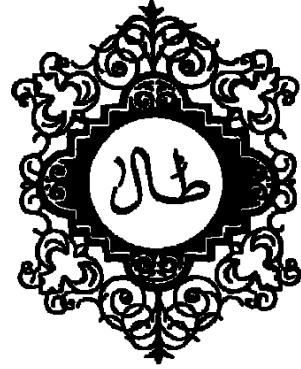
قالت الفتاة ذلك ثم لم تستطع أن تمالك نفسها فاذا هي تعطى وجهها بيديها على حين فجأة وتنفجر ضاحكةً ضحكة كبيرة هي ضحكتها الطويلة العصيبة التي لا تستطيع مغالبتها والتي تهزها هزاً قوياً دون أن تكون صاحبةً كثيراً • أصغى الشيخ إليها مبتسماً ، ثم باركها في خان • فتاولت يده لتقبلها ، وشدتها فجأة الى عينيها وأخذت تبكى قائلة :

– لا تفضب منى • ما أنا الا حمقاء لا أساوى شيئاً ••• ولا شك في أن أليوشا على حق ••• انه على حق حين لا يريد أن يهتم بأمر صبية سخيفة هذا السخف كله •••

قال الشيخ بلجبهة جازمة :

– سأرسله اليكم حتماً •

لكن مشيئة الرب



غياب الشيخ قسراية خمس وعشرين دقيقة • كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة والنصف ولما يصل بعد دمتري فيدوروفتش الذي عقد هذا الاجتماع من أجله • وكان يبدو أنهم قد نسوه ، حتى أن الشيخ وجد ضيوفه غارقين في مناقشة حامية جدا • ان المناقشة تدور بين ايفان فيدوروفتش والراهبين الكاهنين • أما ميوسوف فهو يتدخل في المناقشة في كثير من الأحيان ، بل وبكثير من الحرارة ، ولكنه لم يحالفه التوفيق في هذه المرة أيضا ، فهو يظل في الدرجة الثانية ، والمتناقشون يجيبونه ذاهلين ، فكان هذا يزيد حنقه ويفاقم غيظه • لقد سبق له أن تنافس مع ايفان فيدوروفتش في ميدان سعة الاطلاع وغزارة المعرفة . فلم يستطع أن يطبق ذلك الازدراء الخفيف الذي أظهره له ايفان • كان يحدثه نفسه قائلاً : « كنت أعتقد ، حتى الآن على الأقل ، أنني في مستوى كل ما يشكل التقدم في أوروبا ، ولكن هذا الجيل الجديد يظهر أنه يتجاهلنا عامدا » • وأما فيدور بافلوفتش فكان قد آلى على نفسه أن لا يتحرك من مكانه ، وأن لا ينطق بكلمة واحدة ، لذلك ظل صامتا بعض الوقت ، ملاحظاً مع ذلك جاره بطرس ألكسندروفتش ، مبتسما ابتساماً

هزاء وسخرية ، مبتهجا بما يراه فيه من حنق وغيظ • انه يفكر في أن يثار لنفسه منذ مدة طويلة ، ولا يريد أن يفوت فرصة جميلة كهذه الفرصة • واذ أصبح لا يطيق صبرا ، فقد مال على كتف جاره وعاد يحطه بسخرياته من جديد ، متكلما بصوت خافت :

- لماذا لم تنصرف منذ قليل ، بعد تلك القصة التي رويت عن القديس الذي قطعت عنقه والقبلات التي طبعها على رأسه ؟ لماذا رضيت أن تبقى في صحبة أناس يبلغون ما أبلغه أنا من قلة الاحتشام وسوء الأدب ؟ سأذكر لك السبب : انك قد بقيت لأنك شعرت بمذلة واهانة ، فأنت تنتظر اللحظة التي تثار فيها لنفسك باظهار مواهبك الفذة وفكرك اللامع • وانى لأراهن على أنك لن تبارح هذا المكان قبل أن تحملهم على الاعجاب بكائك •

- استأنفت ثرثرتك ؟ سوف أنصرف ، بل سوف أنصرف فورا •

- دعك من هذا ! لسوف تبقى الى النهاية ، ولن تنصرف الا آخر المنصرفين ! ...

وفي تلك اللحظة نفسها تقريبا انما رجع الشيخ الى الحجرة •

توقفت المناقشة لحظات ، ولكن الشيخ ، بعد أن جلس في مكانه السابق ، ألقى على المتناقشين نظرة لطيفة رضية كأنما ليشجعهم على مواصلة المناقشة • ولاحظ ألبوشا الذي كان قد درس جميع تعابير وجه الشيخ ، لاحظ فورا أن الشيخ منهوك القوى وأن يتحامل على نفسه ويكلفها من أمرها عسراً في سبيل أن يتغلب على تعب • ان المرض قد أحدث للشيخ في الآونة الأخيرة عدة غيوبات من شدة الضعف : وها هي ذى صفرة شبيهة بالصفرة التي تسبق حالات الغيوبة هذه عامة ، ها هي ذى تفتيح وجه الشيخ الآن ، وها هما شفاه تبيضان • وكان واضحاً مع ذلك أن الشيخ لا يرغب في أن يختم هذا الاجتماع • لا بد أن هناك سبباً يدعو

الى ذلك • ولكن ما هو هذا السبب ؟ كان أليوشا يلاحظ الشيخ باتتياه شديد •

قال الراهب الكاهن جوزيف ، وهو قيّم مكتبة الدير ، قال يشرح وهو يشير الى ايفان بتروفتش :

ـ كنا نتكلم عن المقالة الشائقة جداً التي نشرها هذا الشاب • لقد أورد آراء أصيلة في عدد من النقاط ، غير أن بعض آرائه يبدو ذا حدين • والموضوع هو موضوع القضاء الاكليريكي ومدى الصلاحيات التي يجب أن يُعطاهما • كان أحد رجال الدين قد نشر كتاباً ضخماً في هذه المسألة* ، فردّ عليه هذا الشاب بمقالة نشرها في جريدة •••

أجاب الشيخ وهو يلقي على ايفان فيدوروفتش نظرة طويلة متفرسة :

ـ يؤسفني أنني لم أقرأ مقالتك ، ولكنني سمعت عنها •

استأنف الأب قيّم المكتبة كلامه يقول :

ـ ان هذا الشاب يدافع عن نظرية شائقة حقا ، وكأنه حين يعالج مشكلة القضاء الاكليريكي ، يدحض مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة •

قال الشيخ يسأل ايفان فيدوروفتش :

ـ هذه في الحق فكرة شائقة ، ولكن بأي معنى تفهمها ، وما الذي تقصده بها ؟

فأجابه ايفان بعد بضع لحظات من صمت ، فلم يصطنع في جوابه ذلك التعالي الذي يشتمل على احترام مهذب ، وهو ما كان يخشاه أليوشا حتى الليلة البارحة ، وانما تكلم بلهجة فيها تواضع وتحفظ ، وفيها تقدير واعتبار ، ولا أثر فيها لأية فكرة ميّنة أو حكم سابق • قال :

- ان فكرتى هي أن ذلك التوحيد الذى يفرضه هوانا على عناصر متعارضة فى جوهرها كتعارض الكنيسة والدولة ، سيظل قائماً الى الأبد ولا شك ، رغم أنه يخالف طبيعة الأشياء ولا يمكن أن يؤدي الى جعل العلاقات سليمة سوية بين السلطتين بل ولا الى مصالحة بسيطة مهما يكن حظها من الاتساق والانسجام يسيرا . والواقع أن الكذب هو المصدر الذى ينشأ عنه هذا الحل أو هو الأساس الذى يقوم عليه . وعندى أن تسوية بين الدولة والكنيسة فى مسائل كمسألة القضاء مثلاً ، أمر " مستحيل ولا يمكن تخيله إطلاقاً . ان رجل الاكليروس الذى انتقدت نظرياته قد ذهب الى أن الكنيسة تحتل فى داخل الدولة مكاناً معيناً واضح الحدود . فأجبت بأتنى ، من جهتى ، أرى أن الكنيسة يجب ، على عكس رأيه تماماً ، أن تستغرق الدولة كلها وأن لا تكتفى بماوى بسيط تعنصم به فى داخل التنظيم الاجتماعى . وأضفت الى ذلك قولى انه اذا تعذر الوصول الى هذا الهدف فى الظروف الحالية لسبب من الأسباب ، فيحسن أن ننظر اليه على أنه الغاية الضرورية التى يجب على المجتمع المسيحى أن يتجه اليها بكل قواه أثناء تطوره المقبل .

قال الأب بائيسى الراهب الكائن ، العلامة الشديدي الصمت ، قال بصوت قاطع جازم ولكنه لا يخلو من عصية :

- هذا صحيح تماماً .

فصاح ميوسوف يقول وهو يضع ساقاً على أخرى بحركة تدل على نفاد الصبر :

- ولكن هذا ليس الا عقيدة مما وراء الجبال *

فانطلق الأب جوزيف قائلاً :

- دعك من هذا الكلام ! نحن ليس لدينا فى روسيا حتى جبال !

ثم استأنف بعد ذلك يقول متوجهاً الى الشيخ :

- ان هذا الشاب قد أورد الردود التالية ، فيما أورد من ردود على آراء خصمه - ولاحظوا أن خصمه عضو من أعضاء الاكليروس - وهي آراء يعدها خصمه « جوهريّة وأساسية » : الرأى الأول أو الموضوعة الأولى : « ما من طائفة اجتماعية يجوز لها أو يجب عليها أن تدعى لنفسها حق التصرف فى الحقوق المدنية والسياسية لأفرادها » ؛ الموضوعة الثانية : « ان حق القضاء الجزائى والمدنى يجب أن لا ينتمى الى الكنيسة، لأنه يتنافى مع ماهيتها كمؤسسة دينية ويتنافى أيضا مع صفتها كتنظيم انسانى وُجد لتحقيق أهداف دينية » الموضوعة الثالثة والأخيرة : « ان ملكوت السماء لا ينتمى الى هذا العالم » .

فقال الأب بائسى يتدخل مرة أخرى وقد بدا عليه الاستياء واضحا :
- ذلك لعب بالالفاظ لا يليق فى رأى بعضو من أعضاء الاكليروس .

- لقد قرأت الكتاب الذى رددت عليه ، وقد أدهشنى أن أرى مؤلفه يقول : « ان ملكوت السماء لا ينتمى الى هذا العالم » . ذلك أنه ان لم يكن ينتمى الى هذا العالم فمن البديهي أنه لن يمكن عندئذ أن يتحقق فى هذا العالم على أية صورة من الصور . وليس هذا هو المقصود اطلاقاً من التعبير الوارد فى الأناجيل ، القائل بأن «ملكوت السماء لا ينتمى الى هذا العالم » . ان التلاعب بالألفاظ على هذا النحو غير جائز ولا مقبول . ان سيدنا يسوع المسيح انما جاء ليقم الكنيسة على الأرض . صحيح أن ملكوت السماوات لا ينتمى الى هذا العالم ، لأنه فى السماء ، ولكن دخول ملكوت السماء لا يكون الا عن طريق الكنيسة التى أقيمت فى الأرض . لذلك يجب أن نعد هذا التلاعب بالألفاظ المصطنع بالروح العصرية أمراً لا يليق استعماله ولا يمكن قبوله فى هذا المجال . ان الكنيسة

هى فى الواقع مملكة • وان رسالتها هى أن تسود وأن تحكّم ، وستشمل مملكتها الأرض كلها أخيراً ، وذلك ما جاء فى النبوءة على كل حال ••• قال الأب بائيسى ذلك ثم صمت فجأة كأنما هو يمسك عن الكلام عامداً •

وكان ايفان فيدوروفتش يصغى الى كلامه بانتباه فيه كثير من الاحترام ، فاستأنف حديثه متجهاً الى الشيخ قائلاً بهدوء عظيم ولهجة رصينة باشة طيبة :

- ان الفكرة الأساسية التى تجمل مفالتى كلها هى أن المسيحية كانت فى الأزمنة القديمة ، أى طوال القرون الثلاثة الأولى من قيامها ، كانت كنيسةً فحسب ، وكانت لا تطمح فى أن تصبح أكثر من ذلك • ولكن حين قررت الدولة الوثنية التى هى الدولة الرومانية أن تعتنق الديانة المسيحية فان الذى حدث بالضرورة هو أنها حين أصبحت مسيحية قد احتوت الكنيسة واستوعبتها مع بقائها وثنية فى كثير من النواحي • ولم يكن من الممكن أن يحدث غير هذا على كل حال • فان روما من حيث هى دولة سياسية قد احتفظت بعناصر كثيرة مستمدة من الحضارة الوثنية والحكمة الوثنية ، ولا سيما فيما يتعلق بأهداف الدولة وأسسها نفسها • وكان طبعياً أن لا تستطيع الكنيسة المسيحية حين دخلت فى الدولة أن تضحى بأى مبدأ من مبادئها ، ولا أن تترك أى جزء من الصخرة التى بُنيت عليها • كانت الكنيسة المسيحية لا تستطيع الا أن تتابع أهدافها الخاصة كما رسمها لها الرب نفسه ، وهى امتصاص الكنيسة للعالم بأسره وللدولة الوثنية القديمة تبعاً لذلك • ويترتب على هذا أن الكنيسة ليست هى التى يجب عليها أن تسعى الى احتلال مكان معين فى داخل الدولة ، « ككل طائفة اجتماعية أخرى » أو « ككل تنظيم انساني وُجد لتحقيق أهداف دينية » (وذلك ما يقسوله فى موضوع الكنيسة

مؤلف الكتاب الذي انتقدته) ، بل العكس هو الصحيح ، فان الدول الأرضية جميعها هي التي يجب عليها أن تستجيب في خاتمة المطاف من تطورها الى كنيسة ، وأن لا تصبح الا كنيسة، متنازلة من أهدافها الخاصة عن تلك التي لا تتفق وأهداف الكنيسة . وهذا التحول لن يفضَّ من قيمة هذه الدولة ولن ينتقص من شأنها ، ولن يفقدها شيئاً من كرامتها ومجدها من حيث هي دول كبرى ، لا ولن يسيء الى ما يتمتع به ملوكها وقادتها من بريق اجتماعي نتيجة للوظائف التي يقومون بها ، وكل ما هنالك أنه سيُخرج هؤلاء الملوك والقادة من طريق الضلالة والوثنية الذي ساروا فيه ، وسيضعهم في اتجاه السليم الرشيد ، الاتجاه الوحيد الذي يمكن أن يؤدي الى تحقيق غاياتهم الأبدية . لذلك أقول ان مؤلف كتاب « أسس القضاء الاكيريكي في داخل المجتمع » كان عليه حين بحث عن هذه الأسس وحاول استخلاصها ، أن لا يعدها الا تسوية مؤقتة ، تسوية لا بد منها ولا محيص عنها في هذا العالم الذي ما يزال في حالة الخطيئة ولما يبلغ بعد خاتمة المطاف من تطوره . أما أن يتورط مؤلف هذا الكتاب فيزعم أن هذه الأسس التي عرضها والتي عدد لنا الأب جوزيف بعضها منذ هنيهة هي بطبيعتها نفسها أبدية ثابتة كالكون نفسه ، فانه يناقض عندئذ حقيقة الكنيسة ، ويعارض رسالتها المقدسة الأبدية التي يجب أن لا تُمس . ذلك كل ما قلته في مقالتى التي أوجزتها لكم ايجازا وافيا .

قال الأب بائيسى يتدخل مرةً أخرى مشدداً على كل كلمة من كلماته :

- الخلاصة اذن أن بعض النظريات الشائعة كثيرا في قرنا التاسع عشر هذا تريد للكنيسة أن تتحرك نحو الدولة ، منتقلةً من مرحلة دنيا الى مرحلة عليا ان صح التعبير ، وأن تذوب في الدولة ، بعد أن أخلت



ايغان كارامازوف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

المكان للعلم وروح العصر والحضارة ، فاذا هي رفضت هذا مع ذلك ، وقاومت هذا التحول ، عُرِضَ عليها عندئذ مكان "محدود تلوذ به وتأوى اليه ، تحت رقابة الدولة ، كما يحدث اليوم في أكثر البلاد الأوروبية . أما النظرة الروسية ، أما عقيدتنا فهي ترى أن الكنيسة ليس عليها هي أن تستحيل الى دولة كما يتم الانتقال من صورة دنيا الى صورة عليا من صور الوجود ، وانما الدولة هي التي يجب عليها أن تحاول أن تصير أخيراً الى كنيسة وأن لا تكون شيئاً غير ذلك . هذا ما يجب أن يكون ! ألا فلتكن مشيئة الرب !

قال ميوسوف ساخراً وهو يضع ساقاً على ساق مرة أخرى ، ولكن في اتجاه معاكس :

– أعترف لك بأنك قد رددت الى شجاعتى : اذا صح فهمى فأنت ترى أن المسألة مسألة مثل أعلى يجب الوصول اليه في زمان مقبل مايزال بعيدا كل البعد ، وربما امتد الى يوم عودة المسيح . لك ما تشاء ! ذلك حلم جميل جدا ، فلا حروب عندئذ ولا دبلوماسية ولا بنوك ، الخ ؛ بل ان هذا يذكر بالاشتراكية بعض الشيء . لقد كنت أخشى في البداية أن تكون جاداً فيما تقول ، وأن تطمح للكنيسة ، منذ الآن ، فى أن تمارس السلطة فتقضى فى الأمور الجزائية مثلا فتصدر أحكاما بالجلد والأشغال الشاقة وربما بالاعدام !

استأنف ايفان فيدوروفتش كلامه هادئاً بغير تعثر ، فقال :

– حتى لو كانت المحاكم الاكليركية هي السلطة القضائية الوحيدة المعترف بها اليوم فى العالم ، فان الكنيسة لن تصدر أحكاماً بالاعدام أو بالأشغال الشاقة . ان صفة الجريمة وطريقة معالجتها تتبدلان عندئذ حتماً ، لا دفعة واحدة بطبيعة الحال ، بل شيئاً فشيئاً ، على التسديج . ولكن هذا التبدل سيتحقق مع ذلك بسرعة كافية . . .

قال ميوسوف وهو يحدِّق اليه بنظرة نافذة :

- أنت جاد فيما تقول ؟

فتابع ايفان فيدوروفتش كلامه قائلاً :

- يوم تحتوى الكنيسة المجتمع بأسره فانها سوف تحرم الخطاة والعصاة ، ولكنها لن تقتل أحدا . قل لى : ما عسى يصير اليه المحروم ، وأين عساه يعتصم ؟ لسوف يكون عليه أن يقطع صلته لا بالبشر فحسب ، بل بالمسيح أيضا . وستجعله جريمته عندئذ عدواً للانسانية وعدواً للكنيسة المسيح . وان الأمر كذلك منذ الآن ، اذا نحن نظرنا فى أعماق الأمور ، ولكننا لا نعترف بهذا صراحة . ان السىء يجد اليوم ، فى حالات كثيرة جدا ، سيلا الى ارضاء ضميره ، فهو يقول لنفسه : « صحيح أنى سرقت ، ولكننى لم أناصب الكنيسة العدا . . . اننى لست عدو المسيح . » . هكذا يفكر المذنب فى كثير من الأحيان فى عصرنا هذا . أما يوم تحل الكنيسة محلّ الدولة فسوف يصعب على السىء أن يفكر هذا التفكير والا كان ينكر سلطة كل كنيسة فى هذا العالم ويرفض هذه السلطة رفضاً تاماً ، قائلاً : « البشر جميعا على ضلال ، هم وكنيستهم على ضلال ، وأنا وحدى - أنا القاتل أو السارق - أنا وحدى الكنيسة المسيحية الحق » . وذلك موقف يصعب جدا اتخاذه ، اللهم الا بتضافر ظروف شاذة لا يعقل أن تتوافر . وانظر الآن من جهة أخرى الى مفهوم الكنيسة للجريمة : أليس هذا المفهوم خليقاً بأن يؤدى الى هجر الأساليب الجزائية الحالية الميكانيكية التى تقضى بتر العضو المريض ، كما يفعل اليوم لحماية المجتمع ، وبأن يكفل الغلبة لفكرة خلق الانسان خلقاً جديداً وبعثه بعثاً جديداً وتحقيق الخلاص والسلام له فى الحياة الواقعية هذه المرة .

قاطعهُ ميوسوف سائلاً :

– الى ماذا تريد أن تخلص من هذا ؟ لقد أصبحت مرةً أخرى لا أفهمك • انك تعود الى الأحلام • هذا الكلام الذى تقوله غامض مبهم ، بل لا سبيل الى فهمه • عن أى حرمان تتكلم ؟ ما هذا الحرمان ؟ اننى أتساءل أأنت تسخر منا وتضحك علينا لا أكثر من ذلك ، يا ايفسان فيدوروفتش ؟

هنا انبرى الشيخ فجأة للكلام ، فالتفت الجميع اليه بحركة واحدة ، قال :

– ولكن هذا هو ما يحدث فى الواقع منذ الآن • ذلك أنه ان لم توجد اليوم كنيسة للمسيح فان المذنب لن يرتدع عن جريمته ، لا ولن يعاقب بعد جريمته ، وأقصد بالعقاب هنا العقاب الحقيقى لا العقاب الميكانيكى فحسب ، كما قيل منذ هنيهة • فذلك العقاب لا يزيد على أن يهيج النفس فى أكثر الحالات ، أما العقاب الحق ، العقاب الذى يخيف ويهدىء فى آن واحد ، العقاب الوحيد الناجع المجدى ، فهو حكم الضمير على صاحبه •

قال ميوسوف يسأل باستطلاع حار عنيف :

– كيف هذا ؟ هلا شرحته لنا ؟

قال الشيخ :

– انظر • ان ارسال المذنبين الى سجون الأشغال الشاقة ، وما كان يضاف اليه قبل الآن من تعذيب جسدى ، ان ذلك كله لم يصلح أحدا ، وهو على وجه الخصوص لا يخيف المجرمين ، باستثناء عدد قليل منهم • فعدد الجرائم لم ينقص ، بل انه ليزداد • لا تستطيع أن تعترض علىّ فى هذه النقطة • يترتب عن ذلك أن هذه الأساليب لا تحمى المجتمع البتة • فان العضو الضار الذى يُحذف من المجتمع بهذه الطريقة الميكانيكية فيرسل الى مكان بعيد ويغيب عن الأنظار ، ما يلبث أن يحل محله مجرم

آخر أو مجرمان آخرا . فاذا رأينا المجتمع مع ذلك محمياً حتى في الوقت الراهن ، واذا رأينا أن المجرم نفسه يملك اليوم أن يصلح نفسه وأن ينبعث انساناً جديداً ، فالفضل في ذلك انما يرجع هنا أيضاً الى قانون المسيح على نحو ما رسخ في قرارة ضميرنا . ان اعتراف المجرم بذنبه كإبن من أبناء المجتمع المسيحي ، أى كإبن من أبناء الكنيسة ، هو السبيل الوحيدة الى شعوره بأنه آثم في حق المجتمع أى في حق الكنيسة . فإزاء الكنيسة وحدها لا ازاء الدولة انما يمكن أن يشعر المجرم الحديث بأنه مذنب . فاذا تمت ممارسة حق القضاء باسم الكنيسة ، عرف المجتمع عندئذ من هم الذين يستحقون أن ينتهى حرمانهم ويستحقون أن يرجعوا الى الاندماج في الحياة الاجتماعية . ان الكنيسة التي لا تملك الآن أى سلطة قضائية فعالة ولا تملك أن يكون لها تأثير أو نفوذ الا بالادانة الروحية ، لا يهملها العقاب الفعلي الذي يتم انزاله في المذنبين . انها لا تطرد هؤلاء الجناة من حضنها ، بل تظل تحذب عليهم حذب الأب على أبنائه ، وأكثر من ذلك أنها تحاول أن تحافظ معهم على جميع الصلات التي تشد المؤمنين الى الكنيسة وتربطهم بها؛ انها تقبل أن يدخلوا الكنيسة ويشاركوا في الصلاة ولا ترضن عليهم بتناول القربان المقدس . انها تتجددهم وتغيثهم، وتعاملهم معاملة تفساء أكثر مما تعاملهم معاملة جناة . وما عسى يقع لهؤلاء المجرمين ، يا رب ، لو أن المجتمع المسيحي ، أى لو أن الكنيسة قد نبذتهم كما نبذهم قانون الجزاء وفصلهم عن سائر البشر ! ما عسى يحدث لو أن الكنيسة تضربهم هي أيضاً ، فتحرمهم كلما حكم عليهم قانون الدولة ، وتضيف عقابها الى عقاب الدولة ؟ انك لا تستطيع أن تتخيل انحذاراً الى الدرك الأسفل من اليأس الكامل كالانحذار الذي يمكن أن يهوى اليه هؤلاء الجناة في مثل هذه الحالة ، ولا سيما اذا كانوا من الروس ، لأن الروس ما يزالون محافظين على ايمانهم ! ومن ذا الذي يضمن أن

لا يحدث عندئذ شيء رهيب لدى هؤلاء الجناة ، كأن يزول الايمان من قلوبهم اليائسة ؟ ولكن الكنيسة تتصرف معهم تصرف أم خون رعوف، وهى تعترف عن معاقبتهم فى الواقع ، لأنها ترى أنهم ، حتى دون أن تعاقبهم هى ، قد نالتهم عدالة الدولة بعقاب قاس ، فهم فى حاجة الى أحد تأخذه بهم شفقة على الأقل . وهى تمتنع عن معاقبتهم خاصة لأن عدالة الكنيسة هى العدالة الوحيدة القائمة على الحقيقة، فلا يمكنها والحالة هذه أن تتعاون مغنويا وعمليا مع أى قضاء أجنبي ولو على صورة تسوية مؤقتة . ولا سبيل الى أى تنازل فى هذه النقطة ، ان المجرمين لا يشعرون فى البلاد الأخرى بالندم والتوبة الا نادرا فيما يقال ، لأن المذاهب الحديثة الراضجة هناك لا تستطيع الا أن تعزز شعورهم بأن الجرائم التى ارتكبوها ليست جرائم ، وانما هى أعمال تمرد على القوى التى تضطهدهم ظلما وعدوتا ، فالمجتمع ينبذهم من حضنه آليا ، ويغلبهم على أمرهم بقوته العليا ، وهو يشفع هذا الابدان للمجرمين (هذا على الأقل ما يقوله فى أوروبا كتاب تلك البلاد) يشفعه بكره لهم ولا يحفل بمصيرهم وينساهم نسيانا تاما مع أنهم اخوتنا على كل حال . فكل شيء يجرى اذن دون أى عطف من الكنيسة ، لأن الكنيسة أصبحت لا وجود لها فى عدد من تلك البلاد التى لم يبق فيها الا رجال الاكليروس ومبان دينية رائثة . أما الكنائس بالمعنى الحقيقى فقد سارت منذ زمن طويل فى طريق يجب أن ينقلها من مرحلة يقال انها دنيا ، وهى مرحلة لجماعة الاكليركية ، الى المرحلة التى يُزعم أنها عليا وهى مرحلة الدولة ، بغية أن تغرق فيها غرقا كاملا . تلك هى على الأقل حالة الشعوب اللوثرية فيما يظهر . أما الكاثوليكية الرومانية فانها منذ ألف سنة قد أقامت الدولة مقام الكنيسة . لذلك لا يشعر المجرم هناك بأنه عضو فى الكنيسة ، فهو حين ينبذ المجتمع يهوى الى قاع اليأس . فاذا اتفق له أن يعود بعد ذلك الى

المجتمع ، فانه فى أكثر الاحيان يظل يشعر نحو هذا المجتمع بكرهٍ يبلغ من القوة أن المجرم هو الذى ينبذ المجتمع فى هذه المرة • وفى وسعكم أن تتخلوا بسهولة الى أين يودى هذا • قد يترامى ان الامور تجرى على هذا النحو غالباً فى بلادنا أيضاً • ولكن الفرق بين بلادنا والبلاد الأخرى هو أن بلادنا ما يزال فيها ، عدا المحاكم النظامية ، كنيسة لا تفقد اتصالها أبداً بالمجرم ، لأنها تعده ابناً عزيزاً ما يزال جديراً بالحب • هذا الى أننا احتفظنا بالعدالة الاكليركية ولو فكراً ، ولئن أصبحت هذه العدالة الآن غير فعالة ، فهى ما تزال موجودة للمستقبل على الأقل ، من حيث هى أمل على كل حال ، والمجرم نفسه يعترف بسلطتها فى قرارة نفسه حتماً • وانه لصحيح كل الصحة أيضاً ، كما قيل هذا منذ هنيهة ، أنه اذا استطاعت عدالة الكنيسة أن تؤكد نفسها فى الواقع بكل قوتها ، أى اذا استحالت المجتمع كله الى كنيسة ، فان المحاكم الاكليركية ستساهم فى اصلاح المجرمين اصلاً لا تُعرف حدوده حتى الآن ، بل ربما نقص عدد المجرمين كذلك نقصاً كبيراً • ان الكنيسة نفسها - وهذا أمر مؤكد - ستستطيع عندئذ أن تكشف عن الشخص الذى سيرتكب ذنباً فى المستقبل ، وأن تعرف الجريمة التى تنهيا ، أكثر كثيراً مما تفعل اليوم ذلك فى أكثر الأحوال ، وسيكون فى وسعها أن تهدي الضالين ، وأن تُبقي فى طريق الرشاد أولئك الذين ينوون أن يقارفوا عملاً سيئاً ، وأن تُنهض أولئك الذين سقطوا •

وأضاف الشيخ يقول وهو يضحك ضحكة صغيرة :

- صحيح أن المجتمع المسيحى ما يزال حتى الآن غير مهياً ، وأنه غير باقٍ الا بفضل الصالحين السبعة ؛ ولكن هؤلاء لا يمكن أن يزولوا ، والمجتمع المسيحى يقوم عليهم قيامه على أعمدة راسخة وطيدة بانتظار أن يتحول تحولاً كاملاً ، فلا يبقى مجتمعاً أى تنظيمًا انسانياً يشبه أن يكون

وثنيا حتى الآن ، وانما يصير كنيسة واحدة شاملة كلية تحكم الجميع •
 هذا ما يجب أن يكون ، هذا ما يجب أن يكون ، ولو في آخر الزمان ،
 لأنه قد أريد وحدد منذ الأزل • وما ينبغي أن يقلقنا طول الانتظار
 وبطء الزمن ، ما دام مفتاح العصور بيد الرب ، وما دام الرب يرتب
 تعاقبها بحكمته وطيبته وسابق علمه • ذلك أن ما يبدو أنه ما يزال بعيدا
 جدا في تقدير البشر قد يكون في بعض الأحيان على وشك أن يتحقق
 بحكم المشيئة الالهية ، وقد يكون على عتبة حياتنا يوشك أن يدخلها •
 لذلك أقول : فلتكن مشيئة الرب ، فلتكن مشيئة الرب •

قال الأب بائيسى مؤيدا في رصانة ووقار :

– فلتكن مشيئة الرب •

قال ميوسوف بحرارة فيها استياء شديد :

– هذا غريب ، غريب الى أبعد حدود الغرابة !

فسأله الأب جوزيف قائلاً بحذر :

– ما هو الشيء الذي تراه في هذا الكلام غريبا هذه الغرابة كلها ؟

فهتف ميوسوف يقول منفجرا على حين بغتة :

– شيء عجيب كل العجب ! شيء لم أسمع به من قبل ! يزيلون

الدول القائمة ليشيدوا في مكانها الكنيسة كدولة ! ليس هذا من عقائد

ما وراء الجبال فحسب ، بل هو تطرف في الأخذ بعقائد ما وراء الجبال !

ان البابا جريجوار السابع نفسه ما كان له أن يحلم بشيء من هذا القليل !*

قال الأب بائيسى بصوت خشن :

– الأمر نقيض ما ترى تماما • نحن لا نعتقد أن الكنيسة هي التي

يجب أن تستحيل الى دولة ، فافهم رأينا حق فهمه • ان ذلك الحلم هو

حلم روما حقا ، وهو ثلاثة غوايات الشيطان ! وانما رأينا عكس هذا

الرأى ، فالدولة هى التى يجب أن تتحول الى كنيسة ، هى التى يجب أن ترتقى الى حيث تصبح الكنيسة الكلية الشاملة على الارض ، وذلك نقيض ما تراه روما ، نقيض عقيدة ما وراء الجبال ، نقيض التأويل الذى تؤوله أنت ، وهو بعينه الرسالة الحقيقية الكبرى التى تحملها الارثوذكسية • أن نجمة هذا الايمان المظفر ستطلع فى سماء الشرق •

كان ميوسوف صامتا صمتا وقورا • ان شخصه كله يعبر فى هذه اللحظة عن شعور خارق بمهابته وكرامته • وارتسمت على شفتيه ابتسامة كبرياء تصطنع التواضع • وكان أليوشا يشهد هذه المناقشة ويتابع جميع تفاصيلها ، خافق القلب • لقد هزّت هذه المناقشة جميع جوارحه • ووقع بصره عرضا على راكيتين الذى لم يكن قد تحرك من مكانه والذى كان ما يزال واقفا قرب الباب يلاحظ كل شىء بانتباه ، ويسمع كل شىء باصغاء ، رغم أنه غاضب بصره • ومع ذلك فان أليوشا اذ لاحظ لون خديه أدرك أن راكيتين لم يكن أقل منه اضطرابا لهذه المناقشة ، وحزر الخواطر التى كانت تبت فيه هذا الاضطراب •

قال ميوسوف فجأة بلهجة فيها سلطة ، وهيئة فيها تعاضم :
 - اسمعوا لى أيها السادة أن أقص عليكم حكاية قصيرة • حين كنت فى باريس منذ بضع سنين ، بعيد الانقلاب الذى وقع فى شهر كانون الأول (ديسمبر) ، حدث أن زرت فى يوم من الأيام شخصية ذات نفوذ ، ذات نفوذ عظيم ، كانت تتولى فى ذلك الوقت وظائف حكومية ، وكنت على صلة بها قوية • فالتقيت عند تلك الشخصية بسيد عجيب أمره • لم يكن هذا السيد من رجال الشرطة بمعنى الكلمة ، ولكن يظهر أنه كان يدير جهازا كبيرا من أجهزة الشرطة السياسية - ومعنى هذا أنه شخصية كبيرة فى بابها • انتهزت الفرصة فدخلت فى حديث مع هذا الرجل ، تدفنى الى ذلك رغبة قوية فى الاطلاع • واذ

لم يكن عند رب الدار عندئذ بصفته زائراً بل بصفته مرعوساً يقدم تقريراً ، فانه وقد لاحظ حفاوة رئيسه بي ، قد شرفني بأن أفضى اليّ ببعض الأمور وباح لي ببعض الأسرار . طبعاً لم يفتح لي الا الى حد ، وكان أقرب الى الملاطفة منه الى المصارحة ، وهى تلك الملاطفة المعهودة فى الفرنسيين ، ولا سيما مع الأجانب . ولكننى استطعت أن أرى ما فى نفسه واضحاً كل الوضوح . لقد دار الحديث على الاشتراكيين الثوريين ، الذين كانوا يضطهدون فى ذلك الوقت على كل حال . ولست أحب أن أتعرض لموضوع الحديث الذى دار بينى وبينه ، بل أدع هذا الموضوع جانبا وأقتصر على أن أذكر لكم فكرة عجيبة جداً أفلتت من لسان هذا السيد الصغير على حين فجأة ، قال يسرّ اليّ : « الحق أننا لا نخشاهم كثيراً ، هؤلاء الاشتراكيين الفوضويين الملحدون الثوريين . نحن نراقبهم من كتب ونعرف أعمالهم وحركاتهم . غير أن بينهم رجالاً من طراز خاص ، وان لم يكن عددهم كبيراً جداً : أولئك هم المؤمنون ، المسيحيون ، الذين يربطون الاشتراكية بايمانهم الدينى . نحن نخشى هؤلاء أكثر من أى شىء آخر . هؤلاء أناس خطرون جداً . ان رجلاً يجمع بين الاشتراكية والمسيحية معا لهو أخطر كثيراً من اشتراكى ملحد . » . لقد فجأتنى هذه الفكرة كثيراً فى تلك اللحظة ، وقد تذكرتها الآن حين سمعت كلامكم ، أيها السادة ، لا أدرى لماذا . . .

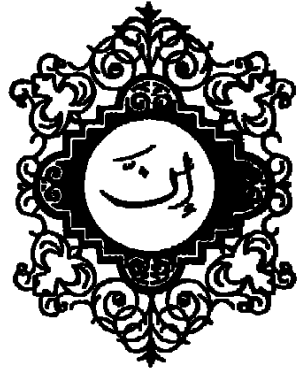
سأله الأب بائسى فجأة بغير لف أو دوران :

– هل تريد أن تقول ان هذه الفكرة تصدق علينا واننا فى نظرك

اشتراكيون ؟

ولكن قبل أن يهتدى بطرس الكسندروفتش الى جواب يقوله ، فتح الباب وظهر دمترى فيدروفتش بعد تأخر طويل جداً . كان الجمع قد أوشك أن يكف عن توقع وصوله ، حتى أن وصوله المفاجىء هذا قد أحدث فيهم شيئاً من دهشة .

لماذا يجب أن يعيش مثل هذا الرجل



دمتري فيسودوروفتش ، وهو شاب في الثامنة والعشرين من عمره ، قصير القامة لطيف الوجه ، يبدو في الواقع أكبر من سنه • انه نامى العضلات ، فاذا رآه الرائي أدرك أن له قوة جسمية كبيرة ، ومع ذلك فان في قسما ت وجهه شيئا مرضياً • هو نحيل المحيا خاسف الخدين ، في لونه انعكاسات عليلة ضاربة الى صفرة • وان في عينيه القامتين الواسعتين الجاحظتين تعبيراً غامضا مبهما ، رغم أن نظرته تبدو حازمة واثقة • وحتى حين يخرج عن هدوئه ويتكلم هائجاً فان نظرته تبدو كأنها لا تطاوع حالته النفسية ولا تجاريها وانما هي تفصح في كثير من الأحيان عن عواطف مختلفة قد لا تتفق والظروف القائمة في بعض الأحوال • « ان من الصعب على المرء أن يعرف ما يدور في فكره » ، كذلك كان يقول عنه محدثوه من حين الى حين • وكان الناس اذ يلاحظون نظرته القائمة الواجمة يدهشهم في أحيان كثيرة جداً أن يروه ينفجر ضاحكاً على حين فجأة ضحكاً كبيراً يدل على مشاعر فرحة مرحة يندفع فيها ويستسلم لها في نفس اللحظة التي تتجهم فيها عيناه • على أن ما يظهر في سحنته من مظهر المرض ليس فيه ما يدهش الآن أحداً : ان جميع الناس يعرفون الحياة المضطربة القلقة التي يعيشها

بمدينتنا في الآونة الأخيرة « لاهياً قاصفاً مستهتراً » ، أو هم قد سمعوا عن ذلك ، وما من أحد يجهل أيضاً درجة الاحتياج المرضى الذي وصل إليه في خصوماته مع أبيه بصدد أمور تتعلق بالمال ؛ حتى أن الناس في مدينتنا قد تناقلوا عن ذلك قصصاً وحكايات • والحق أنه بطبيعته غضوب ، وأنه « مندفع مشوش » ، كما وصفه بذلك صادقاً كلَّ الصدف قاضي الصلح سيميون كاتشالنيكوف أثناء أحد الاجتماعات • ولقد كان في ذلك اليوم يرتدى صدره ذات أزرار أنيقة أنيقة لا مأخذ عليها ، ويلبس قفازين أسودين ، ويحمل بيده قبعة عالية • وكما يفعل كل عسكري محال على الاستيداع منذ مدة قصيرة ، فقد أطال شاربه وحلق لحيته ، ودفع شعره القصير الى أمام على الصدغين • وهو يمشى مشية حربية حازمة واسعة الخطى •

توقف على العتبة لحظة قصيرة ، وبعد أن أجال بصره على الحضور ، اتجه نحو الشيخ قدماً ، لأنه أدرك أنه رب المنزل ، فحيّاه منحنيًا له انحناءة كبيرة ، وطلب بركته ، فنهض الشيخ وباركه ، وقبّل دمترى فيدوروفتش يد الشيخ باحترام ، ثم قال مضطرباً اضطراباً شديداً بصوت يدل على الحنق والاستياء ، قال يشرح :

– أرجو أن تفضلوا فتغفروا أنى جعلتكم تنتظرون هذه المدة الطويلة كلها • ان الخادم سمردياكوف الذي أرسله «باتيوشكاه» * قد أجاب عن أسئلتى الملحة مرتين بلهجة الواثق أن الاجتماع قد حُدِّت له الساعة الواحدة بعد الظهر • وهأنذا أعلم الآن أن ...

قاطعته الشيخ قائلاً :

– اطمئن • ليس الأمر بندي بال • لقد تأخرت قليلاً ، ولكن ليس لهذا التأخر من خطورة ...

- أشكر لكم تسامحكم • ولقد كنت أعوّل على هذا التسامح لما
أعرفه عنكم من طيبة •••

قال دمترى فيدوروفتش ذلك وحيّاً مرة أخرى ، ثم التفت نحو
أبيه (« باتيوشكا ») فجأة ، فحيّاه تحية فيها ما كان في تحيته للشيخ من
انحناء شديد واحترام عظيم • واضح أنه كان قد هياها هذه التحية سلفاً ،
وأعدّها مقدماً ، وأنه فعل ذلك صادقاً مخلصاً ، لأنه يرى أن من واجبه
أن يبرهن بهذه البادرة على احترامه وحسن نيّاته • وقد بوغت فيدور
بافلوفتش وبهت ، ولكنه لم يلبث أن تاب الى نفسه فاذا هو يهب واقفاً
فيرد تحية ابنه بمثلها • لقد اكتسى وجهه على حين فجأة تعبيراً رصيناً
مفرطاً في التصنع ، فما زاده ذلك الا خبثاً وشرّاً • وبعد أن حيا دمترى
فيدوروفتش سائر الحضور في الحجرة بانحناء واجدة صامتة ، اتجه
نحو النافذة سائراً بخطاه الواسعة الحازمة ، وجلس قرب الأب بائسي ،
على المقعد الوحيد الذي كان لا يزال خالياً • ومال بصدره الى أمام ،
متهيئاً لتابعة المناقشة التي قطع حبلها •

ان وصول دمترى فيدوروفتش لم يستغرق أكثر من دقيقتين ، وكان
لا بد أن تُستأنف المناقشة بعد ذلك فوراً • ولكن ميوسوف لم يرد في هذه
المرّة أن من واجبه أن يرد على السؤال الملح الذي طرحه الأب بائسي
والذي يكاد يكون مزعجاً •

قال بشيء من الاهمال الذي يُعرف به أبناء المجتمع الراقى :

- اسمح لي أن لا أتعرض لهذه النقطة • ثم ان المسألة معقدة جدا
من جهة أخرى • وأنا ألمح أن ايفان فيدوروفتش يتسم وهو ينظر اليّنا ،
فلعله يخفى آراء أصيلة طريفة في هذا الموضوع ، فاتجه بالسؤال اليه
ان شئت •

فأجاب ايغان فيدوروفتش على الفور قائلاً :

- ليس لدى شيء خاص أقوله ، الا ملاحظةً ثانويةً • ان الليبراليين في أوروبا ، كسائر هوة الليبرالية في روسيا ، يخلطون في كثير من الأحيان ، ومنذ زمن طويل جداً ، بين الأهداف القصوى التي ترمى إليها الاشتراكية وبين الغايات التي ترمى إليها المسيحية • وهذه النتيجة الغريبة العجيبة هي مع ذلك الصفة التي تتميز بها طريقتهم في التفكير • ويبدو من جهة أخرى أن هذا الخلط بين الاشتراكية والمسيحية لا ينفرد به الليبراليون وهواة الليبرالية ، وانما هو يحدث كثيرا في أذهان رجال الشرطة ، أقصد رجال الشرطة في البلاد الأجنبية • وان حكايتك الباريسية هي من هذه الناحية ذات دلالة هامة يا بطرس ألكسندروفتش •

فكرر بطرس الكسندروفتش كلامه الأول قائلاً :

- أرجوكم مرة أخرى أن تعفوني من معالجة هذا الموضوع ، وانما أنا أؤثر أيها السادة أن أقص عليكم حكاية أخرى شائقة جدا ومميّزة جداً ؛ والحكاية في هذه المرة تتصل بايغان فيدوروفتش • لقد كان ايغان فيدوروفتش منذ ما لا يزيد على خمسة أيام ، في مجتمع يتألف خاصةً من سيدات من هذه المدينة ، فأعلن صراحةً أثناء مناقشة جرت بين الحضور أنه ما من شيء في هذا العالم يمكن أن يجبر البشر على أن يحبوا أقرانهم ، وأنه ما من قانون طبيعي يفرض على الانسان أن يحب الانسانية ، فاذا كان قد وجد وما يزال يوجد على هذه الأرض شيء من الحب ، فليس مرد ذلك الى قانون طبيعي ، بل الى سبب واحد هو اعتقاد البشر بأنهم خالدون • حتى لقد أضاف ايغان فيدوروفتش الى ذلك عابراً أن هذا الاعتقاد هو في الواقع الأساس الوحيد لكل قانون أخلاقي طبيعي ، فاذا فقدت الانسانية هذا الاعتقاد بالخلود فسرعان ما ستغيض جميع بنابيع الحب ، بل وسرعان ما سيفقد البشر كل قدرة على مواصلة

حياتهم في هذا العالم • أكثر من ذلك أنه لن يبقى هنالك شيء يعد منافياً للأخلاق ، وسيكون كل شيء مباحاً ، حتى أكل لحوم البشر • بل لقد مضى الى أبعد من هذا أيضاً فقال أخيراً ان القانون الأخلاقي للطبيعة يتغير وجهه فوراً في نظر كل فرد - في نظرنا نحن مثلاً - متى كان هذا الفرد لا يؤمن بالله ، وان القانون الأخلاقي للطبيعة يأمر عندئذ بنقيض ما سلم به الدين من قبل وما جاء في تعاليم الدين من قبل ، فاذا بالإنانية التي تمضى الى حد الجريمة لا تصبح مباحة للإنسان فحسب ، بل تصبح كذلك مشروعة وضرورية من حيث أنها المخرج الوحيد المعقول ، بل والمخرج الوحيد النبيل • ففي وسعكم اذن أيها السادة أن تحكموا بهذه المفارقة على الآراء الأخرى التي يراها عزيزنا الخيالي الكبير والسفطائي العظيم ايفان فيدوروفتش ، سواء آراؤه التي سبق أن أعلنها وآراؤه التي لعله ما يزال ينوى أن يعلنها •

هتف دمترى فيدوروفتش يقول دون أن يكون هذا في حسابان أحد البتة :

- اسمح لي ! هل ما سمعته منك هو • أن الجريمة يجب أن لا تعد مباحة فحسب ، بل يجب أن تعد كذلك ، في نظر كل ملحد ، هي المخرج المعقول الذكي من وضعه ؟ •

قال الأب بائيسى :

- تماما •

فقال دمترى فيدوروفتش :

- أنتى أسجل هذا •

وبعد أن نطق دمترى فيدوروفتش بهذه الكلمات صمت فجأة ، كما

تكلم فجأة • فنظر اليه جميع الحضور بكثير من الفضول •

واتجه الشيخ في تلك اللحظة الى ايفان فيدوروفتش يسأله :
 - هل يمكن أن يكون في تقديرك ان زوال اعتقاد الناس بخلود
 الروح ستكون له هذه النتائج ؟

فأجابه ايفان فيدوروفتش :

- نعم ، ذلك هو الرأى الذى ذهبت اليه ، فعندى أنه لا فضيلة بلا
 خلود •

. - ان الذى يفكر على هذا النحو هو أحد اثنين : فاما سعيد جدا
 واما شقى جدا •

فسأله ايفان فيدوروفتش مبتسما :

- ولماذا أكون شقيا جدا ؟

فقال له الشيخ :

- لأن أغلب الظن عندى انك لا تؤمن أنت نفسك لا بخلود الروح
 ولا بشيء مما كتبه عن الكنيسة وعن المسألة الاكليركية •

فقال ايفان فيدوروفتش يعترف هذا الاعتراف الغريب وقد احمر
 وجهه على حين فجأة :

- قد تكون على حق ... ولكننى لم أعبت الا نصف عبت ، لم
 أمزح الا نصف مزاح !

- أعلم أنك لم تمزح الا نصف مزاح • فان هذه المسألة لما تحل
 فى قلبك حلاً حاسماً بعد ، وهى ما تزال تعذبك • ان الذين يعانون هذا
 العذاب يحبون أحياناً أن يعذبوا بعذابهم ، وتلك طريقة فى التعبير عن
 كربهم ويأسهم • وهذا ما تفعله أنت • فانك ليأسك تلهو الآن بكتابة

مقالات في الجرائد ، أو بالاندفاع في مناقشات في الصالونات ، دون أن تكون مؤمناً بجذلك نفسه ، حتى أنك تسخر من هذا الجدل في سرّك متألماً . . . ان هذه المسألة لم تحسم في نفسك بعد . وذلك هو مصدر عذابك الكبير ، لأن هذه المسألة تقتضى الحل حتماً . . .

فقال ايغان فيدوروفتش يسأل الشيخ وقد تغيرت سحنته تغيراً غريباً وحدّق الى الشيخ مبتسماً ابتساماً لا يُعرف معناها :

- وهل من سبيل لي الى حلّها ؟ هل يمكنني أن أحلها ايجاباً ؟

- اذا لم تتوصل الى حسمها ايجاباً ، فلن تتوصل كذلك الى حلها سلباً ، وذلك بسبب قانون في قلبك تعرفه حق المعرفة : وذلك هو بعينه عذابك . اشكر لله مع ذلك أنه وهب لك نفساً سامية قادرة على أن تعاني ألماً كهذا الألم : « ان الذكاء المتفوق يبحث عن الحقيقة في الأعلى ، لأن وطننا في السموات » . أسأل الرب أن يهب لك القدرة على أن تجد في قلبك حلاً لهذا الصراع أثناء حياتك على هذه الأرض ، وأن ترافقك بركته طوال طريقك .

قال الشيخ ذلك ومدّ يده يريد أن يرسم ، وهو في مكانه ، اشارة الصليب على ايغان فيدوروفتش ، ولكن ايغان نهض فجأة فاقترب من الشيخ وتلقى مباركته ، ثم قبل يده وعاد يجلس في مكانه دون أن ينطق بكلمة واحدة . كان وجهه في تلك اللحظة يعبر عن صلابة وجد ورسانة . ان هذه البادرة التي قام بها وان تلك الكلمات التي تبادلها مع الشيخ والتي كانت لا تُتوقع أبداً من ايغان فيدوروفتش ، ان ذلك كله قد أحدث في جميع الحضور أثراً قوياً ، وفاجأهم بما يشتمل عليه من سر ويشيع فيه من أبهة . ساد الصمت بضع لحظات ، بينما كان وجه أليوشا يفصح عن اضطراب يوشك أن يكون جزعاً . ولكن ميوسوف

بدد فجأة هذا الجو الأخاذ اذ رفع كتفيه مستهزئاً ، ثم اذا بفيكتور بافلوفتش يهب عن مقعده بسرعة فيقول للشيخ مشيراً الى ايفان فيدوروفتش:

- أيها الشيخ المقدس الرباني ! هذا ابني ، هذا فلذة كبدي ، هذا ولدي الحبيب ! انه أعلى أبنائي قدراً وأكثرهم احتراماً ؛ هو من نوع كارل مور قليلاً ان شئت ... أما الذي وصل الآن ، أما دمتری فيدوروفتش هذا الذي جئت أستعين بك عليه ، فانه أدناهم قدراً وأقلهم احتراماً ، انه صنو فراتس مور ومنافسه . انك تعرف هذين البطلين من أبطال مسرحية شيلر « قطاع الطرق » ، وأنا من جهتي أشبه نفسي في هذه القصة بجراف فون مور * . فانظر في الأمر واقض فيه ! انقذنا ، فنحن في حاجة لا الى دعواتك وصلواتك فحسب ، بل الى نبوءاتك أيضا .

قال الشيخ بصوت ضعيف منهك مكدود :

- لا تتكلم كما يتكلم انسان طائش العقل ، دعك من التهريج ، ولا تهن أهلك قبل أية مناقشة !

كان واضحاً أن التعب يستولى على الشيخ ، وأن قواه تبارحه شيئاً بعد شيء .

هتف دمتری فيدوروفتش واثباً عن كرسيه بحركة استياء واستكثار ، هتف يقول :

- هذه مهزلة كريهة ! لقد كنت أوجس هذا وأنا آتٍ الى هنا . مغفرةً أيها الأب المحترم ! (كذلك قال دمتری بافلوفتش للشيخ) . أنا امرؤ ضئيل الحظ من التعليم ، حتى انني أجهل اللقب الذي يجب أن أناديك به . لقد خدعوك وغرروا بك ، فكنت ضحية طيبة نفسك وصفاء سريرتك حين أذنت بأن تجمعنا هنا . ان أبي لا يسعى الا الى الفضيحة والجرسة ... أما هدفه من ذلك ، فلا بد أنه يعرفه ... ان

فى كل عمل يقوم به حساباً يجريه • وأظن مع ذلك اتى أحزر ما يضر
من نيات خفية فى هذه الساعة !

صاح فيدور ايفانوفتش هو أيضا يقول :

- انهم جميعا يتهمونى • هم جميعا يناصرونى العدا • وبطرس
الكسندروفتش يتهمنى أيضا •••

أضاف ذلك وهو يلتفت نحو ميوسوف ، مع أن ميوسوف لم يخطر
بباله أن يقاطعه ، وتابع كلامه يقول مخاطبا ميوسوف :

- نعم يا بطرس الكسندروفتش ! لقد اتهمتى • هم يأخذون على
أنى سلبت أولادى ثروتهم ، واغتيت على حسابهم • أليس هناك اذن
محاكم ؟ اننى ألقى عليكم هذا السؤال • هلا اتجهت الى المحاكم يدمترى
فيدوروفتش فتقول لك عندئذ ، بالاستناد الى الايصالات التى وقعتها ،
والرسائل التى أرسلتها ، والاتفاقات التى أبرمتها ، ما هو مقدار ميراثك ،
وما هو المبلغ الذى بددته ، وكم بقى لك ؟ لماذا يرفض بطرس
الكسندروفتش أن يقضى فى خلافنا هذا ؟ ليس دمترى فيدوروفتش
شخصاً أجنبياً عنه ، فلماذا يرفض ؟ سأقول لكم لماذا يرفض : لأنهم جميعاً
يناصبونى العدا ، مع أن دمترى فيدوروفتش ما يزال مديناً لى بمال فى
آخر الحساب ! هو المدين لى ، وليس دينى عليه مبلغاً زهيداً بل هو
ألوف الروبلات ، أستطيع أن أثبت ذلك بوثائق فى يدي ! ان حياة
القصف واللهمو والتبذير التى يعيشها تترجع أصداء اشاعتها فى مدينتنا
كلها ؟ وهو منذ كان فى الجيش قد تعود أن يرمى ألف روبل أو ألفين
فى سبيل أن يقضى على عفاف البنات الشريفات ! هه ••• اننى أعرف
هذا يا دمترى فيدوروفتش ••• اننى أعرف أدق التفاصيل الخفية ،
وأستطيع أن أبرهن على ذلك عند الحاجة ! ••• فاعلم هذا اذن أيها

الأب المقدس جدا : لقد أفسد دمترى فيدوروفتش أخلاق أنبل فتاة من الفتيات ، فتاة تنتمي الى أسرة كريمة غنية كان أبوها رئيسه ، وهو كولونيل شهم شجاع مُنح لمزاياه وساماً رفيعاً هو صليب القديسة حنا مع سيوف ! لقد أفسد دمترى فيدوروفتش طهارة تلك المخلوقة البريئة اذ خطبها ، وها هي ذى الآن تقيم في مدينتنا كتيمة مع أنها خطيئة ، بينما هو يتردد أمام بصرها على امرأة من النساء « الساحرات » يعرفها الناس عندنا حق المعرفة . ولكن هذه المرأة الساحرة ، رغم أنها قد عاشت بما يشبه الزواج المدني مع رجل محترم جدا ، هي قلعة حصينة لا يمكن الوصول اليها - كزوجة شرعية تماما - لأنها امرأة فاضلة ، نعم فاضلة يمينا انها لفاضلة ! هي الفضيلة بعينها أيها الآباء المبهجلون ! غير أن دمترى فيدوروفتش يريد أن يقتحم هذا الحصن بمفتاح من ذهب ، وذلك هو السبب في هجومه على الآن ، لأنه يأمل أن يسلبني مالا . وبانتظار ذلك أنفق على هذه الساحرة حتى هذه اللحظة ألوف الروبلات ، وهو ما ينفك يستدين من أجلها مالا بعد مال . انه يستدين ، وهل تعلمون ممن يستدين ؟ تخيلوا ! أقول يا ميتيا ؟

قال دمترى فيدوروفتش بصوت مدور :

- صه ! انتظر حتى أخرج من هنا ، لأننى لن أسمح لك بأن تدنس أثناء وجودى سمعة أنبل فتاة ! ان تجرؤك وحده على الالامع اليها اهانة لشرفها . . . لا لن أطيق هذا !

كان دمترى فيدوروفتش يهتق غضباً وحنفاً .

قال فيدور بافلوفتش فيما يشبه الأين وهو يحاول أن يمنع امسكاب

دموعه :

- ميتيا ، ميتيا ! ورضى الأب على ابنه ، ما عساك فاعلاً به ؟ ما عسى

يحدث لو لعنتك ؟



ديمتري كاراموزوف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

فزار دمتری فيدوروفتش يقول وقد جن جنونه غيظاً :

— ممثل هزلي وقع !

فقال فيدور بافلوفتش :

— انظروا كيف يعامل أباه ! انظروا كيف يعامل أباه ! وهو في
معاملة الآخرين أسوأ من ذلك أيضاً . اسمعوا هذا أيها السادة : في
مدينتنا رجل فقير ولكنه محترم ؛ هو رائد (كابتن) مخال على التقاعد .
لقد نزلت بهذا الرجل مصائب ، واضطر أن يستقيل من الجيش ، غير أن
كل شيء قد جرى مجرى رقيقاً ، فلا تشهير به ولا حكم عليه ، وظل شرفه
سليماً لم يمسه أذى ولم ينله سوء . وهذا الرجل يعيل أسرة كبيرة .
فهل تعلمون ما صنع به دمتری فيدوروفتش منذ ثلاثة أسابيع ؟ لقد أمسكه
من لحيته في إحدى الخمارات ، وجره إلى الشارع وهو ما يزال ممسكاً
لحيته ، وأخذ يضربه ضرباً مبرحاً على مرأى ومسمع من جمهرة الناس !
كل ذلك لأنني عهدت إلى هذا الرجل سرّاً ببعض الأمور في قضية
صغيرة ! ...

قال دمتری فيدوروفتش وقد أخذ جسمه كله يرتعش ختقاً :

— هذا كذب ! هذا كله كذب ! هو حقيقة في الظاهر كذّاب في
الباطن ! انني لا أحاول أن أسوّغ هذا العمل الذي قمت به ، بل انني
تصرفت مع هذا الكابتن تصرف حيوان كاسر منقرس ، وانني نادم على
ما بدر مني كل الندم ، وانني أشعر بالخزي والعار من ذلك الغضب
المسعود الذي استبد بي . ولكن ذلك الكابتن ، ذلك الرجل الذي تقول
انك عهدت إليه ببعض الأعمال ، انما ذهب إلى تلك التي وصفنها منذ هنيهة
بأنها ساحرة ، فكلمها باسمك ، وعرض عليها أن تشتري السندات التي
وقعتها لك ، وأن تلاحقني لدى القضاء ، من أجل أن أودع السجن

منى أصبحت أزعجك بمطالبي فيما يتعلق بتصفيّة حساباتنا . فكيف
تجرؤ أن تأخذ عليّ اليوم أنني أميل الى هذه المرأة على حين أنك سألتها
أنت نفسك أن تجتذبنى إليها ! ثم انها لا تجد أي حرج في أن تقص
هذا على جميع الناس ، ولقد روته لي أنا أيضا ، ساخرةً منك متهمكة
عليك ! ولئن كنتَ تريد أن تُدخلني السجن فليس لهذا الا سبب
واحد على كل حال ، هو أنك تغار مني ، لأنك حاولت أن تزعج هذه
المرأة بحبك ! ذلك أمر أعرفه أيضا ! هي التي روته لي ضاحكةً عليك ،
هل تسمع ؟ ضاحكةً عليك ، مستهزئةً بك ! تلکم هي ، أيها المباركون ،
حقيقة هذا الرجل ، تلکم هي حقيقة هذا الأب الذي يظهر امتعاضه من
سوء سلوك ابنه ! أيها السادة الذين شهدتم هذا المشهد ، اغفروا لي
ما أظهرت من عنف ! لقد أوجست سلفاً ، واأسفاه ، أن هذا العجوز
الوقح انا جمعكم كلکم هنا من أجل أن يحدث وقعة وأن يثير مشاجرة
أما أنا فلقد جئت على نية الصفح والمغفرة اذا مدّ اليّ يده ، وعلى نية
نسيان الاساءة التي ألحقها بي ، والشر الذي نالني به ، وعلى نية طلب
الصفح والمغفرة كذلك . أما وأنه أهانني الآن ثم لم يكتف بذلك بل
تجرأ على أن يهين أنبل فتاة - وهي فتاة أتحاشى أن أذكر اسمها في غير
طائل ، لأنني أحترمها احتراماً دينياً - فقد قررت أن أفصح لعنته الحقيرة
على رموس الأشهاد ، رغم انه أبي ...

لم يستطع دمتری فيدرووفتش أن يتابع كلامه . كانت عيناه
تقدحان شرراً ، وكان تنفسه صعباً شاقاً . وكان جميع الحضور من جهة
أخرى مضطربين أشد الاضطراب . وقد توجهم وجها الرايين الكاهنين ،
ولكنهما ينتظران قرار الشيخ . ولم يكن الشيخ قد تحرك . كان وجهه
مصفراً اصفراراً رهيباً ، لا من انفعال ، بل من ضعف مرده الى المرض .
ان ابتسامه ضارعة تطوف على شفّيته . وهو من حين الى حين يهمُّ ان

يرفع يده ليهدىء روع هؤلاء المسوسين ، وكان يمكنه فى الواقع أن يضع حداً لهذا المشهد بحركته • ولكن كان يبدو أنه ينتظر هو نفسه شيئاً ما ، فكان يراقب المتحادين باتباه مشدود ، كأنه يحاول أن يفهم مزيداً من الفهم ، كأنه يحاول أن يدرك عنصراً فى الموقف ما يزال خافياً عنه مستعصياً على فهمه • وأخيراً شعر بطرس الكسندروفتش ميوسوف بأنه أذلّ اذلالاً عميقاً ، وأنه جُلِّل بالخزى والعار • قال بحرارة :

– انا جميعاً تتحمل قسطاً من تبعه هذه الجرسة ! كيف كان يمكننى أن أتبأ بشيء من هذا حين جئت الى هنا؟ غير أننى كنت أعرف من هذا الرجل •• يجب أن ينتهى هذا الأمر فوراً ••• أيها الأب المبهجّل ، نق أننى لم أكن على علمٍ دقيقٍ بالتفاصيل التى كُشف عنها الآن • لقد كنت أرفض أن أصدّقها ، وانما عرفتها فى هذه اللحظة لأول مرة ••• أبّ يغار من ابنه على امرأة سيئة الخلق ، ويتفق مع هذه المخلوقة على زج ابنه فى السجن ••• هؤلاء هم الناس الذين اضطرت أن أجيء معهم اليك • لقد غرّر بي ، فأريد أن أصرّح علانية أننى قد غرّر بي وخذعت كما خُذع غيرى •••

أعول فيدور بافلوفتش يخاطب ابنه بصوت ليس مألوفاً فيه :

– دمترى فيدوروفتش ! لو لم تكن ابنى لناديتك الى المبارزة فوراً •• بالمسدس •• على مسافة ثلاث خطوات •• والأعين معصوبة •••

ثم كرر يقول وهو يقرع الأرض بقدميه :

– نعم ، والأعين معصوبة ! •••

ان الكذابين العريقين الذين ظلوا طوال حياتهم يمثلون يبلغون أحياناً من عمق تشبعهم بالدور الذى يمثلونه أنهم يرتعشون انفعالا

ويكون ، رغم قدرتهم على أن يقولوا لأنفسهم فى الوقت نفسه (أو بعد بضع دقائق) : أنت تكذب أيها الكاذب العريق ! أنت تمثل حتى فى هذه اللحظة ، رغم غضبك « المقدس » ورغم هذه الدققة « المقدسة » من الحماسة والاندفاع ، ، ،

قطب دمتري فيدوروفتش حاجيه ، وأظلم وجهه ، ورشق أباه بنظرة ثابتة فيها احتقار لا يوصف . ثم قال بصوت رفيع مكظوم :
- ما كان أغبانى حين اعتقدت ، حين أمّلت وأنا أعود الى مدينتى التى رأيت فيها النور ، بصحبة هذه الملاك ، خطيتى ، أننى سأستطيع أن أجمل أيامه الأخيرة ، فاذا أنا لا أرى فيه الا رجلاً فاسقاً فاجراً ، ومثلاً دنيئاً خسيساً !

زار العجوز يقول من جديد ، وقد تقطعت أنفاسه وأخذ اللعاب يتدفق من فمه عند كل كلمة ينطق بها :

- الى المبارزة ! أما أنت يا بطرس الكسندروفتش ميوسوف فاعلم أيها السيد أن أسرتنا كلها لعلها لم تضم ولن تضم فى يوم من الايام امرأة أنبل ولا أشرف - نعم ولا أشرف ، هل فهمت ؟ - من هذه المرأة التى وصفتها أنت فى غير تحرج ولا حياء بأنها « مخلوقة » ! وأما أنت يا دمتري فيدوروفتش ، فقد هجرت خطيتك فى سبيل هذه «المخلوقة» ، وبذلك اعترفت بأن هذه الفتاة التى هى خطيتك لا ترقى الى مستوى كعب حذائها . تلکم هى المرأة التى سميتوها « مخلوقة » !
صاح الأب جوزيف يقول فجأة :
- هذا خزى وعار !

وانبرى الفتى كالجانوف الذى لم يفتح فمه بكلمة واحدة حتى ذلك الحين ، انبرى يقول فجأة بصوته المراهق وهو يرتجف امتياعاً وامتاعاً واستنكاراً :

– يا للفظاعة ! يا للشناعة !

وكان القتي قد احمر احمرارا شديدا •

وزأر دمترى فيدوروفتش وقد بلغ ذروة الغضب ورفع كتفيه عاليتين كل العلو حتى ليكاد يبدو من ذلك أحذب الظهر ، زأر يقول في نوع من التخفف :

– لماذا يجب أن يعيش مثل هذا الرجل ؟ هلاًّ قلم لي ، هلا قلم لي هل يجوز أن ندع له أن يدنس الأرض برذائله مدة أطول ؟

سأل دمترى فيدوروفتش هذا السؤال وهو ينظر الى جميع الحضور واحداً بعد واحد ، مومناً الى أبيه بيده • وكان يتكلم ببطء مقطّماً ألقاظه •

هتف فيدور بافلوفتش يقول متهجماً على الأب جوزيف :

– هل سمعتم أيها الرهبان ، هل سمعتم ما يقوله قاتل أبيه ؟ ذلك هو جوابه على قولك « هذا خزي وعار ! » • هلاًّ قلت لي أين الخزي والعار ؟ ان هذه « المخلوقة » ، ان هذه « المرأة السيئة الخلق » ربما كانت أقدس منكما أيها السادة الرهبان الكهنة الذين تظنون أنكم تظفرون في الدير بالسلامة والخلاص ! صحيح أنها سقطت في شبابها ضحية بيتها ، ولكنها « أحببت كثيراً » ، والمسيح نفسه قد غفر للمرأة التي أحببت ••• *

قال الأب اللطيف جوزيف صابراً :

– المسيح لم يغفر من أجل ذلك الحب !

– بل من أجل ذلك الحب ، من أجل ذلك الحب نفسه أيها السادة الرهبان ••• نعم ، من أجل ذلك الحب نفسه • تحسبون أنكم تحققون

لأنفسكم السلامة والخلاص بأكل الكرب الحامز ، وتظنون أنفسكم
بررة تقاةً صالحين • تغتذون بالأسمك ، تغتذون بسمكة صغيرة في اليوم ،
وتتخيلون أنكم تخدعون الله بأسماكم هذه التي تأكلونها ! ...

– هذا لا يحتمل ولا يطاق ، هذا لا يحتمل ولا يطاق ... هذا
لا يغتفر بحال من الأحوال •

كذلك أخذ الحضور يقولون في كل جهة من الجهات •

غير أن هذا المشهد الذي بلغ أوج الغلظة والحطة قد انتهى على
نحو لم يكن في الحسبان : نهض الشيخ فجأة ، فهرع أليوشا الذي كاد
يقعد صوابه من شدة خوفه على الشيخ وعلى أهله ، هرع يسنده من
ذراعه • اتجه الشيخ نحو دمتری فيدوروفتش ، فلما وصل إليه هوى
يركع على ركبتيه • اعتقد أليوشا أن الشيخ قد سقط على الأرض ضعفاً
ووهناً ، ولكن الأمر لم يكن كذلك • فحين صار الشيخ راكماً على
ركبتيه ، انحنى يحيى دمتری فيدوروفتش عامداً ، وبلغ من شدة اتحنائه
أن جبينه كاد يلامس الأرض • دُهِش أليوشا دهشة عظيمة نسي معها
أن يمسك الشيخ بعد ذلك حين عاد الشيخ ينهض • وهذه بسمة صغيرة
لا تكاد تُدرك ، تحرك شفتي الشيخ • قال وهو ينحنى لجميع ضيوفه
في كل جهة من الجهات :

– معذرة ، معذرة ...

لبث دمتری فيدوروفتش جامداً من الذهول بضع لحظات : لقد
ركع الشيخ أمامه ، فما معنى هذا ؟ وهتف يقول بعد لحظة :

– يا رب !

ثم أخفى وجهه بيديه ، وأسرع يخرج من الحجرة •

اتجه سائر الزوار وراءه نحو الباب ناسين من شدة اضطرابهم أن يستأذنوا صاحب الدار بالانصراف • واقرب الراهبان الكاهنان وحدهما من الشيخ يتلقيان مباركته •

– لماذا ركع ذلك الركوع ؟ أيكون هذا رمزاً الى شيء ؟

بهذا دمدم فيدور بافلوفتش وقد هدأ روعه فجأة وحاول أن يجرى الحديث بينه وبين صحبه دون أن يجازف مع ذلك فيخاطب واحدا بعينه منهم (كانوا يجتازون في تلك اللحظة نطاق الصومعة) •

فسرعان ما أجاب ميوسوف يقول بلهجة غضبية :

– لست مسئولاً عن ملجأ المجانين هذا وعن هؤلاء المجانين جميعاً • لست أعبأ بحركاتهم ، ولكنتى فى مقابل ذلك سأعفى نفسى بعد الآن من صحبتك يا فيدور بافلوفتش ، وثق أن هذا سيكون الى الأبد • أين ذلك الراهب الصغير الذى استقبلنا منذ قليل ؟

ولكن « ذلك الراهب الصغير » ، وهو الذى كان قد دعاهم الى الغداء عند كبير الرهبان ، لم يدعهم ينتظرونه ، فما ان هبطوا درجات المدخل الذى تطل منه الصومعة على الحقول حتى كان قد اقترب منهم ، كأنه كان ينتظرهم هنالك طول الوقت •

قال له بطرس الكسندروفتش دون أن يستطيع التحكم بحنقه والسيطرة على غضبه :

– أيها الأب المحترم ، أرجو أن تنقل الى الأب كبير الرهبان احترامى العميق ، وأن ترجو سيادته أن يتفضل بأن يعذرني ، أنا ميوسوف ، عن اضطرارى الى التخلف حتما ، بسبب ظروف طارئة لم تكن فى الحسبان ، عن التشرف بتلبية دعوته الى الغداء رغم رغبتى القوية فى تلبية هذه الدعوة الكريمة •

فأسرع فيدور بافلوفتش يتدخل قائلاً :

- آ... آ... هذا أنا . الظروف الطارئة التي لم تكن في الحسبان هي أنا . اعلم أيها الأب الطيب أن بطرس الكسندروفتش قد سئم صحبتي ولولا ذلك للبي الدعوة بغير تردد . ولكنك سوف تذهب الى الدعوة يا بطرس الكسندروفتش ، ستشرف بتناول طعام الغداء عند الأب كبير الرهبان ، وأنا أتمنى لك شهية طيبة وطعاما هنيئاً ! أنا الذي سأمتنع عن حضور الوليمة لا أنت ! هيئاً اذهبوا اليه ، أما أنا فأعود الى منزلي ، وأكل في داري ، لأنني لن أستطيع أن أبلع شيئاً هنا ، هل فهمت يا بطرس الكسندروفتش ، يا قريبي العزيز جدا ؟

- أنا لست قريبك ، ولم أكن قريبك في يوم من الأيام أيها الانسان

الذنيء !

- لقد تعمدت أن أقول لك قريبي لأزعجك ، فأنا أعلم أنك تخجل من هذه القرابة وتنكرها . ولكنك قريبي مع ذلك ، وفي وسعي أن أبرهن على هذا بصكوك الأحوال المدنية وتقويم القديسين . أما أنت يا ايغان فيدوروفتش فسأرسل اليك العربية لتعيدك الى المنزل فيما بعد ، فأبق هنا ان شئت . ان اللباقة توجب عليك يا بطرس الكسندروفتش أن تذهب الى غداء الأب كبير الرهبان ، ولو لتعذر اليه عن الفضيحة التي شاركنا فيها جميعاً .

- أصحيح أنك منصرف ؟ أنت لا تكذب ؟

- كيف أجروء أن أحضر المسأبة بعد الذي حدث يا بطرس الكسندروفتش ؟ لقد اندفعت اندفاعاً طائشاً أيها السادة ، لقد نسيت نفسي ، فاعفروا لي ذلك . هذا الى أنني مضطرب ، وأتني أشعر بالخزي أيضاً . أيها السادة ، ان لبعض الناس شجاعة كشجاعة الاسكندر الكبير،

وان لبعضهم الآخر شجاعة كشجاعة الكلب الصغير « أمين » ، وأنا كالكلب « أمين » أشعر فجأة بخوف ووجل ، فكيف أجرؤ بعد الذى بدر منى أن أشارك فى هذا الغداء وأن ألق مرق الدير ؟ اننى لا أستطيع ذلك ، ان شعورى بالخزى أكبر من أن أستطيع ذلك ، فاعذرونى !

« الشيطان وحده يعلم أنه يقول الحقيقة أم هو لا يزال يمثل تمثيلاً » بهذا حدث ميوسوف نفسه وهو يتوقف عن السير ويتابع المهرج الذى أخذ يتعد ، بنظرة فيها دهشة وحيرة . والتفت فيدور بأفروفتش الى وراء ، فلما لاحظ أن ميوسوف يراقبه أرسل اليه قبلةً باليد .

قال ميوسوف يسأل ايفان فيدوروفتش فجأة :

- أنت ذاهب الى عند الأب كبير الرهبان ؟

- ولم لا أذهب ؟ ثم انه قد دعانى أمس دعوة خاصة ...

- المصيبة اننى أشعر بأننى أكاد أكون مضطراً حقاً الى حضور هذا الغداء اللعين ، على الأقل لنعذر عن الفضيحة التى وقعت ، ولنشرح أننا لا نتحمل تبعتها . ما رأيك ؟

كذلك قال ميوسوف بلهجة هى تلك اللهجة المرة نفسها ، دون أن يعبأ بحضور الراهب الصغير الذى كان يصغى الى كلامه . فأجابه ايفان فيدوروفتش قائلاً :

- صحيح . يجب أن تشرح أن التبعة لا تقع علينا نحن . وعلى كل حال ، لن يكون أبى معنا .

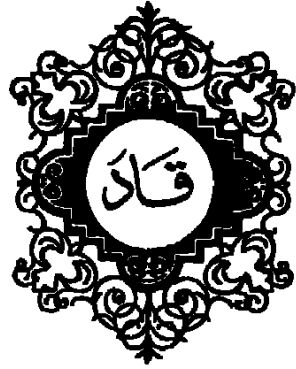
- أبوك ؟ ما كان ينقصنا الا أن يكون معنا ! يا للغداء اللعين !

مضى المدعوّن الى الغداء . كان الراهب الصغير يصغى الى حديثهم

صامتاً • واقنصر على أن قال لهم مرة واحدة حين اجتياز الغابة الصغيرة
 أن الأب كبير الرهبان ينتظرهم منذ زمن طويل وانهم تأخروا نصف
 ساعة • ولكن أحدا لم يجبه •

ألقى ميوسوف نظرة على ايفان فيدوروفتشس ، وقال يحدث نفسه :
 « انه يحضر الغداء ، كأن شيئاً لم يحدث ! رأس عنيد ، وضمير
 كارامازوفى ! » •

طالب اللاهوت



• ألبوشا شيخه الى المهجع وأجلسه على السرير •
 هي حجرة صغيرة جدا لا تضم من الأثاث الا
 ما لا غنى عنه • السرير صغير من حديد ، عليه
 قطعة من لباد تقوم مقام فراش • وفي ركن من
 الأركان ، قرب الأيقونات ، منضدة صغيرة عليها صليب وانجيل • تهالك
 الشيخ على السرير منهوك القوى • كانت عيناه تلتمعان وكان تنفسه
 ثقيلًا • فلما جلس ، ألقى على ألبوشا نظرة طويلة متبهة ، كأنه يفكر
 في أمره ، ثم قال له :

– اذهب يا عزيزي ، اذهب • يكفى بروفير لمساعدتى • أسرع •
 هم فى حاجة اليك هناك • اذهب الى الأب كبير الرهبان ، واحضر ذلك
 الغداء لتخدم على المائدة •

فقال ألبوشا بصوت متوسل ضارع :

– اسمع لى أن أبقى قربك !

– أنت هناك أفيد ! ليس بينهم هناك سلام • سوف تخدمهم ، وقد
 يكون فى حضورك خير لهم • اذا استيقظت الشياطين فاتل دعاءً • واعلم

أيضا يا بنى العزيز جدا (كان يحلو للشيخ أن يناديه بهذا) أن مكانك ليس هنا بعد اليوم • تذكر ما أقوله لك أيها الشاب : متى تفضل الرب فدعاني إليه ، اترك أنت هذا الدير ، واذهب ، اذهب تماما !

ارتشس أليوشا • فقال له الشيخ :

- فيم اضطرابك ؟ مكانك ليس هنا الآن • اننى أبارك بدايتك العظيمة فى هذا العالم ، ذلك أن هناك أشياء كثيرة ما يزال عليك أن تعرفها. وأن تعانيها فى الحياة • وسيكون عليك أن تتخذ لنفسك امرأة ، يجب أن تزوج • ان عليك أن تتألم كثيرا وأن تقاسى كثيرا قبل أن تستطيع العودة الى هنا • لن تخلو حياتك من الأثقال والأعباء • ولكنى لا أشك فيك • ومن أجل هذا انما أرسلك • المسيح معك • فاعرف كيف تحافظ عليه فى نفسك ، ليحميك ويحرسك • ان آلاماً كبيرة تنتظرك ، ولكنك ستعرف السعادة فى العذاب • اليك نصيحتى ، اليك وصيتى : ابحت عن الفرح فى التجربة • اعمل ، اعمل بغير هوادة • تذكر ما أقوله لك اليوم ، ذلك أنتى أعلم ، ولو أتيج لى أن أتحدث اليك مرة أخرى ، أن أيامى بل ساعاتى أصبحت بعد الآن معدودة •

عبر وجه اليوشا مرة أخرى عن انفعال عنيف • وأخذ طرفا شفقيه يرتشان •

سأله الشيخ وهو يتسهم ابتسامة عذبة رفيقة :

- ما بك أيضاً ؟ فليسكب أبناء هذا العالم دموعاً على موتاهم • أما نحن هنا فانا نعتبط مع الأب الذى يبارحنا الى العالم الآخر ، نبتهج معه ونصلى له • دعنى الآن • يجب على أن أصلتى • هياً أسرع • ابق قرب أخويك ، لا قرب واحدٍ منهما ، بل قربهما كليهما •

ورفع الشيخ يده ليباركه • كان يستحيل على أليوشا أن يعصى أمر الشيخ مهما تكن رغبته في البقاء معه قوية • وكان يحترق توقفاً الى سؤاله عما تدل عليه أو تعلن عنه تحيته لأخيه دمترى ساجداً • وكان هذا السؤال على طرف لسانه ، ولكنه لم يجرؤ أن ينطق به • انه يعرف أن الشيخ كان سيشرح له هذا الأمر من تلقاء نفسه لو كان يقدر أن ذلك في الامكان • أما وأنه لم يفعل ، فمعنى ذلك أنه لا يريد أن يفعل • غير أن تلك التحية قد أحدثت في نفس أليوشا تأثيراً قوياً جداً : كان أليوشا مقتنعاً بأن لهذه التحية دلالة خفية ومعنى سرياً • ان هذه الحركة التي قام بها الشيخ تبدو له مثقلة بالسر ، وربما كانت مثقلة بالهول • ولما خرج من نطاق الصومعة حائماً خطاه من أجل أن يصل الى الدير قبل ابتداء الغداء عند كبير الرهبان (من أجل أن يخدم على المائدة لا أكثر ، طبعاً) ، انقبض صدره فجأة وتوقف عن السير لحظة : لقد عادت تدوى في نفسه كلمات الشيخ التي يعلن فيها أن نهايته قد قربت • ان ما يتبأ به الشيخ يمثل هذه الدقة وهذا التحديد لا بد أن يقع • هذه في نظر أليوشا حقيقة مقدسة • فما عسى تصير اليه حاله وحيدا بعد موت الشيخ ؟ كيف يعيش دون أن يراه ودون أن يسمعه ؟ الى أين عساه يذهب ؟ أيمسك عن البكاء ويترك الدير ؟ يا رب ! ان أليوشا لم يشعر منذ زمن طويل بمثل الذي يشعر به الآن من حزن • أغدأ أليوشا خطاه وهو يقطع الغابة الصغيرة التي تفصل المنسك عن الدير ، واذ أحس بعجزه عن احتمال خواطره التي كان ثقلها يسحقه سحقاً ، فقد أخذ يتأمل أشجار الصنوبر التي تبلغ أعمارها مئات السنين ، والتي تنتصب قائمة على جهتي الممر في الغابة • ليست المسافة بعيدة ؟ هي خمسمائة خطوة في أكثر تقدير ؟ وفي مثل هذه الساعة من النهار يندر أن يصادف المرء فيها أحداً • ولكن ما ان بلغ أليوشا أول منعطف حتى لمح راكيتين على حين فجأة • كان يبدو على راكيتين أنه ينتظر •

سأله أليوشا حين أدركه :

- أنتظرني أنا؟

فأجابه راكيتين ضاحكاً :

- حضرت • أنت ذاهب الى الأب كبير الرهبان ، أعلم ذلك • ان
عنده وليمة غداء • هل تعرف أنه منذ اليوم الذي استقبل فيه الأسقف
الذي كان يصحبه الجنرال باختوف - هل تتذكر هذا؟ - لم يعد مائدة
تبلغ ما تبلغه مائدة اليوم من عناية ! لن أحضر أنا الغداء • اذهب اليه
وحدك • قدّم المرق للضيوف • هناك سؤال يجب أن أطرحه عليك
يا أليوشا : ما دلالة ذلك الرمز ؟ لقد انتظرتك من أجل أن ألقى عليك
هذا السؤال •

- أي رمز تعنى ؟

- تلك التحية الساجدة أمام أخيك دمترى فيدوروفتش • لقد بلغ
من السجود له أن جبينه صدم الأرض •

- هل تقصد الأب زوسيما ؟

- طبعا أقصد الأب زوسيما •

- صدم جبينه الأرض ؟

- أياكون في هذا التعبير اخلال بواجب الاحترام ؟ طيب •••
لنفرض أنني أخللت بواجب الاحترام • ولكن ما معنى ذلك الرمز ؟

- أجهل معناه يا ميسا •

- كنت أعلم أنه لن يشرحه لك • وليس في الأمر شيء من سر
طبعا • هي تلك الحركات التقية الجوفاء نفسها تكرر • ولكن الشيخ

لم يمثل هذه يمثل هذه التمثيلية بغير نيةٍ بيّتها • ان جميع الثرائين والاقليم سيتحدثون الآن في هذا الأمر وسيستاءلون : « ما دلالة هذا الرمز على المستقبل ؟ بأى شيء يؤذن هذا الرمز ؟ » • في رأيي أن الشيخ لا تعوزه حصافة الرأي ولا يعوزه نفاذ البصيرة • لقد أحسن أن هناك جريمة سترتكب ، لقد شم هذه الرائحة • ان الروائح في منزلكم تنذر بشر مستطير •

– أية جريمة تقصد ؟

كان واضحاً أن راكيتين يحاول أن يجد السبيل الى الافصاح عما يدور في رأسه ويجول في خاطره •

– في أسرتك انما سترتكب هذه الجريمة • ستقع هذه الجريمة بين أخويك وذلك الثرى أبك • وبسبب ذلك انما صدم الأب زوسيماء الأرض بجبينه • فاذا وقع شيء في ذات يوم قال الناس : « لقد تنبأ به ذلك الشيخ القديس ! » • ألا ما أسخفها من نبوءة أن يصدم المرء بجبينه الأرض ! ولكن الناس سيدعون أن ذلك كان رمزا ، وسيرفعون الشيخ الى السحاب ، وسيظلون يذكرون بغير انقطاع أنه تنبأ بالجريمة ، واكتشف المجرم • ان معوهى القرية لا يفعلون الا هذا ؟ يرسمون اشارة الصليب أمام حانة ، ويرمون المعبد بالحجارة ! ألا ان شيخك ليشبههم : يطرد الصالح طرداً بالعصا ، ويسجد أمام قاتل •

– أية جريمة تقصد ؟ أى قاتل تعنى ؟ أنت مجنون ؟

قال أليوشا ذلك وتوقف ، فتوقف راكيتين أيضا ، وقال يسأل أليوشا :

– أية جريمة ؟ أتزعم أنك تجهل الجريمة التي أعنيها ؟ ألا انني أراهن على أنك فكرت في هذا الأمر من قبل • وددت لو أعلم بهذه

المناسبة •• اسمع يا أليوشا : انك تقول الحقيقة دائما ، رغم أنك جالس دائما بين كرسيين : أفكرت في هذا الأمر من قبل أم أنت لم تفكر فيه ؟ أخطر ببالك أم لا ؟

أجاب أليوشا بصوت خافت :

- خطر ببالي :

فاضطرب راكيتين هو نفسه ، وهتف قائلاً :

- ماذا ؟ خطر ببالك ؟ أهذا ممكن ؟

فتمتم أليوشا يقول :

- أقصد أنني ••• لم يخطر ببالي ••• ولكنني حين سمعتك تتكلم على هذا النحو الغريب جدا منذ هنيهة ، خيل لي أنه خطر ببالي •

- رأيت ؟ لقد عبّرت عن نفسك تعبيراً واضحاً • رأيت ؟ انك حين رأيت كيف اشتبك أبوك وأخوك اليوم قد خطرت ببالك الجريمة ! لم يخطيء اذن ظني •••

فقاطعه أليوشا يقول قلقاً مهموماً :

- انتظر ، انتظر ! من أين أدركت هذا كله ؟ ••• ولماذا تهتم بالأمر هذا الاهتمام الشديد ؟ وددت لو أعرف ذلك أولاً •••

- هذان سؤالان اثنان يتميز أحدهما عن الآخر ، ولكنهما سؤالان مشروعان ، وسأجيبك عن كل واحد منهما على حدة • فأما عن السؤال الأول وهو : من أين أدركت هذا كله ؟ فإني أقول لك انني ما كان لي أن أدرك شيئاً وما كان لي أن أحزر شيئاً لولا أنني في لحظة معينة قد نفذت الى سريرة أخيك دمتری فيدوروفتش ، فرأيت ما في نفسه بمثل

ومض البرق • لقد فهمت كل جوانب نفسه بفضل سمةٍ من سمات طبعه • هناك بالنسبة الى رجال من نوع أخيك ، وهم رجال شرفاء في حقيقة أمرهم ، ولكنهم ميالون الى اللذات مقبلون على المباحج ، هناك حد يجب أن يتحاشى المرء تجاوزه في معاملتهم ، والا أصبحوا لا يتورعون حتى عن قتل أبيهم ! وأبوك رجل فاسق فاجر سكير عرييد لا يستطيع أن يسيطر على نفسه ، ولم يعرف القصد والاعتدال في شيء من الأشياء يوماً ، فسينجرف الاثنان ، فتقع مصيبة في يوم من الأيام •

— لا يا ميشا ! اذا لم يكن ما تقصده الا هذا ، فأنت مخطيء ، وأنا أسترده تفاقلي ، لن يمضيا الى هذا الحد •

— فلماذا أراك ترتعش اذن كورقة في مهب الريح ؟ اسمع : ان أخاك ميتا رجل شريف ، أسلم لك بذلك (هو غبي لكنه شريف) ، غير أنه يحب اللذات • ذلك أساس طبيعته ، وهو العنصر المسيطر في نفسه • وقد أخذ هذا عن أبيه الذي أورثه شهوانيته الخيثة • انني لأستغرب في بعض الأحيان حين أنظر اليك يا أليوشا • كيف استطعت أن تحافظ على طهارتك ؟ كيف استطعت أن لا تقارب امرأة ؟ انك واحد من أسرة كارامازوف رغم كل شيء ••• والميل الجامح الى اللذة قد أصبح في أسرتك مرضاً فتاكاً ، أصبح فرحة في الروح ، أصبح سلاً مفرساً ! فانظر الى هؤلاء الشهوانيين الثلاثة الذين يرقب بعضهم بعضاً الآن ويتربص به مخفياً في كمة خنجراً • لقد تجابها هم الثلاثة أنفأ لأنف ، ولعلك ستصبح رابعهم •

— أنت مخطيء في موضوع تلك المرأة • ان دمتری يحقرها ••• كذلك قال أليوشا في تشنج • فأجابه راكيتين :

— من ؟ جروشنيكا ؟ * لا يا صاحبي ••• لا ••• انه لا يحقرها

البته • يكفى أن تعلم أنه قادر على ترك خطيته فى سبيلها حتى تصبح على يقين من أنه لا يحقرها ذلك الاحتقار الذى تصوره ! هناك شيء •• شيء لا تستطيع حتى الآن أن تدركه أيها الأخ ! حين يتوله بعض الرجال بحب امرأة جميلة ، ويعشقون جسدها ، أو حتى جزءاً من جسدها (ويجب أن يكون المرء مترف الذوق ليفهم هذا) ، فانهم يصعبون قادرين على أن يضحوا بأولادهم فى سبيلها ، وأن يبيعوا أباهم وأمهم من أجلها ، وأن يخونوا روسيا ارضاءً لها ، وأن يبيعوا وطنهم لينالوا الحظوة لديها • قد يكونون شرفاء فاذا هم يسرقون ، وقد يكونون رفاقاً لطافاً انسانيين فاذا هم يقتلون ، وقد يكونون أوفياء أمناء فاذا هم ينسسون ويفترون • ان شاعرنا بوشكين الذى تغنى بالمفاتن الجسدية للمرأة ، قد مجّد ساقها الصغيرتين فى شعر * • وهناك آخرون لا ينظمون شعرا ولكنهم لا يستطيعون أن ينظروا الى هاتين الساقين الصغيرتين الا ويعتريهم من ذلك اضطراب عنيف • وليست مفاتن المرأة ساقين فحسب • لا أيها الأخ ، ان الاحتقار لا حيلة له فى ذلك ، هذا اذا سلمنا جدلاً بأنه يحقر جروشنكا • قد يكون صحيحاً أنه يحقرها ، ولكنه لن يستطيع بعد اليوم أن ينفصل عنها وأن يتحرر من أسرها •

أقلت لسان أليوشا يقول فجأة :

— أنا أفهم هذا !

فقال راكيتين وقد ظهر عليه فرح خيىث :

— هه ! لا بد أنك تفهمه فعلاً ما دمت قد اعترفت بذلك على هذا النحو منذ الكلمات الأولى التى نطقت بها • ولقد قلت قولك دون أن تريد ذلك ، وانما زلّ به لسانك • وهذا يجعل لاعتراك قيمة أكبر ، فالموضوع ليس بالجديد عليك ، ولا شك أنك فكرت اذن فى اللذة !

ذلك هو اذن فتانا العف الذي احتفظ بطهارته ! أنا أعلم يا أليوتنا أنك انسان رقيق القلب ، أنا أعلم أنك قديس . ولكن مهما تكن فتى نقياً بريئاً هادئاً فان الشيطان وحده يعلم ما الذي فكرت فيه ، وما الذي أصبحت تعرفه منذ هذه السن ! أنت فتى بكر طاهر الذيل ، ولكنك سبرت الأغوار السحيقة اتنى الأظك وأرصدك منذ زمن طويل ! أنت واحد من أسرة كارامازوف أنت واحد من هذه الأسرة تاماً كاملاً ولا بد أن تؤمن بأن للعرق والوراثة أثراً رغم كل شيء . . . أنت شهواني من جهة أبيك ، بسيط من جهة أمك . مالي أراك ترتعد فجأة ؟ ربما لأنني أقول الحقيقة ؟ هل تعلم ماذا حدث ؟ لقد تضرعت الى جروشنكا منذ بضعة أيام قائلة : « جئني به (كانت تتكلم عنك) ، فأخلع عنه نوب الراهب الذي يرتديه ! ، ، ليتك تعرف كم أبلت : « جئني به ، جئني به ! ، ولقد تساءلت ما الذي يجعلها تهتم بك هذا الاهتمام كله ، ما الذي يشوقها فيك الى هذا الحد ؟ . . . هي امرأة خارقة ، صدقني . . .

قال أليوتنا وهو يضحك ضحكة مصطنعة :

- بلغتها تحيتي ، وقل لها اتنى لن أجيء . أكمل ما كنت تريد أن تقوله يا ميسا ، وسأجيبك بعد ذلك .

- ما حاجتي الى مزيد من الكلام ؟ ان كل شيء واضح ! اذا كان فيك أنت انسان يحب اللذة والمتعة ، فما بالك بايفان ، أخيك من أبيك ؟ انه كارامازوف هو أيضاً . . . ان مشكلة الاخوة كارامازوف جميعاً تكمن هنا : هم أناس شهوانيون ، أناس طماعون ، أناس بسطاء . ان أخاك ايفان يسلى نفسه الآن بنشر مقالات لاهوتية من باب الهزل ، خاضعاً في ذلك لحساب لا أدري ما هو ، لأنه في حقيقته ملحد ، وهو لا يخشى أن يعترف بهذه الحطة وهذا الصغار ، أخوك الطيب ايفان ! . . . وعدا

هذا يحاول أن يسلب أخاك ميتيا خطيته ، وسيظفر بذلك فيما يبدو .
 كيف ؟ بموافقة ميتيا . . . ان ميتيا مستعد لأن يتنازل له عنها ، بغية أن
 يتحرر منها بأقصى سرعة ، وأن ينصرف الى جروشنكا انصرافاً كاملاً .
 وهذا كله - لاحظ ذلك - لا يبت شيئاً من الاضطراب في نفسه النيلة
 المبرأة من المنفعة ! ان أمثال هؤلاء الرجال هم من أشد الناس خطراً .
 الشيطان وحده يعلم ماذا يجري في نفوسكم . ان أخاك يعترف بحطته
 وصفاره ، ولكنه يسرع الى هذا الاعتراف فرحاً به كل الفرح . اسمع .
 أيضاً : ان أباك ، العجوز الصغير ، قد وقف الآن يعترض طريق ميتيا .
 لقد أفقدته جروشنكا هذه صوابه ، وذهبت برشده ، فمتى لمحها سال
 لعابه شبقاً . وبسببها وحدها انما أثار منذ قليل تلك الجرسة في حجرة
 الشيخ ، لأن ميوسوف قد سمح لنفسه بأن يصفها بأنها مخلوقة خالعة
 العذار . ان أباك مجنون جنوناً قط بقطعة . . . لقد استخدمها في الماضي
 بأجرٍ في شئون حقيرة من شئون البخارات التي يديرها . فلما لاحظ
 ذات يوم أنها جميلة ، اشتعل اشتعال نار الهشيم على الفور ، وهو منذ
 ذلك اليوم يكد ويجهد في ملاحقتها ، ويحاصرها بعروضه ، عروضه
 الخسيسة طبعاً . . . ولكن الأب اصطدم على تلك الطريق بالابن . وأما
 جروشنكا فهي لما تعزم أمرها بعد ، ولا قررت أيهما تختار ، وانما هي
 تمثل عليهما كليهما ، وتسلي بالهاب نار غرامهما . انها مترددة تتساءل
 أيهما أنفع لها وأجدي عليها . فأما الأب فانها تستطيع أن تتحجب منه
 مالاً ولكنه لن يتزوجها ، وهي تعلم ذلك ، حتى لقد يعود الى بخله بعد
 أن يكسب المعركة فيوصد دونها خزنته . وذلك هو السبب في أنها
 لا تهمل ميتيا ولا ترى أن عليها أن لا تحفل به ، فان كان ميتيا لا يملك
 مالاً فانه قادر على أن يتزوجها ، على أن يتزوجها تماماً ! يدع خطيته
 ذات الجمال الذي لا يضاهاى ، يدع كاترين ايفانوفنا ذات المحند النيل ،

ابنة الكولونيل ، ليصبح زوج جروشكا التي كان يعيها في الماضي تاجر عجوز ، فلاح فاسق ، اسمه ساسونوف ، هو عمدة المدينة . ذلك كله ظرف يمكن ان يؤدي حقاً الى جريمة . وهذا بعينه هو ما ينتظره أخوك ايفان . وهو يجنى من ذلك فائدة من كل ناحية من انواحى : يظفر بكاترين ايفانوفنا التي يتوق اليها ، ويظفر بنائتها التي تبلغ ستين ألف روبل ، وذلك أمر لا يستخف به رجل صغير مثله لا يملك قرشا واحدا . لاحظ أيضا أنه لا يكون في هذا كله قد أساء الى ميتيا ، وانما يكون قد أحسن اليه احسانا يعتز به انى أعلم من مصدر مطلع أن ميتيا ، وقد كان منذ أسبوع في احدى الخمارات نملاً يقضى وقته مع نساء عجريات ، قد صرح بصوت عال أنه غير جدير بخطيبته كاتنكا* ، وأن أخاه ايفان هو الجدير بها حقاً . أما كاترين ايفانوفنا فمن المؤكد أنها لن تصمد مدة طويلة أمام رجل مغرٍ مثل ايفان فيدوروفتش ، حتى أنها منذ الآن مترددة بين الاثنين . ألا انى لأتساءل ما الذي تجدونه أتم جميعاً في ايفان هذا حتى تفتنوا به هذا الافتان ، وحتى تكونوا أمامه في حالة تشبه أن تكون وجداً ! صدقنى اذا قلت لك انه يسخر منكم ويضحك عليكم جميعاً .

سأله أليوشا بلجة جافة وهو يقطب حاجبيه :

- من أين عرفت هذه الأشياء كلها ؟ ولماذا تؤكد هذا التأكيد القاطع الجازم واثقاً من صحتها هذا الوثوق كله ؟
- تسألنى هذا السؤال بينما أنت تخاف جوابى . انك تسلّم اذن ، فى قرارة نفسك ، بأننى على حق .
- أنت تحمل عداوة لايفان ! ليس ايفان بالرجل الذى يرضى أن يغيره المال .

- صحيح ؟ طيب ... وما قولك بجمال كاترين ايفانوفنا ؟ ليست
المسألة مسألة مالٍ فحسب ، رغم أن ستين ألف روبل مبلغ مفرٍ .
- ايفان يهدف الى ما هو أسمى من ذلك لن يرضى أن تفتته ألوف
الروبلات . انه لا يسعى الى المال والترف والرخاء . ربما كان يتوق الى
الآلم ويرنو الى العذاب ! ...

- ما هذا الحلم أيضا ؟ ألا انهم جميعاً متشابهون ، هؤلاء النبلاء !
- اسمع يا ميثا ! ان نفس ايفان قلقة عاصفة ، وان عقله مهموم
بمسائل خطيرة . ان فكراً عميقاً يقطن فيه ويعذبه . هو من أولئك
الذين لا يسعون الى الملايين ، وانما يتطلعون الى حل مشكلات الحياة
الروحية .

صاح راكيتين يقول مفصلاً عن كره أصبح لا يخفى نفسه :
- ترهات لفظية ! وسرقات أدبية فوق ذلك ... انك لم تزد على
أن كررت أقاويل شيخك !
قال راكيتين ذلك ثم تبدل تعبير وجهه ، وتقبضت شفتاه ، وتابع
كلامه :

- ولكن ليس فيه سر ، ليس فيه لغز ! ما أعجبى كلامك ! ما من
شيء فيه الا ويمكن حزره بسهولة . يكفي أن تفكر قليلاً حتى تفهم
كل شيء . ان مقاله التي نشرها في الجريدة مضحكة سخيفة باطلة !
أما النظريات التي عرضها منذ قليل فهي غبية بليدة ! « لا فضائل بغير
ايمان بخلود الروح . كل شيء مباح اذا لم تؤمن بخلود الروح . »
(وقد صاح أخوك ميتنكا عندئذ يقول : « اننى أسجل هذا الكلام » ،
هل تذكر ؟) . هذه نظرية تغرى أناساً أوغاداً أوباشاً - مالى أصبح
فقطاً فأنطق بهاجر القول ، هذه بلاهة ! - لا ... لا أناساً أوغاداً أوباشاً ،

بل متقنين أدياء يحملون في أنفسهم « مشكلات عميقة لا تحل » !
 ألا انهم لتبجحون ! ان جوهر تفكيرهم هو ما يلي : « من جهة أولى
 يستحيل عدم التسليم ، ومن جهة أخرى يستحيل عدم الانكار ! » .
 ليست نظريته كلها ، من أولها الى آخرها ، الا سفاهة ! ان الانسانية
 ستجد في نفسها القدرة على أن تحيا للفضيلة ، سواء آمنت بخلود
 الروح أم لم تؤمن . لسوف يكفيها من أجل ذلك أن تستلهم معاني
 الحرية والمساواة والأخوة ...

لقد أصبح راكيتين عاجزاً عن كبح جماح نفسه ، فالتهب حماسة .
 وها هو ذا يصمت فجأة كأنه تذكر شيئاً ما .

قال وهو يتسم ابتسامة مصطنعة متكلفة أكثر من الابتسامة
 السابقة :

– كفانا كلاماً في هذا الموضوع ! لماذا تضحك ؟ أتحسبني تماماً
 خيئاً ؟

– لا ... ليس يخطر ببالى أن أحسبك تماماً . انت انسان ذكى
 ... ولكن فلندع هذا الموضوع ... ثم اننى قد ضحكت بغير سبب .
 أنا أفهم حق الفهم أن من الممكن أن تدفع هذا الاندفاع يا ميشا . لقد
 أدركت من اللهجة الجامحة والنبرة العنيفة فى أقوالك أنك أنت أيضاً
 لست تشعر نحو كاترين ايفانوفنا بعدم الاكتراث . انك لا تقف منها
 موقف من لا يبالي بها ... وقد راودنى هذا الظن منذ زمن طويل أيها
 الأخ ، فذلك هو السبب فى أنك تكره ايفان . أنت تغار منه عليها .

– لعلى أغار منه على بائنتها أيضاً ؟ هه ؟ ما رأيك ؟

– لا ... لن أتكلم عن المال ... لن أهينك !

– أصدق قولك ما دمت قد قلته . ولكن فليأخذكما الشيطان ، أنت

وأخاك ايغان ٠٠٠ ألا يمكنك أن تفهم اذن أن في وسع المرء أن يكرهه بصرف النظر عن كاترين ايغانوفنا؟ هلاً قلت لي لماذا يجب على أن أحبه؟ لقد قال عني سوءاً منذ أيام ، أفلا يكون من حتى والحالة هذه أن أقول فيه سوءاً أنا أيضاً؟

- لم أسمعته يتحدث عنك يوماً ، لا بخير ولا بشر ٠٠٠ انه لا يهتم بك .

- تذكرت الآن مع ذلك أنه ، منذ ثلاثة أيام ، قد قال عني ، في منزل كاترين ايغانوفنا ، كلاماً أهون منه الشنق . انه يجهل من أنا ، انه يجهل خادمك المطيع ! أما من منا يغار من الآخر ، فان لي في هذا رأياً ٠٠٠ لقد تفضل فقال عني انى ان لم أقرر في مستقبل قريب جدا أن أصبح أرشمندريت ، فسأسافر حتماً الى بطرسبرج ، فأعمل هنالك في صحيفة يومية كبرى ، كناقد طبعاً ٠٠٠ وأبقى محرراً مدة عشر سنين ، ثم أصبح بعد ذلك صاحب الجريدة ، وأوجه الجريدة في اتجاه آخر ، فأجعلها جريدة لبرالية ذات ميول الحادية مع صبغة اشتراكية ، مراعيًا رغم ذلك قواعد الحكمة والحذر ٠٠٠ معنى هذا أننى سألعب على الجبلين ، وسأخدع الناس ! وبعد ذلك ، حين أشارف على نهاية حياتى الصحفية ، أكون قد جمعت - فى رأى أخيك - رأس مال ضخماً رغم الصبغة الاشتراكية ، فأسثمر رأس المال هذا بمعاونة يهودى صغير ما ، الى أن أبني عمارة فخمة فى سان بطرسبرج ، فأجعل طابقها الأرضى مقراً لتحرير الجريدة ، وأؤجر باقى العمارة شققاً . حتى لقد حدد أخوك المكان الذى سأبنى فيه العمارة ، فقال اننى سأبنيها قرب الجسر الحجرى الذى سيقام فيما يقال على نهر نيفا بين حى ليتساينى وحى فيبورج ٠٠٠

- ولكن هذا بعينه هو ما سيحدث يا ميسا نقطةً نقطةً في أغلب
الظن !

كذلك هتف أليوشا يقول وقد أخذ يضحك ضحكاً فرحاً لم يستطع
أن يمسك عنه •

- أنت أيضاً أصبحت ساخراً يا ألكسى فيدوروفتشن !

- لا ... لا ... تلك مزحة ... سامخنى ! وانما كنت أفكر
في شيء آخر تماماً • ولكن قل لى : من قصّ عليك هذه التفاصيل ، ومن
أين جئت بها ؟ انك لم تكن حاضراً عند كاترين ايفانوفنا فيما أتخيل ،
حين دار الحديث عنك !

- لم أكن حاضراً عند كاترين ايفانوفنا حين دار هذا الحديث
عنى ، ولكن دمترى فيدوروفتشن كان حاضراً • ومنه انما سمعت هذا
هذا الكلام بأذنى • أو قل ان شئت انه لم يذكره لى أنا ، ولكننى سمعته
على غير ارادة منى طبعا ، لأننى كنت فى غرفة نوم جروشنىكا ، ولم أكن
أستطيع الخروج من الغرفة ، لأن ايفان فيدوروفتشن كان متلبساً فى
الغرفة المجاورة •

- صحيح ... تذكرت الآن ... هى قريبتك فيما أظن ، أليس
كذلك ؟

- قريبتى ؟ جروشنىكا قريبتى ؟ أتراك جئنت ؟ أياكون عقلك
مختلاً ؟

كذلك صاح راكيتين وقد احمر احمرارا شديدا •

- لماذا ؟ ألستما قريبين ؟ لقد سمعت أنكما قريبان ...

- سمعت ؟ أين سمعت هذا ؟ انكم معشر السادة كارامازوف ،

تصطنعون أوضاع من ينتمى الى الطبقة النسيلة العريقة ، على حين أن أباك كان مهرتجاً على موائد الأغنياء ، وأن هؤلاء كانوا يشرفونه أحياناً بوجبةٍ يأكلها في المطبخ ! أنا أعلم أنني لست ابن قس ، وهذا يجعلني في نظرك انساناً لا قيمة له ، ولكن هل ذلك سبب كافٍ لتهينتي بهذه الخفة وهذا الطيش اهانة لا داعي اليها ؟ ان لي كرامتي وشرفي أنا أيضا يا ألكسى فيدوروفتش ! أنا لا يمكن أن أكون قريب جروشكا ، البنت المبدولة ، فاعلم هذا ! ...

كان راكيتين غاضبا مهتاجا •

معذرة ... سامحنى ... أرجوك ! لم يكن في وسعى أن أعرف هذا • ثم لماذا تصفها بأنها مبدولة ؟ أعلها ... واحدة من تلك النساء ... ؟

كذلك سأله أليوشا وهو يحمر على حين فجأة • ثم أردف يقول :
- أعود فأقول لك اننى قد ذكر لى انها قريبتك • وأنت تراها أحيانا كثيرة ، وقد أكدت لى بنفسك أن ليس بينك وبينها علاقات حب • •
فهل كان يمكننى أن أتصور أنك تحقرها الى هذه الدرجة من الاحتقار؟ وهل هى تستحق هذا الاحتقار حقا ؟

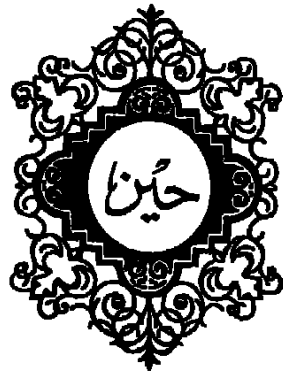
- قد يكون ثمة أسباب تدعونى الى التردد اليها • لن أقول لك أكثر من ذلك • أما القرابة مع جروشكا فان أخاك ، أو ربما أباك ، هو الذى سيفرض عليك هذه القرابة ، يفرضها عليك أنت لا على أنا • •
ها نحن وصلنا الآن • الأفضل أن تمضى رأساً الى المطبخ • أه • • ولكن ما الذى يحدث ؟ أنكون قد تأخرنا الى هذا الحد من التأخر ؟ لا يمكن أن يكونوا قد فرغوا من تناول الغداء مع ذلك ! اللهم الا أن يكون الأخوان كارامازوف قد دبرا «مقلبا» مما عهد فيهم ! أكيد • • • هذا

أبوك يتعد ، ووراءه ايفان فيدوروفتش • انهما يهربان من عند الأب كبير الرهبان • وهذا هو الأب ايزودور على درجات المدخل يصيح لهما بكلام • ان أباك يصيح أيضا ، ملوِّحاً بيديه • انه يقذف شتائم ، فيما يبدو ••• أنظر ! هذا ميوسوف قد خرج راكباً عربته • هل تراه ؟ وهذا ماكسيموف يركض في تلك الجهة ! ألا انها لفضيحة حقاً ! اذن لم يتم الغداء ••• أتراهم ضربوا كبير الرهبان أيضاً ؟ اللهم الا أن يكون الآخرون هم الذين ضربوهم ! ••• وددت لو أرى هذا •••

لم يكن تعجب راكيتين في غير محله • لقد وقعت فضيحة فعلاً ••• فضيحة لم تكن في الحسبان ••• فضيحة لم يُسمع بمثلها من قبل ••• وقعت بمجرد « وحى والهام » •••

٨

فضيحة



وصل ميوسوف وايفان فيدوروفتش الى عند
رئيس الدير (كبير الرهبان) ، تغيرت حالة
بطرس ألكسندروفتش النفسية تغيراً سريعاً ،
بتأثير طبيعته المهذبة المرهفة : لقد شعر فجأة
بالخجل من حنقه • أحس في قرارة نفسه أنه

كان عليه أن يحتقر ذلك الرجل السافل فيدور بافلوفتش مزيداً من
الاحتقار ، فما يفقد هدوءه في حجرة الشيخ بسببه ، الى حيث يفلت منه
زمام سيطرته على نفسه • قال لنفسه وهو يصعد درجات المدخل الى
مسكن كبير الرهبان رئيس الدير : « مهما يكن من أمر ، فان الرهبان
لا يتحملون تبعه شيء مما حدث ، فما ينبغي أن أؤاخذهم •• وما داموا
هم أيضاً أناساً محترمين (أحسب أن هذا الأب يقولوا ، رئيس الدير ،
يرجع الى أصل نبيل هو أيضاً) ، فلماذا لا أكون في معاملتهم لطيفاً رقيقاً
مهذباً ؟ لن أتهم على آرائهم ، بل سأتظاهر بتأييدها ، فأكسب مودتهم ،
وسأبرهن لهم أخيراً على اننى لا شيء يجمعنى بهذا الرجل الجافى الغليظ ،
هذا الايزوب ، هذا المهرج ، هذا التافه ، وأنتى في هذه المغامرة كلها
ضحية مثلهم ! » •

أما حقوق قطع الأشجار في الغابة ، وحقوق الصيد في النهر

(وكان ميوسوف لا يعلم من جهة أخرى على وجه الدقة ما هو الجزء الذى كان يقوم عليه الخلاف من أراضيه) ، فقد قرر أن يتنازل لهم عنها تنازلاً كاملاً نهائياً ، وأن يعلن هذا التنازل فى ذلك اليوم نفسه ، لا سيما وأن قيمة ذلك كله زهيدة • سوف يسحب القضية من المحاكم ، ويضع حداً لهذه الدعوى القديمة التى أقامها على الدير •

وقد تعززت نيته الطيبة هذه فى نفسه مزيداً من التعزز حين دخلوا غرفة طعام رئيس الدير • والحق أن الغرفة لم تكن غرفة طعام ، ذلك أن مسكن رئيس الدير كان لا يتجاوز غرفتين • ولئن كانت هاتان الغرفتان أوسع مساحة وأوفر راحة من غرف الشيخ ، فإن الأثاث فيهما بسيط غاية البساطة : هو أثاث من خشب الأكاجو منجّد بالجلد ، ولكنه من الطراز القديم البالى الذى كان رائجاً فى العقود الأولى من هذا القرن • حتى أن الأرض لم تكن مطلية • ولكن كل شيء كان فى مقابل ذلك يسطع نظافة وزهاءً ، وكانت حافات النوافذ تزردان بأزهار جميلة ثمينة • على أن الشيء الذى كان يجذب الانتباه ويفتن البصر فى تلك اللحظة خاصة إنما هو تلك المائدة المرتبة الحافلة ، رغم أنها ليست على جانب عظيم من الترف : غطاء نظيف جداً ، أوان لامعة ، ثلاثة أصناف من الخبز أحسن خبزها ، زجاجتان من نبيذ ، قمقمان مليشان بشراب العسل اللذيذ الذى عرف به الدير ، إبريق كبير من زجاج فيه شراب التفاح الذى يُصنع بالدير وهو شراب اشتهر كثيراً فى المنطقة كلها • ولم يكن على المائدة كحول • وقد روى راكيتين فيما بعد أن وجبة الطعام فى ذلك اليوم كانت تضم خمسة أطباق : حساء سمك ، فسمكاً مشوياً بطريقة خاصة يقال انها رائعة ، فأضلاعاً من سمك الحفش ، فمئذجات ، فمارا مسلوقة بالسكر ، فبالوطة فاكهة * • كان راكيتين قد اطلع اطلاعا دقيقاً على كل شيء • انه لم يستطع أن يقاوم فضوله ، فتسلل

حتى الى مطبخ رئيس الدير ، وكان يدخله من حين الى حين ؛ ولقد كانت له علاقات في كل مكان على كل حال ، وكان يعرف كيف يكلم الناس . ان له نفساً قلقة حسودا . وكان لرضاه العظيم عن كفاءاته الكبرى ومقدراته العظيمة ، يميل الى تضخيمها والمبالغة فيها . وكان واثقا من أنه سيصبح في المستقبل شخصا مرموقا ، وأنه سيمثل في الحياة دورا كبيرا . ولكن أليوشا الذي كان يحبه كثيرا كان يؤلمه أن يلاحظ أن صاحبه يفتقر الى الاستقامة والشرف ، حتى أنه لا يظهر عليه أنه يخطر بباله لحظة أنه كذلك : ان راكيتين ، لثقته بأنه لا يسرق مالا من دروج الناس ، كان يعدُّ نفسه مثال الكمال الأخلاقي . وما كان لأليوشا ، ولا كان لأحد في العالم كله ، أن يحمله على تغيير رأيه في هذه النقطة .

ولأن راكيتين شخصية ثانوية فانه لم يكن من الممكن أن يدعى الى وليمة الغداء هذه ، غير أن الأبوين جوزيف وبائيسى قد دُعيا اليها ، كما دُعي كذلك راهب كاهن آخر . ففي اللحظة التي وصل فيها بطرس ألكسندروفتش بصحبة كالجانوف وايفان فيدوروفتش كان هؤلاء ينتظرون في غرفة طعام رئيس الدير ، وكان المالك ماكسيموف جالسا كذلك في أحد الأركان . استقبل الأب رئيس الدير ضيوفه متقدما اليهم حتى وسط الغرفة . انه شيخ فارغ القامة نحيل الجسم ، ما يزال قوى اليينة ، له وجه طويل صارم وقور . حيا ضيوفه باحترام ، ولكن هؤلاء اقتربوا في هذه المرة يتلقون مباركته ، حتى أن ميوسوف جازف فأراد أن يقبل يده ، غير أن الرئيس سحب يده في الوقت المناسب ، فلم يتم تقبيل . . . أما ايفان فيدوروفتش وكالجانوف فانهما أقبلا بغير تردد ، وتلقيا مباركة رئيس الدير على نحو طبيعي بل وشعبي ، وطبعا على يده قبلة كبيرة سُمع صوتها .

بدأ بطرس الكسندروفتش الكلام وهو يتسم ابتسامته الودود اللطيفة ، ولكن بلهجة فيها جد ووقار واحترام :

- نعتذر الى سيادتك أصدق الاعتذار عن أننا جئنا الى هنا دون أن يصحبنا فيدور بافلوفتش الذى تفضلت بدعوته أيضا • لقد اضطر أن يعدل عن حضور الوليمة ، ولهذا أسبابه • لقد سمح لنفسه ، فى حجرة الأب المبعجل زوسيميا ، بأن يندفع فى مناقشات عائلية مؤسفة مع ابنه ، فقال كلاماً فى غير محله ••• أى بدرت منه أقوال غير لائقة أبدا ••• وهذا أمر أظن أن سيادتك قد علمت به (قال هذا وهو ينظر الى الراهبين الكاهنين) • وقد أدرك خطأه ، وشعر بأسف شديد ، وأحس بالخجل والعار ، فرجانا أنا وابنه ايفان فيدوروفتش أن نعرب لك عن عميق ألمه وشديد أسفه وصادق ندمه • وهو يأمل أن يصلح خطأه فى المستقبل ، ويرجو أن تكرم اليوم فتهب له مباركتك صافحاً عنه ناسياً ما بدر منه • صمت ميوسوف • انه بعد أن أنهى خطابه المسهب قد بلغ من شعوره بالرضى عن نفسه أنه لم يبق فيه أى أثر للحق الذى ألمّ به من قبل • أصبح يحب الانسانية من جديد ، حباً صادقاً لا تردد فيه • أصفى رئيس الدير الى كلامه بوقار ورصانة ، ثم أحنى رأسه قليلا ، وقال يجيبه :

- يؤسفنى غياب رفيقكم كل الأسف • فلمله كان سيتعلم محبتنا أثناء هذه المأدبة ، ولملنا كنا سنشعر نحوه بمحبة • تفضلوا فاتخذوا أماكنكم الى المائدة أيها السادة • ووقف أمام الأيقونة ، وأخذ يتلو صلواته بصوت عالٍ ، فخصص جميع الضيوف رموسهم باحترام ، وخشوع ، وتقدم المالك ماكسيموف الى أمام ضاماً يديه الصغيرتين احدهما الى الأخرى مصراً عن تقوى خاصة .

وفي تلك اللحظة بعينها انما أخرج فيدور بافلوفتش من جعبته
آخر مكيدة • يجب أن نذكر أنه قد كان في نيته حقا أن ينصرف •
كان قد أدرك فعلاً أن من المستحيل أن يحضر مأدبة رئيس الدير بعد
سلوكه الشائن الفاضح في حجرة الشيخ ، حتى لكأن شيئاً لم يكن ،
لأنه كان يشعر بخجل خاص من نفسه ، أو لأنه كان يلوم نفسه ،
فربما كان عكس هذا هو الأصح ! ومع ذلك فقد شعر أن حضور المأدبة
سيكون خالياً من الاحتشام في هذه الظروف • ولكن ما كادت عربته
المرجحة توصله الى أمام درجات مدخل الفندق ، حتى أحسّ بتردد
مفاجيء ، فتوقف في اللحظة التي كان بهم أن ينزل فيها من العربة •
تذكر أقواله نفسها التي نطق بها في حجرة الشيخ : « انى أشعر كلما
دخلت على بعض الناس أنى أسوأ من الآخرين ، وأن الجميع يعدونى
مهرجاً ! فأقول لنفسي عندئذ : فليكن ! سأقوم بدور المهرج ، لأنكم
جميعاً أكثر منى غباوة ، وأخبت سريرة » • تمنى في تلك اللحظة لو
ينتقم من صحبه بحقارته • وتذكر بهذا الصدد ، في الوقت المناسب
تماماً ، أنه سئل مرةً عن السبب الذي يجعله يكره فلاناً من الناس ،
فأجاب في اندفاعه من اندفاعات تهريجه الوقح قائلاً : « لماذا ؟ سأقول
لكم • صحيح أنه لم يسيء الىّ أية اساءة • ولكنى ارتكبت أنا في حقه
حقارة سافرة ، ومنذ تلك اللحظة أصبحت أكرهه بسبب تلك الدناءة
التي ارتكبتها في حقه ! » فلما راودت هذه الذكرى فيدور ايفانوفتش
ضحك ضحكة خبيثة صامتة ، وأخذ يفكر بضع لحظات ، والتمعت عيناه ،
وارتعشت شفاهه ، ثم ما لبث أن اتخذ قراره فجأةً : « لقد صببت البخرمة
فيجب شربها • سوف أتم ما بدأته • ، ان الشعور الخفى الذي خضع
له فيدور بافلوفتش في ذلك الظرف يمكن التمييز منه على النحو التالى :
« لقد فاتنى أوان رد الاعتبار الى نفسي • فالأولى ما دام الأمر كذلك أن

أمضى الى النهاية ، وأن أهينهم مزيدا من الالهانة ، فسوف يرون عندئذ على الأقل اننى لا أخشاهم ، وأننى لا أحفل بما عدا ذلك ! ، ، وهاهو ذا يأمر الحوذى بأن ينتظر ، وها هو ذا يعود أدراجه الى الدير مستحشاً خطاه ليمضى الى عند كبير الرهبان رأساً . لم تكن فى رأسه أية خطة واضحة معينة ، ولكنه يعلم أنه أصبح لا يستطيع السيطرة على نفسه والتحكم بسلوكه ، وأن أى أمر تافه يمكن أن يدفعه فجأة الى الحدود القصوى من الدناءة - دون أن يتعرض مع ذلك للمضى الى أبعد من ذلك ، ودون أن ينحرف الى ارتكاب جريمة أو الى اقرار أى عمل يمكن أن يؤدي به الى المثول أمام المحاكم . انه يعرف دائماً كيف يحجم فى اللحظة المناسبة ، بل كثيراً ما كانت تدهشه سيطرته على نفسه فى هذا المجال . ولقد وصل الى غرفة طعام رئيس الدير فى اللحظة التى كانت فيها الصلاة قد انتهت فاقرب الضيوف من المائدة . وقف ساكناً جامداً على عتبة الغرفة ، وطاف ببصره على الحضور ، ثم أطلق ضحكة طويلة متطرسة خبيثة بينما هو يتفرس فى جميع الأشخاص الحاضرين وقد ظهرت فى وجهه معانى التحدى والاستفزاز . وصاح يقول بصوت دوى فى الغرفة كلها :

- ها . . . لقد ظنوا أننى انصرفت . . . فهأنذا أعود .

اتجهت اليه جميع الأنظار خلال لحظات فى جو من صمت مطبق ، ثم أدرك الجميع فجأة أنه سيحدث شىء كريبه أهوج طائش ، وأن فضيحة توشك أن تقع . ولم يلبث بطرس ألكسندروفتش أن انتقل من حالة المزاج المشرق والخلق الرضى الى حالة غضب شديد وحنق مسعور . ان النيظ الذى كان قد هدأ فى نفسه وانطفأ فى قلبه قد اشتعل فى مثل لمح البصر سرعة ، وانطلق يتدفق تدفقا قويا . صاح يقول :

– لا ... هذا كثير في هذه المرة • لن أطيق ذلك ولن أحتمله •
 اننى لا أستطيع الصبر على هذا بأى وجه من الوجوه وأى حال من
 الأحوال •

ازدحم الدم فى رأسه ، وتعثرت كلماته واختلطت أقواله ...
 ولكن الأمر لم يكن أمر فصاحة ! ... وها هو ذا يتناول قبعته •

قال فيدور بافلوفتش :

– ما الذى لا يستطيع أن يحتمله وأن يصبر عليه بأى وجه من
 الوجوه وأى حال من الأحوال ، أيها الأب المبجل ؟ أتأمرنى بالدخول
 أم تأمرنى بالانصراف ؟ أتقبلنى ضيفاً مدعوأ الى مائدتك أم لا ؟

فأجابه رئيس الدير كبير الرهبان :

– أهلا وسهلا • اننى سعيد برؤيتك •

ثم أسرع يقول للحضور :

– أيها السادة ، اننى أسمع لىفسى بأن أرجوكم من أعماق قلبى
 أن تنسوا خلافاتكم العابرة المؤقتة ، وأن يلتئم شملكم حول هذه المائدة
 مصليين لله بعاطفة المحبة ووفق الأخوة •

فأعول ميوسوف يقول وقد خرج عن طوره :

– لا ... لا ... هذا مستحيل !

فقال فيدور بافلوفتش :

– اذا كان هذا مستحيلاً بالنسبة اليه ، فهو مستحيل بالنسبة الى
 أيضا • لن أبقى أنا ما لم يبق هو • فعلى هذه النية انما جئت • لن أترك
 بطرس ألكسندروفتش بعد الآن : فاذا انصرفت أنت يا بطرس

ألكسندروفتش انصرفت أنا أيضا ، واذا بقيت أنت بقيت أنا • ذلك هو وفاق الأخوة ! لقد جرحته جرحاً عميقاً حين ذكرت وفاق الاخوة هذا أيها الأب الرئيس • انه لا يريد أن يكون أخى ! انه ينكر القرابة التي بيننا ! أليس كذلك يا فون سون ؟ لقد عثرت عليه واهتديت اليه ، صاحبي فون سون ! نهارك سعيد يا فون سون !

تمتم. المالك ماكسيموف يسأل مذهولاً :

– أنا الذى ••• تسمينى بهذا الاسم ؟

فقال فيدور ايفانوفتش :

– طبعاً أنت ! من عسى يسمى بهذا الاسم غيرك ؟ أملك تحسب أن الأب الرئيس هو الذى يجب أن يسمى بهذا الاسم ؟

قال ماكسيموف :

– ولكننى لست فون سون ، وانما أنا ماكسيموف ؟

– بل أنت فون سون ! هل تعرف يا صاحب السيادة من هو فون سون ؟ انه بطل دعوى قضائية شهيرة • لقد قُتل فى ماخور – أحسب أن هذا هو الاسم الذى يطلق على تلك الأماكن فى بلادنا – قتل ••• وجرّد من كل ما كان معه ؟ ثم وضع فى صندوق دون مراعاة لتقدمه فى السن ، ثم سمّر على الصندوق لوح من خشب ، ثم شُحن طرداً بسيطاً مرقماً من سان بطرسبرج الى موسكو بالقطار البطى • وبينما كان الصندوق يسمّر كانت المومسات تغنى وترقص على أنغام البسالتريون ، أعنى على أنغام البيانو • ان فون سون ذاك هو الذى ترونه الآن أمامكم • لقد بُعث بعد موته • أليس هذا صحيحاً يا فون سون ؟

– ما هذا الكلام ؟ ماذا يريد أن يقول ؟

هذا ما هتفت به جماعة الرهبان الكهنة من كل جهة •
 صاح بطرس الكسندروفتش يقول متجهاً نحو كالجانوف :
 فلتنصرف !

فتدخل فيدور بافلوفتش يقول بصوت حاد موعوع وهو يتقدم الى
 الأمام خطوة أخرى :

- لا •• لا •• اسمحوا لي •• تحملوا أن أنهي كلامي أولاً •
 لقد ادّعى أنني تصرفت تصرفاً خالياً من الاحتشام والاحترام في حجرة
 الشيخ منذ قليل • لماذا ؟ لأنني أتيت على ذكر الأسماك الصغيرة ! ان
 بطرس الكسندروفتش ، قريبي المحترم ، يؤثر أن يكون في الكلام من
 الرفعة أكثر مما فيه من الصدق أما أنا فأقول : فلتذهب الرفعة الى
 الشيطان ! أليس هذا صحيحاً يا فون سون ؟ أيها الأب الرئيس المحترم !
 قد أكون مهرجاً ، وانتي لأقدم نفسي مهرجاً ، ولكنني فارس من فرسان
 الشرف ، وأحب أن أتكلم هنا بصراحة تامة • نعم ، أنا فارس من فرسان
 الشرف ، على حين أن بطرس الكسندروفتش هذا ليس الا حزمة من
 غرور جريح ، ولا شيء غير هذا ! لئن جئت الى هذا الدير ، لقد جئت
 على نية أن ألاحظ وأن أحكم • ان ابني الكسي يحقق في هذا الدير
 خلاصه • وأنا أبوه • فمصيره يهمني ، ومن واجبي أن أسهر عليه •
 لقد ظللت أمثل طول الوقت ، ولكن دون أن تفوتني كلمة واحدة مما
 كان يقال • لم يفتني شيء البتة ، وأحب أن أعرض عليكم الآن الفصل
 الأخير من تمثيلتي ! انني أعرف كيف تجري الأمور عندنا • ما سقط
 فقد سقط ، أليس هذا صحيحاً ؟ ان الخطأ الذي يرتكب يستمر قرونًا !
 ولكن لا ••• انتي لا أقبل هذا ••• انتي لا أسلم بهذا ••• انتي أثور
 وأتمرّد ! أيها الآباء المحترمون ! ان اراءكم تثير في نفسي أعمق الاستياء

والاستنكار ! الاعتراف سرّ مقدس أشعر أنا نفسي تجاهه بتأثر قوى ، وتقوى شديدة ، وعبادة خاشعة ! ولكن الناس في تلك الحجرة يعترفون جاثين على ركبهم ، متكلمين بصوت عالٍ • فهل الاعتراف بصوت عالٍ أمر جائز؟ ان آباء الكنيسة قد أمروا بأن يتم الاعتراف همساً في الأذن ، وبهذا الشرط وحده انما يبقى الاعتراف سرّاً مقدساً • تلك قاعدة قديمة محترمة معظّمة • كيف تريدون مني مثلاً أن أروى بحضور جميع الناس أنني فعلت كيت وكيت - هل تفهمون؟ - كيت وكيت ••• أقصد كيت ••• وكيت ••• قد لا يكون من الحشمة أحياناً أن يروى المرء أموراً بعينها • تلك فضيحة أيها الآباء المبجلون ! من ذا الذي يضمن أن لا تصيروا من هذا شيئاً بعد شيء الى ملة الخلستيس؟ * ••• لسوف أشكوكم الى المجلس الكنسي الأعلى عند أول مناسبة ••• أما ابني ألكسي فقد قررت أن استرده الىّ وأصطحبه الى منزلي •••

هناك ملاحظة يجب علينا أن نذكرها هنا • كان فيدور بافلوفتش قد سمع في الماضي صدىً ضعيفاً عن الخلافات الاكليريكية ، فهو اذن يعرف على أي وتر يجب أن يضرب • ان وشايات خيثة كانت قد انتشرت في الماضي ، فوصلت حتى الى الأسقفية (حدث هذا لا في مدينتنا وحدها بل حدث كذلك في أديرة أخرى دخلها نظام المشايخ) • قيل فيما قيل ان الاحترام الذي يحاط به الشيخ فيه غلو كثير ، وانه لا داعي اليه ، بل قيل أيضاً انه يسىء الى مهابة رئيس الدير ويسىء الى كرامته • وقيل خاصة ان المشايخ يسيئون استعمال سرّ الاعتراف ، وقيلت أيضاً حماقات كثيرة من هذا النوع • ثم سقطت هذه الاتهامات من تلقاء نفسها بعد ذلك ، سقطت عندنا ، كما سقطت في كل مكان على كل حال • ولكن الشيطان الأحمق الذي ركب فيدور بافلوفتش وأخذ يهوى به متوتر الأعصاب الى قاع الدناءة قد لقنه هذا الاتهام القديم الذي كان

فيدور ايفانوفتش لا يدرك منه كلمة واحدة على كل حال ، حتى أنه لم يحسن صياغة هذا الاتهام صياغة مفهومة ، لا سيما وأن أحدا لم يكن قد جثا على ركبتيه أمام الشيخ في ذلك اليوم ، ولا أعترف بصوت عالٍ ، ومعنى هذا أن فيدور بافلوفتش لم ير بعينه شيئاً وإنما هو يردد ما كان قد سمعه ، متذكراً أقاويل قديمة . لكنه وقد أخرج هذه الحماسة لم يلبث أن شعر بأنه قال كلاماً سخيفاً فأراد عندئذ أن يبرهن للآخرين ، وأن يبرهن لنفسه خاصة ، أن ما قاله ليس فيه شيء من سخف . ورغم أنه كان يدرك ادراكاً كاملاً أن كل كلمة أخرى يقولها إنما تفاقم بشاعة كلامه وتجعله يتردى في الطيش والحماسة مزيداً من التردى ، فإنه لم يستطع أن يتوقف على المنحدر ، بل أخذ يهوى الى القاع منكس الرأس .

صرخ بطرس السكندروفتش يقول :

- يا للحقارة ! يا للصغار !

فتدخل كبير الرهبان فجأة يقول :

- اسمح لى . جاء فى كلام الأقدمين : « قد قيل عنى سوء ، وقد اتهمت بأشياء منكورة . فلما سمعت تلك الأقوال ، قلت لنفسي : « ان المسيح هو الذى أرسل الى هذا الدواء لأشفى ، انه يفرض على هذه المحنة لأخلص نفسي من غرورها » . لذلك أشكر لك كلامك أجزل الشكر .

قال كبير الرهبان ذلك وحيثاً فيدور بافلوفتش منحياً له انحناءً كبيرة .

- ته ته ته ! .. نفاق قديم وجمل مهترئة ! .. معروفة هذه الجمل وهذه الحركات ! لا تتدعنى هذه التحيات ! « قبله على الشقيتين وطعنة

فى القلب ، * تماماً كما ورد فى كتاب شيللر « قطاع الطرق » ! اننى أكره الكذب أيها الآباء ، وأحب الحقيقة ! ولكن الحقيقة ليست فى أكل الأسماك الصغيرة ، سبق أن قلت لكم ذلك • هلاًّ قلتى لى أيها الآباء لماذا تصومون ؟ لماذا تنتظرون مكافأة فى السماء على ما تحملونه من حرمان ؟ ألا اننى مستعد أنا أيضاً لأن أصوم راضياً فى سبيل مكافأة من هذا النوع ! دعك من هذا أيها الراهب المقدس ! لأن تمارس الفضيلة فى الحياة ، ولأن تكون نافعا للمجتمع ، خير" من أن تلوذ بدير لتحمى نفسك من الحاجة الى العمل ، ولتنال فوق ذلك مكافأة فى الحياة الآخرة ! ولكن لعل هذا يبدو لك أصعب وأشق ••• أنا أيضاً أجيد الكلام أيها الأب الرئيس ••

قال ذلك ثم اقترب من المائدة وأضاف :

— فللنظر ماذا أعدوا هناك ! يا سلام ••• خمر معتق ، وشراب العسل اللذيذ الذى يباع فى متجر الاخوة اليسايف * : فليس الأمر أمر أسماك صغيرة فى هذه المرة ، أليس كذلك أيها الآباء الطيبون ؟ هيه ••• هيه ••• ما أروع هذه الزجاجات التى أخرجوها ! ••• ومن ذا الذى أمد المدير بهذه الأشياء ؟ من ؟ الفلاح الروسى الطيب الشهم الذى يعمل ويكد ويجهد ، ثم يدفع الى الدير بالدريهمات التى جنتها يدها المتشققتان ، مهملاً أسرته ناسياً حاجات الدولة ! ألا انكم لتمصون دم الشعب ، أيها الآباء الميجلون !

قال الأب جوزيف :

— عيب ما تقول •

أما الأب بائسى فقد أصرّ على الصمت فى عناد • وأسرع ميوسوف يخرج من الغرفة ، وتبعه كالجانوف •

قال فيدور بافلوفتش :

- انتى أترككم أيها الآباء الطيبون ، تماما كما فعل بطرس
الكسندروفتش ! ولن أجيء بعد اليوم الى هنا ، فلو تضرعتم الى جاتين
على ركبكم ما عدت قط ! لقد أهديت اليكم ألف روبل ، فأيقظ هذا
شهوتكم وأسأل لعابكم ، أليس كذلك ؟ انكم تحاولون أن تكونوا لطافا
... ها ها ... لا جدوى من هذا ... لن أعطيكم بعد الآن شيئاً .

ثم صاح وهو يضرب المائدة بقبضة يده ، وقد عصفت به سورة
عنف مقصود :

- لشبابى انما أنتقم الآن ... ان هذا الدير قد لعب فى حياتى
دوراً ... جعلنى أسكب سيولاً من دموع مرة ! أهجم على زوجتى
الكليوكوشا • أثقمتونى باللعنات فى جميع معابدكم ، وأسأتتم الى سمعتى
فى المنطقة كلها ! كفى كفى أيها الرهبان ! انسا نعيش فى عصر لبرالى ،
اننا نعيش فى عصر سفن البخار وسكك الحديد • لن أعطيكم لا ألف
روبل ولا مائة روبل ، ولا مائة كوبك ... لن أعطيكم شيئاً البتة •

ملاحظة أخرى : ان الدير لم يحتل فى حياته مكاناً فى يوم من
الأيام ، ولا جعله يسكب دموعاً مرة • ولكن الرجل قد بلغ من اندفاعه
فى التمثيل أنه أوشك أن يصدّق هو نفسه ، خلال لحظة قصيرة ، الألم
الذى كان يتظاهر به ، حتى لقد كاد يبكى اشفاقاً على نفسه مما عاناه من
هذا الألم المزعوم • ومع ذلك أحس فى تلك اللحظة أنه قد آن له أن
يتوقف •

أما كبير الرهبان فانه لم يردّ على أكاذيبه الخبيثة التى نطق بها
الا بأن انحنى برأسه انحناء خفيفة ، وقال بصوت رصين :

- لقد قيل أيضاً : «افرح للاهانة الظالمة التى تلحق بك على رعوس

الأشهاد ، دون أن تضطرب ، ودون أن تغضب ممن أهانك ، و ذلك ما سنفعله •

— ته ته ته ••• سفاسف وترهات ! لكم ما تشاءون أيها الآباء الطيبون ! ••• أما أنا فذاهب • وسأخذ ابني من هذا المكان الى الأبد ، بحكم ما لى عليه من سلطة الأب على ابنه • يا ايفان فيدوروفتش ، يا بنى المطيع ، هلاًّ تحملت أن أمرك بأن تبغنى • وأنت يا فون سون ، ليس لك ما تفعله هنا أنت أيضاً ! تعال الىّ بالمدينة فى غير ابطاء ! ان المرء ليتسلى هناك ويروّح عن نفسه • وليست المسافة بعيدة • هى فرسخ صغير • وسأطعمك خنزيراً صغيراً بالبرغل ينسيك مطبخ الدير • سوف تتغذى عندى • وسيكون على المائدة كونيك وخمور شتى • عندى خمرة رائعة من فاكهة التوت • هيه ! فون سون ! لا تفوّت هذه الفرصة ، والا كنت تجهل سعادتك !

قال ذلك وخرج وهو يصرخ محرّكاً يديه • وفى تلك اللحظة انما لمح راكيتين منصرفاً ، ودلّ عليه أليوشا •
فلما رأى الأب ابنه صاح يقول له من بعيد :

— ألكسى ! عد الى البيت فى هذا اليوم نفسه ••• عد الى البيت نهائياً ••• خذ وسادتك وفراشك ، ولتعب عن هذا المكان الى الأبد ، فما يراك أحد فيه بعد اليوم !

توقف أليوشا مذهولاً ، ينظر الى المشهد بانتباه أخرس • كان فيدور بافلوفتش قد اتخذ مكانه فى عربته ، وكان ايفان فيدوروفتش يتهباً لأن يتبعه مظلم الوجه صامتا ، حتى دون أن يلتفت الى وراء ليودّع أليوشا • وفى تلك اللحظة انما وقع مشهد جديد لا يتصوره العقل ، مشهد تهريجى عجيب ، كان لا بد أن يختم آخر ذلك النهار • ان

المالك ماكسيموف قد ظهر فجأة أمام مصعد العربى • كان يلهث لهائناً شديداً بعد أن ركض ركضاً سريعاً حتى لا يصل متأخراً • كان راكبتين وأليوشا قد رأياه يندفع راكضاً • وقد بلغ من شدة التعجل أنه وضع قدمه على مصعد العربى بينما كانت قدم ايفان فيدوروفتش ما تزال عليها ، وتمسك بهيكل العربى وأخذ يبذل جهوداً كبيرة ليثب الى داخلها •

صاح يقول بصوت نحييل وهو يقفز الى العربى ويطلق ضحكة صغيرة فرحة ، وقد أشرق وجهه وبدأ عليه أنه مستعد لكل شىء :

– جئت ، جئت معكم •

فهتف فيدور بافلوفتش يقول بلهجة المنتصر :

– ألم أقل انه فون سون ؟ انه فون سون الأصيلى رجع من عند الأموات ! ماذا فعلت حتى خرجت من هناك ؟ بأى واجب من واجبات الأدب أخللت ، وما الذى دعاك الى العدول عن غدايتهم ؟ لا بد أن لك جبهة من تلك الجباه الفولاذية ! ان لى جبهة أنا أيضاً ، ولكن لا يسعنى أيها الأخ الا أن أعجب بجبهتك ! هيّا اقفز ، اقفز بسرعة ! دع له أن يمر يا فانيا * ... سيكون هذا مضحكاً ... سوف يجد مكاناً بين أقدامنا. أليس يريحك أن تقعد بين أقدامنا يا فون سون ؟ أم الأفضل أن يجلس على المقعد بجانب الحوذى ؟ اقفز الى المقعد بجانب الحوذى يا فون سون ! ...

ولكن ايفان فيدوروفتش الذى كان قد استقر فى العربى ، لم يلبث أن أرسل الى صدر ماكسيموف ضربة قوية دون أن ينطق بكلمة واحدة ، فاذا بمكسيموف يطير مسافة ثلاثة أمتار ! وكانت معجزة أنه لم يسقط • وصرخ ايفان فيدوروفتش يأمر الحوذى بصوت غاضب :

– امش !

فسأله فيدور بافلوفتش :

- ما بك ؟ لماذا ضربته ؟

ولكن العربة كانت قد سارت • ولم يجب ايفان فيدوروفتش •

أردف فيدور بافلوفتش يقول بعد دقيقتين من صمت ، وهو يختلس النظر الى ابنه :

- عجيب أمرك ! انت الذى تخيلت هذه الزيارة للدير ، ودفعتنى اليها ، وشجعتنى عليها ، فما لى أراك الآن غاضبا ؟

فقاطعه ايفان فيدوروفتش يقول بصوت قاس :

- كفَّ عن قول هذه السخافات ! آوِّلى بك الآن أن ترتاح !

وصمت فيدور بافلوفتش من جديد ، دقيقتين ، ثم قال فى تفخيم :

- قليل من الكونياك لن يضر الآن •••

ولكن ايفان فيدوروفتش لم يستجب •

قال الأب :

- ستشرب معى قليلا من الكونياك فى المنزل •

وظل ايفان فيدوروفتش صامتا •

فأردف فيدور بافلوفتش يقول :

- أما أليوشا فسأخرجه من الدير مع ذلك ، رغم أن اخراجه قد

لا يرضيك كثيرا أيها الابن المطيع جدا ، كارل فون مور •

ولم يزد جواب ايفان فيدوروفتش على أن هز كتفيه احتقارا • ثم

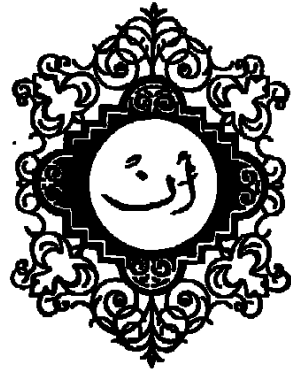
أشاح بوجهه ، وأخذ يتأمل الطريق • ولم يتبادلا بعد ذلك كلمة واحدة

الى أن بلغا المنزل •

الباب الثالث: الشهران يور

١

في الفسحة



منزل بافلوفتش ، رغم أنه بعيد جدا عن وسط المدينة ، لم يكن مع ذلك في أقصى الضاحية • هو مبنى أميل الى القدم ، لكنه حسن المظهر : طابق أرضي واحد ، رمادي اللون ، يغطيه سقف من صفيح أحمر ؛ قد أحسن بناؤه جدا ، ففي امكانه أن يصمد لأذى الزمن طويلا ؛ مريح واسع ، يضم حجرات مظلمة متعددة ، وأركانها منعزلة كثيرة ، وسلالم صغيرة تباغتك هنا وهناك ؛ الفشان فيه كثيرة ، ولكن فيدور لا يقلقه وجودها ، حتى لقد كان يقول : « ان المرء لا يحس بالعزلة كثيرا في المساء ، اذا كان هنالك فشان • • ذلك أنه قد تعود عند هبوط المساء أن يصرف خدمه الذين يسكنون في مبنى ملحق ، فيحبس نفسه بالمنزل طول الليل • وكان ذلك المبنى الملحق ، وهو مبنى واسع متين ، يقع في الفناء ، وهناك انما كان فيدور بافلوفتش قد أقام مطبخه • صحيح أن المبنى الرئيسي كان يضم مطبخا ، غير أن فيدور بافلوفتش كان يمقت الروائح الكريهة ، فكان يوثى اليه بطعامه من المبنى الملحق عبر الفناء شتاء وصيفا على السواء • ويمكن أن نقول على وجه العموم ان هذا المنزل قد تصوره بانيه على أساس أن يضم أسرة كبيرة العدد ، وكان يمكن أن يسكنه عدد من السادة والخدم

يساوي خمسة أضعاف العدد الذي يقيم فيه منهم الآن . ومع ذلك لم يكن يقطنه في الآونة التي جرت فيها حوادث هذه القصة الا فيدور بافلوفتش وايفان فيدوروفتش ، ولم يكن الخدم الذين يعيشون فيه الا ثلاثة : جريجورى العجوز ، وامرأته العجوز مارفا ، والخدام سميردياكوف ، وهو رجل ما يزال شابا . يحسن أن نذكر هنا بعض التفاصيل عن هؤلاء الخدم الثلاثة . الحق أنه ليس هناك أشياء كثيرة نضيفها الى ما سبق أن قلناه عن جريجورى فاسيلفتش كوتوزوف الذى أسلفنا الكلام عليه قبل الآن بما فيه الكفاية . انه رجل صلب العزيمة متشدد الرأى ، يمضى الى هدفه فى عناد متى بدا له هذا الهدف حقيقة راسخة لا سبيل الا جحودها (وذلك لأسباب كثيرا ما تدهشك قلة المنطق فيها) . وفى وسعنا أن نقول عنه انه رجل شريف عفيف نزيه . لقد ألححت عليه امرأته مارفا اجناتفنا ، رغم أنها كانت طوال حياتها خاضعة لارادة زوجها خضوعا أعمى ، ألححت عليه الحاحاً قوياً ، ولا سيما غداة تحرير الأتقان ، أن يترك فيدور بافلوفتش فيسافر الى موسكو فيفتتح هناك تجارة صغيرة (فلقد كانا يملكان شيئاً من مال ادخراه) . ولكن جريجورى أيقن عندئذ يقينا نهائياً أن امرأته تقوده الى الخطأ والضلال ، لأن « كل امرأة ناقصة العقل » ، وأضاف الى ذلك قوله انه لا يليق بهما أن يتركا مولاهما القديم ، مهما تكن عيوبه « لأن ذلك هو الواجب الذى يقع على عاتقهما الآن » . وسأل الرجل زوجته مارفا قائلاً :

— هل تفهمين أن هنالك واجبا لا يجوز التخلي عنه ؟

فأجابته مارفا تقول جازمة :

— أنا أعرف ما معنى الواجب ، ولكننى لا أفهم أبدا ما هو الواجب

الذى يلزمنا بالبقاء هنا .

فقال لها :

- سيان أن تفهمي وأن لا تفهمي • وعليك بعد الآن أن تسكتي !
وكذلك كان • بقي جريجورى ومارفا • ولقد حدّد لهما فيدور
بافلوفتش أجراً ليس بالأجر المرتفع طبعاً ، ولكنه كان يدفع لهما هذا
الأجر فى مواعيده بغير تأخير • وكان جريجورى يشعر من جهة أخرى
أن له على مولاه نفوذا لا يُنكر • كان جريجورى يحس ذلك ، وكان
على حق فى احساسه هذا : ان فيدور بافلوفتش المهرّج ، الماكر ، العنيد ،
الذى يعرف كيف يكون صلباً فى « بعض شئون الحياة » على حد تعبيره ،
كان ضعيفاً الى أقصى درجات الضعف فى « شئون أخرى من شئون
الحياة » • وكان يعرف أنواع ضعفه ، وكان لمعرفته بنا محاصراً بمخاوف
شئى • كان يرى أن على المرء « فى بعض شئون الحياة » أن تكون أذناه
دائماً بالمرصاد ، وأن يستطيع الاعتماد على شخص موثوق تصبح
الحياة بدونيه صعبة جداً • وكان جريجورى شخصاً موثقاً حقاً حتى لقد
اتفق ليفدور بافلوفتش مرارا (أثناء حياته) أن أوشك أن يضرب ، وأن
يُضرب ضرباً مبرحاً يلحق به أذى شديداً ، ولكن جريجورى كان
ينقذه دائماً من المأزق ، مع ازجاء النصيح له بخطاب طويل وموعظة
مستفيضة بعد كل مغامرة من تلك المغامرات • على أن الخوف من الضرب
ما كان له أن يكفى وحده لافقاد فيدور بافلوفتش شجاعته فى بعض
الأحيان • ان هناك ظروفاً أخطر من ذلك كثيراً ، وان هناك ضرباً من
القلق أشد ، وان هناك حالات نفسية دقيقة معقدة كان فيدور بافلوفتش
يعانيها دون أن يستطيع تفسيرها هو نفسه ، هى حاجة مفاجئة قوية صارمة
عارمة الى الاحساس بأن الى جانبه شخصاً قريباً منه مخلصاً له • تلك
لحظات يمر بها فيدور بافلوفتش وتشبه أن تكون مرضاً : انه وهو الفاجر
العاهر الى أقصى حدود الفجور والعهر ، انه وهو الرجل القاسى فى

شهوانيته قسوة حشرة رهيبة ، كان يحس في بعض لحظات من السكر بنوع من خوف سرى وتضعض نفسى يرهقانه جسمياً ان صح التعبير ، حتى لقد كان يصف ذلك أحيانا بقوله : « يبدو لى فى تلك اللحظات أن روحى تندفع خارجةً من أحشائى » • ففى تلك اللحظات انما كان يجب أن يوجد على مقربة منه ، فى المبنى الملحق على الأقل ، ان لم يكن فى غرفته نفسها ، رجل موثوق أمين مخلص ، رجل يختلف عنه كل الاختلاف ، رجل ليس فيه من الفجور والمهر شيء ، لكنه رغم معرفته بأنواع استهتاره ورغم اطلاعه على أسراره ، يفرها له من باب الاخلاص ولا يعارضه فيها ، ولا يلومه عليها خاصةً ، ولا يهدده بعقوبات مقبلة لا فى هذا العالم ولا فى العالم الآخر ••• رجل يمكن أن يحميه عند الحاجة ••• ممّن يحميه ؟ من انسان مجهول ، ولكنه رهيب خطر ••• كان لا بد له حتماً فى مثل تلك الساعات من أن يوجد على مقربة منه كائن « آخر » ، مألوف له معروف عنده منذ زمن طويل ، يمكن أن يعده صديقاً ، حتى يستطيع أن يناديه اليه فى لحظة من كآبة ، وأن يستدعيه لا لشيء الا أن يرى وجهه ، وربما يبادله عندئذ بضع كلمات فى أى موضوع من المواضيع : فاذا أظهر له هذا الرجل شيئاً من لطف وتسامح ولم يؤنبه ولم يقرّعه أصبح حزنه أقل ثقلاً فى قلبه ، واذا تجهّم له وقسا عليه ثقلت كآبته مزيداً من الثقل • حتى لقد كان يتفق لفيدور بافلوفتش (فى النادر القليل على كل حال) أن يذهب الى جريجورى فى المبنى الملحق ، فيوقظه من نومه ليلاً ، ليطلب اليه أن يلحق به • وكان الخادم يجيء عندئذ الى مولاه الذى يأخذ يجرى معه حديثاً تافهاً يدور على تفاصيل لا قيمة لها ولا شأن ، ثم ما يلبث أن يصرفه ؛ ويعود الى سريره فينام فى هذه المرة نوما هادئاً بعد أن أفرغ ما فى جوفه • ولقد مرّ فيدور بافلوفتش بساعات كهذه الساعات عند وصول أليوشا الى منزله •

ان هذا الفتى قد « طعن قلبه » لأنه « يعيش معه ، ويرى كل شيء » ، ثم هو لا يدين شيئاً من الأشياء » • وأكثر من ذلك أن أليوشا قد حمل الى حياة أبيه عنصراً جديداً كل الجدة ، عنصراً لا عهد للأب بمثله من قبل ، هو أن أليوشا لم يحتقره البتة ، حتى لقد حنا عليه وشعر نحوه بعاطفة بسيطة تصدر عنه من تلقاء نفسها بغير افتعال ، دون أن يكون أبوه جديراً بها • ان موقفا كهذا الموقف خليق بأن يثير دهشة العجوز المستهتر الذي كان يعيش بغير أسرة ويركض وراء النساء ويعتز بأنه قليل الاحساس ولا يسعى الا الى خسيس الملذات • ذلك موقف ما كان لهذا العجوز أن يتوقعه • وقد اعترف لنفسه بعد رحيل أليوشا بأنه أدرك في ذاته أشياء لم يشأ أن يقبلها وأن يستلم بها قبل ذلك •

سبق أن ذكرت في مطلع هذه القصة أن جريجورى كان يكره آديلايد ايفانوفنا زوجة فيدور بافلوفتش الأولى ، أم ابنه دمترى ؛ وأنه فى مقابل ذلك قد تعلق بزوجة فيدور بافلوفتش الثانية ، صوفيا ايفانوفنا الكليكوشا ، وأنه تحيّر لها ضد كل من يمكن أن تسوّل له نفسه أن يقول فى حقها كلمة سوء ، عن خبث أو عن طيش • وقد استحالت هذه المودة التى محضها تلك المرأة ، استحالت فى نفسه مع الزمن الى عاطفة مقدسة بلغت من القوة أنه أصبح حتى بعد انقضاء عشرين عاما على موتها لا يطيق أن يسمع من أى انسان ، كائناً من كان ، أية اشارة تسيء الى المتوفاة ، فلو فعل أحد ذلك أمامه لهب يهاجم من هاجمها على الفور • وكان جريجورى فى مظهره رجلاً هادئاً وقوراً رصيناً ، وكان قليل الكلام ، فاذا تكلم تكلم عن دراية ، شاعراً بوزن كل لفظ من ألفاظه ، لا يلقى الحديث على عواهنه ، ولا يقول قولاً خفيفاً ولا ينطق بكلمة لاداعى اليها ولا يحل لها • وكان يستحيل عليك أن تعرف من النظرة الأولى أهو يحب امرأته الخاضعة الطبيعة أم هو لا يحبها • ولكن الحقيقة هى أنه

كان يحبها ، وكانت هي لا تجهل ذلك • ولم تكن مارفا اجناتنا هذه بالمرأة الغبية ، ولعلها كانت تملك من الذكاء أكثر مما كان يملك منه زوجها ، ولقد كانت على كل حال أصدق منه حكما وأصوب منه رأيا في شئون الحياة العملية • ومع ذلك خضعت له منذ أن تزوجا ، فلم تجدد سلطته عليها ، وكانت تحترم احتراماً أعمى ما كان ينعم به من تفوق أخلاقي • يجب أن نذكر أنهما كانا ، طوال حياتهما ، قلما يتبادلان الكلام ، فاذا اتفق أن دار بينهما حديث جرى الحديث على المسائل التي لا مهرب منها من مسائل الحياة الجارية • لقد تعود جريجورى الوقور الرصين المهيب أن يفكر في أموره وحده ، فكان لا يفضي الى أحد بمشاغله ولا يشرك أحدا في همومه ، وقد بلغ من هذا أن امرأته أدركت نهائيا أنه في غير حاجة الى نصائحها • وكانت تحس أن زوجها يقدر لها صمتها ، وأنه يرى فيه دليلا على ذكائها • ولم يضربها زوجها في حياته الا مرة واحدة - وكان ضرباً خفيفاً على كل حال • واليكم كيف حدث هذا : أثناء السنة الأولى من زواج فيدور بافلوفتس بأديلايد ايفانوفنا ، فان نساء القرية وبناتها ، ولم يكن قد تحررن من القنانة في ذلك العهد ، اجتمعن ذات يوم في فناء منزل السادة يغنين ويرقصن ، بينما كانت الفلاحات تغنى أغنية « فى المروج » ، اذا بمارفا اجناتنا التي كانت ما تزال فى ميعة الصبا وريعان الشباب ، اذا بها تندفع فجأة الى أمام جوقة المغنيات ، فتأخذ ترقص رقصاً خاصاً ليس هو الرقص الذى تعودت الفلاحات أن ترقصه ، وانما هو الرقص الذى تعلمته أيام كانت ما تزال تعمل خادماً فى منزل أسرة ميوسوف الثرية ، فكانت ترقص على المسرح الذى أقامته تلك الأسرة فى أملاكها والذى استدعت له من موسكو أستاذ باليه يعلم ممثلاته الرقص • رأى جريجورى زوجته تندفع فى ذلك اللهو فرحة كل الفرح ، فما ان عادا الى البيت بعد ساعة حتى أدبها التأديب

الذى تستحقه وهو يشدها من شعرها • تلك هي المرة الوحيدة التي ضرب فيها جريجورى امرأته ، ثم لم يتجدد شيء من هذا في حياتهما بعد ذلك • ثم ان مارفا اجناتفنا قد تابت منذ ذلك اليوم عن حبها هذا للرقص وميلها اليه •

لم يهب الرب للزوجين أولادا ، الا واحدا لم يعيش طويلا • ومع ذلك كان جريجورى يحب الأطفال ، ولا يخفى هذا الحب ، أى أنه كان يعترف به ويجاهر به فى غير خجسل • فلما هربت آديلاييد ايقانوفنا احتضن الصغير دمترى فيدوروفتش الذى لم يكن قد تجاوز الثالثة من عمره ، قرابة سنة ، يعنى به ويعطف عليه ويحبه ، متوليا بنفسه تمشيط شعره وغسل جسمه ، وتلكم ، على كل حال ، تفاصيل سبق أن أتيت على ذكرها • أما ابنه هو ، فانه لم يذق الا فرحة انتظاره مدة حبلى أمه به • حتى اذا وُلد الطفل امتلأ قلب أبيه هولاً وحزناً • ذلك أن الصبى قد جاء الى هذا العالم بست أصابع فى كل يد • وقد بلغ جريجورى يومئذ من الانصعاق أنه أصر لا على أن يصمت فما ينطق بحرف الى حين التعميد فحسب ، بل أصر على أن ينزوى فى الحديقة طوال تلك المدة ليغرق فى الصمت مزيدا من الاغراق • كان ذلك فى الربيع • وقد قضى الرجل الأيام الثلاثة التى سبقت التعميد ، قضاها يعزق الأرض فى بستان الخضار • فلما حل اليوم الثالث الذى سيحتفل فيه بتعميد الصبى كانت فكرة جريجورى قد اختمرت فى رأسه • فهذا هو يدخل على مسكن الخدم حيث اجتمع القسس والمدعوون ، وحيث جاء فيدور بافلوفتش أخيرا ليكون للصبى عرّابه ، هذا هو يدخل فيقول فجأة : « الأفضل أن لا يُعمدَ الطفل البتة • • » لم يقل ذلك بقوة كبيرة ، ولم يترسل فى كلام لا داعى اليه ، وانما قاله وهو لا يكاد ينطق بألفاظه واضحة ، وقاله وهو يلقي على الكاهن نظرة قائمة عنيدة •

سأله الكاهن مدهوشاً ضاحكاً من كلامه :

— لماذا ؟

فتمتم جريجورى يجيبه :

— لأنه . . . تين !

— ماذا ؟ أى تين ؟

صمت جريجورى بضع لحظات • ثم دمدم يقول مضطرباً أشد الاضطراب ، ولكن وجهه كان يعبر عن الحزم ، وكان واضحاً أنه لا يريد أن يدخل فى شروح أوسع ، دمدم يقول :

— اختلط الأمر على الطبيعة !

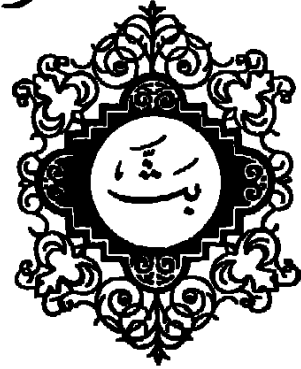
ضحك الحضور ، وتم تعمد الصبى المسكين مع ذلك • صلتى جريجورى بحرارة وخشوع أمام جرن التعميد ، ولكنه لم يغير رأيه فى الوليد • على أنه لم يخلق أية صعوبة بعد ذلك ، وإنما اكتفى ، خلال الأسبوعين اللذين عاشهما الطفل الضعيف الهزيل ، بأن يصر على أن لا يراه ، متظاهراً بأنه يجهل وجوده ، قاضياً أكثر وقته فى خارج مسكنه • ولكن حين مات الصبى بعد أسبوعين بمرض القلاع ، تولى هو نفسه ارقاده فى تابوته الصغير وتأمله طويلاً بحزن شديد • وحين أهملت آخر مجرفة من التراب على الحفرة التى دفن فيها الصبى ، وهى حفرة لم تكن عميقة ، جثا على ركبتيه ، وحيثاً القبر منحنيًا حتى الأرض • ومنذ ذلك اليوم ، خلال سنين طويلة ، لم يجىء جريجورى على ذكر هذا الصبى مرة واحدة ، كما أن مارفا اجناتفنا لم تذكره بحضور زوجها فى يوم من الأيام • فاذا اتفق لها أن تكلمت مع أحسد عن « صغيرها » ، تكلمت هامةً همساً حتى فى غياب جريجورى فاسيلفتش • وفى رأى

مارفا اجناتنا أن هذه الجنازة هي أصل الاهتمامات الدينية التي أصبحت تلاحظ عند جريجورى الذى انصرف منذ ذلك الحين الى دراسة « الأمور الالهية » ، فهو يكب على قراءة كتاب أسماء الشهداء صامتا معتزلا فى كثير من الأحيان ، واضعا على عينيه لهذه المناسبة فى كل مرة نظارته الضخمتين الكبيرتين اللتين لهما اطار من فضة . كان يندر أن يقرأ جريجورى فى هذا الكتاب جهراً ، الا فى أيام الصيام الكبير . وكان يحب أن يقرأ « سفر أيوب » خاصة ، كما استطاع أن يحصل من مكان ما على كتاب يضم أفكار ومواعظ « أينا حبيب الله ، اسحاق السورى » * ، فكان لا ينى يقرأ هذا الكتاب ويعيد قراءته سنين طويلة ، دون أن يفهم منه شيئاً بطبيعة الحال ، ولكن لعل هذا بعينه هو ما كان يجعله يقدّر هذا الكتاب مزيداً من التقدير ويحترمه مزيداً من الاحترام . وقد عنى فى الآونة الأخيرة بأراء ملة الفلاجلان ، فدرس ، من كتب ، هذه الحركة التى التقى ببعض المنضمين اليها فى القرى المجاورة ، فاهتزت نفسه من ذلك اهتزازا واضحا ، ولكنه رأى أن الانضمام الى العقائد الجديدة ليس بالأمر المستحسن . وطبعى أن العكوف على قراءة « الكتب الدينية » قد أضفى على تعبير وجهه مزيداً من الخطورة والرصانة والوقار .

لعل جريجورى كان ميالا الى الصوفية ، وهذا حادث من أغرب ما يمكن أن يقع من حوادث ، حادث لم يكن فى الحساب قط ، يحدث كأنما على عمد ، فى تلك الآونة نفسها التى شهدت ميلاد ابنه ذى الأصابع الست وشهدت موته السريع ؛ وهو حادث خلف فى نفسه ، خلال سنين طويلة بعد وقوعه ، كما رضى أن يعترف هو نفسه بذلك مرة ، خلف فى نفسه « أثراً لا يندرس » وألقى عليها « طابعا لا يندثر » . اليكم ما حدث : فى الليلة التى أعقبت دفن الصبى الصغير ، استيقظت

مارفا اجناتفا فجأة على شعور بأنها تسمع بكاء آتياً من بعيد ، بكاء يشبه بكاء وليد . ذعرت مارفا اجناتفا ، فايقتت زوجها . وأصاخ الرجل بسمعه فقال ان الأصوات التي يسمعا هي أصوات أنين « كأنه أنين امرأة » . ونهض فارتدى ملابسه . هي ليلة حلوة من ليالى شهر أيار (مايو) . خرج جريجورى الى درج المدخل ، فأدرك ادراكا واضحا أن أصوات الشكوى كانت آتية من جهة الحديدية . فدهش واستغرب : ان الحديدية تعلق فى الليل من جهة الفناء بقفل قوى، وليس يمكن الدخول اليها من ممر آخر ، لأنها محاطة بسياج عالٍ قوى . عاد جريجورى الى بيته ، فأشعل سراجا ، وتناول المفتاح واتجه نحو الحديدية دون أن ينطق بكلمة واحدة ، غيرَ عابئ . بدع امرأته الهستري التي أكدت أنها تسمع سماعا واضحا أصوات بكاء طفل وليد ، وأن هذه الأصوات لا يمكن أن تكون الا أصوات ابنهما يبكى فى الحديدية وينادىها هذا النداء . وأدرك جريجورى عندئذ أن أصوات الشكوى آتية من الحمامات المقامة فى الحديدية على مقربة من الباب الحديدى ، وأنها أنات امرأة ما فى ذلك ريب . فلما فتح باب الحمامات جمده فى مكانه دهشة من المنظر الذى رآه : ان معنوه المدينة التي تجوب الشوارع كل يوم والتي يعرفها سكان مدينتنا حق المعرفة - وقد أطلقوا عليها لقب الزابث سمردياستشايًا * - قد تسللت الى الحمامات ، فولدت هنالك ولداً . وكان الصغير راقدا قرب أمه التي تحنصر . لم تنطق المعنوه بكلمة واحدة ، لسبب بسيط ، هو أنها لا تعرف أن تتكلم . يحسن مع ذلك أن نتحدث عن هذه المرأة بمزيد من التفصيل .

اليزابث سمروياستشاييا



هذا الحادث في قلب جريجورى اضطرابا عميقا ،
 وذلك بسبب تفاصيل ذكره هذا الحادث بها ،
 وعزّز في نفسه شبهة أليمة مقزّزة كانت قد
 ساورته من قبل • اليزابث سمردياستشاييا بنت
 قصيرة القامة جدا « لا يزيد طولها كثيرا عن ذراعين » كما أصبح يحلو
 لعجائز النسوة التقيات في مدينتنا بعد موتها أن يقولوا • وكان وجه هذه
 المرأة الشابة التي تبلغ العشرين من العمر معافى عريضا ملونا ، ولكنه
 يفصح عن العته والبلاهة أفصاحا تاما : ان نظرتها جامدة ، وهي نظرة
 تشتمل رغم هدوئها على شيء يؤلم النفس • وكانت تسير حافية القدمين
 منذ ولدت ، في الشتاء وفي الصيف لا يستر جسمها الا قميص من قنب •
 وكان شعرها ، الأسود تقريبا ، الكثيف جدا ، المتجعد كأنه جزائر
 شاة ، يتكوم على رأسها كطاقية ضخمة ؛ وهو على كل حال ملطخ
 دائما ، زاخر بالتراب وأوراق الأشجار والنصينات والأفداء والنشرات ،
 لأنها اعتادت أن تنام على الأرض في الغبار والوحل • وكان أبوها ايليا ،
 وهو رجل من سكان المدينة مسكين مدمر مريض لا مأوى له قد أدمن
 على الشراب ، وأصبح منذ عدة سنين يعيش في دار رجل من أهل مدينتنا

حصل عنده على وظيفة غامضة مبهمة هي وظيفة عامل • أما أم اليزابث فكانت قد ماتت منذ زمن طويل • وكان ايليا ، المريض الممرور الشرس يضرب اليزابث ضربا مبرحا بلا رحمة ولا شفقة اذا هي جاءت الى الدار • على أن اليزابث كانت لا تجيء الى الدار الا نادرا ، لأن جميع سكان المدينة كانوا يحسنون وفادتها من حيث هي امرأة « مجذوبة » يحبها الرب • وقد حاول سادة ايليا ، كما حاول ايليا نفسه أيضا ، وكما حاول عدد كبير من المحسنين في مدينتنا ولا سيما رجال " ونساء ممن يعملون في التجارة ، حاولوا مرارا أن يكسوا اليزابث بما هو أقرب الى الحشمة من قميص القنب وحده ، فكانوا يدثرونها كل عام ، في أوائل أيام البرد ، بمعطف من جلد الخروف ، وكانوا يلبسون قدميها حذاءين • فكانت اليزابث تدع لهم أن يفعلوا بها ذلك طائفة بغير احتجاج ، ولكنها ماتت أن تبعد عنهم ، وتمضى الى مكان ما بالمدينة ، هو فناء الكاتدرائية في أغلب الأحيان ، فتخلع عن جسمها جميع الثياب التي ألبستها - اللقمة والتورة والمعطف والحذاءين - فتدعها هنالك ، ثم تمضى كما كانت ، حافية القدمين لا يستر جسمها الا قميص • وقد حدث مرة أن حاكم اقليمنا الجديد مرَّ بمدينتنا في جولة تفتيشية ، فلما رأى اليزابث هذه صدم منظرها أفضل عواطفه ، ورغم أنه أدرك أن المرأة هي « يوروديفايا » * ، وقد ذكر له ذلك فورا على كل حال ، فقد أصر على أن منظر فتاة شابة تجوب الشوارع بقميص شيء " يؤذى الأخلاق العامة ، وأمر بوضع حد لهذه الفوضى • ولكن الحاكم انصرف من المدينة فلم يهتم أحد بعد انصرافه باليزابث وتركها تعيش كما يحب لها هواها أن تعيش • ومات أبوها أخيرا ، فأصبحت يتيمة لا أب لها ولا أم ، فكان من شأن ذلك أن جعلها أقرب الى قلوب التقاة من سكان مدينتنا وأحب الى نفوسهم ؛ بل يبدو أن جميع الناس كانوا يحبونها حبا صادقا ، حتى الصغار الذين

كانوا يمتنعون عن مشاركتها ويعفون عن تنكدها ، مع أن الأطفال في مدينتنا ، ولا سيما أطفال المدارس ، كانوا فئة عدوانية متحرشة مشاجرة . كانت اليزابث تدخل بيوتا لا تعرفها ، فما يخطر ببال أحد أن يطردها بالعكس : كان كل واحد يسرع الى تدليلها ، ويعطيها قرشا أو قرشين ، فكانت تأخذ هذه الاعطيات الصغيرة من النقود ، ولكنها ماتلت أن تلقيها في صندوق الصدقات بكنيسة من الكنائس أو سجن من السجون . فاذا أعطاها أحد في السوق رغيفا من أرغفة الخبز الطرية الصغيرة التي تسمى « بوبليك » أو « كالاتش » ، لم يفتها أن تهبها لأول طفل تلقاه في طريقها أو هي تستوقف في الشارع سيدة من أغنى سيدات مدينتنا فتعطيها الرغيف ، فتقبله السيدة منها فرحة . كانت لا تريد أن تتغذى الا بخبز أسود وماء . وكانت في بعض الأحيان تدخل دكانا من الدكاكين الحافلة بأجمل المعروضات فتجلس فيه : ان كل شيء في متناول يدها ، البضاعة الثمينة والمال الوفير ، ولكن أصحاب المتاجر لا يخطر بالهم أن يراقبوا لتقتهم بأنها لن تسرق شيئا في يوم من الايام ، ولن تمتد يدها الى كوبك واحد ولو صفت أمامها ألوف الروبلات ثم نسيت . وقلما كانت تُرى في الكنيسة ، ولكن كان يخلو لها أن تقضى ليلالي بأسرها مضطجعة في فناء معبد من المعابد ، حين لا تسلك الى بستان من بستان الخضار من خلال سياج (ما تزال الأسيجة التي تقوم مقام الحواجز كثيرة في منطقتنا) . وكانت تذهب الى الدار - أعنى دار أسياذ أبيها المتوفى - مرة في الاسبوع تقريبا أثناء الصيف ، وفي جميع الأيام أثناء الشتاء ، ولكنها لا تذهب الى هناك الا لقضاء الليل ، فهي تلتو عندئذ في دهليز من الدهاليز أو تقبع في الاسطبل . والناس يستغربون كيف تستطيع اليزابث أن تتحمل هذا النوع من الحياة ، ولكن اليزابث كانت

قد تعودت ذلك ، وهي رغم ضآلة جسمها قوية البنية شديدة الاحتمال •
صحيح أن بعض الأشخاص الذين خصتهم الأقدار في مدينتنا بحظ وافر
من الهناء كانوا يؤكدون أن الزباث انما تتصرف هذا التصرف من باب
الكبر والزهو والخيلاء • ولكن هذا التفسير يصعب على المرء أن يصدقه،
لأن هذه الفتاة كانت لا تعرف حتى الكلام ، فهي لا تزيد على أن تحرك
لسانها من حين الى حين بأصوات مبهمه لا تبين • فهل يمكن الحديث
بصددها عن كبر أو زهو أو خيلاء؟

ففي ذات ليلة من ليالى شهر ايلول (وقد حدث هذا منذ زمان بعيد
جدا) ، ليلة مضيئة دافئة يغمرها القمر البدر بنوره ، كانت عصبة فرحة
مرحة من اللاهين العابثين من أصحاب اليسار في مدينتنا عائدة من النادي
بعد افراط في الشراب والطعام ، فهي تعود قاطعة أفنية الدور وبساتين
المنازل • كان الوقت ساعة متأخرة من الليل بالنسبة الى عاداتنا ، وكانت
العصبة خمسة رفاق أو ستة • ان الشارع الصغير الذى يجتازونه الآن
محفوف بسياج من كل جهة ، ووراء السياج تمتد بساتين لخضار في
المنازل المطلة على الشارع ، والشارع يفضى الى الجسور الضيقة الممدودة
عرضاً على غديرنا الطويل الأسن الذى اعتاد الناس أن يسموه في بعض
الأحيان نهرا • وان العصبة لتسير اذا هي تلمح الزباث على حين فجأة
نائمة قرب السياج بين نباتات القرّاص والأرقيطون • توقف العابثون
القاصفون يضحكون لهذا المشهد في فهقهة مجلجلة مدوية ، وأخذوا
يطلقون الأمازيح البذيئة في غير حياء • وفجأة خطرت ببال أحد أبناء
الأسر فكرة عجيبة هي أن يطرح سؤالاً من طبيعة خاصة جدا فقال :
« هل يمكن أى انسان أن يرى في هذه البهيمة امرأة ، في هذه اللحظة
نفسها مثلا ؟ النح • فضج الجميع يظهرن اشمئزازا متكبيرا ونفورا
مستعليا ، مؤكدين أن ذلك غير وارد • ولكن فيدور بافلوفتش الذى كان

أحد أفراد العصابة تقدم فورا فقال : « بالعكس : ذلك شيء يمكن فعله جدا ، وان في وسع المرء تماما أن يعد هذه المخلوقة امرأة ، بل وان ذلك قد يكون فيه كثير من الاتارة اللذيذة ، الخ الخ . . . » . يجب أن نذكر أن فيدور بافلوفتش كان في ذلك الأوان يغالى في ابراز دور المهرج الذى يمثله ، ويسعى الى انتهاز جميع المناسبات التى يتاح له فيها أن يلعب نجمه فى هذا المجال وأن يسلّى رفاقه وأن يضحكهم ، على قدم المساواة بينه وبينهم فى الظاهر ولكن بروح البودية الدنيئة لهم فى حقيقة الأمر . وقد حدث هذا فى الآونة التى كان قد تلقى فيها من سان بطرسبرج نبأ وفاة امرأته آديلايد ايفانوفنا ، فكان وقد وشح قبته بشريط أسود يسترسل فى السكر ويرتكب من الأعمال الفاجرة ما كان يثير الاشمزاز ويبعث الاحساس بالفضيحة فى نفوس كثير من الناس ، حتى أشدهم انحلالا وأكثرهم دعارة . طفقت العصابة الفرحة تضحك طبا لهذا التصريح الذى لم يكن فى الحسبان . وقد مضى أحد العابثين الى حد تشجيع فيدور بافلوفتش على أن يفعل ، ولكن الآخرين أكدوا اشمزازهم بقوة متزايدة ، وان فعلوا ذلك بمرح ما ينفك يشدد قوة . وأخيرا تابع الجميع طريقهم . وقد حلف فيدور بافلوفتش فيما بعد أنه انصرف مع رفاقه فى وقت واحد . وقد يكون ما قاله صحيحا ، فان أحدا لم يعرف حقيقة الامر ، لا ولن يعرفها أحد يوما على وجه اليقين . غير أن ما حدث هو أن المدينة كلها أصبحت بعد خمسة أشهر أو ستة لا تتحدث الا عن اليزابث التى صار واضحا أنها حبلى ، وأن المدينة تتحدث عن هذا الأمر باستياء صادق واستنكار عميق ، وأن السؤال الذى تلقىه جميع الشفاه هو هذا السؤال : « من الآثم ؟ من الجانى ؟ » . وفى تلك اللحظة انما انتشرت فى مدينتنا شائعة رهية تقول ان الآثم ليس الا فيدور بافلوفتش نفسه . فكيف ولدت هذه الشائعة ؟ ان العصابة

الفرحة التي كانت عائدة من النادي في تلك الليلة من ليالى شهر ايلول، لم يبق منها في مدينتنا الا واحد هو رجل مسن ، محترم جدا ، برتبة مستشار دولة ، متزوج وله ابنتان كبيرتان • ومن المحقق تماما أنه لم يقصص شيئا ، حتى ولو كان يعرف شيئا • أما اللاهون الآخرون ، وعددهم خمسة تقريبا ، فكانوا قد بارحوا مدينتنا أثناء تلك المدة • ومع ذلك كانت الشائعة تنصب على فيدور بافلوفتش وتتهمه انها ملحا عنيدا • والحق أن فيدور بافلوفتش قد استاء من الامر • ولو قد سئل فيه يومئذ لامتنع عن الرد على هؤلاء العامة من الباعة وعلى أولئك الصغار من سكان المدينة • لقد أصبح فيدور بافلوفتش في ذلك الوقت متكبرا ، فهو لا يصاحب الا أنداده ، لا يصاحب الا الموظفين والسادة الذين كان يحلو له كثيرا أن يسليهم ويضحكهم • ولقد تحيز جريجورى لمولاه ، ودافع عنه بقوة واقتناع ، وهاجم تلك الأقاويل الكاذبة بكل ما أوتى من قوة ؛ حتى لقد طفق يشتم الواشين ويهينهم ؛ كما أنه اندفع يقيم الأدلة الطويلة ويدلى بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة ، بحيث أن عددا كبيرا من الأشخاص تبذرت شكوكهم وزايلتهم شبهاتهم • كان جريجورى يؤكد قائلا بلمهجة جازمة : « ان هذه البنت السيئة هي وحدها مسئولة ، وان الجانى لا يمكن أن يكون أحدا غير قاطع الطريق كارب » • (بهذا الاسم كان يسمى مجرم خطر معروف جدا عندنا ، هرب في تلك الآونة من سجن الاقليم ، واختبأ في مدينتنا) • لقد بدا هذا الافتراض مقبولا ، لأن الناس يتذكرون مغامرات كارب هذا ، ولم ينسوا أنه في تلك الليلة نفسها من ليالى شهر ايلول قد حام في شوارع المدينة وسطا على ثلاثة مارةٍ فنهبهم • على أن هذا الحادث وما أثاره من ثمرات كثيرة لم يحرم اليورودينايا المسكينة من عطف الناس عليها • بالعكس : أصبح الجميع منذ ذلك الحين يهتمون بها مزيدا من الاهتمام ويرعونها مزيدا

من الرعاية ويعملون على حمايتها قصاراهم . حتى أن التاجرة كوندرا تيفا وهي أرملة ثرية جدا ، قد قررت في نهاية شهر نيسان (أبريل) أن تضم الشقية الى منزلها وأن تحتفظ بها عندها الى أن تضع طفلها . وقد روقت اليزابث بيقظة شديدة ، ولكنها رغم هذه المراقبة اليقظة المستمرة استطاعت في آخر يوم أن تهرب مع المساء من عند السيدة كوندرا تيفا لتلوذ بحديقة فيدور بافلوفتش . أما كيف استطاعت وهي في حالتها تلك أن تجتاز الحاجز العالي المتين ، فتلك مسألة ظلت بغير حل الى حد ما . فبعضهم يزعم أن هناك « أناسا » نقلوها الى هناك نقلا ، وبعضهم يذهب الى أن « قوى خفية سرية » قد أعانتها على اجتياز الحاجز . وأغلب الظن أن الامر قد تم على نحو طبيعي تماما ، ولو بمهارة عظيمة : ان اليزابث ، الماهرة في تسلق الأسيجة للتسلل الى بساتين الخضار ، لا بد أنها تسلقت سور حديقة فيدور بافلوفتش ، ثم قفزت الى الحديقة رغم حملها ، فأذت نفسها بذلك طبعاً .

هرع جريجورى الى مارفا اجناتفنا فكلفها بأن تمضى الى اليزابث لتغنى بها ، بينما ذهب هو يبحث عن قابلة عجوز تسكن من حسن الحظ في قرية قريبة من المدينة . ولقد أمكن انقاذ الطفل . أما الأم فقد فاضت روحها عند الفجر .

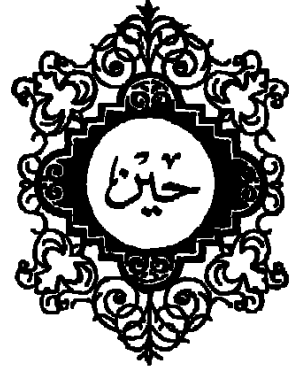
وأخذ جريجورى الطفل فحمله الى مسكنه ، وأجلس مارفا فوضع الوليد على ركبتيها وأسنده الى صدرها ، وقال لها : « ان اليتيم ابن الله ، فهو قريب جميع البشر ، وهذا يصدق علينا نحن الاثنين أكثر مما يصدق على غيرنا . ان صغيرنا الميت هو الذى أرسله لنا ! ان هذا الطفل قد ولد من أم سالحة وشيطان رجيم ، فأطعميه ، ولا تبكى بعد الآن . » . هكذا تولت مارفا اجناتفنا تربية الصغير . وقد عمّد وسمّى بافل ، أما الاسم الأبوى الذى كان يجب أن يسمى به فقد تم الاجماع بغير كلام

وبغير شرح أو تعليل أو تفسير ، على أن يكون اسم « فيدوروفتش » •
 ولم يعترض فيدور بافلوفتش أى اعتراض على ذلك ، حتى لقد وجد
 الأمر داعياً الى الضحك جداً ، ولكنه ظل فيما عدا ذلك ينكر انكاراً قاطعاً
 أنه هو الفاعل • وتخيّل فيدور بافلوفتش فيما بعد أن يسمى الصبى
 باسم أسرة ، فأسماء سمردياكوف مشتقا ذلك من لقب أمه ، اليزابث
 سمردياستشاييا •

ان سمردياكوف هذا هو الذى أصبح فيما بعد الخادم الثانى لفيدور
 بافلوفتش ، وكان يعيش فى بداية هذه القصة بالمبنى الملحق الذى يقيم
 فيه العجوزان جريجورى ومارفا • وقد جعل سمردياكوف طباًخاً •

قد يكون ضرورياً أن أتحدث عن سمردياكوف هذا بمزيد من
 الأفاضة ، ولكننى أشعر بوخز فى ضميرى اذا أنا صرفت انتباه القراء مدةً
 طويلة الى الحديث عن خدم مبتذلين ، فهأنذا أعود اذن الى سرد قصتى ،
 آملاً أن تعرض لى من تلقاء نفسها فرصة الكلام مرة أخرى عن
 سمردياكوف فى باقى الرواية •

اعتراف قلب حمد سعداً



تلقى ألبوشا الأمر الذي أصدره إليه أبوه صائحاً من عربته عند مغادرته الدير ، لبث جامداً في مكانه مدة من الوقت وقد استبدت به حيرة شديدة • على أن ألبوشا لم يكن جامداً كتمثال ، ذلك أنه لا يفقد أبداً ما يتصف به من حضور الذهن وسرعة البديهة • حتى لقد اتسع وقته ، رغم الخواطر التي هزّت نفسه وبثت فيها الاضطراب ، لأن ينزل الى مطبخ كبير الرهبان فيسأل عما قام به أبوه من أعمال في غرفة الطعام • ثم مضى في طريقه الى المدينة آملاً أن يهتدى أثناء الطريق الى جواب عن الأسئلة التي كانت تدور في رأسه وتعذبه وتقلقه • ويجب أن أذكر فوراً أن الأقوال التي صاح بها أبوه والأمر الذي أصدره إليه بالعودة الى المنزل « مع وسادته وفراشه » ، أن ذلك كله لم يوقف في نفس ألبوشا شيئاً من خوفه • فهو يدرك حق الإدراك أن هذا الأمر بالعودة الى المنزل ، الذي ألقاه إليه أبوه بذلك الصوت القوي وتلك الطريقة الجازمة ، إنما هو ثمرة « اندفاع » عابر ، بل هو نتيجة رغبته في الاخراج التمثيلي والتزيين المسرحي ••• وقد ذكره هذا بما حدث في مدينتنا منذ زمن قصير ، حين احتفل أحد سكانها بعيد ميلاده ، فلما

أسرف في الشراب أكثر مما اعتاد أن يسرف ، غضب علي حين فجأة غضبا شديدا واندفع اندفاعا رهيبا ، وذلك في منزله نفسه وبحضور ضيوفه ، لأنه مُنح من أن يصب له مزيد من الفودكا ، فاذا هو يأخذ يكسر الأطباق ويمزق ثيابه وثياب امرأته ، ويحطم الأثاث ، ثم انتهى الأمر الى أن أخذ يهشم زجاج النوافذ ، كل ذلك في سبيل حسن الاخراج وجمال التأثير . . . فلا شك أن أباه حين ألقى إليه أمره كان يقوم بعمل من هذا النوع . ذلك ما حدث به أليوشا نفسه . وقد تاب الرجل الذي احتفل بعيد ميلاده ، تاب الى رشده منذ الغد ، وبكى طبعا على أطباقه وصحونه وأوانيهِ التي تحطمت . كان أليوشا يعلم اذن أن أباه سيأذن له في الغد أن يرجع الى الدير ، وربما أذن له بذلك قبل نهاية هذا النهار نفسه . ولقد كان واثقا على كل حال من أن أباه لن يحب يوما أن يحزنه ، أن يحزنه هو على الأقل ! ثم انه ليس هناك أحد - كان أليوشا مقتنعا بذلك - ليس هناك أحد في العالم يمكن أن يريد أن يحزنه ، وما من أحد يمكن أن يبلغ منه ذلك ولو أراد . تلك عند أليوشا بديهية واضحة وحقيقة ثابتة لا تقبل نقاشا . لذلك سار قدماً لا يتردد ولا يلوى على شيء .

أما الخوف الذي كان يساوره في تلك اللحظة فهو خوف من نوع خاص يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، خوف يثقل على نفسه خاصة لأنه لا يستطيع أن يستبين طبيعته وأن يجلو كنهه واضحا : انه خوف من المرأة ، بل هو خوف من امرأة بعينها هي كاترين ايفانوفنا تلك التي توصلت اليه بكثير من الالاحاح ، في البطاقة التي أرسلتها اليه مع السيدة هوخلاكوفا منذ بضع ساعات ، أن يجيء اليها ، دون أن تشير الى الهدف من هذه الزيارة التي تلح في طلبها . ان رجاءها ذاك ، واضطراره الى تلبية هذا الرجاء اضطرارا لا فكك منه ولا مجيد عنه ، ان ذلك كله قد

ملاً نفسه منذ البداية بضيق غامض وهمٍ مبهم ، وجعله يشعر بنوع من خوف يمدّبه وما ينفك يتفاقم طوال ذلك الصباح شيئاً بعد شيء حتى غداً المأى واخزاً كاوياً لا يطاق ، دون أن تستطيع كبتة الأحداث التي تعاقبت بعد ذلك فى الدير ، والمشاهد والوقائع التي تلاحقت فى حجرة الشيخ وفى مسكن كبير الرهبان . وليس مرد هذا القلق الى أنه يجهل ماستقوله له هذه المرأة ، وما سيحييها به . فليست المرأة بوجه عام هى ما كان يخشاه فيها ويخافه منها ، فانه وان تكن معرفته بالنساء قليلة ولا شك ، قد عاش طول الوقت فى صحبة النساء وحدهن تقريبا ، منذ طفولته الأولى الى حين دخوله الدير . وانما هو خائف من هذه المرأة بعينها ، من كاترين ايفانوفنا بذاتها ، ولقد خاف منها منذ اللحظة الأولى التي رآها فيها ؟ وهو مع ذلك لم يلقها الا مرة أو مرتين - وربما ثلاثا - وبادلها بضع كلمات عرضاً فى مناسبة من المناسبات . ان الصورة التي بقيت فى خياله منها هى صورة فتاة بارعة الجمال ، شديدة الكبرياء ، قوية السطوة . ومع ذلك فليس جمالها هو ما كان يعذبه ، وانما كان يعذبه شيء آخر لم يستطع له تعليلاً ، فكان جهله هذا يفاقم عذابه مزيداً من المقاومة فى تلك الساعة . لا شك أن هذه الفتاة تسعى الى أنبل الأهداف . ذلك أمر يعرفه : انها تحاول انقاذ أخيه دمترى الذى أذنب فى حقها ، وهى لا ترغب فى ذلك ولا تتمناد الا شهامة منها وأريحية . ولكن أليوشا رغم ما فى هذه العواطف من نقاء ورفعة لا يملك الا أن يمجدهما ولا يملك الا أن ينصفهما ، لم يستطع أن يتغلب على الضيق الذى كان يغزو نفسه ويثقل على صدره كلما ازداد اقتراباً من منزل الفتاة .

وقدّر أليوشا أن أخاه ايفان الذى توثقت الصداقة الحميمة بينه وبين كاترين ايفانوفنا ، قد لا يكون الآن عندها ، لأنه لا بد أن يكون مع أبيه . أما دمترى فان أليوشا أكبر ثقة بأنه لن يلقاه عندها أيضاً ، وهو

يوجس سبب ذلك . معنى هذا أن الحديث بينه وبينها سيجرى فى خلوة .
 ألا ليه يستطيع ، على الأقل ، أن يرى أخاه دمترى قبل هذا الحديث
 المحتوم ! خطر بال أليوشا أن يسرع الى أخيه بوثة ليراه . ترى أليس
 ممكنا أن يتناقش معه أولا ، دون أن يظهره على رسالتها طبعاً ؟ ولكن
 دمترى يقيم فى مكان بعيد ، وأغلب الظن أنه ليس فى منزله الآن .
 توقف أليوشا لحظة ليفكر ، ثم عزم أمره أخيراً . رسم على نفسه إشارة
 الصليب بحركة سريعة ، ولم يلبث أن ابتسم بدون سبب ظاهر ، ثم اتجه
 يسير بخطى حازمة نحو منزل السيدة « الرهية » .

كان يعرف أين تقطن . ولكن الاتجاه الى « الشارع الكبير » ثم
 عبور الميدان ، ثم ... الخ ... كل ذلك يجعل الطريق اليها طويلاً .
 ان مدينتنا الصغيرة مبشرة جدا ، والمسافات فيها شاسعة أكثر الأحيان *
 أضف الى ذلك أن أباه ينتظره ، فلعله لم ينس الامر الذى ألقاه اليه ،
 وقد ينفد صبره وتعود اليه نزواته . وقرر أليوشا ، بعد قلب الامر على
 وجوهه المختلفة هذه ، أن يسلك الطرق المختصرة عبر الأبنية والحدائق ،
 فهو يعرف الشوارع الصغيرة والمخارج المختلفة فى مدينتنا كما يعرف
 راحة كفه . كان عليه أن يقطع الشوارع قطعاً ، فيمر بأراض بور ،
 ويجتاز فى أماكن شتى أسيجة تحيط بأماكن خاصة ، ويعبر أبنية منازل
 أناس غرباء يعرفه كل واحد منهم ، ويحييه عند مروره . فعلى هذا النحو
 يبلغ « الشارع الكبير » بنصف الوقت الذى يحتاج اليه لو سلك السيل
 العادى . فلما اتبع أليوشا هذا الطريق المختصر وجد نفسه فى لحظة من
 اللحظات قريباً من منزل أبيه على حدود بستان متاخم لبستانه ، تابع لمنزل
 صغير عتيق بال ليس له من النوافذ الا أربع وكان القدم قد شقق جدرانها .
 ان صاحب هذا المنزل هو ، كما كان أليوشا يعرف ذلك ، امرأة متواضعة
 من سكان المدينة ، عجوز ليس لها الا ساق واحدة ، تسكن فى المنزل

مع ابنتها • وكانت ابنتها هذه قد عملت في الآونة الأخيرة بالعاصمة ،
 خادمةً رئيسية ، لدى جنرالات في الغالب • ولكنها رجعت منذ ما يقرب
 من سنة ، بسبب مرض أمها ، فهي الآن تظهر في مدينتنا بأثواب أنيقة
 جدا • وكانت العجوز وابنتها تعيشان مع ذلك حياة فاقة شديدة وعوز
 كبير ، حتى لقد كاتتا تذهبان كل يوم الى مطبخ فيدور بافلوفتش ، من
 حيث هما جارتان ، تلتمسان شيئاً من حساء وخبز تصدقه عليهما مارفا
 اجناتفا راضية مسرورة • ولكن الفتاة رغم أنها تقنات من البر والاحسان
 لم تقبل أن تبيع أى ثوب من أثوابها التي كان بينها ثوب سابغ الذيل •
 وكان أليوشا قد عرف هذه النقطة الأخيرة بمصادفة محضة من صديقه
 راكيتين الذى كان على علم بكل شيء في المدينة حتماً ، ثم لم يلبث أن
 نسيها طبعاً ، ولكنه وقد بلغ الآن حذيقة هذه الجارة تذكر الذيل السابغ
 على حين فجأة ، فاذا هو يرفع رأسه بعد أن كان مطرقاً الى الأرض طوال
 المدة التي قضاها مفكراً متأملاً أثناء سيره • وعندئذ انما وقع بصره على
 ما لم يكن في حسباناه قط •

لقد لمح أخاه دمترى فيدوروفتش وراء سياج الحديقة ، قاعداً على
 شيء من الأشياء مشرباً برأسه متجاوزاً الحاجز بصدرة ، يومئ اليه
 بحركات عريضة من يده ، ويناديه مهيباً به بالاشارات أن يجيء اليه ،
 متحاشياً أن يصرخ ، بل ومتجنباً أن يقول كلمة واحدة بصوت عالٍ ،
 مخافة أن يُسمع • فسرعان ما هرع اليه أليوشا •

— من حسن الحظ أنك رفعت رأسك ، والا لكنت اضطررت أن
 أصيح •

كذلك همس يقول دمترى فيدوروفتش لأخيه مسرعاً وقد بدا عليه
 فرح شديد برؤيته • ثم أضاف :

- تسلق من هنا ... هيا أسرع ! ما أحسنها فكرة أنه خطر بالك
 أن تجيء . لقد كنت أفكر فيك ...
 سرّاً أليوشا هو نفسه سرورا عظيماً أيضاً ، مع تساؤله عما يجب
 أن يفعله حتى يجتاز الحاجز . ولكن ميتيا رفعه من كوعه بيد قوية
 ليساعده على أن يقفز ، فشمّر أليوشا ثوبه الرهباني ، ثم اذا هو يصير
 في داخل الحديقة بوثة كوثبة صبي صغير من الصبية الذين يسرون
 حفاة الأقدام .

همس ميتيا يقول له بحماسة :

- والآن فلنسر !

فسأله أليوشا بصوت هامس أيضاً ، وهو ينظر الى جميع الجهات
 فيرى أنهما وحيدان في الحديقة تماما فلا يمكن أن يسمعهما أحد :
 - الى أين ؟

لم تكن الحديقة واسعة طبعاً ، ومع ذلك فان المنزل الصغير الذي
 تمكله العجوز وابتتها بعد خمسين خطوة على الأقل .

- نحن وحيدان ، فلماذا تتكلم همساً ؟

- لماذا أتكلم همساً ؟ لا يعلم الا الشيطان لماذا !

هكذا صاح دمترى فيدوروفتش بأعلى صوته ، وتابع يقول :

- حقا ... فعلاً ... لماذا تكلمت همساً ؟ انظر كيف تحلوا

السخافات للطبيعة في بعض الأحيان ! أنا موجود هنا سرّاً ، ويجب أن
 أكون كتما . سأشرح لك الامر فيما بعد . اننى لشعورى بضرورة
 الحفاظ على السر ، أخذت أهمس بغبوة ، مع أن ذلك لا داعى اليه
 البتة . هيا ... سأشرح لك الأمر . والى أن أشرحه لك ، اياك أن تقول
 كلمة واحدة . هل تعلم ؟ وددت لو أقبلك ...

المجد للخالق في الخلق *

المجد للخالق في نفسى

لقد كنت أردد هذين البيتين من الشعر هنا ، لحظة وصلت أنت . .

ان الحديقة التى تبلغ مساحتها قرابة هكتار كانت خالية من الأشجار الا فى محيطها على طول الأسوار الأربعة ؛ وهى أشجار تفاح وقيقب وزيزفون . أما داخل الحديقة فلم يكن فيها الا مرج أعشاب يعطى فى كل صيف حوالى ثلاثين كيلو من العلف . وكانت صاحبة البيت تؤجر هذه الحديقة منذ مطلع الربيع ببضع روبلات . وهناك شجيرات من توت العليق وتمر الريباس وغنب آذار متناثرة على طول الأسوار . وقد زرع قرب المنزل الصغير شئ من خضار ، ولكن ذلك لم يتم الا منذ زمن قصير .

قاد دمترى فيدوروفتش ضيفه الى ركن من أنأى أركان الحديقة بعيد عن المنزل . فهناك ، وسط أجمة كثيفة من أشجار الزيزفون وشجيرات الكشمش الهرمة وأشجار اليلسان والغيراء والأزدلخت ، يرى المرء بقايا « كشك » قديم جدا ، قد سوّده الزمان ولواه ، جدرانته متباعدة ، ولكن سقفه ما يزال سليما ، فيمكن الاحتماء به اذا هطل مطر . لقد بنى هذا « الكشك » منذ زمن بعيد ، منذ نصف قرن فيما يقال ، بناء أحد المالكين السابقين الذى تعاقبوا على هذا المنزل الصغير ، رجل يسمى الكسندر كارلوفتش فون شميدت ، ليوتنان كولونيل محال على التقاعد . كل شئ فى هذا « الكشك » منحور مسوّس : أرضه خربة نتنة ، أخشابها متزعزعة مترنحة ، رائحته عفنة رطبة . وفى داخله كانت توجد مائدة خضراء من خشب ، قد غاص نصفها فى التراب ، وأحاطت بها مقاعد هى أيضا خضراء ، وما يزال يمكن الجلوس عليها .

كان أليوشا قد لاحظ فوراً حالة الحماسة التي كان عليها أخوه ،
فلما دخل الآن « الكشك » رأى على المائدة زجاجة كونيكا مستلىء نصفها ،
والى جانبها قدح صغير •

قال ميتبا وهو ينفجر ضاحكا :

– هو كونيكا يا عزيزى ! لا شك أنك تقول لنفسك : « انه ثمل
من جديد » • ألا فاطرد هذه الأشباح من خاطرك !

أكاذيب يروجها اناس لا خلاق لهم *

فلا تسمع لها ابدا ، وبدد كل اوهامك •

– لا ••• اتنى لا أسكر ••• ولكننى «أتلذذ» ، كما يقول صديقك ،
ذلك الخنزير راكيتين ••• الذى سيصبح فى يوم من الأيام مستشار
دولة ، دون أن يكفَّ عن أن يتكلم كما يتكلم رجل من الأرياف •
اجلس هنا • وددت لو أضمتك الى صدرى ، يا صغيرى أليوشا ، وددت
لو أضمتك الى صدرى ضما قويا حتى لأكاد أحطمك ، هل تعلم هذا ؟
ذلك أنك فى الواقع ••• فى الوا ••• قع ••• (افهمنى جيدا ، افهمنى
جيدا) ••• ذلك أنك فى الواقع ••• الانسان الوحيد ••• فى العالم
••• الانسان الوحيد ••• الذى أحبه ••• فى العالم •••

نطق دمترى فيدوروفتش كلماته الأخيرة هذه بنوع من النشوة
والوجد •

– أنت الكائن الوحيد الذى أحبه ، أنت وكائن آخر ، هو «مخلوقة
بائسة» عشقتها لأضيع وأهلك ••• ولكن العشق شىء آخر غير الحب •
فان من الممكن أن يكون الانسان عاشقا ، مع شعوره بالكره • احفظ هذا
الكلام ! اتنى أنك فى الآن فى فرح ومرح • اجلس هنا ، قربى ، الى هذه

المائدة • وسأجلس أنا الى جانب حتى أراك رؤية أوضح • سأقول لك كل شيء • وستصمت أنت طول الوقت، بينما سأتكلم أنا، لأنه قد آن الأوان!...
 بالمناسبة ، أنا أرى أن الأفضل أن تتكلم هنا همساً ••• ذلك أن من الجائز ••• هل تعلم ؟ ••• من الجائز أن توجد هنا آذان محتبئة ••• آذان لا تتوقع وجودها ••• سأشرح لك ••• اتفقنا على هذا • تابع كلامي ••• لماذا كنت أحرص على أن أراك بغير ابطاء ، لماذا كنت في مثل تلك الحاجة القوية اليك خلال تلك الأيام كلها وفي هذه اللحظة بعينها (لقد ألقيت مرساتي هنا منذ خمسة أيام) لماذا ؟ لأنك الوحيد الذي يمكن أن أركن اليه ركونا تاما ، لأنك الوحيد الذي يمكن أن أفضي اليه بما في نفسي ، ولأن هذا ضروري لا مناص منه ، ولأنك لا غنى لي عنك • هل شعرت يوماً ، في المنام مثلاً ، بأنك تنحدر من جبل في هاوية ؟ فاعلم انني الآن أتدحرج الى هاوية ، وليس هذا حلمًا • ولكنني لست خائفاً ، وليس عليك أن تخاف من شيء أنت أيضا • أقصد ••• أنا أشعر بخوف ، ولكنه شعور عذب جدا ، بل ليس شعورا عذبا ، وانما هو شعور رائع ••• لا يدرى الا الشيطان ماذا ••• جنى قوى ، جنى ضعيف ، جنى المرأة ••• ليس هذا بذى بال على كل حال ! ••• ألا فلنمجّد الطبيعة : ما أكثر الشمس في كل مكان ، ما أصفى السماء الآن ! لا شيء الا الخضرة ••• نحن في قلب الصيف ، والساعة لم تكد تبلغ الثالثة بعد • صمت شامل مطبق ! الى أين كنت ذاهبا ؟

كنت ذاهبا الى أبينا ، ولكنني كنت أنوى أن أمرّ أولا بكاترين

ايغانوفنا •

– اليها واليه ؟ أوه ••• يا للمصادفة العجيبة ! ••• هل تدري لماذا كنت أنتظرك فارغ الصبر الى ذلك الحد ؟ هل تدري لماذا كنت ظامئا الى رؤيتك ظمأ الصحراء الى المطر ؟ هل تدري لماذا كنت أناديك

من جميع مسام روجى وجسمى ؟ هل تدري لماذا ؟ لأننى كنت أريد أن تذهب الى الأب رسولاً منى ، وأن تذهب بعد ذلك الى كاترين ايفانوفنا ، بغية أن أصفى الأمر معهما كليهما ، معه ومعها كان لا بد لى أن أرسل اليهما ملاكاً . كان فى وسعى أن أكلف بهذا أى انسان ، ولكننى كنت أريد ملاكاً . وهأت ذاً تذهب اليها وتذهب الى الأب .

– أهذا ممكن ؟ هل كنت تريد أن ترسلنى حقا ؟

كذلك سأله أليوشا بلهجة تنبىء عن ألم شديد يوشك أن يكون ألم مرض . فقال له دمترى :

– اذن كنت تعلم هذا . اننى أرى أنك قد فهمت كل شىء دفعة واحدة . عليك بالصمت خاصة ، لا تقل كلمةً واحدة الآن . لا تأسف على شىء ، ولا تبك قط .

قال دمترى فيدوروفتش ذلك ، ثم نهض ، وفكّر بضع لحظات واضعاً ابهامه على جبينه ، ثم سأله :

– هى التى استدعتك ، أليس كذلك ؟ لا بد أنها كتبت اليك ، أو فعلت شيئاً من هذا القبيل ، والا لما ذهبت اليها من تلقاء نفسك فيما أظن ؟ أجابه أليوشا وهو يخرج رسالتها من جيبه ويمدها اليه :

– هذه بطاقتها .

قرأ ميتيا البطاقة بنظرة سريعة ، ثم قال له :

– وسلكتَ طرقاً مختصرة لتذهب اليها . أيتها الآلهة المحسنة . . . شكرا على أنك وجهته فى هذا الطريق فقدت خطاه نحوى ، كذلك السمكة الذهبية الصغيرة التى تروى الحكاية أنك أرسلتها الى ذلك الصياد العجوز الغبى . اسمع يا أليوشا ! اصنع الىّ يا أخى ! لقد قررت

الآن أن أقول لك كل شيء • لا بد لي من أن أفتح نفسي لانساني ما ،
 ليس كذلك ؟ لقد سبق أن أفضيت بما في نفسي الى ملائكة السماء ،
 ولكنني كنت أريد أن أبوح بسرّي الى ملاك من ملائكة الأرض أيضا •
 وأنت أنت الملاك على هذه الأرض • ستصغي وتفهم عني ، وتغفر لي ••
 ان بي حاجة قوية الى ن يغفر لي انسان أعلى وأسمى • اسمع : اذا تحول
 اثنان عن جميع مشاغل الارض وهمومها ، واندفعا أو اندفع أحدهما على
 الأقل نحو العالم الرائع ، فاذا هو ، في اللحظة التي يهيم فيها أن يبلغ
 السعادة أو يهوى الى الحضيض ، يلقي انسانا آخر فيقول له : « قدّم لي
 هذه الخدمة ، اعمل من أجلي هذا الامر الذي لا يمكن أن يطلبه أحد
 من أحد ، اللهم الا وهو على فراش الموت ••• ، فهل يمكن أن يرفض
 هذا الشخص الآخر طلبه ••• اذا كان صديقه ، اذا كان أخاه ؟

فأجابه أليوشا :

– سأفعل ما تطلبه مني ، ولكن ما هو الأمر ؟ أسرع في ذكره
 مزيدا من الاسراع !

– مزيدا من الاسراع ؟ هم ••• لا تتعجل هذا التعجل كله
 يا أليوشا ! انك تستعجل الأمور وتضطرب في غير طائل • لكل شيء
 أوانه ! انها لخسارة كبيرة يا أليوشا أنك لا تستطيع أن ترقى الى حيث
 تبلغ الحماسة ! ولكن لماذا أخذ عليه هذا في الواقع ؟ أعليك أنت أن
 ترقى هكذا ؟

كن نبيلًا يا أيها الانسان !*

من قائل هذا البيت من الشعر ؟

قرر أليوشا أن يصبر • لقد أدرك أنه في هذا المكان انما سيقوم

بمهمته على خير وجه فى الواقع • وفكر ميتيا دقيقةً ، متكئاً بكوعه على
المائدة ، واضعاً رأسه فى راحة يده • صمت الاتان كلاهما •

استأنف ميتيا كلامه يقول :

– أليوشا ! أنت وحدك تستطيع أن تسمعى دون أن تضحك •••
أريد أن أبدأ ••• أن أبدأ ••• اعترافى ••• مرتلاً نشيد الفرح الذى
كبه شيلر « الى الفرح ! » ولكننى لا أجيد اللغة الألمانية ، ولا أعرف من
النشيد الا عنوانه : « الى الفرح ! » • حذار خاصة أن يذهب بك الظن
الى اننى سكران • ليس السكر هو ما يجعلنى أتكلم • الكونياك هو
الكونياك ، ولكن لا بد لى من زجاجتين على الأقل حتى أسكر :

سيلين ذو الوجه المزهر

قد امتطى يوماً حماراً يترنج *

••• وأنا لم أشرب الا ربع زجاجة فى أكثر تقدير • ثم اننى ان
لم أكن سيلين ، فأنا سيليون (قوى) . أنا قوى لأننى اتخذت قرارى ، وقد
اتخذته الى الأبد ! اغفر لى هذه النكتة القائمة على الجناس اللفظى • وهناك
أمور أخرى سيكون عليك أن تغفرها لى اليوم ! الأمر فعلاً أمر نكتة
قائمة على الجناس • اطمئن بالآ ••• اننى أهذر ولا أهرف ••• اننى
أتكلم جاداً ، وأمسُ قلب الموضوع • لا يخطر ببالى أبداً أن أتبه فى لف
ودوران • انتظر ••• اننى أحاول أن أتذكر •••

ورفع دمتري فيدوروفتش رأسه مفكراً ، ثم اذا هو يأخذ يتلو

هذه الأبيات من الشعر بلهجة نافذة :

سكان الكهوف الخائفون الوجلون *
 اختبأوا شبه عراة في المغاور
 بينما كان البداءة العتاة
 يسلبون السهول والغابات •
 كان الصيادون المسلحون بالأقواس والنبال
 يبتشون اللعز في قلب كل حي يتنفس •
 ويل لمن ترميه الأمواج الهائجة
 على شاطئ أجنبي •
 من أعلى الأولب الهادي
 هبطت سيريس الأم على الأرض
 تبحث عن بروزرين •
 ناصبتها الأرض العدا
 لم يستقبلها احد
 لم تجد مأوى لها في مكان
 بحثت الالهة عبثا عن معبد
 يمجده الوهيتها •
 لا يرى أحد في المآدب
 ثمار الطبيعة مضيئة ساطعة •
 وعلى الهياكل الدامية
 يتصاعد دخان القرايين المضحي بها •
 تأملت سيريس المشهد الأليم
 بنظرات تفيض حزنا وأسى •
 في كل مكان يدل الانسان ،
 وعذابه شديد لا حدود له !••

وفجأة أخذ صدر ميتيا يعلو ويهبط من شدة الانتحاب • أمسك
 ألبوشا يده •

– أخى ، أخى ، صديقى ! مدل " هو الامان حتى اليوم • رهيب
 مصير الانسان ، شديدة آلام الانسان • لا تحسبن ، لأن لى رتبة ضابط ،
 أنتى امرؤ فظ غليظ القلب لا يعنيه الا أن يشرب الكونياك وأن يتلذذ

بالسناة ! اننى فى الواقع لا أفكر الا فى مصير البشر الذى يدعو الى
الشفقة والعطف والزناء ، ذلك هو اهتمامى الوحيد تقريبا ، وما أنا
بكاذب عليك البتة • ألا فلتشهد السماء أننى لا أكذب ولا أتباهى فى هذه
اللحظة ! ان المصير الفاجع الذى كتب على البشر يعذبنى تعذبا شديدا ،
لأننى أنا نفسى واحد من هؤلاء الأشقياء البؤساء •

لا بد للانسان
من اجل ان تبعث نفسه بعنا جديدا
وان ترتفع بعد سقوط
لا بد له ان يقطع للالهة القديمة « ام الارض »
عهدا الى الأبد •

ولكن الصعوبة هى هذه : ما عسانى أفعل من أجل أن أعاهد
الأرض ؟ أنا لا أزرع الأرض ، أنا لا أفتح جوف الأرض ؟ هل يجب
أن أصبح فلاحاً أو راعيا صغيرا ؟ اننى أسير فى الليل دون أن أعرف
أنا أغوص فى الوحل والعار ، أم أنا أتقدم نحو الضياء والفرح ؟ ذلك
هو بعينه البلاء : ان كل شىء فى هذا العالم لغز • حين كان يتفوق لى أن
أغوص الى القرارة من هوة الدناءة والعهر (ولم أكن أفعل شيئا غير هذا
على كل حال) ، فقد كنت فى كل مرة أعيد قراءة تلك القصيدة التى
تحدثنا عن سيريس وعن الانسان • فهل أصلحنى ذلك ؟ كلا ثم كلا !
لأننى كارامازوف • فحين أسقط فى الهوة أتدهور تدهورا تاما ، رأسى
فى الأمام ، وقدمائى فى الفضاء ؟ حتى لقد أشعر عندئذ بسعادة ، من السقوط
على هذا النحو المزرى المذل المهين ؟ اننى أحس عندئذ بنوع من المتعة
الفنية • فاذا بلغت القرارة من هوة الدناءة والخسة ، طفقت أترنم بنشيد •
ألا فلاكن ملعونا ، ألا فلاكن منحطاً سافلا ، ولكننى أريد ، أنا أيضا ،
أن أقبل ذيل الثوب الذى يتدثر به الهى • لئن اتبعت الشيطان يا رب ،

فانى أظل ابنك ، لأنى أحبك ، ولأن فى نفسى سبيلا الى الفرح الذى
لولاه ما وُجد الكون •

روح العالم التى خلقها الله *
• تغنى الفرح الى الأبد •
الفرح قائم فى أعماق الحياة
• يحركها بقوة مستترة •
ينبت العشب من الأرض
يعحيل السديم شمسا
ينشر ضيائه الخير
• فى الفضافات التى لا نهاية لها •
كل حى يبتهج
• فى حضن الطبيعة •
جميع الكائنات ، جميع الشعوب
• تعيش به وحده •
يزين مصائبنا
• يهب لنا اصدقاء وازهارا وثمارا •
هو اللذة فى الحشرة •••
وهو الله فى الملاك

ولكن كفانا شعرا ! لقد سنكتب بضع عبرات ، دعنى أبكى قليلا •
أسلمت لك بأن فى هذا حماقة وسخفاً • وربما ضحك الآخرون منه ، أما
أنت فلا ••• لقد رأيت شمعةً تومض فى عينيك يا أليوشا • كفانا الآن
شعرا • أريد أن أحدثك عن أولئك « الحشرات » ، عن أولئك الذين
وهب لهم الله اللذة •

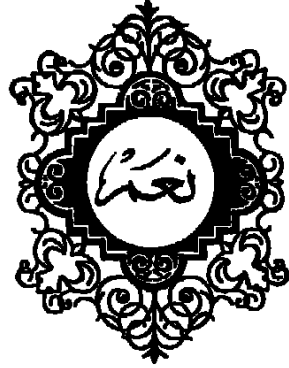
هو اللذة فى الحشرة

أنا تلك الحشرة بعينها يا أخى ! هذه الأبيات من الشعر انما
تستهدفنى أنا خاصة • ونحن ، آل كارامازوف ، نحن جميعا سواء
فى هذه النقطة ! فىك أيضا تحيا هذه الحشرة ، فىك أنت الملاك ! انها

هنالك الشيء الذي لا تتوقعه • هنالك الورد التي تبت على الدمن • أقول ذلك الآن على وجه عام يا أخى • أما فى هذه المدينة فلم تحدث فلتات محسوسة ملموسة من هذا النوع ، منذ أن وصلت حتى الآن ، ولكن الأمر واحد من الناحية النفسية • لو كنت مثلى لفهمت عنى • لقد أحيتُ المجون حتى فى العار • لقد أحيت القسوة : ألسْتُ بقعة ، ألسْتُ حشرة خيثة ؟ قلت لك اننى واحد من آل كارامازوف • ان مجتمع المدينة التي كنت أعيش فيها قد نظم فى ذات يوم نزهة جماعية • ركبنا عربات ترويكاه ركبنا سبع عربات ترويكاه • كان ذلك فى فصل الشتاء • فى العربة التي كنت فيها أخذتُ ، بفضل الظلمة ، أشد على يد فتاة كانت جارتى ، وأجبرتها على الاستسلام لقبلاتى • كانت طفلة • هى بنت موظف صغير • انها فقيرة حلوة ، عذبة ، طيبة ، لطيفة ••• تركتُ لى أن أفعل ما أشاء ، وسمحتُ لى أن أتمتع بحريات كبيرة فى الظلام ! كانت المسكينة تتخيل أننى سأذهب من الغد الى أبويها لأخطبها (كنت أقدّر خاصة كخطيب ممكن) • ولكننى لم أخطبها حتى بكلمة واحدة بعد ذلك ، وتجاهلتها تجاهلاً تاماً مدة خمسة أشهر • كنت أرى عينيها فى أمسيات الرقص (وكانت حفلات الرقص كثيرة هناك) تتابعانى من ركن من الصالة ، فألاحظ الوميض الذى يشتعل فى نظرتها ، واللهيب المفاجئ المكظوم الذى يفصح عن حنق ذليل وثورة مهانة ••• فكان هذا اللهو لا يزيد على أن يستثير متعة الحشرة فى نفسى • وقد تزوجت موظفاً بعد خمسة أشهر ، وسافرت دون أن تغفر لى وتصفح عنى ، ولعلها ظلت تحببى ••• وقد سعد الزوجان بعد ذلك • لاحظتُ أننى لم أقصص هذه الحكاية على أحد ، وأننى لم أعرض سمعة الفتاة لسوء • صحيح أن لى رغبات منحطة ، وأننى أجد لذة فى الانحدار الى حضيض الخسة ، ولكننى لست مجرداً من الشرف ••• ان وجهك يتخضب الآن بحمرة شديدة ، وان عينك تلتمعان

٤

اعتراف قلب حمار نذراً



لقد لهوت وعبثت وتلذذت هناك ! ادعى أبونا
في هذا الصباح أنني كنت أرمى ألوف الروبلات
من أجل أن أقضى على طهارة بنات فضليات !
كذب " هذا الكلام ، كذب مقزز ... لم يحدث
شيء من ذلك قط ! لم يُطلب مني شيء من مال من أجل «هذا» . كان المال
أمراً ملحقاً الحاقاً ، كان حمى عابرة ، كان زينة لا أكثر . أحب
سيدة في ذات يوم ، فاذا أنا في الغداة أوتر عليها بتناً من بنات الشوارع .
وأنا أنفق على هذه وتلك كليهما ، أنفق تحقيقاً لنزوات وسعيّاً الى تسليات .
أصبح المرأة الى المسارح ، وأخرج معها في نزوات ، وأمضى بها الى
حفلات رقص الفجر ، وأدفع أثناء ذلك مبالغ ضخمة للخدم وغيرهم .
وكنت أعطيهم هن أيضاً مالاّ اذا اقتضى الأمر ، ذلك أنهن يحرصن على
هذا ، بل يحببتهن جبا قويا (يجب أن أعترف بذلك) وهن يقبلنه فرحات
ممتنات . أحببتي نساء من المجتمع الراقى ... لا جميع نساء المجتمع
الراقى ، بل عدد منهن ، عدد على كل حال ... ولكن كانت تجذبني
دائما قبل كل شيء الأزقة الضيقة ، والطرق المسدودة المظلمة ، والأحياء
المريبة البعيدة عن الأماكن التي يختلف إليها الناس . فهناك المغامرة ،

هنالك الشيء الذي لا تتوقعه • هنالك الورود التي تثبت على الدمن • أقول ذلك الآن على وجه عام يا أخى • أما فى هذه المدينة فلم تحدث فلتات محسوسة ملموسة من هذا النوع ، منذ أن وصلت حتى الآن ، ولكن الأمر واحد من الناحية النفسية • لو كنت مثلى لفهمت عنى • لقد أحيت المجون حتى فى العار • لقد أحيت القسوة : ألسن بقعة ، ألسن حشرة خيثة ؟ قلت لك اتنى واحد من آل كارامازوف • ان مجتمع المدينة التي كنت أعيش فيها قد نظم فى ذات يوم نزهة جماعية • ركبنا عربات ترويككا • ركبنا سبع عربات ترويككا • كان ذلك فى فصل الشتاء • فى العربة التي كنت فيها أخذت ، بفضل الظلمة ، أشد على يد فتاة كانت جارتى ، وأجبرتها على الاستسلام لقبلاتى • كانت طفلة • هى بنت موظف صغير • انها فقيرة حلوة ، عذبة ، طيبة ، لطيفة ••••• تركت لى أن أفعل ما أشاء ، وسمحت لى أن أتمتع بحريات كبيرة فى الظلام ! كانت المسكينة تتخيل أننى سأذهب من القدر الى أبويها لأخطبها (كنت أقدّر خاصة كخطيب ممكن) • ولكننى لم أخاطبها حتى بكلمة واحدة بعد ذلك ، وتجاهلتها تجاهلاً تاماً مدة خمسة أشهر • كنت أرى عينيها فى أمسيات الرقص (وكانت حفلات الرقص كثيرة هناك) تتابعانى من ركن من الصالة ، فألاحظ الوميض الذى يشتعل فى نظرتها ، واللهيب المفاجئ المكظوم الذى يفصح عن حنق ذليل وثورة مهانة ••••• فكان هذا اللهو لا يزيد على أن يستثير متعة الحشرة فى نفسى • وقد تزوجت موظفاً بعد خمسة أشهر ، وسافرت دون أن تغفر لى وتصفح عنى ، ولعلها ظلت تحببى ••••• وقد سعد الزوجان بعد ذلك • لاحظ أننى لم أقصص هذه الحكاية على أحد ، وأننى لم أعرض سمعة الفتاة لسوء • صحيح أن لى رغبات منحطة ، وأننى أجد لذة فى الانحدار الى حضيض الخسة ، ولكننى لست مجرداً من الشرف ••••• ان وجهك يتخضب الآن بحمرة شديدة ، وان عينيك تلتهمان

وتسطمعان • طيب ••• لن أزعجك بعد الآن بسرد مثل هذه الحكايات
 القذرة المزرية • ولكن ما ذكرته لك ليس الا شيئاً قليلاً ••• هو زخرفات
 اضافية على طريقة بول دو كوك ، ولكن الحشرة القاسية قد نمت في
 نفسي واستولت علىّ واستبدت بي • ما أكثر أمثال هذه الذكريات عندي
 ••• ان لي منها « ألبوماً » كاملاً ••• ولقد كنت أحاول دائماً ، حين أقطع
 صلتى بإحدى النساء ، أن أتصرف تصرف صديق ، وأن أتجنب السلوك
 المفاجيء العنيف ، وأن أتقى المشاكل والمشاهد • ثم اننى ما أفشيت سرّاً
 في حياتى قط ، ولم أعرض سمعة احدهن لسوء • ولكن كفانى ما قلته
 حتى الآن فى هذا • أرجو أن لا يدور فى خلدك أتى جئت بك الى هنا
 لأقص عليك هذه المباش ! اطمئن بالآ ! هناك أمور أشق من هذه الأمور
 أحب أن أفضى بها اليك • ولا يدهشك مع ذلك أتى لا أستحى منك ولا
 أشعر بخجل أمامك ، وأنتى ربما كنت ألتذ بايقاظ هذه الذكريات فى
 حضورك •••

قاطعته ألبوشا سائلاً :

- أنت تقول هذا لأنك رأيت احمرار وجهى ؟ ان وجهى لم
 يحمراً بسبب حكاياتك ، ولا بسبب سلوكك ، بل لأننى مثلك •••

- أنت ؟ أنت مثلى ؟ ألا انك لتبالغ قليلاً •••

قال ألبوشا بلهجة قاطعة :

- لا ••• لا أبالغ (كان واضحاً أن هذه الفكرة قد شغلته منذ مدة
 طويلة) • ليس بيننا الا فرق فى المقدار • نحن لا نقف على درجة واحدة
 من السلم • فأنا ما زلت فى أسفل ، بينما وصلت أنت الى أعلى ، الى
 الدرجة الثالثة عشرة مثلاً ••• أنا الآن لا أزيد على أن أتكلم ، ولكن

الأمر واحد في الحقيقة ، واحد تماما . . . ان من وضع قدمه على الدرجة الأولى من السلم لا بد أن يصل الى نهايته حتما ، لا بد أن يبلغ ذروته .
 - ففى رأيك اذن أن على المرء أن يتجنب وضع قدمه على الدرجة الأولى ؟

- يجب على المرء أن يتجنب ذلك اذا استطاع .

- هل تستطيع هذا أنت ؟

- يبدو أنى لا أستطيع .

- اسكت يا أليوشا ، اسكت يا عزيزى الطيب الشهم . وددت لو أقبل يدك ، هكذا ، حناناً وعطفاً . ان تلك الوغدة جروشنكا خيرة فى شئون الرجال ! لقد أكّدت لى ذات يوم ان فى وسعها أن تزردك لقمة واحدة . هأنذا أمسك عن الكلام فما أقول شيئاً بعد . دعنا من هذه الحكايات ، دعنا من هذه العفونة ، ولنصل الى مأساتى الشخصية . . . التى ليست خيراً من هذه الحكايات على كل حال ، فهى معجونة بالخسة والدناءة أيضاً . اسمع : لئن افترى أبونا على حين تحدث عن فتيات بريئات لطخت شرفهن ، فهذا لا ينفى ان ذلك بعينه هو ما حدث فى مأساتى ، رغم أنه لم يحدث الا مرة واحدة ، أو قل أخيراً انه لم يحدث قط . وأبونا العجوز الذى اتهمنى بفعال دنيئة كثيرة لا وجود لها ، يجهل هذه القصة فى مقابل ذلك . اتنى لم أحدث عنها انساناً فى يوم من الأيام . ستكون أنت من عرفها ، بعد ايفان طبعا . ذلك أن ايفان قد عرف كل شيء ، وقد عرفه قبلك بزمان طويل . ولكن ايفان قبر .

- ايفان قبر ؟

- نعم .

كان أليوشا يصغى الى كلام أخيه باتباه شديد • وبدأ دمترى يقص
حكايته • قال :

- رغم أننى كنت ملازما (ليوتنان) فى تلك الكتيبة ، وهى كتيبة
ترابط على الجبهة ، فقد كنت تحت المراقبة بمعنى من المعانى ، أشبه أن
أكون منيا من المنفيين • وقد استقبلنى مجتمع المدينة الصغيرة التى فيها
المسكر استقبالا ممتازا واحتفى بى واكرم وفادتى • كنت أنفق المال
بغير حساب ، وكانوا يظنوننى غنيا ، وكنت أنا أظن نفسى غنيا كذلك •
يدو على كل حال أنهم قد استلطفونى لسبب آخر أيضا • كانوا كثيرا
ما يهزون رؤوسهم مستغربين ، ولكنهم كانوا يحبوننى كثيرا • وفجأة
أخذ الليوتنان كولونيل ، وهو رجل طاعن فى السن ، أخذ يناصبنى
العداء ، ويلتمس الفرص لناكدتى ومشاكستى • غير اننى لم أكن بلا
سند أعتمد عليه ، وانحازت المدينة كلها الى صفى ، وتحزبت لى • ثم
انه كان من الصعب عليه أن يجد ما يستحق الشكوى منى والحق الأذى
بى • ولا شك فى أننى كنت مخطئا فى حقه ، لأننى تعمدت أن لا ألتزم
ما ينبغى أن ألتزمه تجاهه من واجبات التوقير والتعظيم • لقد كنت
أصطنع التكبر والاستعلاء • ان ذلك العجوز العنيد ، الذى لم يكن امرا
خيثا شريرا وكان رب أسرة طيب السريرة ، كان قد تزوج مرتين ،
ولكن ماتت زوجتها كلاتاهما • فأما الأولى ، وهى مخلوقة بسيطة متواضعة ،
فقد خلّفت له بنتا ساذجة الطبع كأمها كانت فى ذلك الأوان تقترب من
السنة الرابعة والعشرين من عمرها • كانت تعيش عند أبيها مع احدى
خالاتها • وكانت الخالة امرأة بسيطة النفس مذعنة الطبع هى أيضا •
ولكن ابنة أختها ، كبرى ابنتى الليوتنان كولونيل ، كانت تجمع الى
بساطة الخلق كثيرا من الجرأة والاقدام • انه ليسرنى وأنا أستحضر

ذكرها أن أطربها وأتني عليها : اننى يا صديقى لم ألق فى حياتى امرأة
تضارع تلك الفتاة جمال طبع • كان اسمها آجاتى ••• تصور •••
آجاتى ايفانوفنا • ولم تكن خالية من الحسن فى الذوق الروسى : قامة
طويلة ممثلة قوية ، عيان رائعتان ، ولكن فى تعبيرهما شيئاً من عامية •
ولم تتزوج الفتاة ، رغم أنها خُطبت مرتين • لقد رفضت الخطبة الأولى
والخطبة الثانية كليهما ، دون أن تفقد بشاشتها وجذلها وصفاء مزاجها •
وقد انعقدت الصلة بينى وبينها - لا على تلك الطريقة ، لأن كل شىء قد
ظل بيننا طاهراً بريئاً - وانما أصبحنا صديقين لا أكثر • والواقع أنه
كثيراً ما اتفق لى أن صادقت بعض النساء مصادقة خالصة شريفة • وكنت
حين أتحدث معها أخرج على هذه الأمور أحياناً ، من باب الصراحة ، فما
تزيد على أن تضحك • اعلم أن نساءً كثيراً يحبين الصراحة •• ولكن
تلك كانت عدا ذلك فتاة ، فكان هذا يسلينى كثيراً • يجب أن أضيف الى
ذلك أن فى وسع المرء أن يسميها آنسة • وكانت الفتاة وعمتها تحتجيان
فى منزل الأب بارادتهما ، وتعيشان فيه خاضعتين خضوع المرءوسين ، ولا
تضعان نفسيهما فى مستوى سائر أفراد المجتمع • وكان الناس جميعاً
يحبون آجاتى حبا عظيماً ، لأنها كانت تجيد الخياطة كما لا تجيدها امرأة :
لقد كانت تملك موهبة فذة فى الخياطة ، ولكنها لا تتقاضى عن خدماتها
أجراً ، وانما هى تعمل لتكون نافعة للناس لا أكثر • على أنها كانت
لا ترفض أخذ شىء من المال اذا عُرِضَ عليها • أما الليوتنان كولونيل
فقد كان من نوع مختلف كل الاختلاف • لقد كان شخصية من أهم
شخصيات المدينة • كان يعيش حياة عريضة ، ويستقبل الضيوف فى منزله
كثيراً ، ويقدم مادب غداء ، وينظم أمسيات رقص • وحين وصلت الى
المدينة والتحقت بالكتيبة لم يكن للمدينة الصغيرة من حديث غير الحديث
عن ابنة الليوتنان كولونيل الصغرى التى ستصل قريباً ، والتى يقال انها

ذات جمال خارق نادر ، والتي تركت منذ زمن قصير مدرسة داخلية
 ارستقراطية ببطرسبرج أتمت فيها دراستها . ان هذه الفتاة الاخرى ليست
 الا كاترين ايفانوفنا نفسها ، بنت الليوتنار كولونيل من زوجته الثانية
 التي ماتت هي أيضا . كانت زوجته الثانية هذه تنتمي الى أسرة كبيرة
 - أحسب أن أباهما كان جنرالاً معروفاً - رغم أنها لم تحمل الى زوجها ،
 هي أيضا ، مهراً ضخماً ذلك أمر عرفته من مصدر مطلع . لقد
 كان لها اذن أقرباء ، وربما كانت لها امال فى أكثر تقدير ، اما المال فلم
 يكن عندها مال على أن وصول طالبة بطرسبرج الى المدينة (وقد
 جاءت زائرةً فحسب) قد كان حدثاً من الأحداث رد الى المدينة صباحها
 ان صح التعبير . فهؤلاء أرقى سيدات مجتمعنا ، وهن زوجتا « صاحبى
 سعادة » ، وزوجة كولونيل ، وسيدات أخرى كثيرات ، هؤلاء هن
 يحطن بالفتاة ويحتفين بها ويتبارين فى اقامة المآدب لها . لقد أصبحت
 الفتاة ملكة حفلاتنا الراقصة ونزهاتنا ورحلاتنا ، حتى لقد أقيمت على
 شرفها حفلة تمثيلية رُصد ريعها لاعانة مربيات عجائز لا أدرى من هن .
 لم أقل أنا شيئاً ، بل بقيت بعيداً متنجياً ، ألهو وأقص على ما يشاء لى
 هواى . وفى تلك الآونة بعينها انما اقررت فضيحة من تلك الفضائح
 التى أثارت العياط والزياط فى المدينة كلها . لقد لاحظت فى ذات مساء ،
 أثناء حفلة استقبال أقامها كومنندان الكتيبة ، أنها كانت تروزنى بنظرها ،
 ولكننى لم أقرب منها بل تظاهرت بالاستخفاف بهذه الفرصة التى عرضت
 لى للتعرف بها . وبعد ذلك بزمن قصير ، قررت أثناء سهرة أخرى ، أن
 أتجه اليها بالكلام . فلم تكذ ترضى أن تنازل فتنظر الى ، وعبرت شفاتها
 عندئذ عن احتقار . قلت بينى وبين نفسى عندئذ : « اصبرى قليلاً
 سأعرف كيف أثار لنفسى » . وكنت فى ذلك الأوان شرس الطبع ،
 شديد التهور وكنت أعرف ذلك فى نفسى وقد شعرت خاصة

أن « كاتينكا » ليست واحدة من تلك الأنسات المساذجات الكثيرات بنات المدارس الداخلية ، وإنما هي إنسانة قوية الطبع ، ذات كبرياء وخيلاء ، فاضلة طاهرة -حقا والامر الذي أشعرني بالمذلة خاصة أنها عدا ذلك ذكية مثقفة ، على حين أنني لا ذكي ولا مثقف . لعلك تظن أنني أردت أن أخطبها ؟ أبدا . كل ما كنت آتمناه هو ان أستطيع ، أنا الفتى البارز المرموق ، أن أثار منها لنفسى ، لأنها لم تعرف قيمتى ولم تحس بقدرى . وياتنظار ذلك اندفعت ألهو وأقصف بغير قصد ولا اعتدال ، حتى ان الليوتنان كولونيل انتهى به الامر الى حبسى ثلاثة أيام . وفى تلك الآونة انما أرسل الى أبوك ستة آلاف روبيل بعد أن بعثت اليه بتنازل مكتوب عن جميع حقوقى الاخرى . لقد اعترفت فى ذلك التنازل بأننا قد « صفينا حساباتنا » ، وبأننى لن أطلبه فى المستقبل بشئ البتة . ولقد كنت لا أفهم شيئاً من أمر هذه الحسابات فى الماضى . ويجب أن أعترف لك ، يا أخى أليوشا ، اننى قبل مجيئى الى هنا ، وحتى الآونة الأخيرة ، بل وحتى يومنا هذا الذى نحن فيه ، لم أفهم قط شيئاً من أمر هذه الخلافات المالية بينى وبين أبينا . على كل حال ، دعنا من هذه المسألة الآن وان لى اليها عودة . المهم أنني بعد أن تلقيت المال بزمن قصير علمت علم اليقين ، من رسالة بعث بها الى صديق ، أمراً يمكن أن يهمنى كثيراً ، وهو أن المراجع العليا مستاءة من صاحبنا الليوتنان كولونيل ، وانها تشبهه فى أمره وتظن فيه سوء الادارة وارتكاب المخالفات ، أى أن أعداءه يدبرون له مكيدة خبيثة . وها هو ذا أمر الفرقة يصل على حين فجأة ، فيقرع صاحبنا الليوتنان كولونيل تقرعاً شديداً ، وما هى الا فترة قصيرة اذا بالليوتنان كولونيل يتلقى أمراً بتقديم استقالته . لن أقص عليك تفاصيل هذه الحكاية . فانما المهم أن هذا الرجل كان له فى الواقع أعداء . وقد

تكرت له المدينة كلها منذ تلك اللحظة ، وأظهرت له ولأسرته فتورا شديدا ، وصار الناس يتحاشونهم تحاشيهم مرضى مصابين بالطاعون ! وفي تلك الآونة انما ارتكبت غلطتى الأولى • ففى ذات يوم التقيت بأجائى ايفانوفنا التى ظلمت صديقا لها :

« - هل تعلمين أن الاموال التى فى عهدة أبىك تنقص أربعة آلاف وخمسمائة روبل ؟

فقال لى آجائى :

« - كيف هذا ؟ لماذا تقول هذا الكلام ؟ لقد جاء الجنرال مفتشا منذ مدة قصيرة ، فلم يكن المال ينقص كوبكا واحدا ••• قلت لها :

« - صحيح • كان المال كاملا يومذاك ، ثم اختفى • »
جزعت آجائى • وقالت :

« - لا تخفى ! من قال لك هذا الكلام ؟

فأجبتها :

« - اطمئنى ••• لن أقول لأحد كلمة واحدة • أنت تعلمين أنتى كالقبر صمتا حين يجب الصمت • ولكننى أحب أن تعرفى أيضا ما يلى :
إذا طولب أبوك بهذه الأربعة آلاف وخمسمائة روبل ، فلم يستطع أن يردّها فسيكون عليك - حتى لا يمثل أمام المحاكمة وحتى لا يُحكم عليه فى آخر عمره بأن يصبح جنديا بسيطا - سيكون عليك أن تبغى الى ، خفية ، بأختك الأنسة طالبة المدرسة الداخلية • لقد تلقيت منذ مدة قصيرة مبلغا ضخما ، سأتنازل لأبىك منه عن أربعة آلاف وخمسمائة روبل • وأحلف لك أن أحدا لن يعرف شيئا عن هذا الامر فى يوم من الايام •

هتفت تقول :

« يا للشقى ! ألا انك لشقى ! (تلك هي الكلمة التي استعملتها)
يا للعار ! يا للدناءة والجبانة ! كيف تجرؤ أن ... ؟ ، ، »

« وتركتنى مستاءة أعنف الاستياء ، وصحت أقول لها مرة أخرى
ان أحدا لن يعرف شيئا اذا وافقت ، واننى سأحافظ على السر محافظة
تامة ، وأكتمه كتماننا كاملا . يجب أن أقول لك فورا ان هاتين المرأتين ،
آجاتى وخالتها ، قد تصرفتا فى هذه القضية تصرف ملاكين . كاتتا فى
الواقع تعبدان كاترين المتكبرة عبادةً ، وتمجيان أمامها امحاءً ، وتسعيان
بين يديها كخادمتين ... ومع ذلك أسرع آجاتى تقص الحداث على
أختها ، أى تروى لها حديثى معها . عرفت ذلك فيما بعد . لقد قالت لها
كل شيء . وكانت تلك قضيتى كلها فى الواقع . »

« فى ذات يوم وصل ميجر جديد على حين فجأة ليستم قيادة
الكتيبة . وتمت الاجراءات المعتادة . فاذا بالليوتنان كولونيل العجوز
يمرض بغته ، ويعلن أنه لا يستطيع مبارحة السرير ، ولا يسلم أموال
الدولة . وقد أكد طبيينا كرافتشنكو أنه مريض حقا ، وأنه لا يتظاهر
بالمرض تظاهرا . ولكننى كنت أعرف حقيقة الامر ، فقد اطلمت على
تفاصيل المسألة سرا منذ زمن طويل : وهى أن المال يكون فى الخزانة
عند اجراء الحسابات فى موعدها من كل سنة ، ولكنه يختفى بعد ذلك
دائما الى حين ، وذلك منذ أربع سنين . لقد كان الليوتنان كولونيل
يقرض هذا المبلغ رجلا موثوقا أمينا من تجار المدينة هو الأرملة العجوز
تريفونوف ذو اللحية الطويلة والنظارتين الذهبيتين . فكان تريفونوف
يمضى بالمبلغ الى « المرض » فيعقد صفقات ويبرم أعمالا حتى اذا عاد الى
المدينة رد المبلغ المقرض الى الليوتنان كولونيل مضيفا اليه الفوائد وبعض

الهدايا • ولكن تريفونوف حين رجع هذه المرة من « المعرض » لم يردّ
المبلغ (عرفت هذه التفاصيل بمصادفة محضة من ابنه القدر الذي هو
وريثه والذي هو أفسد مخلوق في هذا العالم) • لم يرد تريفونوف
المبلغ اذن • فلما هرع اليه الليوتنان كولونيل يطالبه برد المال قال له
تريفونوف : « أنا لم أقترض منك شيئاً ، ولا كان في وسعي أن أقترض
منك شيئاً على كل حال » • فاذا بصاحبنا الليوتنان كولونيل يرقد في
فراشه ، ويغطي رأسه بمنشفة ، وتأخذ السيدات الثلاث تضع على صدغيه
نلجاً • وفجأة يصل الى منزله فرآش جاملاً دفتر الحسابات مع أمر بردّ
« أموال الدولة بغير ابطاء ، في غضون ساعتين على أكثر تقدير » • فيضع
العجوز توقيعيه على المذكرة المرسله اليه ، وقد رأيت توقيعيه بنفسى فيما
بعد ، ثم ينهض قائلاً انه يريد أن يرتدى بزته العسكرية ، فيمضى الى
غرفة نومه ، فيتناول بندقية صيد ذات طلقتين ، فيحشوها برصاص من
رصاص الحرب ، ويخلع حذاء قدمه اليمنى ، ويضع فوهة البندقية على
صدره ، ويتلمس الزناد باضبع قدمه • ولكن آجاتى التى ساورت فكرها
شبهات ، لأنها تذكرت الحديث الذى جرى بينى وبينها ، كانت قد تسلمت
وراءه خلسةً ورأت فى الوقت المناسب ما كان يريد أن يصنعه بنفسه ،
فهرعت الى الغرفة وارتمت على أبيها من خلف وأمسكت ذراعيه ، فانطلقت
الرصاصه فى اتجاه السقف لم تجرح أحدا • وهرعت المرأتان الأخريان
أيضا ، فتمت السيطرة على العجوز ، وانتزعت منه البندقية • • • لقد
رؤى لى هذا المشهد تفضيلاً فيما بعد • • • وكنت فى تلك اللحظة فى
مسكنى • وكان الوقت مساءً ، فأنا أستعد للخروج • لقد ارتديت ثيابى ،
وصففت شعرى ، وعطّرت مندبلى • • • وانى لأتناول قبعتى ، اذا بالبواب
يُفتح فجأةً ، واذا بكاترين ايفانوفنا أمامى ، فى مسكنى • • •

« ان مصادفات غريبة تقع فى هذه الحياة • • وبفضل هذه المصادفات

لم يرها أحد من سكان المدينة آتية اليّ ، فلم ينتشر خبر هذه الزيارة ، ولم يشع أمرها . كنت أسكن في شقة أجرتنيها أرملتا موظفين صغيرين ، طاعتان في السن جدا ، تخدماني باحترام وتعظيم واجلال ، وتطيعان أوامري طاعة عمياء . أمرتهما أن لا تنطقا بحرف واحد في أمر هذه الزيارة ، فكاتتا خرساوين كخرس الشبوط . أدركت كل شيء من أول نظرة طبعاً . دخلت الفتاة ، ونظرت اليّ وجهاً لوجه . كان في عينيها القائمتين عزم وحزم ، بل كان فيهما تحدٍ ووقاحة ، غير أن شيئاً من تردد كان يلم بشفتيها ويطوف حول فمها .

« - قالت لي أختي انك ستعطيني أربعة آلاف وخمسمائة روبل اذا جئت أطلبها منك بنفسى . فهأنا ذا جئت هات المبلغ ! ، ، .
 « لم تستطع أن تزيد على ذلك شيئاً ، فقد اختنقت وجزعت وتكسر صوتها وارتجفت شفتاها ، واختلج خذاها . أتصغى اليّ يا أليوشا أم تُراك نمت ؟

قال أليوشا مضطرباً :

- ميتياً ، أنا أعلم أنك ستقول لي الحقيقة كلها .

- سأقول لك الحقيقة ، اطمئن . سأقول لك الحقيقة ولن أدارى نفسى . اليك الحقيقة اذن : الفكرة الأولى التي ساورتني هي فكرة جديدة بواحد من آل كارامازوف . لقد اتفق لي في الماضي يا أختي أن لدغتي حشرة فرقدت في فراشي أسبوعين من الحمى . فاعلم أن حشرةً أخرى قد لدغتي في تلك اللحظة في القلب من جسدى هي الحشرة المفترسة الكاسرة ، هل تفهم ؟ شقلتُ الفتاة ببصرى . هل رأيتها ؟ انها جميلة جمالاً رائعاً ، ولكن ليس وجهها هو الذي بدا لي جميلاً عندئذ : لقد كانت في تلك اللحظة جميلة بنبل نفسها وعظمة روحها بالقياس اليّ

أنا الشقى ، كانت جميلة بالتضحية التي تقدمها في سبيل أبيها بالقياس الى أنا البقة الحقيرة ! وها هي ذى الآن تقع تحت سلطان هذه البقة ، ها هي ذى الآن خاضعة خضوعاً كاملاً لي أنا ، أنا الشقى ، خاضعة كلها ، جسماً وروحاً . انها كلها تحت رحمتي . . . سأعترف لك بالحقيقة من غير لف ولا دوران : ان هذه الفكرة التي خطرت ببالي ، ان فرحة الحشرة هذه التي نبث في نفسي ، قد استولت على في أول الامر استيلاء تاماً وملأت قلبي الى حيث أوشك أن ينفجر من فرط التوتر . بدالى أنه ليس ثمة مجال لمقاومة ، وأنه لم يبق لي الا أن أتصرف تصرفاً بقية ، تصرفاً رتيلاً مقترسة ، بغير شفقة ولا رحمة . . . وكادت تنقطع من ذلك أنفاسي . افهمني حق الفهم . . . انه لبديهي أنتى لو فعلت لمضيت أخطبها منذ الغد ، لأختم هذه المغامرة بأناقة ونبل ان صح التعبير ، فما يعلم أحد بما جرى ، ولا تخطر بالبال أية شبهة في أى مكان . صحيح أن لى شهوات دينية ، ولكننى مع ذلك رجل شريف . غير أنتى في تلك اللحظة سمعت كأن صوتاً يهمس في أذنى قائلاً : دعك من هذا . . . ان هذه المرأة لن تستقبلك اذا ذهبت تخطبها في الغد ، وستكفى بأن تأمر حوزيتها بأن يخرجك مطروداً . ستقول لك : افضح سمعتى ، وشهري بى في المدينة كلها ، فأنا لا أخاف منك ، . ألقىت نظرة على الفتاة ، فأدركت أن ذلك الصوت لم يكذبنى ، فذلك بعينه ما سيحدث . لسوف أطرده شر طردة : اننى أقرأ هذا فى عينيها منذ الآن . استولى على حق مسعور حين خطرت ببالي هذه الفكرة ، فاشتبهت فجأة أن أقوم بأحقر وأسفل عمل ممكن ، أن أقوم بعمل خليق بصاحب دكان : أنظر اليها مبتسماً وأدمرها تدميراً فى مكانها ، هنا ، أمامى ، قائلاً لها بلهجة لا يجيدها الا صاحب دكان :

« - أجتت حقاً من أجل أربعة آلاف روبل ؟ أنا قلت ما قلته مازحاً

عائياً يا آنسة ! ألا انك قد برهنت اذن على خفة وطيش حين حملت كلامي
محمل الجد ! ماثا روبل ، معقول ! ... لو سألتني أن أعطيك مائتي
روبل لفعلت ، ولفعلت مسرورا ... أما أربعة آلاف روبل يا آنسة ،
فذلك مبلغ أضخم من أن نهينه هذه الاهانة من أجل أمور تافهة كهذه !
لقد أزعجت نفسك في غير طائل يا آنسة !

« هل ترى يا أليوشا ؟ لو قد قلت لها هذا الكلام لضاع كل شيء
طبعاً ! كانت ستهرب ... ولكنني أكون قد ثارت لنفسي ثأراً رهيباً ،
وأكون قد أرضيت كرامتي الجريحة ارضاءً جهنمياً ! كنت سأظل أبكي
طوال حياتي بعد ذلك ، حنقاً وحسرة وأسفاً ، ولكنني لو قلت لها ذلك
الكلام لاستطعت على الأقل أن أتصر عليها في تلك اللحظة انتصاراً
ساحقاً ! صدقني اذا قلت لك انني لم يتفق لي يوماً أن نظرت الى أية
امراة في ظرف كهذا الظرف نظرةً فيها كره ، أما في تلك المرة فقد
لبثت ثلاث ثوانٍ أو خمساً أتفرس فيها وأنا أشعر بكره رهيب ...
أحلف لك ... هو ذلك النوع من الكره الأهوج الطائش الذي لاتفصله
عن الحب الجامح المجنون الا شعرة ! اقتربت من النافذة ، ووضعت
جيني على زجاجها البارد ... انني أتذكر الآن أن ملامسة الزجاج
المتجلد قد أحدثت لي احساساً بحرق قوي . اطمئن : لم أبقها عندي
طويلاً . التفت ، واتجهت نحو منضدتي ، ففتحت الدُرَج وأخرجت
منه الحوالة التي كنت قد أودعتها معجى الفرنسي ، وهي بمبلغ خمسة
آلاف روبل تدفع « لحامله » . أريتها الحوالة دون أن أنطق بكلمة
واحدة ، ثم طويتها وأعطيتها اياها . وبعد ذلك فتحت باب المر بنفسي ،
ثم تراجعمت خطوة الى وراء ، وحيثها منحنيًا حتى الحزام ، تحيةً فيها
أعظم الاحترام ... تستطيع أن تصدق ذلك ! ... ارتعشت الفتاة من
أخصص قدميها الى قمة رأسها ، وحدقت الى لحظةً ، وانكفاً لونها انكفاءً

رهيباً ، ثم اذا هي ، على حين فجأة ، دون أن تنطق بكلمة واحدة ، ودون أن تظهر شيئاً من خشونة ، تنحنى هي أيضا ، برفق وعمق ، فما تزال تميل حتى يلامس جبينها الأرض ، فتحيني ساجدةً هذا السجود ، لا على طريقة آنسةٍ تعلمت في مدرسةٍ داخليةٍ ، بل على الطريقة الروسية . ثم نهضت بوثة واحدة ، وولت هاربة . وكنت حاملاً سيفي في تلك اللحظة فسئلته ووددت لو أعمدته في صدري . لماذا ؟ لا أدري ! لو قد فعلت لكان هذا مني حماقة طبعاً ، ولكن أحسب أن ذلك كان ثمرة الحماسة . هل تفهم أن من الممكن أن يقتل الانسان نفسه في بعض لحظات الحماسة ؟ على أنني لم أفعل شيئاً من ذلك ، واكتفيت بأن قبلت السيف ، ثم أعدته الى غمده . تلك تفاصيل لم يكن من الضروري أن أرويها لك على كل حال . ويحيى الى أنني قد زخرفت دوري قليلاً حين وصفت لك تلك الصراعات كلها ، وأنتي قد أضفت عدة أشياء لأمجد نفسي . لا ضير لنسلم بهذا تباً لجميع الجواسيس على قلب الانسان ! تلك هي « مغامرتي » مع كاترين ايفانوفنا ! اثنان يعرفانها الآن : أنت وأخي ايفان ولا أحد يعرفها سواكما !

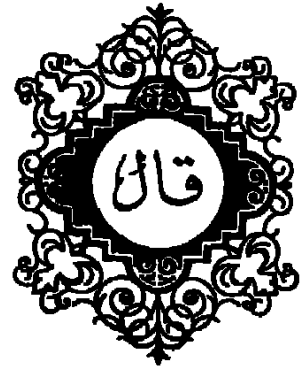
نهض دمترى فيدوروفتش ، وسار بضع خطوات ، مضطرباً اضطراباً شديداً ، وأخرج منديله فجفف به جبينه . ثم عاد فجلس ، لكنه لم يجلس في المكان الذي كان يجلس عليه حتى تلك اللحظة ، وانما جلس على المقعد المواجه ، المستند الى الجدار المعارض ، فاضطر أليوشا أن يستدير حتى يقابله وجهاً لوجه .

٥

اعتراف قلب حمار « والقديمان في الفضاء »

أليوشا :

- الآن عرفت الجزء الأول من القصة •
- عرفت الجزء الأول ، وهو درامة مُثَلَّت في مدينة أخرى • أما الجزء الثاني فهو تراجميدية ستجرى أحداثها هنا •



قال أليوشا :

- لم أفهم حتى الآن شيئاً من هذا الجزء الثاني •
- وهل تظن أنني ، أنا نفسي ، أفهم من هذا الجزء الثاني شيئاً كثيراً ؟
- لحظةً يا دمترى • هناك عنصر أساسي • قل لي : أنت خطيها ، أليس كذلك ؟ وما زلت خطيها ؟
- لم أخطبها فوراً ، وإنما خطبتها بعد الحادث بثلاثة أسابيع • قلت لنفسي غداً ذلك اليوم ان كل شيء قد انتهى ، وأنه لن يكون لما وقع تمة ، فان مضيت أخطبها كان ذلك حطة وصغاراً • وهي ، من جهتها ، لم تحرك ساكناً طوال الأسابيع الستة التي قضتها في المدينة بعد ذلك ،

ولا أشعرتني بوجودها ، اللهم الامرة واحدة في الواقع : ففي اليوم الذي أعقب زيارتها جاءتني خادمتها وأعطتني حزمة دون أن تنطق بكلمة واحدة • قرأت على الحزمة عنواني • • وفضضت الحزمة فوجدت فيها بقية الخمسة آلاف روبل • لقد كانت في حاجة الى أربعة آلاف وخمسمائة فقط ، فباعَت السند بخسارة قدرها أكثر من مائتي روبل («عمولة» صرف السند) ، ثم أرسلت الى الباقي وهو مئتان وستون روبلاً فيما أظن ، ولكنني لا أتذكر مقدار المبلغ تذكرًا واضحًا • لم يكن في الحزمة الا المال • • • لم يكن فيه كلمة شرح واحدة • بحثت في داخل الحزمة عن أية اشارة ولو بالقلم الرصاص ، فلم أظفر بشيء • ما العمل ؟ اندفعت ألهو وأقصف مزيدا من اللهو والقصف ، وبلغت من ذلك حدًا اضطر معه الميجر الجديد أن يقرعني تقرعًا شديدًا • أما الليوتنان كولونيل فقد ردَّ أموال الدولة كاملةً لا تنقص كوبكا واحدا ، فدهش جميع الناس ، لأنهم كانوا مقتنعين بأنه لا يملك هذا المبلغ • وما لبث بعد ردَّ المال أن مرض فلزم فراشه وظل راقدا ثلاثة أسابيع ثم أصيب بضمور دماغى على حين بفته فمات بعد خمسة أيام • وقد شيعت جنازته تشييعا عسكريا لأن وقته لم يكن قد اتسع لتقديم الاستقالة التى طلب اليه أن يقدمها • وسافرت كاترين ايفانوفنا الى موسكو بعد دفن أبيها بعشرة أيام ، تصحبها أختها وخالتها • وفي تلك اللحظة فقط (فأننى ما رأيتهن مرةً أخرى ولا ودعتهن فى المحطة) انما تلقيت منها بطاقة صغيرة من ورق أزرق هو ورق الرسائل الأنيق ذى الحافة المخرَّمة الجميلة ، وقد كتب على البطاقة سطر واحد بالقلم الرصاص : « سأكتب اليك • انتظر رسالتى • - ك » • ذلك كل شيء •

سأسرد عليك التمة مقتضبا موجزا • فى موسكو تغير حالهن بين عشية وضحاها ، تغيراً مفاجئاً لا يعرف المرء له مثيلا الا فى الحكايات

الشرقية • لقد فقدت قريبتها الجنزالة ابنتي أختها على حين فجأة ، وهما أقرب ورتها إليها ، فقدتهما مصابتين بجدرى الماء الذى خطف الأولى ثم خطف الثانية بعد أيام قليلة ، فاهتزت الجنزالة اهتزازا عميقا لهذا المصاب وتألمت ألماً شديداً ، فاحتضنت كاترين وفرحت برؤيتهما كأنها ابنتها ، وأصبحت كاترين عندها هى الأمن والسلام لها فى وحدتها الموحشة وعزلتها الكئيبة • استولت الجنزالة على كاترين ، وسرعان ما كتبت وصية جديدة لمصلحتها • على أن الوصية ليست الا آمالاً • غير أن العجوز وهبت لها كذلك أربعة وعشرين ألف روبل أعطتها اياها بغير ابطاء ، بحجة أن هذا المبلغ مهر لها ، من أجل أن تستطيع التصرف فيه على ما يشاء لها هواها • كانت الجنزالة امرأة هستيرية ، وقد أتيح لى أن ألاحظها بعد ذلك فى موسكو • فى ذات يوم ، تلقيت بالبريد أربعة آلاف وخمسمائة روبل ، فدهشت أشد الدهشة وذُهلّت أكبر الدهول ، لأننى لم أفهم من الأمر شيئاً • وبعد تلقي المال بثلاثة أيام وصلتني الرسالة الموعودة • ان الرسالة معى الآن ، فأنا أحملها دائماً ، وسأحتفظ بها حتى الممات • هل تريد أن ترى الرسالة ؟ اقرأها ؟ • • • اننى أحرص على أن تقرأها حتماً : ان كاترين ايفانوفنا تعرض علىّ فى هذه الرسالة أن تصبح خطيبتى ، تعرض علىّ هذا بنفسها رأساً • كتبت تقول ما معناه : « اننى أشعر نحوك بحب لا حدود له • ولست أطلب منك أن تعجنى اذ كنت لا تستطيع ذلك • كل ما أطلبه منك هو أن توافق على أن تتزوجنى • لا تخش شيئاً : فاننى لن أزعجك ، ولن أكون الا قطعة أثاث فى منزلك ، لن أكون الا السجادة التى سوف تمشى عليها • • • اننى أريد أن أحبك الى الأبد ، اننى أتمنى لو أنقذك من نفسك • • • لا أستحق يا أليوشا أن أكرر هذه الأسطر التى كتبتها لى ، لا أستحق أن أرددها بألفاظي القذرة ، بهذه النبرة الحقيرة التى لازمتنى طوال حياتى والتى لن أستطيع التخلص

منها فى يوم من الايام ! لقد حطمت تلك الرسالة قلبى ، فما يزال ينزف بتأثيرها حتى الآن • أتظن أنتى مرح النفس فى هذه الأيام ، وأن وضعى لا يعذبنى عذاباً شديداً ؟ ولقد أسرعت أجيبها (لأننى كنت لا أستطيع أن أسافر الى موسكو فوراً) ، كاتباً لها من خلال الدموع • غير أن هناك شيئاً سأظل أشعر منه بالخزى والعار ما حيت • لقد ذكرت فى رسالتى التى بعثت بها اليها أنها أصبحت تملك الآن نروة طائفة ، وأن لها بائنة ضخمة ، أما أنا فلست الا ضابطاً فقيراً ليس له علاقات • نعم ، لقد كلمتها عن المال ، كلمتها هى عن المال ! ••• كان ينبغى لى أن أسكت ، كان ينبغى لى أن أقبل هذا التفاوت بينى وبينها صامتاً ، ولكن هذا الكلام قد أقلت منى رغم أنفى ••• وكتبت فى الوقت نفسه الى ايفان الذى كان يومئذ بموسكو • عرضت عليه الموقف عرضاً دقيقاً فى حدود الامكان - ضمنت الرسالة ست صفحات - وكلفت ايفان أن يذهب اليها • لماذا تنظر الى هكذا ؟ ما بالك تحملق هذه الحلقمة ؟ نعم ••• لقد وقع ايفان فى حبها ، وما يزال يحبها ، أنا أعرف ذلك ••• فى رأيكم أتم وفى رأى الناس أنتى ارتكبت بهذا حماقة كبرى ••• ولكن من الممكن أن تكون الحماسة هى الآن سييلنا الوحيد الى الخلاص جميعاً ! ألسنت ترى مدى ما تكنه له من تقدير ، بل وما تحمله له من اعجاب ؟ كيف يكون فى وسعها اذا هى وازنت بينى وبينه ، أن تحب رجلاً مثلى ولا سيما بعد كل ما حدث هنا ؟

- أما أنا فأعتقد أنها لا تستطيع أن تحب الا رجلاً مثلك أنت لا مثله

• هو

- هى ؟ لا ••• انها لا تحبى أنا ، وانما تحب نبل نفسها وأريحية

قلبها وشهامة روحها •••

ذلك ما أقلت من لسان دمترى فيدوروفتش مع شىء يشبه أن يكون

كرهاً • ثم سرعان ما أخذ يضحك ، ولكن عينيه سطعتا بعد بضع ثوان ، واحمر وجهه ، وضرب المائدة بقبضة يده ضربة عنيفة ، وصاح يقول بغضب رهيب على نفسه ، غضب رهيب لكنه صادق :

– أحلف لك يا أليوشا ••• صدّق أو لا تصدق ••• أحلف لك صادقاً صدقاً وجود الله وصدق أن يسوع المسيح ربنا ، أحلف لك أنتى ، مهما أكن قد سخرت منذ لحظة بعواطفها الرفيعة ، أعلم حق العلم أنتى لا أرقى الى مستوى كعب قدمها ، وأن نفسى لا تعدل جزءاً من مليون جزء من نفسها ، وأن لها من صدق نبل القلب ما لا ينعم به الا ملاك من ملائكة السماء ! وان يقينى من هذا هو بعينه مأساتى كلها !••• أى ضير فى أن يحب الانسان العبارات الجميلة وأن يشوبَ أظهرَ اندفاعاته شيء من تمثيل ؟ أأستعمل أنا عبارات مصطنعة ؟ ومع ذلك فأنا صادق ، صادق جداً • أما ايفان فانتى أتخيل أنه فى هذه الساعة يلعب الطبيعة ولا شك ، يلعب الطبيعة هو الرجل الذكى ذلك الذكاء كله ! من الذى تفضله المرأة ؟ ما الذى تؤثره المرأة ؟ انها تخصص بايثارها الانسان النذل الذى هو أنا ، الانسان الذى برهن هنا ، وهو خاطب ، على عجزه عن أن يتحكم بميله الى الدعارة والفجور ، رغم ايثارة خطيئته ، هل تفهم ؟ نعم ••• رغم ايثاره خطيئته ••• فهذا هو الرجل الذى يُؤثر ، أما الآخر فيبعد ••• ولماذا ذلك كله ؟ لأن فتاة من الفتيات تريد أن تتحدى قدرها ، وأن تقهر سعادتها ! سخف ! أنا طبعاً لم أطلع ايفان على خواطرى هذه فى يوم من الأيام ، ولا هو اعترف أى اعتراف أو أشار أية اشارة حول هذا الأمر • ولكن يجب أن ينال كل واحد منا نصيبه ، فأما الأفضل فيحتل المكان الذى يستحقه ، وأما الآخر الذى لا يستحق ذلك المكان فينوص فى الأزقة المظلمة ، ويختفى من حياتهما الى الأبد • ان هذا الآخر سيجد له مأوى فى الأزقة الموبوءة العفنة التى

يجبها ، والتي تستهويه وتجذبه اليها ، والتي يشعر فيها أنه فى بيته ،
 ليهلك هنالك فى البقارة المقرزة راضيا عنها مثلنذا بها • اننى أسترسل
 الآن فى عبارات جوفاء ، وأقول ألفاظاً بالية أجمعها من هنا وهناك • ولكن
 الأمور ستجرى هذا المجرى الذى أصفه • سأعطس أنا فى الحضيض ،
 وستزوج هى ايفان •

قاطعته أليوشا مرة أخرى يقول وقد اضطربت نفسه اضطرابا
 شديدا :

– لحظةً يا أخى ! هنالك نقطة لم تشرحها لى مع ذلك حتى الآن :
 أنت خطيها ، أليس كذلك ؟ أنت خطيها رغم كل شىء ••• فكيف
 يخطر ببالك والحالة هذه أن تفصم خطبتك اذا كانت هى ، خطيتك ،
 لا تريد ذلك ؟

– أنا خطيها ، هذا صحيح • وقد احتفلنا بخطوبتنا وفقاً لجميع
 القواعد المقررة ، وثلنا جميع المباركات المألوفة المعهودة • تمّ ذلك فور
 وصولى الى موسكو ، تمّ فى كثير من الأبهاء وسط كثير من الأيقونات
 مع عدد كبير من المدعوين هم صفوة المجتمع وخيار القوم • وقد باركتنا
 الجنرالة ، حتى لقد هنأت كاترين ايفانوفنا – هل تصدق ذلك ؟ – هنأتها
 قائلة لها : « أحسنت الاختيار يا بنيتى ••• اننى أرى قرارة نفسى هذا
 الفتى • • • أما ايفان فقد ناصبته العداة – هل تتصور ؟ – ولم ترض أن
 تهته ••• وقبل أن أترك موسكو جرت بينى وبين كاتيا أحاديث طويلة ،
 فكشفت لها عن نفسى كاملة بنبل واخلاص ، ووصفت لها أخلاقى وصفا
 دقيقا صادقا ، فكانت تصنى الى ما أقول بانتباه شديد •

فكان اضطراب وكانت دموع
 وكان كلام رقيق وديع

وكان كذلك كلاماً فيه كبرياء وخيلاء • وأجبرتني على أن أقطع
على نفسي عهداً لأصلحنّ حالي • قطعت لها على نفسي ذلك العهد •
وهأنت ذا ترى •••
- ماذا ؟

- لقد ناديتك اليوم ، ودعوتك أن تجيء الى هنا في هذا النهار
- تذكر التاريخ - من أجل أن أوفدك قبل حلول المساء الى كاترين
ايفانوفنا ، فبلغها •••
- أبلغها ماذا ؟

- انني لن أذهب اليها بعد اليوم قط • وانقل اليها تحيتي
• واحترامي •

- ما هذا الكلام ؟ أهذا ممكن ؟

- هو ممكن لأن من غير الممكن أن أذهب اليها بنفسى ، فما عساني
قائلاً لها ، وكيف أستطيع أن أقول هذا الأمر ؟

- وما الذى ستفعله بعد ذلك ؟

- أضيع نفسي فى الأزقة !

- هي اذن جروشنكا ! ستذهب الى جروشنكا ؟

بهذا هتف أليوشا سائلاً بلهجة مرة وهو يضم يديه احدهما الى
الأخرى • وتابع كلامه :

- أياكون ما قاله راكيتين هذا صحيحاً وا أسفاه ! أعترف لك بأننى
قد خطر ببالي أنك قد ارتضيت الانسياق الى منزلها ، ولكننى كنت آمل أن
تكون قد سئمتها أخيراً •

- الانسياق الى منزلها ؟ هل يستطيع خطيب أن يرتضى الانسياق الى منزلها ؟ أتظن أن هذا ممكن ومقبول ، على مرأى ومسمع من جميع الناس ، لا سيما والخطيبة فتاة كذلك الفتاة ؟ ان لى شيئا من شرف رغم كل شيء . صحيح أنني منذ اللحظة التي بدأت أختلف فيها الى جروشنكا قد فقدت صفة الخطيب وفقدت صفة الانسان الشريف . ذلك أمر أفهمه كل الفهم . ما بالك تنظر الى هكذا ؟ اعلم اننى حين ذهبت اليها أول مرة انما ذهبت اليها لغرض واحد هو أن أضربها . كنت أعلم وما زلت أعلم علم اليقين أن ذلك الضابط الذى يكلفه أبى بقضاء أعمال له ، قد أعطى جروشنكا سنداً مهوراً بامضائى ، لتطالب بملاحقتى فتضطررنى بهذه الوسيلة أن أمتسح . لقد أرادوا تخويفى . لذلك قررت أن أؤدبهم وكنت قد رأيتها مرة من بعيد ، فلم تحدث فى نفسى أثراً كبيراً لأول وهلة ، وكنت أعرف وجود صاحبها ذاك التاجر العجوز ، الذى هو الآن مريض راقد فى فراشه قد بارحته قواه ، ولكنه سترك لها مع ذلك بعد موته كنزاً كبيراً ؟ وكنت أعلم أيضاً أنها تحب المال حباً عظيماً ، وتحاول أن تبيع المزيد منه بالاقراض برىبا فاحش لا يعرف الشفقة ولا الرحمة ، هذه الوغدة ، هذه الحقيرة . . . فذهبت اليها لأضربها . . . فاذا أنا أؤخذ بها . . . كان الأمر صاعقة أو نازلة أو طاعونا أو ماشئت فسمه . . . ولكننى قد أٌصبت وما أزال . وأنا أعلم أن لا مهرب لى منذ الآن ، وأن كل شيء قد انتهى ، فأنا أسير هذه المرأة ولن أرى فى الحياة بعد اليوم شيئاً سواها . . . وقد اتفق عرضاً فى تلك اللحظة ، كأنما على عمد وقصد ، أن كان معى ثلاثة آلاف روبل ، أنا الذى لست الا شحاذا . . . فذهبتنا معا الى موكرويه التى تبعد عن هنا مسافة خمسة وعشرين فرسخاً ، فاستدعيت هنالك غبجراً ، رجلاً ونساء ، وفتحت زجاجات شمبانيا ، فأخذت أسقى جميع الفلاحين وجميع الفلاحات وجميع البنات ،

أسقى بسخاء ، بوفرة ... كنت لا أحسب ما أنفق من مال ، فمئات الروبلات تذهب بعضها وراء بعض ، فما هي الا ثلاثة أيام حتى خلا وقاضى فلم يبق معى شيء ... ولكننى كنت أحسب أننى قد غزوت هذه المرأة واستوليت عليها . فهل تظن أننى قد وصلت معها الى شيء ، هل تظن أننى ظفرت منها بشيء ؟ أبدا ... لم أتل منها شيئا البتة . لقد رفضت ، بل لم تتنازل حتى أن أتأمل جمال جسدها معجبا به عن بعد ! ان لها قواما ... أوه ... لن أقول لك الا هذا ... قواما ... ان فى جسمها نوعا من تنين تراه فى الساق أيضا ، وتراه حتى فى الاصبع الصغير من قدمها اليسرى . لقد رأيت هذا الاصبع ، وقبلته ... ولكن ذلك كان كل شيء ، أحلف لك . كانت تقول لى :

« - أتزوجك اذا شئت ، رغم فقرك - عدتى بأن لا تضربنى ، وبأن تدع لى أن أفعل فى المستقبل ما يحلو لى ، فربما قبلت عندئذ أن أصبح زوجتك . »

« كانت تقول ذلك ضاحكة ، وهى ما تزال تضحك الى الآن ! » .

نهض دمترى فيدوروفتش على حين فجأة وقد بدا عليه نوع من غضب مسعور . أصبح كالسكران دفعة واحدة . احتقنت عيناه دماً .

- وهل ترفض أنت أن تتزوجها ؟

- اذا وافقت تزوجتها فورا ؟ واذا رفضت بقيت الى جانبها ولو

خادماً . هل تعلم أنت ... أنت ...

توقف دمترى فيدوروفتش فجأة أمام أليوشا ، فأمسكه من كتفيه ، وأخذ يهزه بكل ما أوتى من قوة ...

- هل تعلم ، أيها الطفل البريء ، هل تعلم أن هذا كله ليس الا

هديانا ، ليس الا كلاما يدل على جنون ، وأن الأمر فى الواقع أمر مأساة ؟

اسمع يا أليوشا : أنا رجل دنىء منحط تستبد به رغبات حقيرة وتضييعه شهوات سافلة ، أما أن أكون لصاً صغيراً ، أما أن أكون لصاً صغيراً شقيماً ، فذلك ما لن يرضاه دمترى كارامازوف لنفسه في يوم من الأيام ! ألا فاعلم اذن أنني لص صغير يسرق المال من على منضدة أو من جيب سترة معلقة ! ففي ذلك الصباح الذي ذهبت فيه الى جروشنيكا لأضربها ، كانت كاترين ايفانوفنا قد استدعتني الى منزلها سرا ، وكلفتني (راجية أن أنفذ طلبها في الخفاء فما يعلم به أحد) ، أن أذهب الى مركز الاقليم فأرسل هناك بالبريد ثلاثة آلاف روبل الى أختها آجاتي ايفانوفنا بموسكو . ذلك أنه كان يجب أن لا يطلع أحد من سكان مدينتنا على هذا الامر . فهذه الثلاثة آلاف روبل هي التي كانت في جيبى حين ذهبت الى جروشنيكا ، وبهذه الثلاثة آلاف روبل انما مضيت أنا وجروشنيكا الى موكرويه . ولقد تظاهرت بعد ذلك بأننى ذهبت الى مركز الاقليم ، ولكننى لم أستم كاترين ايفانوفنا ايصال البريد ، وانما أكدت لها أنني أرسلت المال ووعدها بأن آتيها بالايصال في يوم آخر . ولم أعطها الايصال طبعاً حتى هذه الساعة ، متعللاً بالنسيان . فتخيل الآن أنك ذهبت اليها اليوم ، فنقلت اليها تحيتى واحترامى ، فسألتك : « والمال ؟ » ، فما عساك قائلاً لها ؟ - أنت شقى يا ميتيا . . . هذا أكيد ! ولكن لا تبالغ ! ان البلية أهون مما تظن . لا تدع لليأس أن يصعقك ، لا تدع لنفسك أن تتحطم هذا التحطم !

- أتراك تظن أنني سأنتحر لأننى لن أستطيع أن أجد ثلاثة آلاف روبل أردتها الى كاترين ؟ ألا ان البلية بعينها هي أنني لن أنتحر ، لن أنتحر الآن على كل حال ، فلست أملك من القوة ما يمكننى من الانتحار . لا أحد يدري ما قد أفعله في المستقبل . أما الآن فأننى لا أفكر الا فى الذهاب الى جروشنيكا . . . وليكن ما يكون !

– وما الذى ستفعله عندها ؟

– أصبح زوجها • أنال هذا الشرف • فاذا جاء عشيقها يزورها
اختبأت فى الغرفة المجاورة • وسأنظف أحذية أصدقائها ، وسأغلى الماء
فى السماور ، وسأتولى شراء ما تكلفنى بشرائه من أشياء صغيرة •••

قال أليوشا بصوت مهتاج :

– ان كاترين ايفانوفنا ستفهم كل شيء ، ستفهم مدى شقائك ،
وستغفر لك • ان لها ذكاء فذاً • لا يمكن أن يكون أحد أشقى منك ،
وستدرك هى هذا !

فأجابه ميتيا يقول بلهجة مرة :

– لن تغفر لى قط • هناك أشياء لا يمكن أن تقبلها وأن ترتضيها
أية امرأة • هل تعرف ما هو أفضل شيء يجب أن نعمله ؟

– ماذا ؟

– أن نرد اليها الثلاثة آلاف روبل •

– ولكن من أين نجىء بهذا المبلغ ؟ اسمع: اننى أملك ألفى روبل،
ولا شك أن ايفان سيعطى ألفاً آخر ، فيكون المجموع ثلاثة آلاف • خذ
هذه الآلاف الثلاثة ورددّها اليها •

– ولكن متى تصبح هذه الآلاف الثلاثة فى جيبيك ؟ انك ما زلت الى
الآن قاصراً ، ولا بد حتماً أن تذهب اليها موفداً منى ، فى هذا اليوم
نفسه ، بالمال أو بدون المال، لأننى أصبحت لا أطيق احتمال هذا الوضع •
لقد بلغت الأمور حدّاً لا أملك معه أن أنتظر مزيداً من الانتظار • فى
غد سيكون الأوان قد فات ، سيكون قد فات • سوف أرسلك الى أبينا •

– الى أيننا ؟

– نعم ، تذهب اليه قبل أن تذهب اليها ، وتطلب منه هذه الثلاثة آلاف روبل •

– ما هذا الكلام يا ميتيا ؟ انه لن يعطيك المبلغ بحال من الاحوال •
– أقدّر ذلك • هل تعلم يا أليوشا ما هو اليأس ؟
– أعلم •

– فاسمع اذن : اننى أعلم أن أبانا ليس مديناً لى بشى من الناحية القانونية ، فقد أخذت حقوقى كاملة • ولكنه مدين لى من الناحية الأخلاقية ، أليس كذلك ؟ لقد شق طريقه فى الحياة بمبلغ الثمانية وعشرين ألف روبل التى خلفتها أمى ، فجنى من استثمار هذا المبلغ مائة ألف • فليعطنى من هذه الثمانية وعشرين ألفاً ، فليعطنى ثلاثة آلاف فقط ، لا أكثر من ذلك ، فينقذ روحى من هذا الجحيم ، وتغفر له بذلك خطايا كثيرة فى مقابل ذلك ! وأقسم لك يمينا لا مين فيه أننى سأختفى متى ملكت هذه الآلاف الثلاثة ، فما يرى وجهى بعدئذ ولا يسمع عنى • هذه آخر فرصة أتيجها له ليتصرف تصرف أب • قل له ان الله نفسه هو الذى يهب له هذه الفرصة •

– أوه ••• ميتيا ••• انه لن يعطيك المبلغ بحال من الأحوال •
– أعلم أنه سيرفض أن يعطى المبلغ • أنا من ذلك على يقين مطلق ، اليوم أكثر من أى وقت مضى ! بل اننى أعلم شيئاً آخر أيضاً : لقد بلغه منذ زمن قصير جدا ، فى الأيام الأخيرة ، ربما أمس فقط ، أن جروشسكا تتكلم جادة حين تعلن أنها تريد أن تتزوجنى • فلأول مرة ، أدرك « فعلاً » (« فعلاً » ، لاحظ كلمة « فعلاً » هذه) ، أنها لا تمزح ، أنها لا تهزل ، وأنها قد تتزوجنى حقا • انه يعرف طبعها ، انه يعرف طبعها ، انه يعرف أية قطة هى ! فهل يمكن أن يعطينى مزيدا من المال ليشجعها

على انفاذ هذه النية ، وهو مجنون بها هيأماً ؟ وليس هذا كل شيء ، فسأقول لك المزيد : أنا أعلم أنه ، منذ خمسة أيام ، قد سحب من البنك ثلاثة آلاف روبل ، وأبدلها أوراقاً نقدية من ذات المائة روبل ، فوضعها في حزمة كبيرة مختومة ، وربط الحزمة بشريط أحمر متصلب في الاتجاهين . هأت ذاً تلاحظ اننى مطلع على أدق التفاصيل ! وقد كتب على الحزمة هذه العبارة : « الى ملاكى جروشكا ، اذا هى رضيت أن تنجىء » . كتب هذه العبارة بخط يده فى كثير من العناية ، وفعل ذلك كله سرأ فى الخفاء ، فما من أحد يخطر بباله أن هذا المبلغ يوجد الآن عنده ، ما من أحد يعرف هذا الأمر الا الخادم سمردياكوف الذى يتق به ثقته بنفسه . وهو الآن ينتظر مجيء جروشكا منذ ثلاثة أيام أو أربعة أملاً أن يجتذبها هذا المبلغ . لقد أبلغها أنه يضع هذا المبلغ تحت تصرفها ، فأجابته بأنها « قد تعزم أمرها » . ولكن اذا ذهبت الى العجوز فكيف أستطيع أن أتزوجها بعد ذلك ؟ فهل أدركت الآن لماذا أختبئ فى هذا المكان مترقباً مترصدآ ؟

– أترصدها هى ؟

– نعم . ان هاتين العجوزين الشمطاوين ، صاحبتى المنزل ، قد أجرتا توماس غرفةً من بيتهما الصغير ، وتوماس هذا رجل من مدينتنا كان قد خدم جندياً تحت امرتى ، وهو لهما الآن بمثابة خادم وحارس فى الليل . انه فى النهار يمضى الى صيد ديوك الخلنج فيجنى من ذلك بعض الرزق . وأنا الآن مقيم عند توماس هذا . فلا هو ولا العجوزتان يعرفون السر ، أو يخطر ببالهما أننى هنا أترقب وأترصد .

– هل سمردياكوف وحده مطلع على الأمر ؟

– وحده . ثم انه سيلفنى مجيئها بإشارة سريعة اذا هى جاءت .

– أهو الذى حدثك عن تلك الحزمة ؟

– نعم ، فى الخفاء • وايفان نفسه لا يعرف شيئاً عن المال وعن بقية الأمر • لقد قرر العجوز أن يرسل ايفان الى تشرماشنيا يوماً أو يومين • لقد جاء اليه أحد المشترين يعرض عليه قطع أخشاب بمبلغ ثمانية آلاف روبل ، فألحَّ العجوز على ايفان قائلاً له : « اذهب الى هناك نيابةً عني • قدم لي هذه الخدمة » • وانما يهدف العجوز الى ابعاده بضعة أيام بغية أن لا يكون حاضراً حين تجيء جروشنيكا •

– أهو ينتظر اذن أن تجيء اليه جروشنيكا اليوم كما انتظر فى الأيام الماضية ؟

– لا ••••• لن تجيء اليه اليوم • هنالك قرائن تثبت لى ذلك • لن تجيء اليوم حتماً (كذلك صاح ميتيا فجأة) • وهذا رأى سمردياكوف أيضاً • ولا بد أن يكون الأب جالسا الآن الى المائدة يسكر ، والى جانبه أخونا ايفان • اذهب اليه يا ألكسى ، واطلب منه هذه الآلاف الثلاثة •••••

– ميتيا ، عزيزى ، ماذا دهاك ؟

بهذا صاح أليوشا وهو ينهض فجأة ، ويتفرس فى دمترى فيدوروفتش الذى أصبح خروجه عن طوره واضحا • (حتى لقد خطر ببال أليوشا أن أخاه قد جُن) •

قال دمترى فيدوروفتش ببطء فيه ما يشبه الأبهة والجلال وهو يحدق الى أخيه هادئاً :

– اطمن • ما زلت أملك عقلى كاملاً • لا تخش شيئاً • أنا أعرف ما الذى أعمله حين أرسلك الى أبينا • اننى أعتقد بحدوث معجزة •

– معجزة ؟

- معجزة الهية • ان الله يعرف ما بقلبي ، ويعلم ما أنا فيه من كرب
وكمد ويأس • انه يرى ما يجرى هنا • فلن يرضى - أنا واثق من
هذا - لن يرضى أن يتم هذا الأمر الفظيع • اننى أو من بالمعجزة يا أليوشا !
اذهب اليه •

- سأذهب • هل ستنتظرنى هنا ؟

- سأنتظر • أنا أعلم أن الأمر سيستغرق زمناً ، وأنتك لن تستطيع أن
تنجح فى مهمتك فوراً ، وأنه لن يكفى أن تذهب اليه فتقول له : «هأنذا
... هات المال !» • لا بد أنه فى هذه اللحظة سكران • سأنتظر ماوجب
الانتظار ، سأنتظر ثلاث ساعات ، أربعاً ، خمساً ، بل سبعاً بل اذا لزم •
واعلم مع ذلك أن عليك أن تذهب فى هذا اليوم نفسه ، ولو فى منتصف
الليل ، أن تذهب الى كاترين ايفانوفنا ، بمالٍ أو بغير مال ، لتقول لها
اننى كلفتك بابلاغها تحيتى واحترامى • اننى أحرص حرصاً مطلقاً على
أن تقول لها هذه العبارة : « كلفنى بأن أنقل اليك احترامه » •

- ميتياً ! فماذا لو جاءت جروشنيكا غداً أو بعد غد، هذا اذا لم تجيء
اليوم ؟

- جروشنيكا ؟ سأترصدها ، ثم أسرع الى منزل العجوز فأحسول
دون الأمر مهما يكن الثمن ...

- فاذا حدث رغم كل شيء أن ...

- اذا حدث ؟ عندئذ سأقتل ! لن أطيق لاحتمال •

- من تقتل ؟

- أقتل العجوز • أما هى فلن أقتلها !

- أخى ، أخى ، ما هذا الكلام الذى تقوله ؟

- لا أدري ، أصبحت لا أدري ... قد لا أقتل ، ولكن قد
أقتل ... أخشى أن لا أطيق رؤية وجه القدر الكريه في تلك اللحظة !
اننى أكره جوزه عنقه ، أكره أنفه ، أكره عينيه ، أكره ضحكته الصغيرة
الوقحة الخليعة • انه يوقظ فىَّ اشمنزازاً جسيماً • ذلك ما أخشاه
خاصة • قد لا أستطيع أن أكبح جماحى وان أسيطر على نفسى •

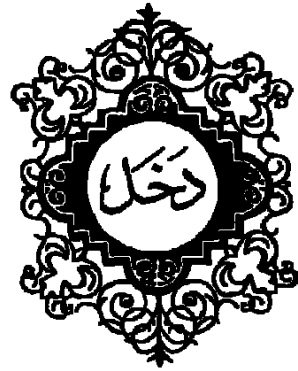
- أنا ذاهب اليه يا ميتيا • اننى مؤمن بان الله سيفعل كل شئ فى
سبيل أن لا يقع هذا الأمر الرهيب الفظيع !

- وسأنتظر أنا هنا آملاً أن تحدث معجزة • أما اذا لم تحدث

المعجزة ...

اتجه أليوشا الى منزل أبيه مطرقاً مفكراً •

سردواكون



اليوشا على أبيه فوجده ما يزال جالساً الى المائدة
فملاً • ولقد قُدِّمَ الطعام في الصالون ، كما
جرت العادة بذلك ، رغم أن بالمنزل غرفة
طعام •

الصالون أوسع حجرة في المنزل ، وقد حرص صاحبه على ان
يكون أثاثه قديماً من باب الأبهة والعظمة • ان الأثاث كله قديم جداً ،
أبيض اللون منجد بقماش عتيق أحمر من حرير وقطن • وعلى الجدران
بين النوافذ قد صُنِّتَ مرايا لها أطر مفخمة من طراز بالي ، بيضاء اللون
أيضاً ، ولكنها مذهبة • والسجاد أبيض كذلك ، مهترى في مواضع كثيرة ،
والحيطان مزدانة بلوحتين كبيرتين ، احدهما صورة أمير من الأمراء كان
حاكماً للمنطقة قبل أكثر من ثلاثين عاماً مضت ، والثانية صورة أسقف
مات هو أيضاً منذ زمن بعيد جداً • وفي الركن الذي يواجه باب المدخل
توجد عدة أيقونات تُشعل أمامها في المساء مصابيح زيت ، لا من قبيل
التقى بل لتظل الغرفة مضساءً أثناء الليل • ذلك أن فيدور بافلوفتش
لا ينام الا في ساعة متأخرة جداً ، فهو يأوى الى فراشه في الثالثة أو الرابعة
من الصباح ، ويقضى وقته قبل ذلك سائراً في الغرفة الى غير نهاية ، أو

جالساً على مقعد من المقاعد يفكر طويلاً • لقد أصبح هذا عادة فيه •
 وكان في بعض الأحيان يبقى وحيداً أثناء الليل ، بعد أن يصرف خدمه
 الى المبنى الملحق • ولكنه في أكثر الأحيان يحتفظ بخادمة سمر دياكوف
 الذي ينام في الدهليز على دكة •

حين دخل أليوشا الغرفة كانت وجبة الطعام قد انتهت ، وجرى
 بمربب وقهوة • ان فيدور بافلوفتش يحب ان يصيب شيئاً من الحلوى
 بعد الغداء ، أثناء شرب قدح صغير من الكونياك • وكان ايفان فيدوروفتش
 بجانبه ، يحتسى القهوة معه • وكان الخادمان جريجورى وسمر دياكوف
 واقفين قرب المائدة • وكان يبدو في تصرف السيدين والخادمين ، على
 السواء ، مرح غير مألوف وفرح غير معهود • كان فيدور بافلوفتش يضحك
 ملء خنجرته ، وقد سمع أليوشا ، منذ وصل الدهليز ، النبرات الحادة
 التي تتصف بها هذه الضحكة والتي يعرفها في أبيه حق المعرفة من قبل ؛
 فاستتج من هذه النبرات أن أباه ما يزال بعيداً عن حالة السكر ، فهو
 الآن مسترسل في نوبات ملاطفة ومطايبة •

صرخ فيدور بافلوفتش يقول ضاحياً صاحباً وقد سره فجأة أن يرى
 أليوشا :

— ها هو ذا ! تعال معنا ! اجلس • قهوة ؟ ليست القهوة كحولاً ،
 وهي ساخنة ولذيذة • لا أقدم اليك كونياكاً ، فأنت راهب ، اللهم الا أن
 تريد ••• هل تريد ؟ لا ؟ طيب ••• سأعطيك اذن خمرة ، خمرة
 عظيمة ! ياسمر دياكوف ، افتح الخزانة ••• الخمرة على الرف الثانى
 يمنة • اليك المفاتيح • هيا أسرع !

وكان أليوشا يتهايم منذئذ لأن يرفض أن يشرب الخمرة • قال له
 أبوه مشرق الوجه متهلل الأسارير :

– لا تريد؟ طيب... لا بأس... سيؤتى بها إلينا نحن، ما دمت لا تريد أن تشربها... بالمناسبة، هل تغديت؟

– تغديت، ولكن هل لى أن أشرب قليلاً من قهوة ساخنة؟

بهذا أجاب أليوشا الذى لم يكن قد أكل فى الواقع الا كسرة من خبز واحتسى قدحاً من شراب التفاح فى مطبخ كبير الرهبان .

قال الأب :

– مرحى ! ألا انك لفتى طيب ! سوف يشرب قهوة ! ألا يحسن تسخين القهوة؟ ولكن لا... انها ما تزال تفتلى . هى قهوة ممتازة ، هل تعلم؟ لقد أعدّها سمردياكوف . ان صاحبى سمردياكوف فنان فى اعداد القهوة وتحضير أنواع الكولياكا* ، وكذلك فى طهى حساء السمك . هذا حق . يجب أن تجيء إلينا ذات يوم ، فتذوق حساء السمك هذا ، ولكن عليك أن تبثنى بمجيتك سلفاً . آ... صحيح... نسيت ! ألم أمرك فى هذا الصباح بأن تترك الدير مع وسادتك وفراشك وأن تعود الى المنزل نهائياً؟ هل أتيت بفراشك؟ ها ها ها...

أجابه أليوشا وهو يضحك أيضا :

– لا ، لم آت به .

– لقد أخفتك فى هذا الصباح ، هه؟ لقد روّعتك ، أليس كذلك؟ يا طائرى الصغير ، أنت تعلم أننى لا أستطيع أن أدخل الحزن الى قلبك . ايفان ، ايفان ، اننى لأشعر باضطراب شديد حين ينظر الى عينيّ هذه النظرة ضاحكاً . ان أحشائى لتأخذ تتحرك عندئذ... ذلك أننى أحبه ، هذا الفتى . اقرب يا أليوشا ، فانى أريد أن أمنحك بركتى الأبوية .

نهض أليوشا ، ولكن أباه كان قد عدل عن رأيه ، فقال له :

- لا بل حسبى اليوم أن أرسم عليك اشارة الصليب ، هكذا •••
- اجلس هنا ••• سوف تسلى الآن ، وذلك بصدد مسألة مألوفة عندك
- سوف تضحك يا عزيزى • تخيل أن حمارة بلعام* قد أخذت تتكلم
- هى تتكلم الآن ، تتكلم ••• وما أفصحها !

ولم تكن حمارة بلعام التى يعيها الأب الا الخادم سمردياكوف. ان سمردياكوف ، وهو شاب لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره ، كان يبدو شديد التوحش دائم الصمت ، لا لأنه خجول ، فهو فى الواقع جرىء جسور حتى ليظهر عليه أنه يحقر جميع الناس ، ولا بد أن نقول فى هذه المناسبة : ان مارفا اجناتوفنا وجريجورى فاسيلفتش هما اللذان توليا تربيته ، ولكنه « قد شب على نكران الجميل ، كما كان يقول جريجورى ، صيياً متوحشاً ينظر الى جميع الناس نظرة شزراء • كان أثناء طفولته يجد لذة كبيرة فى أن يشق قطعاً ثم يدفنها بعد ذلك محتفلاً بدفنها احتفالاً كبيراً ، فهو يتدثر فى هذه المناسبات ببطانية يتخذها بمثابة جبة كاهن ، ويأخذ يرتل بعض الصلوات محرراً يديه فوق جثة القطة كمن يحمل مبخرة • وكان يترسل فى هذه اللعبة فى خلوة تامة وخفاء كامل فلما فاجأه جريجورى فى ذات يوم يمارس هذه الرياضة عاقبه بالسياط معاقبة شديدة • فانزوى الصبى يومئذ فى ركن من الأركان ، وصام عن الكلام أسبوعاً برمته •

كان جريجورى يقول لمارفا اجناتوفنا :

— ان هذا الصبى الشاذ لا يحبنا كلينا ، وهو لا يحب أحداً على كل

• حال

ثم يضيف وهو يلتفت فجأة الى سمردياكوف :

- أنت كائن انساني ؟ ما أنت بانسان ... لقد وُلدت في رطوبة الحمامات ، هذا أنت ...

لم يغفر سمردياكوف لجريجورى تلك الأقوال فى يوم من الأيام ، كما اتضح ذلك فيما بعد . ولقد علّمه جريجورى القراءة ، فلما تجاوز الصبى السنة الثانية عشرة من عمره ، أراد جريجورى أن يعلمه «التاريخ المقدس» . ولكن هذه المحاولة قد باءت بالفشل فلم يكن لها غد . وفى ذات يوم ، أثناء الدرس الثانى أو الثالث ، أخذ الصبى يضحك على حين فجأة . سأله جريجورى وهو يرشقه بنظرة قاسية من وراء نظارتيه :

- ما بك ؟

- لا شيء . ان الرب قد خلق الضياء فى اليوم الأول ؛ وفى اليوم الرابع خلق الشمس والقمر والنجوم ، فمن أين جاء الضياء اذن فى اليوم الاول ؟

بُهِت جريجورى لحظةً . وكان الصبى ينظر الى معلمه نظرة ساخرة ، حتى لقد كانت عيناه تعبران عن احتقاره . فلم يستطع جريجورى أن يكظم غيظه ، فاذا هو يلطم تلميذه على وجهه لكمة قوية وهو يقول له :

- من أين ؟ من هنا ...

تلقى الصبى الصفحة دون أن يقول كلمة واحدة ، ولكنه حرن وأمسك عن الكلام مرة أخرى بضعة أيام . وبعد ذلك الحادث بأسبوع انما وقعت له أول نوبة من نوبات الصرع ، وهو المرض الذى لم يبارحه بعد ذلك طوال حياته . فلما علم فيدور بافلوفنش بالأمر تبدل موقفه من القتى تبديلاً كاملاً بعد أن كان حتى ذلك الحين لا يعبأ به ولا يكثر له ، رغم أنه لم يقرّعه فى يوم من الأيام ، حتى لقد كان ينفحه كوبكاً

كلما لقيه ، وكان يتفق له في حالات الكرم والطيبة التي يمر بها أن يرسل الى الصبي من مائدته بعض الحلوى • ولكن فيدور بافلوفتش ، بعد أن عرف بمرضه ، أخذ يهتم به اهتماما جادا ، حتى لقد استدعى طبيبا وأراد أن يعالجه • غير أن المرض استعصى على الشفاء ، واتضح أنه لا براء منه • كانت نوبات الصرع توافي الصبي مرة في الشهر وسطيا ، على تفاوت في طول المدة ، واختلاف في قوة النوبة ، فالنسبة خفيفة تارة ، خطيرة كل الخطورة تارة أخرى • وقد حظر فيدور بافلوفتش على جريجورى أن ينزل في الصبي عقوبات جسمية حظراً صارماً باتاً ، وأخذ يستدعى الصبي اليه من حين الى حين ، كما عارض في تعليم الصبي أى شىء خلال تلك الفترة • ومع ذلك حدث في ذات يوم أن فاجأ فيدور بافلوفتش الفتى الذى أصبح مراهقا في نحو الخامسة عشرة من عمره ، فاجأه قرب خزانة الكتب يحاول أن يقرأ عناوين المؤلفات من خلال زجاج الخزانة • كان فيدور بافلوفتش يملك عبدا كبيرا من الكتب ، كان يملك نحو مائة كتاب ، ولكن أحدا لم يره قارئا في يوم من الأيام • وسرعان ما بادر فيدور بافلوفتش فأعطى الفتى مفاتيح خزانة الكتب قائلا له :

— اقرأ ما يحلو لك أن تقرأه ، وستكون بعد اليوم أمين مكتبتى ••
ذلك خير من التسكع في فناء المنزل • تناول كتابا واجلس • اسمع ، خذ هذا الكتاب أولا •

قال له فيدور بافلوفتش ذلك ، ومدّ اليه كتاب « سهرات في المزرعة قرب ديكانكا » * •

قرأ الفتى الكتاب ، ولكن لم يظهر عليه أنه افتتن به ، حتى أنه لم يبتسم مرة واحدة أثناء قراءته ، بل انه قطّب حين فرغ منه •

سأله فيدور بافلوفتش :

- هيه ... كتاب مضحك أليس كذلك ؟

فصمت سمردياكوف ولم يجب بشيء *

فألح فيدور بافلوفتش قائلاً :

- هلاً أجبت يا أهل ؟

فتأماً سمردياكوف يقول وهو يطلق ضحكة صغيرة :

- هذا كله أكاذيب ... أمور لم تحدث ! ...

- شيطان يأخذك ! ... طيب خذ ... اقرأ اذن « التاريخ العام »
من تأليف سمراجدوف * . ستجد ههنا أحداثاً جرت ، ستجد أحداثاً
صادقة . اقرأ *

ولكن سمردياكوف لم يصل من الكتاب حتى الى صفحته العاشرة،
فقد رآه مملاً باعثاً على الضجر . وأُعيد اغلاق المكتبة . وبعد ذلك
بقليل نقل جريجورى ومارفا الى فيدور بافلوفتش أن الصبي أصبح يقف
من الطعام موقفاً فيه حساسية شديدة وتأذٍ كبير يتفاقم يوماً بعد يوم :
أصبح حين يجلس الى المائدة ليتناول حساءه يمسك الملعقة فيأخذ يقلب
بها الحساء مرة بعد مرة فاحصاً مدققاً ، ويميل على الطبق فينعم النظر فيه
طويلاً ، ثم يمسك الملعقة ويمضى بها نحو الضوء يتأملها ملياً . فكان
جريجورى يسأله :

- هل وجدت في الحساء خنفسة ؟

وتضيف مارفا ساخرة :

- أم لعلك وجدت فيها ذبابة ؟

ولكن القتي المشمّر المتقرّز لا يجيب بشيء . وهو يتصرف هذا

التصرف نفسه ازاء جميع أنواع الطعام ، سواء أكان خبزاً أم لحماً أم غير ذلك . انه يرفع شوكته فيأخذ ينعم النظر في اللقمة طويلاً قبل أن يأكلها ، كأنما هو يفحصها بمكروسكوب ، ويظل يتردد برهة طويلة ، الى أن يعزم أمره فجأة فيضعها في فمه .

فكان جريجورى ينظر اليه فيهمهم قائلاً :

— انه يعد نفسه سيداً من السادة !

فلما أبلغ فيدور بافلوفتش موقف سمردياكوف الجديد هذا ، قرر فوراً أن القى يصلح أن يصبح طاهياً ممتازاً ، فأرسله الى موسكو ليتعلم فيها المهنة . قضى سمردياكوف عدة سنين يتعلم الطهى فى موسكو، ثم عاد منها وقد تغيرت سمحته تغيراً كبيراً . لقد دبت فيه الشيخوخة على نحو غريب ، فتقطن وجهه تقطناً لا يتفق وسنّه . أما من الناحية النفسية فانه لم يكده يتغير : فهو ما يزال ، كما كان من قبل ، متوحشاً لا يشعر بحاجة الى أن يعيش فى صحبة الناس ، والى أن يتقرب من أى انسان . ولقد لبث فى موسكو قليل التواصل كثير الصمت لا يفصح عما بنفسه ولا يفضى الى أحد بشأن من شئونه ، كما عُرِف ذلك فيما بعد . ولم تشغفه المدينة الكبيرة كثيراً ، ولم يعرف منها الا أماكن قليلة ظل يجهل كل ما عداها . وقد شهد فى ذات مرة حفلة تمثيلية ، فلم تخرجه هذه الحفلة عن صمته المطبق ، ولا أبدلت استياءه رضى . غير أنه ، فى مقابل ذلك ، قد عاد الينا من موسكو شديد العناية بهندامه ، فهو يرتدى ثياباً أنيقة وملابس داخلية نظيفة جداً ؛ وهو ينظف ثيابه بالفرشاة مرتين فى اليوم على الأقل ، وهو يجد لذة خاصة فى ان يدهن حذاءيه الأنيقين، المصنوعين من جلد العجل ، بدهن انجليزى خاص ، ثم ما يزال يفركهما الى أن تلمعا لمعان مرآة . وبرهن سمردياكوف على أنه طاهٍ عظيم .

وحدّد له فيدور بافلوفتش أجراً معلوماً ، فكان ينفق كل أجره تقريباً في اقتناء الملابس وشراء العطور وما الى ذلك . وكان يبدو مع ذلك أنه يكره النساء كرهه للرجال . فهو يتعد عنهن ، ويتحاشى لقاءهن ، حتى لكأن وصولهن اليه مستحيل . وقد دُهِس فيدور بافلوفتش من هذه الظاهرة ، وأخذ ينظر اليها نظرة خاصة ، لأن له رأيه في هذا الموضوع . ذلك أن نوبات الصرع قد اشتدت وتكاثرت في ذلك الأوان ، حتى أن مارفا اجناتقنا اضطرت أن تقسّر اعداد وجبات الطعام بنفسها في تلك الأيام ، وذلك أمر لم يحفل به فيدور بافلوفتش ، وانما كان يقول للطاهي الجديد في بعض الأحيان ، وهو يتفرس في وجهه وينظر اليه نظيرة اشتباه :

... اننى أتساءل لماذا تتكاثر عليك نوبات الصرع ، أفلا يكون من المستحسن أن تتزوج ؟ هل تريد أن أجد لك زوجة ؟

ولكن سمردياكوف لا يجيب عن هذه الأسئلة ، ولا يزيد على أن يصفرّ وجهه حزناً وحسرة ؛ فينصرف عنه فيدور بافلوفتش عندئذ محرّكاً يده بحركة تعبّر عن العجز . المهم أن أمانة هذا الخادم لم تكن محلّ شبهة أو شك ، كما أمكن أن يقتنع فيدور بافلوفتش بذلك مرة الى الأبد ، فهو لا يمكن أن يسطو على شيء ، ولا يمكن أن يسرق مولاه يوماً . ان فيدور بافلوفتش ، وقد استبد به السكر في ذات يوم ، قد أضاع في فناء منزله ثلاث أوراق نقدية ملونة* كان قد قبضها منذ قليل : سقطت الأوراق في الوحل ، ثم لم يفتقدها فيدور بافلوفتش الا في الغداة ، ولكنه ما ان أخذ ينش جيوبه كلها باحثاً عنها حتى لمحها على مكتبه . فمن أين جاءت الى هنا ؟ وعرف فيدور بافلوفتش أن سمردياكوف قد عثر بها فحملها الى مكتب مولاه منذ البارحة .

قال فيدور بافلوفتش لخادمه بلهجة جازمة :

– يمينا ما لقيت في حياتي أناساً مثلك •

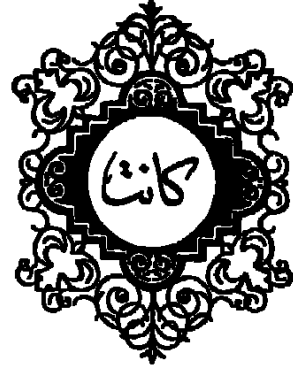
ثم أسرع يهدى اليه عشرة روبلات •

يجب أن نضيف الى هذا أن فيدور بافلوفتش لم يكن مقتنعاً بأمانه سمردياكوف فحسب ، وانما كان يحبه أيضا ، لا يدري أحد لماذا ، رغم أن الفتى كان متوحشاً معه كتوحشه مع سائر الناس ، وكثيرا ما كان ينظر اليه نظرة شزراء ، وهو لا يكاد يفتح فمه بكلمة في حضوره يوما • وكان الفتى لا يتكلم الا نادرا على كل حال ، فلو تساءل متسائل في ذلك الأوان ، وهو ينظر الى سمردياكوف ، عما لعله يشغل بال الفتى ، وعن الهموم التي يمكن أن تكون مسيطرة على فكره ، لما استطاع أن يجد لهذا السؤال جوابا • ومع ذلك كان يتفق لسمردياكوف ، سواء في المنزل ، أو في الفناء ، أو في الشارع ، أن يتوقف على حين فجأة ، فاذا هو يبدو عليه أنه يسترسل في تفكير عميق خلال عشر دقائق أو أكثر ، دون أن يتحرك من مكانه قيد أنملة • وأغلب الظن رغم هذا أنه لو نظر اليه في مثل تلك اللحظات عالم من علماء الفراسة لأدرك من دراسة قسمات وجهه أن ليس ثمة تفكير أو تأمل من أي نوع ، وأن الأمر لا يعدو أن يكون استسلاما لأحلام عابرة • ان هناك لوحة جميلة رسمها الرسام كرامسكوى* وجعل عنوانها « المتأمل الحالم » • ان اللوحة تمثل غابة في فصل الشتاء ، قد وقف على الممر الذي يقطعها ، فلاح" يرتدى قفطاناً ويتعل خفين باليين ، فهو في عزلة تامة • لقد ضل الفلاح طريقه هنالك، فهو يبدو في هذه الخلوة الكاملة مسترسلاً في التأمل • والحق أن الرجل لا يتأمل ، وانما هو غارق في « أحلام غامضة » ، فلو لكزه أحد بكوعه في تلك اللحظة لانتفض فجأة كأنه يستيقظ من حلم ، ناظراً حوله لا يفهم شيئا مما جرى له ، وسرعان ما يثوب الى رشده ، فلو سأله في تلك اللحظة عما كان يفكر فيه لما استطاع أن يجيبك بشيء • ولكنه

سيظل محتفظاً في قرارة نفسه بالمشاعر التي تجمعت له أثناء استرساله
 ذاك في أحلامه ، وهي مشاعر عزيزة عليه أثيرة عنده ، يجمّعها في نفسه
 طوال حياته على نحو لا يدركه بل ولا يشعر به ، وهو لا يدري طبعاً
 لماذا يفعل ذلك . ولعل هذه المشاعر التي تراكمت في نفسه خلال سنين
 أن تدفعه ذات يوم الى أن يهجر كل شيء على حين فجأة فيمضي الى
 القدس حاجباً ينشد الخلاص ؛ أو تدفعه ، لا تدري لماذا ، الى أن يشعل
 النار في قريته فيحرقها . وقد يفعل الأمرين كليهما . ان هؤلاء الحالمين
 كُثُر في شعبنا . ولا شك أن سمردياكوف واحد منهم ، فهو يراكم
 في نفسه مشاعر فوق مشاعر ، مندفعاً الى ذلك في حماسة وحمياً ، دون
 أن يعرف حتى الآن الهدف الذي يرمى اليه والغاية التي يسعى اليها .

٧

محاولة



الحمارة قد أخذت تتكلم فعلاً • وكانت المناسبة غريبة غريبة كافية : ان جريجورى ، حين كان فى الصباح عند التاجر لوكيانوف لشراء بعض الأشياء ، قد سمع قصة ذلك الجندى الروسى الذى وقع فى أيدي أفراد قبيلة مسلمة على حدود آسيا ، فأرادوا اكرامه على انكار المسيحية واعتناق الاسلام ، والا عذوبه وقتلوه ، فرفض أن يرتد عن دينه ، وارتضى أن يستشهد فى سبيل عقيدته ، فسُلخ جلده حياً ومات وهو يمجّد المسيح • كانت الصحف فى ذلك اليوم تتحدث عن هذا الجندى ، وعن تضحيته البطولية، وكان جريجورى قد روى ماسمعه أثناء الغداء • ان فيدور بافلوفتش يحب أن يمزح بعد الغداء عند تناول الحلوى ، ولا يأنف أن يدخل فى حديث لهذا الغرض ولو مع الخادم جريجورى • ثم انه كان فى ذلك اليوم هاشاً هشاشة خاصة ، وكان مرح المزاج مبتهج النفس متفتح القلب • فبعد أن أصغى الى ما رواه جريجورى وهو يشرب قدح كونياك، قال ان من الواجب أن تبارك الكنيسة ذلك الجندى وأن تعده ولياً من الأولياء بغير ابطاء ، وان من المستحسن أن يهدى جلده المسلوخ الى دير من الأديرة ، « بغية أن يجتذب الجماهير والمال » • فقطب جريجورى حاجبيه عابساً ، حين لاحظ أن مولاه استرسل فى

التجديف على عادته بدلاً من أن يتأثر • وفي تلك اللحظة انما سُمع
سمردياكوف يُطلق ضحكة ساخرة من مكانه قرب الباب • كان الخادم
الشاب قد سُمح له مرارا ، حتى في السنوات الماضية ، أن يشهد وجبات
الطعام ، أعنى أن يشهد المناقشات التي تعقبها • ولكنه تعود منذ وصول
ايفان فيدوروفتشس الى مدينتنا أن لا يفوته حضور وجبة الغداء في يوم
من الأيام تقريبا •

سأله فيدور بافلوفتشس حين سمع ضحكه فأدرك على الفور أنه
يسخر من جريجورى ، سأله قائلاً :
- ما بك ؟

فاندفع سمردياكوف يلقي خطاباً بصوت عال وطريقة لم تكن في
الحسبان ، فيقول :

- بصدد تلك القصة • فأنا أرى أن فعل ذلك الجندى الجدير
بالاطراء والتناء قد كان فعلاً بطولياً عظيماً ولا شك ، ولكننى أرى أنه
ما كان ليعد خاطئاً آتماً لو أنكر اسم المسيح في ذلك الظرف وتنازل
عن تعميده انقاداً لحياته بهذه الوسيلة واحتفاظاً بها لحسناتٍ تكفّر ، بعد
سنين ، عن لحظة الضعف والتخاذل تلك •
تدخل فيدور بافلوفتشس قائلاً :

- ما كان ليعد خاطئاً آتماً ؟ كيف هذا ؟ أنت تكذب ، وستذهب
الى جهنم رأساً بسبب هذا الرأى الذى تراه ، أو ستشوى كما يشوى
خروف •

وفى تلك اللحظة بعينها انما وصل أليوشا فابتهج أبوه لوصوله
ابتهاجاً قوياً ، كما سبق أن رأينا ذلك ، وقال لأليوشا وهو يدعوهُ أن
يجلس وأن يصغى الى المناقشة :

– هذا موضوع مألوف لك • هذه مسألة لا بد أنك تعرفها حق معرفتها •

قال سمردياكوف مؤكداً :

– لا أوافق على موضوع الخروف المشوى • ولن يكون هناك عقاب بسبب رأى من هذا النوع ، ولا يجب أن يكون هناك عقاب اذا أردنا العدل والانصاف •

– اذا أردنا العدل والانصاف ؟ ماذا تقول ؟

كذلك صاح فيدور بافلوفتش بصوت فيه مزيد من المرح وهو يلكر ركة أليوشا •

قال جريجورى فجأة ، وهو يحدق الى عيني سمردياكوف بغضب مسعور :

– هذا شاب شقى لا أكثر !

فأجابه سمردياكوف قائلاً بلهجة هادئة صابرة :

– أما عن قولك بأننى شقى أو ما الى ذلك ، فأرجو يا جريجورى فاسيلفتش أن تنازل فتتمهل قليلاً وتقضى فى الأمر بنفسك : هب أن جلاّدى الجنس المسيحى قبضوا على ذات يوم وطالبونى بأن ألعن اسم الرب وأن أتكرر لتعميدى المقدس : ان العقل يجيز لى فى هذه الحالة أن أفعل ذلك ، ولن يكون فى هذا اثم •

صاح فيدور بافلوفتش يقول :

– سبق أن قلت ان هذا لا اثم فيه • فلا تكرر ما سبق أن قلته ، وانما عليك أن تبرهن على رأيك بالأدلة والحجج •

وددمم جريجورى يقول باحتقار :

- طاهى حساء !

فقال سمردياكوف :

- أما عن قولك بأبنى طاهى حساء ، فأرجو يا جريجورى فاسيلفتش أن تتنازل فتمهل بعض التمهل أيضا • لا تشتمنى ، وانما فكّر قليلا : هب أنتى قلت للذين يعذبوننى : « ليكن لكم ما تريدون ••• انتى أرتد عن دينى المسيحى وأتكر لالهى الحق » • أفلا تديننى المحكمة الالهية فى تلك اللحظة نفسها ، وتكفرنى على الفور صراحة ؟ اذن سأكون منذ تلك الدقيقة قد أُخرجت من الكنيسة المقدسة ، وسأكون قد حرمت منها كأى وثى ، منذ تلك الدقيقة ، بل منذ اللحظة التى نطقت فيها بتلك الكلمات ، بل منذ اللحظة التى راودتنى فيها نية النطق بهذه الكلمات ، بحيث لا يمضى ربع ثانية الا وأكون قد حرمت من الكنيسة ؟ أليس هذا صحيحا يا جريجورى فاسيلفتش ؟

كان واضحا أن سمردياكوف يجد لذة فى الاتجاه بكلامه الى جريجورى فاسيلفتش ، رغم أنه لا يجب فى الواقع الا عن أسئلة فيدور بافلوفتش ، وذلك أمر كان سمردياكوف يشعر به شعورا تاما ، ولكنه يتخاّب فيتظاهر بأن تلك الأسئلة انما طرحها الخادم المعجوز •

هتف فيدور بافلوفتش فجأة يقول :

- ايفان ! ميل على حتى أستطيع أن أهمس فى أذنك بشيء •

ثم همس يقول له :

- من أجلك انما يقول سمردياكوف هذا الكلام ، وهو ينتظر

تأييدك واستحسانك ، فامدحه اذن •

أظهر ايفان كثيرا من الاهتمام والجد في الاصغاء الى هذه الملاحظة
التي أسرَّ بها إليه أبوه .

وعاد فيدور بأفلوفتش يقول :

- اسكت الآن يا سمردياكوف .

ثم أهاب بابنه ايفان مرة أخرى أن يميل عليه قائلا له :

- هناك شيء آخر أريد أن أهمس به في أذنك .

فقال ايفان على أبيه من جديد مظهرا ذلك الجهد نفسه الذي أظهره
في المرة الأولى . فقال له الأب :

- انتي لا أحبك أقل مما أحب أليوشا . لا يخطرن ببالك أنتي

أوثره عليك . قليلاً من الكونياك ؟

- بكل سرور .

وقال ايفان لنفسه وهو يتفرد في أبيه : « لقد سكر بعض السكر
منذ الآن » . وكان من جهة أخرى يرقب سمردياكوف بانتباه شديد .

وصاح جريجورى بقول فجأة :

- كافر ! أنت نلعون منذ الآن . كيف تجرؤ أن تستمر في المناقشة

أيها الشقي ؟

فأجابه سمردياكوف :

- مهلاً يا جريجورى فاسيلفتش ، اصبر علىّ ولو لحظة قصيرة ،

واصنع الى كلامي حتى النهاية ، لأننى لم أتممه بعد . أعوذ فأقول انتي

متى لعنى الله في تلك اللحظة الحاسمة ، يصبح شأنى شأن أى وثنى ،

ويكون تعيدي قد أُلغى تبعاً لذلك ، فلا يُحسب له أى حساب ، أليس هذا صحيحاً ؟

فاستحته فيدور بافلوفتش وهو يتلذذ ببلع جرعة من الكونياك ، استحته قائلاً :

– أوصلنا الى النتيجة التي تريد أن تخلص اليها ، أسرع يا بني *
فتابع سمردياكوف حديثه :

– فاذا لم أعد مسيحياً ، فاني لا أكذب على الذين يعذبونني ويسألونني : « أتعد نفسك مسيحياً أم لا ؟ » ، ذلك أن الله نفسه يكون قد أخرجني من المسيحية بسبب نيتي وحدها قبل أن يتسع وقتي للاجابة عن سؤالهم بكلمة واحدة . فاذا كنت قد أخرجت من المسيحية فكيف يمكن أن أحاسب في العالم الآخر ، وأية عدالة ترضى أن أحاسب في العالم الآخر كما يُحاسب مسيحي ارتد عن دينه ، مع أنني أكون قد جُرِّدت من تعيدي بسبب نيتي وحدها حتى قبل أن أرتد عن ديني بالقول ؟ انني بعد أن جُرِّدت من مسيحيتي ، لا أكفر بالمسيح ، لأنني لا يكون قد بقي لي دين أرتد عنه . هل يخطر ببال أحد يا جريجورى فاسيلفتش أن يلوم تترياً كافراً على أنه لم يولد مسيحياً ؟ من ذا الذي يريد أن يعاقب مثل هذا التري ، حتى في السماء ؟ ما من أحد يسلخ بقرة واحدة مرتين ! وهب أن الله العلي القدير سيحاسب هذا التري بعد موته : انه لن يوقع فيه الا عقابا يسيراً (فمن غير المقبول أن لا يعاقب البتة) ، ذلك أن الله يقدر أن هذا التري لم يَأثم حين ولد من أبوين غير مسيحين . ان الله لا يمكن أن يكرهه بالقوة على أن يقول انه كان مسيحياً ، ولا يمكن أن يعده مسيحياً ، فان عدّه مسيحياً كان هذا كذباً ظاهراً واضحاً ، والله الذي هو رب السماوات والأرض لا يمكن أن

يكنب ولو في مناسبة واحدة ، ولو في كلمة واحدة من كلماته •

أصيب جريجورى بالبكم من شدة ذهوله ، ونظر الى الخطيب محملاً • فهو رغم أنه لم يستطع أن يتابع المناقشة قد أدرك ادراكاً غامضاً بعض ما يشتمل عليه هذا الكلام المضطرب ، فتجمد تجمد رجلٍ صدم الحائط بجهته على حين فجأة • وأفرغ فيدور بأقلونتش في جوفه قذح الكونياك ، وأطلق من صدره ضحكة حادة. •

– أليوشا ، أليوشا ، ما رأيك ؟ يا له من مجادل ! لا شك أنه تعلم هذا لدى اليسوعيين ، ألا ترى ذلك يا ايفسان ؟ اذهب أيها اليسوعى العفن ؟ من ذا الذى لقنتك هذه الضلالات ؟ اطمئن يا جريجورى ، سوف نهدم آراءه الوقحة ، سوف نحيلها دخاناً ، سوف نحيلها عدماً ، حالاً بلا ابطاء ! أجب عن هذا السؤال يا حمارة : لنفرض أنك على صواب فى موقفك من معدّيك • ان هذا لا ينفي أنك أنكرت دينك فى قرارة نفسك ، وأصبحت فى تلك اللحظة كافراً ، كما تعترف بذلك أنت نفسك ، فاذا كفرت فلن تكافأ على هذا فى جهنم فيما أتخيل • فبماذا تجيب عن هذا السؤال أيها اليسوعى الظريف ؟

– لا أنكرك أنتى أكون قد ارتددت عن دينى فى قرارة نفسى ، ولكن ليس فى هذا أى اثم كبير ، واذا كان نمته خطأ فهو خطأ عادى جداً •

– عادى ؟ كيف ؟

قال جريجورى بصوت صافر :

– أنت تكذب • أنت ملعون • • مل • • مو • • ن •

تابع سمردياكوف كلامه يقول بلهجة هادئة واثقة ، شاعرا باتصاره
ولكن مصطنعاً هيئة الكرم والتسامح مع خصم طُرح أرضاً :

- اقض في الأمر بنفسك يا جريجورى فاسيلفتش : لقد جاء فى
الكتاب المقدس أن الذى يملك الايمان الحق ، ولو لم يملك منه الا ذرة
صغيرة ، يستطيع أن يأمر الجبل قائلاً له : اذهب أيها الجبل الى
البحر ، فاذا بالجبل يذهب الى البحر فوراً عند أول أمر يصدر اليه* .
فيا جريجورى فاسيلفتش ، ما دمت تبلغ من عمق الايمان ما يهب
لك حق اهاتى بغير انقطاع ، فحاول أن تأمر هذا الجبل القريب لا أن
يذهب الى البحر (فالبحر بعيد جداً) بل ان يتقدم قليلاً نحو ذلك الجدول
الصغير التين الذى يجرى وراء حديقتنا . فلسوف ترى عندئذ أن الجبل
لن ينصاع لأوامرك ، وأن كل شيء سيقى على ما كان ، مهما يكن صراخك
شديداً ومهما يكن زعيقك قوياً ! فهذا يبرهن يا جريجورى فاسيلفتش
على أنك أنت أيضاً لا تملك الايمان الحق ، على حين أنك لا تكف عن
اهانة الناس بحجة أنهم لا يملكون الايمان الحق . يجب أن نعتزف على
كل حال أنه ليس فى زماننا هذا أحد على الاطلاق ، سواء أكان أقوى
الناس سلطاناً وأرفعهم منزلة أم كان أحقر فلاحٍ من الفلاحين - أقول
ليس فى زماننا هذا أحد يملك القدرة على أن يدحرج هذا الجبل الى
البحر ، فأنا اذن لا أتكلم عنك وحدك . لا ، ليس فى زماننا هذا أحد
يملك هذه القدرة ، ربما باستثناء رجل واحد أو رجلين اثنين فى أكثر
تقدير ، ولكن هذين الرجلين لا بد أن يكونا مختبئين فى صحراء ما من
صحارى مصر ، يحققان لنفسيهما هنالك الخلاص والسلام ، فلا نستطيع
أن نهتدى اليهما ونشر عليهما مهما نبحت عنهما . فاذا كان الرجال
الأخرون ليسوا بالمؤمنين حقاً ، فكيف نسلم بأن الرب سيلعنهم جميعاً ،
وبأنه سيحرم الانسانية كلها الا ذينك الرجلين الغامضين ، وبأنه لن يغفر

لأحد وهو الغفور الرحيم ؟ لذلك ترانى آمل ، اذا أنا شككت أو ججحت ،
أن أحظى بمغفرة الرب ، بعد أن أسكب دموع الندم والتوبة ...

– قف ! أنت تسلّم اذن بأن هناك رجلين على الأقل فى العالم
يستطيعان أن يحركا الجبال ! سجّل هذا يا ايفان ، سجل هذه النقطة !
تلك هى سمة الانسان الروسى كله .

كذلك قال فيدور بافلوفتش بصوت حاد كريبه .

فقال ايفان فيدوروفتش مؤمناً على رأى أبيه مبتسماً ابتسامه تأييد :

– ملاحظتك صحيحة تماماً . تلك سمة خاصة يتميز بها ايمان

الشعب الروسى .

– أنت تشاطرنى هذا الرأى . لا بد اذن أن أكون على صواب .
هذا هو الأمر يا أليوشا ! ذلك هو الايمان الروسى الحق ، أليس كذلك؟

فقال أليوشا بلهجة جادة حاسمة :

– لا ... ان ايمان سمردياكوف ليس روسياً البتة .

– لست أتكلم عن ايمانه ، بل عن هذه السمة وحدها ، عن فكرة
ذيتك الناسكين . أليس هذا سمة روسية خاصة ؟

قال أليوشا يوافق مبتسماً :

– نعم هى سمة روسية ، روسية جدا .

قال فيدور بافلوفتش يخاطب سمردياكوف :

– قولك هذا يساوى ديناراً ذهبياً يا حمارة ، سأرسل اليك الدينار
فى هذا اليوم نفسه . أما فى كل ما عدا ذلك فقد كذبت ، نعم كذبت ،
أعود فأكرر لك ذلك . ألا فاعلم أيها النبى أن خفة العقل وحدها هى

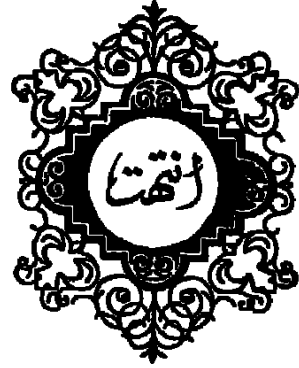
التي جعلتنا جميعاً غير مؤمنين ، ذلك أن وقتنا لا يتسع للتفكير في الله :
 فنحن أولاً منصرفون الى أعمالنا تحتكرنا احتكارا ، والرب ثانياً قد
 ضمنّ علينا بالساعات فجعل يوماً أربعاً وعشرين ساعةً فقط ، فنحن
 لا نملك حتى الوقت اللازم لأن ننام نوماً كافياً . فأين لنا الوقت اللازم
 للندامة والتوبة ؟ أما أنت فقد ارتددت عن دينك أمام الجلادين ، مع أنك
 لا يمكن أن يكون في ذهنك في مثل تلك اللحظة ، فكرة أخرى غير
 فكرة الايمان التي كانت هي بعينها الفكرة التي يجب أن تكفل لها الغلبة
 والنصر ! ألم تجر الأمور على هذا النحو يا صديقي ؟

- لقد جرت الأمور على هذا النحو حقاً . ولكنك تسلم أنت نفسك
 يا جريجورى فاسيلفتش ، أن ذلك يجعل الخطيئة أهون شأنًا وأخف
 وزناً ما دامت الأمور قد جرت على هذا النحو . لنفرض اني اعتقدت ،
 في ساعة المحنة ، بما كان يجب أن أعتقد به : اني لأرتكب عندئذ اثماً
 اذا أنا رفضت الاستشهاد في سبيل ديني ، وارتضيت اعتناق دين محمد .
 ولكنني في مثل هذه الحالة لا أصل الى الاستشهاد ، اذ يكفيني أن أقول
 للجبل في تلك الدقيقة : « امش أيها الجبل فاسحق الجلاذ » ، فاذا
 بالجبل يرتدى على الجلاذ فيخنقه بثقله كأنه خنفساء ، واذا أنا أمضي في
 سبيلي هادئاً أغنى وأمجد الله . فاذا راودتني هذه الافكار لتحقيق هذه
 الغاية ناديا : « اسحق الجلاذ أيها الجبل » ، فاذا بالجبل لا يستجيب
 لندائي ، أفلا يهاجمني الشك عندئذ لا محالة ؟ هلاً قلت لي كيف يمكنني
 في تلك الساعة الرهيبة من الخوف القاتل أن لا يراودني الشك ؟ لقد
 علمت سلفاً اني لن أظفر بملكوت السماوات كاملاً (لأن الجبل لم يطع
 أوامري ، وذلك دليل على أن ايماني ليس محل ثقة هناك في السماء ،
 ودليل على أنني لا أستطيع أن أتوقع مكافأة كبيرة في الحياة الآخرة) .
 فأى جدوى اذن في أن أدع لهم أن يسلخوا جلدي حياً بغير فائدة البتة ؟

وحتى حين يكونون قد سلخوا من جلدى نصفه ، فناديت الجبل مرة أخرى
أهيب به أن يسحقهم ، فان الجبل لن يتحرك من مكانه رغم جميع
صرخاتي • وفي تلك اللحظة يمكن أن لا يساورنى الشك فحسب ، وانما
يمكن أيضا أن أفقد عقلى بسبب ذعري الشديد بحيث أصبح عاجزاً حتى
عن التفكير • أفيكون ائمى والحالة هذه كبيرا اذا أنا أردت ، بعد أن لم
أظفر بنفع لا من هنا ولا من هناك ، وبعد أن لم أستطع أن أرجو مكافأة
وأن أعوّل على جزاء حسن ، أقول أفيكون ائمى كبيرا اذا أنا أردت
عندئذ أن أنقذ جلدى على الأقل ؟ ذلك هو السبب فى تقتى الكاملة
بالرحمة الالهية ، وفى ائمى آمل أن تغفر لى السماء غفرانا كاملا •

٨

أثناء شرب الكونياك



المجادلة ، ولكن الأمر الغريب هو أن فيدور
بافلوفتش الذي كان مرحاً في أول الأمر قد عبس
واكفهر وجهه في النهاية • وها هو ذا ، وقد
بدا عليه الامتعاض واضحا ، يفرغ في جوفه
قدحاً آخر من الكونياك ، متجاوزاً الحدّ المألوف تجاوزاً كبيراً • وصاح
يقول للخادمين :

- انصرفوا ، اخرجوا ••• أيها اليسوعيون ! امض
يا سمردياكوف • سيصلك الدينار الذهبي الذي وعدتك به ، ولكن هيئاً
انصرف ! وهوّن عليك يا جريجورى ، عدّ الى مارفا فتردّ اليك هدوءك
وتضعك في سريرك •

فما ان نفذ الخادمان أمره فانصرفا ، حتى أضاف يقول بحدّة
وشراسة :

- ان هؤلاء الأوغاد لا يدعون لى شيئاً من راحة بعد الغداء •
وسمردياكوف هذا يجيز لنفسه الآن أن يجيء كل اليوم عند الغداء ،
أأنت الذى تجتذبه يا ايفان ؟ ماذا فعلت حتى فتته ؟

كذلك سأل الأب ابنه ايفان ، فأجابه هذا بقوله :

– لم أفعل شيئاً البتة • وإنما شعر نحوى بالاحترام ، لا أدري لماذا
 ••• هو خادم ، هو رجل خشن الطبع فظ غليظ ••• ولكنه واحد من
 أولئك الذين يندفعون الى الصف الأمامى متى حانت الساعة •

– الى الصف الأمامى ؟

– سيكون هنالك آخرون ، وسيكون هنالك أناس أفضل منه ،
 ولكن سيجىء أيضا أناس مثله • وأمثاله هم الذين سيؤكدون أنفسهم
 أولا ، ثم يجىء دور من هم أفضل منه •

– ومتى تحين تلك الساعة ؟

– ربما اشتعلت الأسهم النارية ثم انطفت قبل أن تنطلق • ان
 الشعب لا يحب الآن هؤلاء المحرّضين كثيرا •

– ان تلك الحمارة قد أخذت تفكر ، ولا يدري الا الشيطان الى
 ماذا يمكن أن تؤدى أفكارها •

قال ايفان ماكرا ساخرا :

– انه يجمع آراء ويراكم أفكارا •

قال الأب :

– أنا أعلم تماما أنه يكرهنى كما يكره الآخرين ، وكما يكرهك
 أنت أيضا رغم ما تظنه من أنه يكن لشخصك الاحترام • أما شعوره
 نحو ألبوشا فهو أسوأ من ذلك أيضا : انه يحتقره • ولكن يجب أن
 نعترف أنه فى مقابل ذلك لا يسرق ، وأنه ليس بنمّام ، فهو يعرف كيف
 يصمت ، ولا يثرثر خارج المنزل فيما يسمعه بالمنزل • وهو الى هذا
 يجيد طهى أنواع الكولياكا • أما فيما عدا ذلك ، فشيطان يأخذه ! أليس
 هذا صحيحا ؟ وهل يستحق منا عناء التحدث عنه طويلاً ؟

- لا ... لا يستحق منا هذا العناء !

- أما فيما يتعلق بالأفكار التي يمكن أن تقوم في رأسه ، فأنا من جهتي أعتقد على وجه العموم بأن الفلاح الروسي يستحق أن يُضرب ضرباً مبرحاً . لقد أكدت هذا الرأي دائماً . ان فلاحينا أوغاد أوباش لا يستحقون الشفقة . ويمينا انه لمن حسن الحظ أنهم ما يزالون يُضربون من حين الى حين ، هؤلاء الأوغاد ... ان أشجار الخيزران التي تؤخذ منها العصي دليل على قوة روسيا . فمتى قطعت غابات أشجار الخيزران ضاعت بلادنا . أنا شخصياً أحب العقل . ولا شك أننا قد كففنا عن ضرب الفلاحين لافراطنا في حب العقل . ولكن الفلاحين مستمرين على جلد أنفسهم بأنفسهم * . وما أعتاهم في هذا : على قدر اعتبار المرء نفسه يكون فقدانه القصد والاعتدال ... من قائل هذا القول المأثور ؟ على كل حال ... هو يفقد القصد والاعتدال ... أما روسيا فهي بلد قذر حقير ... لبتك تعلم يا صديقي كم أكره روسيا ... أو قل انني لا أكره روسيا بمقدار ما أكره هذه العيوب ... وربما كرهت روسيا أيضاً ... هذه كلها حقارات ووساخات ! هل تعرف ما الذي أحبه أنا ؟ أنا أحب الفكاهة ...

- لقد شربت قدحاً آخر منذ هنيهة . فعليك أن تمسك !

- لا لن أمسك بعد . سأشرب قدحاً ، فقدحاً ثانياً ، ثم أمسك بعد ذلك . ماذا كنت أريد أن أقول ؟ قطعت سلسلة أفكارى ... ها ... نعم ... حين كنت ماراً بموكرويه سألت رجلاً عجوزاً فأجابني بما يلي : « نحن نحب كثيراً أن نحكم على البنات بالجلد ، ونعهد بتنفيذ هذه العقوبة الى شباب . فكثيراً ما يحدث أن نرى الفتى الذي جلد الجميلة بالأمس يجيئها اليوم خاطباً . وهكذا تنتفع البنات أيضاً من الامر ، كما يقال ، . ما رأيك في شباننا أنصار المركيز دى ساد ؟ منظر فكه على الأقل ...

ليتنا نذهب يوما لرؤية المشهد • ما رأيك يا أليوشا ، هه ؟ مالك تحمر ؟
لا تخجل يا صغيرى ! يا لها من خسارة أننا لم نحضر مأدبة كبير الرهبان
لنقص على الرهبان قصة بنات موكرويه هذه ! لا تؤاخذنى يا أليوشا على
أننى أهنت صاحبك كبير الرهبان منذ قليل • ان الخردل يصعد الى أنفى
فى بعض اللحظات ••• لا شك أنتى أكون آتما ، ولا شك أنتى سآعاقب ،
اذا كان الله موجودا • ولكن اذا لم يكن الله موجودا ، فما فائدة جميع
هؤلاء الرهبان ؟ اذا لم يكن الله موجوداً فانه لقليل جدا أن تقطع
روسهم ، لأنهم يعوقون التقدم ! هل تصدقنى يا ايفان اذا قلت لك ان
هذا يهين أسمى عواطفى ؟ لا ••• أنت لن تصدقنى ••• اننى أرى هذا
فى عينيك ! أنت تظن كما يظن سائر الناس أنتى مهرج لا أكثر •
أليوشا ، هل تصدقنى اذا قلت لك اننى لست مهرجا فحسب ؟

- أنا أعلم أنك لست مهرجا فحسب •

- أصدقك • أعرف أنك تتكلم الآن مخلصا ، كما تفعل ذلك
دائما • أنت تقول الحقيقة • وعيناك لا تكذبان • ولا كذلك ايفان •••
فانه ليس بمخلص ••• هو رجل مزهو بنفسه ••• مع ذلك ، لو كنت
فى مكانك لتركت هذا الدير واتهيت منه ••• هذه الصوفية يجب
اجتائها من الأرض الروسية ، يجب الغاؤها الغاء تاما من روسيا كلها فى
ذات يوم ، لترد الأغبياء الى العقل ، ونرجعهم الى الرشاد • ما أكثر المال ،
ما أكثر الذهب الذى يمكن أن تسترده خزانة الدولة بهذه الطريقة !

سأل ايفان :

- لماذا نلغيا ؟

- لماذا ؟ لنعجل انتصار الحقيقة فى هذا العالم •

- أفلا تدري اذن أنه اذا انتصرت الحقيقة فسيأخذون يجردونك
تجريدا تاما ، ثم ... يزيلونك ؟
- هه ! ... على كل حال ، قد تكون مصيبا ...
قال فيدور بافلوفتش ذلك ثم لطم جبينه يده لكمة خفيفة على حين فجأة ،
وأضاف :

- اذن فلا نمسن ديرك بسوء يا أليوشا ، ما دام الأمر كذلك • أما
نحن ، معشر الأذكيا ، فلنستمر ... نعيش في رخاء ونحسى الكونياك!
ان الله نفسه ، يا عزيزى ايفان ، هو الذى لا بد أنه أراد اقامة ذلك
النظام • ولكن قل لى يا ايفان : هل الله موجود أم غير موجود ؟ قل لى
وأرحنى ... ولكن قف ! اننى أريد جوابا صادقا ، جواب جاد لا هازل!
لماذا تضحك من جديد ؟

- أضحك لأننى تذكرت الفكرة التى عبّرت عنها منذ برهة تعبيرا
فكها فى موضوع سمردياكوف واعتقاده بوجود ناسكين قادرين على
تحريك الجبال •

- هل يذكرك كلامى الذى أقوله الآن بسمردياكوف فى هذه
النقطة ؟

- جدا •

- معنى هذا أننى أنا أيضا روسى حقا ، أتصف بما يتصف به
الروسى من خصائص تميزه • ولا بد أن تكون أنت أيضا متصفاً بهذه
الخصائص ، مهما تكن فيلسوفا • هل تريد أن أبرهن لك على ذلك
بالوقائع ؟ اننى أراهن على اننى سأستطيع ذلك منذ الغد • ومع ذلك
أجبنى : أوجد اله أم لا ؟ تكلم جادا لا هازلا ، فاننى أريد أن أعرف
ذلك •

- لا ... لا يوجد اله •

- ألبوشا ، هل الله موجود ؟

- الله موجود •

- سؤال آخر يا ايفان : هل هناك شيء بعد الموت ؟ هل هناك حياة

أخرى ، أية حياة أخرى ، ولو شبح حياة أخرى ، شبح صغير ، صغير جدا ؟

- لا شيء بعد الموت !

- لا شيء البتة ؟

- البتة •

- أهو العدم المطلق اذن ؟ أم يوجد شيء ما رغم كل شيء ؟ ربما

و'جد قليل من حياة مع ذلك ! لقليل "خير" من لا شيء ...

- لا شيء الا العدم الكامل ! صفر ... لا أكثر من ذلك !

- ألبوشا ، هل هناك خلود ؟

- نعم هناك خلود •

- اذن يوجد اله ويوجد خلود ؟

- نعم ، يوجد اله والخلود موجود في الاله •

- هم ... لا شك أن ايفان هو صاحب الرأي الصحيح • ومع

ذلك ما أكثر التضحيات التي ضحها الانسان في سنين هذا الاعتقاد ،

وما أكثر القوة التي أنفقها على هذا الأمل في غير طائل ، منذ ألوف

السنين ! ... فمن ذا الذي يضحك على الانسانية هذا الضحك ، من ذا

الذي يسخر منها هذا السخر ، قل لي يا ايفان ! انني ألقى عليك هذا

السؤال آخر مرة ، ألقه عليك قاطعا جازما : الله موجود أم لا ؟ أجبنى
آخر جواب ...

- أجيبك آخر جواب : لا !

- فمن ذا الذى يسخر اذن من البشر المساكين ويضحك عليهم ؟

فقال ايفان ماكرا ساخرا :

- هو الشيطان ما فى ذلك شك •

- اذن يوجد شيطان على الأقل ؟

- لا ... لا يوجد حتى شيطان •

- خسارة ... لا يعلم أحد ماذا كان يمكن أن أصنع به ، ذلك

الذى اخترع الله أول من اخترعه ... ان الشئ قليل عليه •

- لولا أن اخترع الله لما وُجدت المدينة !

- المدينة ؟ لولا الله لما وُجدت المدينة ؟

- لا ... ولما وُجدت خمور أيضا ! أحسب أنه قد آن مع ذلك

أن نتزع منك قارورة الكونياك هذه •

- لحظة ، لحظة يا عزيزى ! كأساً صغيراً آخر ... لقد أسأتُ الى

ألوشا • ألم تزعل منى يا ألكسى ؟ ألم تحقد علىّ يا عزيزى الصغير

اليوشا ، يا بنى الطيب الشهم ؟

- لا ... لست غاضبا • أنا أعرف أفكارك • ان القلب فيك خير

من الرأس •

- قلبى خير من رأسى ؟ وهو الذى يقول هذا الكلام يا رب !

ايفان ، هل تحب ألوشا ؟

- أحبه •

- يجب أن تحبه (كان فيدور بافلوفتش في تلك اللحظة قد أخذ السكر منه مأخذه) • اسمع يا أليوشا • لقد أسأت الى شيخك في هذا الصباح ، لقد أهنته ••• ولكننى كنت مهتاجاً هتياجاً شديداً • ألا ان فى قلبه شيئاً من فكر ، ما رأيك يا ايفان ؟

- صحيح •

- نعم نعم ••• ان فى داخله شيئاً من بيرون * • انه يسوعى ، أقصد أنه مجادل روسى • وهو ، ككل انسان ذى عواطف رفيعة ومشاعر سامية لا بد أن يسوءه أحياناً فى الخفاء أن يضطر الى التظاهر والتمثيل فى هذا العالم ••• أن يصطنع مظاهر قديس ، أن يتخذ أوضاع ولى •••

- لكنه يؤمن بالله •

- هو ؟ أبداً • ألم تكن تعرف ذلك ؟ ثم انه يعترف بهذا هو نفسه لجميع الناس ••• لا لجميع الناس طبعاً ••• بل للأذكاء ممن يزورونه • لقد قال جازماً قاطعاً وهو يتحدث الى الحاكم شولتس : أنا أوّمن ، ولكن لا أدري بماذا •

- أهذا ممكن ؟

- تماماً • وأنا أحترمه مع ذلك • انه فى عنصراً مفستوليسياً ، أو قل ان هناك شيئاً بينه وبين « بطل من زماننا » ، آر بنين * ، اذا صدقت ذاكرتى ••• أقصد أنه رجل يحب اللذات ، رجل شهواتى • وهو يبلغ من الميل الى النساء أننى أكون ، حتى اليوم ، قلقاً على زوجتى أو على ابنتى ، اذا هما ذهبتا تعترفان له ••• فتخيل ! ••• هل تعلم أنه يتفق له أن يروى قصصاً من تلك القصص ! ••• منذ ثلاث سنين دعانا الى

احتساء الشاي عنده مع خمور (ان السيدات يرسلن اليه خمورا) ،
 فأخذ يستحضر ذكري مغامرات ماضيه ... فاضطررنا أن نمسك بطوتنا
 حتى لا تنفجر من شدة الضحك ... ولا سيما حين حدثنا عن تلك
 المرأة العاجزة التي شفاها ... لقد قالت له : « لولا أن ساقى مريضتان
 هذا المرض ، لرقصت لك رقصة من تلك الرقصات ! » هه ؟ ظريفة ،
 أليس كذلك ؟ وقد اسرنا الينا يومئذ قوله : « كانت لي في حياتي مغامرات ! »
 وقد سلب التاجر ديميدوف ستين ألف روبل .

- ماذا ؟ سرقها ؟

- استودعه الرجل المبلغ أمانة لما عرف به من صلاح وفضل .
 قال له : « احتفظ لي به عندك ، لأن منزلي سيفتتش في الغد » . فاحتفظ
 الآخر بالمبلغ كاملا غير منقوص . قال له : « أنت قد وهبت المبلغ لمبرات
 الكنيسة . » . فقلت له أنا : « أنت وغد ... ما أنت الا وغد » ...
 فقال لي : « لا ... لست وغداً ، بل أنا رجل واسع النظرة . » . ولكن
 لا ... لا ... لقد أخطأت ... لم يجر الحديث معه هو ... لقد
 خلطت بينه وبين شخص آخر . دون أن ألاحظ ذلك ، دون أن أشعر
 بذلك ... كأساً أخرى ، كأساً أخيرة ، يا ايفان ، ثم ارفع قارورة
 الكونياك ! لقد كذبت ، لقد كذبت . كان عليك أن توقفني عن الكلام
 يا ايفان ! لماذا لم تقل لي انني أكذب ؟

- كنت أعرف أنك ستتوقف من تلقاء نفسك .

- غير صحيح ! انك تركتني أتكلم بدافع الخبث ، بدافع الخبث
 وحده . انك تحققرني ، أنا أعرف ذلك . لقد جئت تعيش معي ، ثم
 أنت تعاملني باحتقار حتى في منزلي !

- سأرحل . اطمئن . ان الكونياك قد شوش عقلك !

– لقد تضرعت اليك ، باسم يسوع المسيح ، أن تذهب الى تشرماشنيا
 ••• يوما أو يومين ••• ثم لم تفعل !

– سأذهب غدا ما دمت تلح •

– لن تذهب • أنا واثق من ذلك • انك تريد أن تراقبني هنا •
 تلك هي غايتك ياذا النفس السوداء ! لذلك لن تذهب •

أصبح العجوز لا يسيطر على نفسه • لقد وصل من نشوة الكحول
 الى تلك المرحلة التي يشعر فيها بعض السكيرين الذين هم فى العادة
 أناس مسالمون بحاجة مفاجئة الى أن يغضبوا ، وأن يظهروا ما هم قادرون
 عليه •

– مالك تفرس فى هكذا ؟ يا لعينيك هاتين ما أقدرهما ! انك تنظر
 الى " فأقرأ فى نظرتك قولك : « أيها السكير الدنيء » ! آه من هاتين
 العينين اللتين تفيضان شكاً وريبة واحتقارا ! ••• أنت انما جئت الى عندى
 لغاية معينة فى نفسك ••• ولا كذلك أليوشا ••• انه ينظر الى بعينين
 تشرقان صراحة • أليوشا لا يحتقرنى • يا الكسى اياك أن تحب ايفان •

قال أليوشا بحزم مباغت :

– لا تفضب من أخى • أكفف عن اهاتته !

– السبب هو •• آه ••• أصبحت لا أدرى ••• أنت على حق •
 اف ••• ما أشد هذا الصداع الذى ألم برأسى على حين فجأة ! ارفع
 هذا الكونياك يا ايفان ! هذه ثالث مرة أطلب اليك فيها أن ترفع هذا
 الكونياك •

قال فيدور بافلوفتش ذلك ، ثم أطرق يفكر ، واستطالت شفاته
 بابتسامة ماكرة •

- لا تحقد يا ايفان على هذا العجوز المهوس ... لا تحقد على
يا ايفان ! ... أنا أعرف أنك لا تحبني كثيرا . وليس هناك ما يوجب
أن تحبني على كل حال ... اذهب الى تشرماشنيا ، وسألحى بك حاملاً
اليك حلوى ... وسأعرفك هناك بنت من تلك المنطقة لاحظتها منذ
زمن طويل . هي الآن فتاة صغيرة رثة بائسة . لا تخش الصبايا
المزقتات . لا تحقرهن قط ... فهن لآلىء فى كثير من الاحيان .

قال ذلك وقبّل يده قبلة مدوّية ، من باب التأكيد . ثم أردف
وقد اتعش فجأة كأن اثاره موضوعه المفضل قد أوتيت القدرة على أن
تردّه الى الواقع رداً مباغتاً :

- ما أتم أيها الفتيان الا صيبة ، الا خنازير صغيرة ... ها ...
أنا من جهتي لم أقبل فى حياتي أن تستطيع امرأة أن لا تعجبني ...
تلكم هى مبادئى ! أأتم قادرون على أن تفهموا هذا ؟ ولكن أنى لكم أن
تفهموه ! ان عروقتكم ليس فيها بعد الا لبن ... انكم لم تنضجوا بعد !
ان القاعدة التى التزمها فى سلوكي هى أن فى كل امرأة شيئاً خاصاً شائقاً
لا يمكن أن يوجد فى امرأة أخرى .. وانما المهم أن يستطيع المرء
اكتشافه ... وذلك فن ... ذلك فن يحتاج الى موهبة ! ما من امرأة
أمكن أن تكون فى نظري دميمة أو باعثة على الاشتمزاز فى يوم من
الأيام . حسبها أن تكون امرأة .. هذا وحده نصف الحب .. حتى
العوانس لا بد أن يكتشف المرء فيهن متى عرضت الفرصة أشياء يذله
أن يتصور أن هناك اناسا أغبياء حمقى تركوا لهن أن يشخن دون أن
يلاحظوهن . وأول شئ يجب أن يعمد اليه الرجل مع هاته الصغيرات
الرتات الوسخات هو أن يدهشهن . بهذه الوسيلة انما يجب التوسل
اليهن . ألم تكن تعرف ذلك ؟ يجب أن تبلغ بهن الدهشة حد النشوة
والوجد ، حدّ الألم والعذاب ، حدّ الشعور بالخزي والعار من أن سيداً

أنيقاً أمكن أن يتوله حباً بدمامة كهذه الدمامة . ألا انه لشيء رائع يشحذ
العزيمة أن يعرف المرء أنه سيقى في هذا العالم الى الأبد سادةً وخدم ،
ففى هذه الحالة سيظل هناك صغيرة رثةٌ ما يحلو لها أن تفرح سيدها
ومولاها . تلك هى سعادة الحياة ! انتظر . . . هل تعرف يا أليوشا ؟ ان
هذا الامر يذكرنى بأننى قد بعثت الدهشة دائماً فى نفس المرحومة أمك ،
ولكن بمعنى آخر . كنت أدعها مدة طويلة بلا ملاطفات ومداعبات ، ثم
اذا أنا فى ذات يوم ، فى دقيقة من تلك الدقائق التى يتفق لى أن أعرفها ،
أسترسل فجأة فى اظهار جميع أنواع العواطف ، حتى لأزحف على
ركبتى ، وأقبل قدميها الصغيرتين ، فأقلها فى كل مرة - ما زلت أتذكر
هذا كأنه حدث بالأمس - أقلها فى كل مرة الى حالة نفسية خاصة ،
فاذا هى تأخذ تضحك . . . تأخذ تضحك ضحكة فريدة فى نوعها . . .
ضحكة واهنة حادة فى آن واحد ، ضحكة عصبية طويلة . وكان ذلك
على كل حال هو النوع الوحيد من الضحك الذى عرفته فيها . وكنت
أعلم أن مرضها انما يبدأ عندها بهذه الطريقة نفسها ، فهى تأخذ فى
الغداة تصرخ مثل كليكوشا ، وأن ذلك الضحك الخاص لم يكن يعبر
فى الواقع عن أى فرح . ولكننى كنت أرى ذلك الضحك لذيذا ، سواء
أعبر عن فرح أم لم يعبر عن فرح . فهل رأيتم كيف كنت أستطيع أن
أجد فى كل شيء جانباً جذاباً مجهولاً ؟ وقد اتفق فى ذات يوم أن
بيليافسكى - وهو رجل متظرف غنى جداً كان يسعى اليها واستطاع
أخيراً أن يدخل بيتى - قد صفعنى على وجهى فى بيتى بحضورها ! فماذا
حدث ؟ لقد أوشكت هذه المرأة التى تشبه أن تكون حملاً ، أوشكت أن
تضربنى بسبب هذه الصفعة ! ليتكم سمعتم كيف أخذت تؤنبنى وتقرعنى :
« سمحت له أن يضربك ؟ أن يضربك ؟ . . . ارتضيت أن تتلقى صفعةً
من هذا الشخص ؟ لقد أردت أن تيعنى له . . . كيف تجراً أن يصفعك

أمامي؟ لا أريد أن أراك بعد اليوم هنا... هل تسمع؟ لا أريد أن أراك بعد اليوم قط... هيا اطلبي الى المبارزة... اسرع... أركض... هكنا أخذت تقول لي... أخذتها الى الدير لأهدى روعها، وصلّى الرهبان من أجلها... ولكنني أقسم لك يا أليوشا أمام الله أنني لم ألحق بها أذى في يوم من الايام، لم ألحق أى أذى بصغيرتى العزيزة الكليكوشا... اللهم الامة واحدة، أثناء السنة الأولى من حياتنا، ثم لم يحدث شيء من هذا بعد ذلك يوما... وكانت منذ ذلك الأوان تسرف في الصلاة في رأيي، وتراعى أعياد السيدة العذراء مراعاة دقيقة، فما تسمح لي بأن أقاربها أثناء ذلك... خطر ببالي مرة أن على أن أطرد هذه الأفكار من ذهنها، فقلت لها: «هل ترين هذه الأيقونة؟ هذه الأيقونة المقدسة؟ سامضى اليها الآن، فأرفعها من مكانها... انك تعتقدين بأن هذه الصورة تحقق معجزات... طيب... سأبصق عليها الآن أمامك، فلا يحدث لي شيء...» يا الهى! حين نظرت اليها عندئذ فرأيت تعبير وجهها، خيّل اليّ أنها ستقتلني فوراً... ولكنها لم تزد على أن انتفضت، ورفعت ذراعيها في الهواء، ثم غطت وجهها بيديها، وأخذت ترتعش من قمة رأسها الى أخمص قدميها، ثم هوت على الأرض... منهاره انهياراً تاماً... أليوشا، أليوشا؟ ما بك؟ ماذا دهاك يا صغيرى؟

وثب العجوز عن مقعده مروّعاً مذعوراً... كان وجه أليوشا قد بدأ يتغير تعبيره شيئاً فشيئاً منذ أخذ العجوز يتحدث عن أمه... لقد احمر في أول الامر، واشتعلت عيناه، وأخذت شفاته تخرجنان... وكان العجوز السكران يقذف من فمه رذاذاً من لعاب أثناء كلامه دون أن يلاحظ شيئاً، الى أن استولت على أليوشا تلك الحالة من الاضطراب الغريب: لقد صار أليوشا الى تلك الحالة نفسها التي وصفها أبوه في كلامه عن الكليكوشا: نهض عن مكانه فجأة كما فعلت أمه في القصة التي رواها

أبوه عنها ، وزفغ ذراعيه فى الهواء ، ثم غطى وجهه بيديه ، ثم عاد يتهاوى على كرسيه كتلة واحدة ، وأخذ يرتجف جسمه كله ويهتز فى نوبة هسترية تصاحبها دموع صامتة • وقد دُهن العجوز دهشة خاصة من هذا التشابه الخارق الذى ظهر فى تلك اللحظة بين أليوشا وأمه • فقال ينادى ايفان :

— ايفان ! ايفان ! هات ماءً ، أسرع ! هو مثلها ، مثل أمه تماماً ! صبَّ عليه ماءً بالمغرفة ، فذلك ما كنت أفعله أنا بها • هذا بسبب أمه ،
أمه •••

— أمه ؟ يخيّل الىّ أن أمه هى أمى أيضاً ، ألا تقدّر ذلك ؟

هكذا انفجر يقول ايفان على حين فجأة ، فى سورة من غضب شديد واحتقار هائل ، فارتعش العجوز حين رأى نظراته الحارقة المسعورة •

عندئذ حدث شىء عجيب ، ولكنه لم يدم الا بضع ثوان • يبدو أن العجوز قد نسي فعلاً أن أم أليوشا هى أم ايفان أيضاً ، فها هو ذا يقول مدمماً دون أن يفهم :

— أمك ؟ كيف ؟ ماذا تريد أن تقول ؟ عن أى أم تتكلم ؟ أتكون هى حقاً ؟ ••• آه ••• لعن الله الشيطان ! نعم ••• هى أمك أيضاً ! لعن الله الشيطان ! يا لهذه الذاكرة السيئة التى لم أعرف مثلها فى حياتى ! معذرةً يا ايفان • لقد خيّل الىّ أن ••• هاهاها ! •••

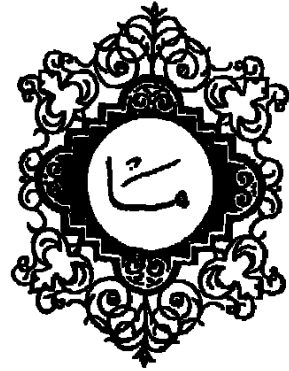
قال العجوز ذلك ثم توقف فجأة على ابتسامة بلهاء من ابتسامات السكرين • وفى تلك اللحظة نفسها سمعت من الدهليز جلبة رهية ،

وضوضاء شديدة تقطعها صرخات حادة عنيفة • وانفتح الباب بما يشبه
الاعصار ، وظهر دمترى بافلوفتش مندفعاً الى الغرفة •

ارتمى المعجوز نحو ايفان وقد استولى عليه جزع هائل ، وطفق
يصيح وهو يتشبث بحافة رداء ايفان بكل ما أوتى من قوة :

- سيقتلنى ، سيقتلنى •• لا تركنى •• دافع عنى •• احمنى !

السهم واليون



ان دخل دمترى بافلوفتش الغرفة حتى هرع جريجورى وسمردياكوف فى أثره . كانا قد حاولا فى الدهليز أن يمنعا بالقوة من الدخول (تنفيذاً للأوامر التى أصدرها اليهما فيدور بافلوفتش منذ بضعة أيام) ، فلما صار دمترى فيدوروفتش فى الصالون فتوقف لحظة قصيرة ليعرف الى أين يجب عليه أن يتجه ، انتهز جريجورى هذه الفرصة فدار حول المائدة ، ومضى الى الباب الذى يوجد فى آخر الصالون ويفضى الى الغرف الداخلية فأغلق مصراعيه ووقف أمامه مصالباً عليه ذراعيه كأنه مستعد لأن يمنعه من الدخول منه الى آخر رمق . فلما رآه دمترى أطلق صرخة حادة ، بل قل زاراً زهيراً رهيباً وارتمى على الخادم المعجوز ، قائلاً :

— هي اذن هنا . خبأتموها فى الغرفة المجاورة . ابعدها

الشقى !

أراد دمترى أن يقصى جريجورى ، ولكن جريجورى دفعه عنه ، فجئن جنون دمترى حقاً ، فرفع ذراعه وهوى على الخادم بضربة قوية ، فسقط الخادم على الأرض كتلة واحدة ، وركله دمترى بقدمه ، واقتحم

الباب • أما سمردياكوف فقد ظل في الطرف الآخر من الصالون يشد نفسه الى فيدور بافلوفتش صاحب الوجه مرتعد الجسم •
صرخ دمترى فيدوروفتش يقول :

- هي هنا حتماً • رأيتها تتجه الى هذا المنزل منذ هنيهة ، ولكنى لم أستطيع أن أدركها • أين هي ؟ أين هي ؟

أحدثت هذه الصرخة « هي هنا » ، أحدثت في فيدور بافلوفتش أثراً خارقاً ، فتبدد خوفه وزال جزعه وهلعه دفعةً واحدة ، وزأر يقول وهو يندفع وراء دمترى :
- أوقفوه ! أوقفوه !

وكان جريجورى قد نهض عن الأرض أثناء ذلك ، ولكنه ما يزال طائش اللب • وأسرع ايفان فيدوروفتش وأليوشا يجريان وراء أبيهما ليصداه • وسمعت في الغرفة الثالثة ضجة سقوط شيء وتناثر حطام : انها زهرية كبيرة من الكريستال (ليست من أئمن الزهريات) كانت موضوعة على قاعدة من المرمر ، فاصطدم بها دمترى أثناء جريه فسقطت على الأرض وتهشمت •

أعول العجوز من جديد يقول :

- أمسكوه ! النجدة ! النجدة !

وأدركه ايفان فيدوروفتش وأليوشا في تلك اللحظة ، واستطاعا أن يرجعاه الى الصالون بالقوة •

- بنى فانيا ، بنى ليوشا* ! جاءت اذن جروشنيكا • هي هنا • رأها بنفسه تجرى نحو دارى •••

ان فيدور بافلوفتش يتعثر فى الكلام • كان لا يتوقع أن تجيء جروشنكا فى ذلك اليوم ، فلما سمع أنها جاءت طاش عقله • ان جسمه كله يرتعد • وكأنه قد فقد جميع رشده •

قال له ايفان حانقاً :

- أنت نفسك تعلم حق العلم أنها لم تأت •

- لعلها دخلت من الباب الآخر •

- ولكن الباب الآخر مقفل ، ومفتاحه فى جيبيك •

وفجأة ظهر دمترى مرةً أخرى فى الصالون • لقد وجد الباب الثانى مغلقاً بطبيعة الحال ، لأن مفتاح ذلك الباب كان فى جيب فيدور بافلوفتش ؛ وكانت النوافذ موصدة فى جميع الحجرات من جهة أخرى ، فما كان لجروشنكا اذن أن تستطيع دخول المنزل من أى مدخل ولا أن تغادره من أى مخرج •

أعول فيدور بافلوفتش حين رآه ، قائلاً :

- اقبضوا عليه • لقد ذهب يسرق مالاً من غرفة نومى !

واستطاع فيدور بافلوفتش أن يتملص من يدي ايفان ، فهجم ثانيةً على دمترى • ولكن دمترى رفع ذراعيه ، وأمسك العجوز فجأة من خصلتى شعره الباقيتين على صدغيه ، وشده منهما شداً قوياً فرماه على الأرض فى قرقرة ، واتسع وقته كذلك لأن يطرق رأس أبيه بكعب حدائه مرتين أو ثلاثاً وهو متمدد بين قدميه ، فأطلق العجوز من صدره أنيناً حاداً • ولكن ايفان فيدوروفتش ، رغم أنه لا يملك ما يملكه أخوه من قوة ، طوق أخاه بكلتا ذراعيه واستطاع أن يبعده عن الأب ؛ وعاونه ألبوشا الضعيف على ذلك فى حدود طاقته ، ممسكاً دمترى من أمام •

صرخ ايفان يقول :

- أنت مجنون ؟ لقد قتلته •

فصاح دمترى يقول وهو يتنفس تنفساً قوياً :

- أحسن ! لقد استحق ذلك • وإذا أخطأته هذه المرة ، فسأعود مرة أخرى لأجهز عليه ! ولن تحول عندئذ بينى وبينه !

وقال أليوشا بلهجة قاطعة :

- اذهب يا دمترى ! اخرج من هنا فوراً •

- ألكسى ! قل لى الحقيقة كلها • أنت الانسان الوحيد الذى أتقى به وأطمئن الى صدقه : أكانت هنا منذ قليل أم لا ؟ لقد لمحتها متسللةً على طول السياج فى آخر الزقاق ، متجهة نحو هذه الدار ، فناديتها فولت هاربة ...

- أحلف لك انها لم تأت هنا ، وأن أحداً لم يكن ينتظرها عدا ذلك ! ...

- ولكننى رأيتها بعينى ... اذن هى ... لن ألبث أن أعرف أين هى الآن ! ... الى اللقاء يا ألكسى ! لا تقل لايزوب* كلمة واحدة فى أمر المال الآن • اذهب فوراً الى كاترين ايفانوفنا • يجب أن تذهب اليها حتماً • قل لها : « انه يبلفك احترامه ، احترامه ، احترامه ، يبلفك احترامه مودعاً ! » • وصِف لها هذا المشهد ...

وكان ايفان وجريجورى قد أنهضا العجوز أثناء ذلك ، وأجلساه على مقعد • كان وجهه دامياً ، ولكنه ليس مغشياً عليه ، فهو يتابع أقوال دمترى وصيحاته بشراهة ، وما يزال يسيطر عليه الشعور بأن جروشنيكا

مختبئة في مكان ما بالمنزل • وحين همّ دمتري فيدوروفتش أن ينصرف
رشق أباه بنظرة تفيض كرهاً وبنضاً ، وقال له :

– لا يعذبني ضميري على أنني سفحت دمك • حذار أيها العجوز!
إذا كان ما يزال لك أمل ، فاحذر من أمل أنا ! انني ألعنك وأنكرك !

قال ذلك وخرج من الغرفة مسرعاً •

– هي هنا ، هي هنا قطعاً • سمردياكوف ، سمردياكوف !

هكذا نادى العجوز بصوت محشرج لا يكاد يُسمع ، وهو يوميء
بأصبعه الى الخادم •

فأجابه ايفان بصوت حائق يقول :

– بل ليست هنا ، ليست بالمنزل ، أيها العجوز الفاقد عقله ! ها • •
ها هو ذا يُغمى عليه • هاتوا ماءً ، أسرعوا ، وهاتوا خرقة ! أسرع
يا سمردياكوف !

مضى سمردياكوف بأقصى سرعة لاحضار ماء • واخلعوا عن العجوز
ثيابه أخيراً ، ونقلوه الى غرفة نومه ، وأرقدوه على سريريه ، وأحاطوا
رأسه بخرقة مبللة • فما ان لامس رأس العجوز مخدته ، وقد أوهنه
الكونيياك وأضعفته الانفعالات العنيفة والضربات القوية ، حتى أغمض
عينيه ونام • وعاد ايفان فيدوروفتش وألبوشا الى الصالون • ولم
سمردياكوف حطام الزهرية المهشمة • ولبث جريجورى جامداً قرب
المائدة ، مظلم الوجه ، خافض الرأس في عناد •

قال ألبوشا لجريجورى :

– يحسن بك أنت أيضاً أن تلعغ رأسك بخرقة مبللة وأن ترقد
في فراشك • لقد ضربك أخي ضربة قوية كذلك •

قال جريجورى بصوت مبحوح بطيء :
 • تجراً أن يضربنى •

فقال ايفان فيدوروفتش :

– تجراً ؟ لم « يتجراً » أن يضربك وحدك ، بل ضرب أباه أيضاً !

– لقد ربته صغيراً ، وكنت أتولى غسله بنفسى ... ثم هو يتجراً

على الآن فيضربنى ...

• كذلك ردد جريجورى •

واستأنف ايفان كلامه مخاطباً أليوشا بصوت خافت :

– من يدرى ؟ لعله كان سيقتله لو لم نبعده عنه بالقوة • ترى

هل ينجو ايزوب زمناً طويلاً أيضاً ؟

فهتف أليوشا يقول :

– حمانا الله من هذا !

فاستأنف ايفان كلامه يقول خافضاً صوته :

– حمانا الله من هذا ؟ ألا فلنأكل السراطين بعضها بعضاً ! ذلك هو

المصير الذى تستحقه !

ارتعش أليوشا •

– طبعاً سأحول دون وقوع الجريمة كما فعلت منذ هنيهة • ابق

هنا يا أليوشا • وسأخرج أنا الى الفناء استنشق الهواء قليلاً ، فقد بدأت

أشعر بصداع فى رأسى •

عاد أليوشا الى غرفة نوم أبيه ، ولبث عند سريره قرابة ساعتين •

جالساً بين السرير والحاجز • ثم اذا بالعجوز يفتح عينيه فجأة ، فيطيل

النظر الى أليوشا صامتا ، وهو يحاول أن يتذكر وأن يفهم ؟ ثم اذا
باضطراب خارق ينعكس على وجهه فيدمدم قائلاً بوجل وخوف :

– أليوشا ، أين ايفان ؟

– فى الفناء • ان به صداعاً • ولكنه مهتم بنا ساهر علينا ، ولسوف
يحمينا •

– ناولتى المرأة • هى هناك ، هل تراها ؟ ناولتيها •

مدّ اليه أليوشا المرأة الصغيرة المدوّرة ذات المسند المطوى التى
كانت موضوعة على المنضدة • نظر العجوز فى قسّمات وجهه : كان أنفه
قد تورم تورماً شديداً ، وكانت فوق حاجبه الأيسر بقعة حمراء تدل على
أن دمًا قد نرف •

– ماذا دها ايفان ؟ أليوشا ، بنى الطيب الشهم ، أنت وحدك ابنى !
اننى أخشى ايفان ، أخشاه أكثر مما أخشى الآخر • أنا لا أشعر بالطمأنينة
الا معك • ولا أخاف منك •••

– ولا تخف من ايفان أيضا • صحيح أنه يلوم ويؤنب ، ولكنه
سيدافع عنك •

– أليوشا ! والآخر ، أين هو ؟ ذهب الى جروشنيكا ، أليس كذلك؟
يا ملاكى الطيب ، قل لى الحقيقة كاملةً : أجات جروشنيكا الى هنا
أم لا ؟

– لم يرها أحد هنا • تلك كذبة • انها لم تجيء •

– يريد دمترى أن يتزوجها ، هل تعلم ذلك ؟ أن يتزوجها •••

– لن توافق هى على هذا !

– سترفض ، سترفض حتماً أن تتوجه ، سوف تصده وتنبذه !

كذلك صاح العجوز جذلاً فرحاً ، وقد انتعش دفعةً واحدة على حين فجأة ، كأنه ما من شيء يمكن أن يسره كما تسره في تلك الدقيقة هذه الفكرة التي عبّر عنها أليوشا !

ومن فرط حماسه ، أمسك يد ابنه فوضعها بقوة على قلبه ، حتى لقد تالأت دموع في عينيه •

— خذ الأيقونة ، أيقونة العذراء المقدسة ، التي تكلمت عنها منذ برهة • انني أهب لها هذه الأيقونة ، انقلها الى مسكنك • وانني لأعدك أيضاً بأن تعود الى الدير ••• لا تؤاخذني يا أليوشا ، فاني ما أردت الا المزاح • بي صدام يا أليوشا ، يا عزيزي أليوشا ••• هدى روعى ، طمئن قلبي يا من أنت كالملاك ، قل لي الحقيقة كلها •

— أفي أمر جروشكا أيضاً ؟ أأنها جاءت الى هنا ؟

كذلك سأل أليوشا أباه بلهجة مرة • فقال له أبوه :

— لا ••• لا ••• سامحني ••• انني أصدقك • اليك ما أريده منك : اذهب الى جروشكا ، أو دبّر أمرك بحيث تراها ، واسألها بأقصى سرعة ممكنة ، دون أن تضيع من الوقت دقيقة واحدة ••• حاول أن تعرف منها هي ، أو أن تحزر من كلامها : أينما تفضل ، هو أم أنا ؟ هه؟ هل تستطيع أن تفعل هذا في سبيلي ؟

دمدم أليوشا يقول مضطرباً :

— سأسألها عن ذلك اذا رأيتها •

— بل الأفضل أن لا تراها • انني أعرفها • هذه امرأة مجنونة • سوف تلعب بعقلك وتجييك قائلة انها تؤثرك أنت ، انها تريدك أنت ! هي امرأة كذابة ، امرأة قليلة الحياء خالعة العذار ! ما ينبغي أن تراها ••• لا تصلح جروشكا لمثلك !

- ثم ان الذهاب اليها ليس بالأمر الحسن ، يا باتيوشكا !
- قل لى : الى أين كان يريد أن يرسلك حين صاح قائلاً لك لحظة انصرفه « اذهب اليها » ؟
- الى كاترين ايفانوفنا •
- للحصول على مال ؟ ليسألها مالا ؟
- لا ••• ليس الأمر أمر مال •
- أنا أعلم أنه لا يملك قرشا واحدا • اسمع يا ألبوشا • سأرتاح حتى صباح الغد ، وسأفكر فى جميع هذه الأمور • دعنى الآن • قد تلقاها فى طريقك ••• ولكن تعال الى غدا فى ساعة مبكرة ، تعال حتماً • هناك مسألة صغيرة أريد أن أحدثك فيها • هل تجيء ؟
- أجيء •
- تظاهر بأنك تجيء من تلقاء نفسك لتسأل عن أخبارى • لاتذكر لأحد انى رجوتك أن تجيء • ولا تقل كلمة واحدة لايفان خاصة •
- سأصمت •
- الى اللقاء يا ملاكى • لقد دافعت عنى ، فلن أنسى هذا أبداً •••
- سأقول لك فى الغد شيئاً ••• يجب أن أفكر فى هذا الشيء مزيداً من التفكير •••
- ما شعورك بصحتك الآن ؟
- سأنهض منذ الغد فأخرج • سأكون فى غدٍ قد شُفيت ، سأكون قد أبللت تماما •
- وحين قطع ألبوشا فناء المنزل وجد أخاه ايفان جالسا على دكة قرب

الياب • كان ايفان بسبيل تدوين بعض الأشياء فى دفتره الصغير بالقلم
الرصاص • أبلغه أليوشا. أن العجوز قد استيقظ واسترد شعوره، وأضاف
الى ذلك أنه قد أذن له بالعودة الى الدير ليل •

قال له ايفان ناهضاً وقد بدا فى وجهه كثير من التودد والتعجب :

- أليوشا ، أحب كثيراً أن أراك غدا فى الصباح •

فدُهِش أليوشا من هذه البشاشة التى لم يألّفها فيه • وأجابه :

- سأكون غدا عند السيدة هوخلاكوفا وابنتها • ومن الجائز أيضاً

أن اذهب غداً الى كاترين ايفانوفنا اذا لم أجدّها الآن فى دارها •

- أنت ذاهب اذن الى كاترين ايفانوفنامع ذلك ؟ لتنقل اليها

احترامه ؟

كذلك سأله ايفان وهو يتسم على حين فجأة •

اضطرب أليوشا • وأردف ايفان يقول :

- أحسب اننى فهمت الموقف مما قاله لك منذ قليل، ومن ملاحظات

أخرى سابقة • أغلب الظن أن دمترى رجلك أن تذهب اليها لتبلغها أنه

يريد ••• أنه يريد ••• أليس كذلك ؟ أقصد أنه يريد ان يقطع علاقته

بها ؟

سأله أليوشا :

- قل لى يا أخى • كيف سينتهى هذا الصراع الفظيع ، هذا النزاع

الرهيب بين دمترى وأبينا ؟

- يستحيل التنبؤ بذلك • قد يسوّى الأمر ، وقد يهدأ الخلاف

من تلقاء نفسه • ان هذه المرأة وحش كاسر مقترس • مهما يكن من

أمر ، يجب احتجاز العجوز فى المنزل ومنع دمترى من الدخول اليه •

- اسمع لى بسؤال آخر يا أخى : هل تعتقد فعلاً أن من حق كل

انسان أن يعيّن ، حين ينظر الى أقرانه البشر ، أولئك الذين ما يزالون يستحقون أن يعيشوا وأولئك الذين يجب أن يزولوا ؟

- ما جدوى أن نعالج هذا السؤال من وجهة نظر الاستحقاق ؟ ان أكثر الناس لا يحسمون هذا السؤال في قلوبهم على هذا الأساس ، وانما هم يحسمونه مستلهمين اعتبارات مختلفة جدا عن هذا الاعتبار ، اعتبارات أقرب كثيرا الى الطبيعة • أما عن الحق فهل يمكن أن ننكر على انسان من الناس حقّ أن يتمنى ما يناسبه ؟

- أن يتمنى موت انسان آخر ؟

- حتى الموت ، اذا دعت الحاجة • ما ينبغي للمرء أن يكذب على نفسه ••• ان جميع الناس يعيشون على هذا النحو ، وقد لا يكون من الممكن أن تجرى الأمور على غير هذا النحو ••• أنت تلقي على هذا السؤال بسبب فكرتى تلك عن السراطين ؟ فاسمح لى اذن أن ألقى عليك أنا أيضا هذا السؤال : هل تعتقد أنتى قادر ، مثل دمترى ، على أن أسفح دم ايزوب ، أى أن أقتله ؟ هه ؟

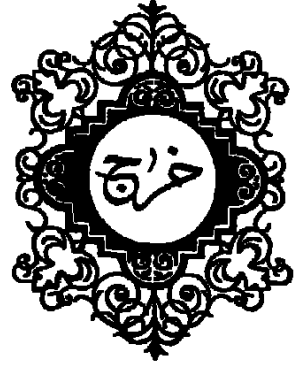
- ما هذا الكلام يا ايفان ؟ لم يخطر ببالى شيء من هذا فى يوم من الأيام ! ••• وحتى دمترى ، ما أظنه قادرا على أن •••
قال ايفان ساخرا :

- أشكر لك هذه الثقة على الأقل • اعلم أنتى سأدافع عنه فى كل ظرف • أما عن أمنياتى مع ذلك ، فانتى أحتفظ فى هذا المجال بحريتى • الى اللقاء • الى الغد • لا تدنّى ولا تحسبى مجرماً •
كذلك أضاف وهو يتسم •

تصافح الأخوان بقوة كما لم يتصافحا قبل ذلك قط • وأحسّ^ت اليوشا أن أخاه قد خطا الخطوة الأولى نحوه لغاية فى نفسه ، وأنه يبيّت^ت نية من النيّات حتماً •

١.

المرأة انكلتاها



أليوشا من دار أبيه أشد حزنًا مما كان حين دخلها • انه يشعر باضطراب عميق في ذهنه • أفكاره تتلاحق وتتبعثر بغير تسلسل ينظمها ، وبغير رابطة تصل بعضها ببعض • ولكنه يدرك في الوقت نفسه أنه يخشى تجميع أفكاره المشتتة وانعام النظر في خواطره المبلبله ، مؤثراً أن لا يستخلص أية نتيجة من المشاعر المتناقضة المعذبة التي عاناها في هذا النهار • ان نوعاً من القلق يحاصره ويستبد به ويوشك أن يكون يأساً • وذلك أمر لا عهد له بمثله من قبل • هناك مسألة أساسية فاجعة مستعصية كانت تسيطر في فكره على سائر الهموم الأخرى وتلاحقه وترهق قلبه كأنها الجبل ثقلاً : ما عسى يصير إليه هذا النزاع بين أبيه وأخيه دمتری على تلك المرأة الرهيبة ؟ انه يعرف خطورة هذه المشكلة الآن ، بعد أن شهد الدرامه ورأى الرجلين يواجه أحدهما الآخر • وأحق الناس بالرتاء على كل حال انما هو دمتری ، لأن شقاءه يبدو رهيباً ولأن بلاهه يبدو مستعصياً لا دواء له ولا براء منه : ان الكارثة تتربص به • وهناك أشخاص آخرون لهم فيها أدوار أضخم كثيراً مما كان يتراءى لأليوشا حتى ذلك الحين • هذا كله يحدث في نفس أليوشا احساساً مضطرباً ويشعره بأنه أمام لغز لا يفهم • من ذلك مثلاً أن أخاه ايفان قد

خطا الخطوة الأولى نحوه متقرباً منه متودداً إليه ، ولقد طالما تمنى أليوشا هذا التقارب بينه وبين أخيه ، ومع ذلك فإن ملاطفات أخيه هذه قد بثت في نفسه جزعاً لا يفهم له علة . وهاته النساء أيضاً ؟ ما أغرب ما يحس به أليوشا الآن ! حين كان ذاهباً الى كاترين ايفانوفنا منذ بضع ساعات ، فإنه قد ملأته تلك الزيارة اضطراباً . ولا كذلك في هذه اللحظة ، فإنه ماض إليها بغير وجل البتة . أكثر من ذلك أنه يستعجل الآن رؤيتها كأنها تستطيع أن تنقذه من قلقه ! على أن المهمة التي كلّف بها تبدو له الآن أصعب وأشق: لقد عدل دمترى عدولا نهائياً عن ردّ الثلاثة آلاف روبل . هو يرى الآن أن شرفه قد تلمّح الى الأبد ، وهو قد فقد كل أمل . فلن يتردد بعد اليوم عن أى سقوط . ثم انه قد ألحّ على أليوشا أن يروى لكاترين ايفانوفنا المشهد الذي جرى في دار أبيه .

حين وصل أليوشا الى أمام مسكن كاترين ايفانوفنا التي تشغل في « الشارع الكبير » منزلاً واسعاً فخماً ، كانت الساعة قد بلغت السابعة ، وكان الظلام قد أخذ يهبط . ان أليوشا يعلم أن كاترين ايفانوفنا تعيش في هذا المنزل في صحبة قريبتين لها . فأما أولاهما فلا تمت إليها يقربى الا من جهة أختها آجاتى ايفانوفنا ، وهى بعينها تلك الانسانة الخضوع الطيبة التي عنيت مع آجاتى تلك العناية كلها بكاترين بعد خروجها من المدرسة الداخلية . وأما الثانية فهى سيدة من موسكو فارعة القامة شاعرة بخطورة شأنها وعلو منزلتها رغم أنها ليست على جانب كبير من الثراء . وكان يقال ان هاتين القريبتين كلتيهما تخضعان لكاترين ايفانوفنا فى كل شىء ، ولا يعيشان قريبا الا مراعاةً للمواضعات الاجتماعية . أما كاترين ايفانوفنا فهى لا تطيع الا الجذالة ، المحسنة إليها ، التي لبثت فى موسكو بسبب حالتها الصحية ، والتي كان على كاترين أن تكتب إليها مرتين فى الأسبوع لتطلعها على تفاصيل حياتها .

حين دخل أليوشا الدهليز ورجا الخادم التي فتحت له الباب أن تبلغ أهل الدار وصوله ، كان يبدو أن أهل الدار الجالسين في الصالون كانوا على علم بزيارته (لعلهم قد لمحوه من خلال النافذة) • فقد سمع أليوشا حركة غامضة ووقع خطوات نساء يتعدن بسرعة ، وحفيف أثواب ، كأن امرأتين أو ثلاثا قد هرعن يبارحن الغرفة • استغرب أليوشا أن يحدث وصوله كل هذا الاضطراب • ومع ذلك أدخل الصالون فوراً بدون انتظار • هي غرفة واسعة يزدحم فيها أثاث كثير أنيق ، على ذوق ليس فيه من ذوق الأرياف شيء • دواوين وصوفات وكتبات وموائد ومناضد ، ولوحات تزين الجدران ، ومزهريات ومصابيح تنتصب على الموائد ، وأزهار كثيرة في كل ركن ، بل وحوض أسماك قرب إحدى النوافذ • والغرفة مظلمة قليلاً في هذا الوقت من الغسق • ورأى أليوشا خماراً من حرير ملقى على ديوان لا شك أن أحداً كان جالساً عليه قبل لحظات ، ورأى على المائدة الصغيرة القريبة من الديوان فنجانين ما يزال نصفهما ممتلئاً بالشوكولاته ، وبسكويتاً وأنية من الكريستال فيها زبيب من زبيب كورثيا وأنية أخرى فيها سكاكر • لاشك اذن في أن أهل الدار كانوا يقدمون حلوى لضيوف عندهم • فلما أدرك أليوشا أنه قد وصل أثناء زيارة شعر بحرج كبير • ولكن الستارة أزيحت في تلك اللحظة نفسها ، ودخلت كاترين ايغانوفنا الغرفة بخطى سريعة عجيبي ، مادةً الى أليوشا يديها كليهما ، مبتسمة له ابتسامة فرحة مبهجة • وسرعان ما دخلت في اثرها خادم تحمل شمعدانين مشتعلين وضعتهما على المنضدة •

— الحمد لله ! هأنت ذا أخيراً ! لقد لبثت طول الوقت أضرع الى الله أن تجيء • اجلس من فضلك !

ان جمال كاترين ايغانوفنا كان قد لفت نظر أليوشا حين أخذه

أخوه دمترى إليها قبل ثلاثة أسابيع ليعرّفها به لأنها أحببت كثيراً أن تعرفه • ولم يتحدثنا أثناء تلك الزيارة كثيراً على كل حال • ذلك أن كاترين ايفانوفنا قد لاحظت ما كان فيه أليوشا من حرج ، فدارته في تلك المرة فلم تتجه بكلامها الا الى دمترى ، وصمت أليوشا طوال الوقت ، ولكنه لاحظ المرأة الشابة فأحسن ملاحظتها ، وخطف بصره ما رآه فيها من مظهر الارادة المتسلطة والثقة بالنفس وانطلاق الحركات على كبرياء وخيلاء • كانت هذه السمات في طبيعتها واضحة ، وأحسّ أليوشا أنه لم يضحكها ولا بالغ في تصورها • وقد أعجب أشد الإعجاب بعينيها الواسعتين السوداوين الحادتين اللتين تسقان اتساقاً تاماً مع لونها الشاحب الذي تشبه صفرتة صفرة العاج قليلاً ، ومع وجهها المستطيل بعض الاستطالة • ومع ذلك كان في عينيها ، كما كان في رسم شفيتها الرائع ، شيء يمكن أن يتوله به أخوه تولهاً جامعاً من غير شك ، ولكنه لا يبدو أنه يوقظ في النفس حباً باقياً مستمراً • ولقد أعرب أليوشا لأخيه دمترى عن شعوره هذا صراحةً بدون لف ولا دوران ، حين أصرّ دمترى ، بعد انتهاء الزيارة ، على أن لا يخفي عنه أخوه رأيه ، وحين تضرع اليه أخوه أن يفصح له بصراحة عن حكمه على خطيبته • لقد قال له أليوشا يومئذ :

– سوف تكون سعيداً معها ••• ولكن سعادتك قد لا تكون هادئة •

– هذه هي الحقيقة يا أخى ! ان النساء اللواتى هن من هذا النوع لا يتغيرن أبداً ، ولا يذعننّ للقدر • أنت تعتقد اذن أنتى لن أحبها الى الأبد ؟

– بلى ••• ربما أحببتها الى الأبد ، ولكن من الجائز أن لا تسعد معها دائماً •

أفصح أليوشا عن هذا الرأي وهو يحمر استياءً في قرارة نفسه ، من رضوخه لالحاح أخيه وقبوله الاعراب عن أفكار « حمقاء » كهذه الأفكار . ذلك أن رأيه قد بدا له غيباً غباءً رهيباً منذ عبّر عنه . ثم انه قد شعر بخزى شديد من جزمه في الحكم على امرأة مثل هذا الجزم ؛ وقد ازدادت دهشته الآن حين لاحظ منذ أول نظرة ألقاها على كاترين ايفانوفنا التي هرعت تستقبله هائثة باثة ، أنه لعله قد خدع عن حقيقتها في المرة الماضية وأنه قد أخطأ في الحكم عليها خطأ فاحشاً . لقد كان وجهها في تلك اللحظة يشرق طيبة بسيطة خالية من أى تصنع ، وكانت قسما ت وجهها تعبّر عن صراحة ملتهبة حارة . ولم يبق من « الكبرياء والخيلاء » اللتين خطقتا بصره من قبل الا تعبير عن جرأة نيّلة وجسارة سامية ، وكذلك تعبير عن ايمان بنفسها قوى واضح مضى . وأدرك أليوشا دفعةً واحدة ، من هيئة الفتاة ومن أولى الكلمات التي نطقت بها، أن مأساة وضعها ازاء رجل تحبه هذا الحب الحاد المنفذ كله لم تكن خافيةً عنها ، وأنها ربما كانت على علم بكل شيء منذ الآن ، بكل شيء اطلاقاً . ورغم ذلك كان يشع منها كل هذا الضياء ، وكان يشع منها كل هذا الأمل بالمستقبل . وشعر أليوشا فجأة بأنه مذنب في حقها ، كأنما هو أساء اليها اساءة كبيرة ، وأهانها اهانة شديدة ، عن عمد . لقد غلب أليوشا ، ولكنه لاحظ مع ذلك ، منذ أولى الكلمات التي قالتها ، أنها في حالة اضطراب نفسى عنيف لعله لم يكن مألوفاً لها أو معهوداً فيها ، وهو اضطراب يكاد يشبه الحماسة .

قالت كاترين ايفانوفنا :

– انتظرتك نافذة الصبر ، لأنك الانسان الوحيد الذى أستطيع أن أعرف منه الحقيقة كلها . . . أنت الانسان الوحيد الذى سيذكر لي الحقيقة كلها ! . . .

فتمتم أليوشا يقول وقد اضطربت أفكاره واختلطت على حين فجأة :

- أنا جئت .. أنا جئت .. موفداً منه !

- آ .. آ هو الذى أرسلك اذن ؟ لقد أوجست ذلك . الآن فهمت

كل شيء ، كل شيء !

بهذا هتفت كاترين ايفانوفنا وقد اشتعلت عيناها فجأة ، ثم تابعت

كلامها تقول :

- لحظة يا ألكسى فيدوروفتش ! اتنى أحرص على أن أشرح لك

أولاً لماذا انتظرتك فارغة الصبر . وسترى أتنى ربما كنت أعلم من

الأمر أكثر مما تفترض اتنى أعلم ، وأكثر كثيراً مما أنت تعلم . فلن

أسألك اذن معلومات ، وانما أنا أعتمد عليك فى شيء آخر : اتنى أريد

أن تطلعنى على رأيك ، على شعورك ، على آخر ما رأيته فيه ولاحظته عليه

فى الآونة الأخيرة . اتنى أحرص على أن نذكر بصراحة تامة ، دون أية

مداراة أو مراعاة ، بل وبخشونة اذا لزمنا الخشونة (بأكثر خشونة

تريدها) أن نذكر لى رأيك فى حالة أخيك الآن بعد لقائك معه اليوم .

فلعل ذلك خير من أن أمضى أفاتحه أنا فى الأمر ، لأنه أصبح لا يريد أن

يرانى . هل فهمت ما أريده منك ؟ والآن قل لى : ما هى المهمة التى عهد

اليك بها ، ما هى الرسالة التى كلفك بنقلها الى (كنت أتنبأ بأنه

سيرسلك) . تكلم بلا تردد . قل كل شيء ، ولا تخش أن تسيء الى ! ..

- لقد كلفنى بأن .. أنقل اليك احترامه .. وأن أقول لك انه

لن يجىء بعد اليوم .. وأن احترامه ..

- احترامه ؟ أهذا ما قاله ؟

- نعم !

- لعله استعمل هذه الكلمة عرضاً ومصادفةً ، دون أن يريد ذلك ،
ودون أن يلح أيضا ، لأنه لم يجد كلمةً أخرى ؟

- بل لقد حرص حرصاً على أن استعمل كلمة « الاحترام » هذه ،
حتى لقد ألح عليها ثلاث مرات ، مخافة أن أنساها •

تخضب وجه كاترين ايفانوفنا بحمرة شديدة • وقالت :

- ساعدني الآن يا ألكسى فيدوروفتش ، أنا في حاجة الى
مساعدتك • سأفتح لك أعماق فكري ، وستقتصر أنت على أن تقول لي
هل تمد رأيي صحيحاً أم لا ؟ اصنع الى جيداً • لو كان قد كلفك عرضاً
ومصادفةً بأن تبلغني « احترامه » دون أن يلح على هذه الكلمة الحاحاً
خاصاً ، فان كل شيء يكون قد قيل ••• ويكون الأمر في هذه الحالة قد
انتهى ! ••• أما وأنه قد ألح على هذه الكلمة الحاحاً خاصاً ، وأنه رجاك
صراحة أن تستعمل تعبير « الاحترام » هذا ، فمعنى ذلك أنه كان في حالة
اضطراب شديد ، بل لعله كان خارجاً عن طوره ! لقد اتخذ قراراً ،
ولكن قراره نفسه يبت الجزع في نفسه ! انه لم يتركني بخطي حازمة ،
وانما هو أسرع يسقط في هاوية • ان اصراره على استعمال هذه الكلمة
لا يمكن أن يُفسَّر الا بأنه تبجح وتحد •••

فقال أليوشا مؤيداً :

- هو كذلك ، هو كذلك تماما • وهذا هو شعوري الآن أيضا •

- فاذا صح هذا فانه لم يضع بعد ، وليس الأمر اذن الا أمر فعلٍ
يدفع اليه اليأس • ولكنني أستطيع أن أنقذه رغم كل شيء • لحظة ! ألم
يكلمك في موضوع مال ، في موضوع ثلاثة الاف روبل ؟

- طبعا ••• حدثني في هذا الموضوع ••• بل ان هذا هو مايرهقه

أكثر من أى شيء آخر رغم أن شرفه قد تلطخ ، وقال ان جميع الأمور
تستوى لديه بعد الآن ، فلن يعبأ بشيء .

كذلك قال أليوشا بحرارة ، لأنه فى تلك اللحظة أحسّ بالأمل
يملاً قلبه ، وحدث نفسه بقوله : ربما كان هنالك مخرج لأخيه فعلاً ،
ربما كان هنالك سبيل الى خلاص أخيه . ثم أضاف يقول وهو يضطرب
على حين فجأة :

– أنت اذن على علم بما حدث لذلك المبلغ ؟

– أنا على علم بما حدث له ، منذ زمن طويل . اننى أعرف كل
شيء . لقد أرسلت برقية الى موسكو لأسأل هل وصل المال ، فما لبثت
أن عرفت الحقيقة . انه لم يرسل المبلغ ، ولكننى لم أحدثه فى الأمر .
حتى لقد علمت فى هذا الاسبوع الاخير مدى حاجته الى المال . ولم يكن
لى فى هذا الشأن الا هدف واحد : هو أن يعرف من الذى يستطيع أن
يتجه اليه ويعتمد عليه فى مثل هذا الحالة ، هو أن يعرف أننى خير
صديق له فى هذه اللحظة ! ولكن لا . . . انه لا يؤمن بصداقتى . لم
أخطر بباله فى هذا الظرف . هو لا يرى فى المرأة . ان هناك سؤالا
يعذبنى منذ ثمانية أيام : ما الذى يجب علىّ أن أفعله حتى لا يشعر تجاهى
بالخزى والعار من أنه أتلف تلك الثلاثة آلاف روبل ؟ افهمنى حق
فهمى : فليشعر بالخجل أمام الآخرين أو أمام نفسه ، ولكن ما ينبغى له
أن يشعر بالخجل تجاهى ! هل يخجل أمام الله من الافضاء اليه بأموره،
والاعتراف له بسرّه ؟ فلماذا يخجل منى ؟ لماذا لا يعرف ما أنا قادرة
على احتمالها فى سبيله ؟ لماذا ، نعم ، لماذا يجهنى هذا الجهل كله ؟ كيف
يجرؤ أن يجهنى بعد كل ما جرى بيننا ؟ اننى أريد أن أنقذه الى الأبد .
فليس أننى خطيئته، ليس أن لى هذه الصفة، ولكن ماينبغى له أن يخشى

أن يفتح قلبه لي ، وأن يثق بي ، وأن يطمئن اليّ في مسألة كمسألة الأمانة هذه ! هل خشي الاعتراف بالحقيقة لك أنت يا ألكسي فيدوروفتش ؟ فلماذا لا أكون حتى الآن جديرة بمثل هذه الثقة ؟

حين نظقت كاترين ايفانوفنا بهذه الكلمات الأخيرة ، ضعف صوتها فجأة ، وانبجست الدموع من عينيها •
قال أليوشا بصوت متهدج أيضا :

– عليّ أن أروى لك ما وقع في منزل أبي منذ قليل •

وقصّ عليها القصة ، ذاكراً أن أخاه كان قد كلّفه بأن يطلب له مالاّ من فيدور بافلوفتش ، ثم اذا هو يقتحم الغرفة على حين فجأة •
وصف لها كيف أساء أخوه معاملة أبيه ، وذكر لها أن أخاه قد ألح عليه ، بعد ذلك ، مرة أخرى ، أن يجيء اليها ليلبغها « احترامه » •

وختم أليوشا كلامه قائلاً وهو يخفض صوته :

– ثم ذهب الى تلك المرأة •

– أتظن أنني لا أستطيع احتمال وجود تلك المرأة في حياته ؟
أيحسب أنني لن أطيق وجودها في حياته ؟

ألقت كاترين ايفانوفنا هذا السؤال ، ثم قالت فجأة وهي تضحك ضحكا عصيا :

– ولكنه لن يتزوجها • هل يستطيع رجل من آل كارامازوف أن يلتهب قلبه بهوى من هذا النوع الى الأبد ؟ ذلك هوى وليس حباً • ثم انه لن يتزوجها لأنها لن ترضى هي أن تتزوجه •

كذلك رددت كاترين ايفانوفنا وهي تضحك تلك الضحكة الغريبة نفسها •

فقال أليوشا في حزن وهو يفيض بصره :

- من الجائز جدا أن يتزوجها •

- قلت لك انه لن يتزوجها ! ان هذه الفتاة ملاك حق ، هل كنت

تعرف ذلك ؟ لا ؟ فاعلم الآن اذن •

كذلك هفت كاترين ايفانوفنا بحرارة وحماسة قوية • وتابعت

تقول :

- هي أروع انسان يمكن أن يلقاه المرء في حياته ! أنا أعرف مدى

ما تتصف به من فتبة واغبراء ، ولكنني أعرف أيضا طبيعتها وشهامتها

ونبلها • لماذا تنظر اليّ هكذا يا ألكسي فيدوروفش ؟ لعل كلماتي

تدهشك ؟ أغلب ظني أنك لا تصدقني ، أليس كذلك ؟ يا أجرافين

الكسندروفنا ، يا ملاكي (كذلك نادى كاترين ايفانوفنا وهي تنظر الى

الغرفة المجاورة) ، تعالى الينا ! انه فتى لطيف ! انه أليوشا • هو على علم

بكل ما يتصل بنا • تعالى •

فأجاب صوت نسوي لطيف أو متلطف :

- انما كنت أنتظر من وراء الستارة اللحظة التي تاديني فيها •

وأزيحت الستارة فاذا ••• بجروشنكا نفسها تظهر • اقتربت من

المائدة ضاحكة وقد بدت في وجهها سعادة • أحسن أليوشا في اللحظة

الأولى أنه يوشك أن ينهار • حذف الى المرأة الشابة بنظرة عنيفة ، دون

أن يستطيع تحويل عينيه عنها • أهذه هي اذن تلك المرأة المخيفة ؟ أهذه

هي اذن ذلك « الوحش المفترس الكاسر » على حد التعبير الذي أفلت من

أخيه ايفان قبل نصف ساعة ؟ ان أليوشا لا يرى أمامه الآن الا امرأة

عادية بسيطة طيبة محببة ، قد تعدها حسناء ان شئت ، ولكنها شبيهة بكثير

من النساء الحسنات اللواتي لا يُحسبن « خارقات » ، والحق أنها جميلة ، بل جميلة جدا . . . لها ذلك الجمال الروسي الذي قد يوقظ في بعض الرجال حباً جامحاً وهوى قوياً . هي طويلة القامة ، ولكنها أقل طولاً من كاترين ايفانوفنا (الطويلة جدا) ، ويتميز جسمها بحركات لينة حلوة تشبه أن تكون صامتة ، حركات تتصف تلويحاتها وانعطافاتها بنفس الليونة والرقّة والرخاوة التي تظهر في تننات صوتها . اقتربت ، ولكن مشيتها ليست صلبة حازمة كمشية كاترين ايفانوفنا . انها تمشي بلا جلبة ولا ضوضاء . وتهاكت على مقعد من المقاعد ، فكان لحفيف ثوبها الحريري الأسود الفاخر شيء من عذوبة ورقة في السمع أيضا . وكان يلتف على جيدها الناصع البياض كالثلج ، وعلى كتفيها العريضين ، شلّ ثمين من صوف أسود ، يلتف التفافاً فيه كثير من رهافة الذوق . انها في الثانية والعشرين من عمرها . وان قسّمت وجهها تدل على أنها في هذه السن تماما . لونها ناصع البياض ، وخداها متوردان توردان خفيفاً عند الوجنتين ، وفكها الأسفل بارز بعض البروز ، وشفتها العليا دقيقة جدا على حين أن شفتها السفلى الناتئة قليلا تبدو أسمك من الشفة العليا مرتين حتى لكأنها منتفخة قليلا . ولكن شعرها الكستأوى الغزير الرائع وحاجبيها القاتمين المخملين ، وعينيها الزرقاوين الشهبأوين الفاتنين ، وأهدابها الطويلة ، كل ذلك خليق بأن يجتذب إليه أقل الرجال اكترائاً ، وأشدهم ذهولا ، وخليق بأن يجعل مثل هذا الرجل ، ولو في وسط جمهور مضطرب متدافع أو في زحمة الشوارع الكبرى المكتظة بالمارّة ، أن يتوقف لحظةً أمام هذا الوجه وأن يتأمل ملامحه ملياً . وقد أخذ أليوشا خاصةً بما في هذا الوجه من تعبير عن براءة واضحة صريحة . ان لها نظرة طفل ، وكأنها فرحة فرحة صبية صغيرة لسبب مجهول . ولقد تقدمت من المائدة في الواقع « متهللة » الأسارير ، كأنها تنتظر حادثاً

وشيكاً ، متعجلة حدوثه نافذة الصبر مطمئنة النفس كطفل • وكان في نظرتها ضياء يبهج القلب ، ضياء أحس به أليوشا واضحاً قويا • وكان يشع منها شيء آخر لم يستطع أليوشا أن يستبينه جلياً في تلك اللحظة ، ولكنه أثر فيه تأثيراً لاشعورياً ، أعنى تلك العذوبة وتلك الرقة في حركات جسمها وفي ليوتتها ورشاققتها الصامتة • ومع ذلك كانت قوية الجسم نامية الأعضاء • ان كتفيها العريضين يرتسمان تحت شالها ؛ ومن ينظر إليها يدرك أن لها صدرأً كاعباً ما يزال صدر فتاة مراهقة • ان جسدها يعد بأن يكسب مع تقدمها في النضج اتساق جسد فينوس ميلو ، رغم أن نسبه مفرطة قليلاً منذ الآن • على أنها لو رآها خبير في جمال المرأة الروسية لتنبأ بأن هذه الرشاقة النضرة الربيعية في جسدها ستضمحل في نحو الثلاثين من عمرها ، وأنها ستثقل وستسمن ، وأن عضلات وجهها ستترهل عندئذ ، وأن غضوناً ستظهر عند عينيها وعلى جبينها في وقت مبكر ، وأن لونها سيحول ، وقد يصاب بداء الاحمرار ، أى ان جمالها ، بايجاز ، جمال عارض ليس له غد ، كالجمال الذي يلاحظ كثيراً لدى النساء الروسيات • ان أليوشا لم يسترسل في أفكار من هذا النوع طبعاً ، ولكنه ، رغم افتتانه بالمرأة الشابة ، قد تساءل وهو يحس احساساً غامضاً بنوع من النفور وبنوع من الأسف ، لماذا تجرُّ هذه المرأة كلامها جرأً ، ولا تطلق صوتها في الحديث على سجيته طبيعياً بغير تكلف ؟ ان المرء يشعر أنها تحسب الرشاقة والأناقة والجاذبية في هذه الطريقة في تلوين ألفاظها بنبرات الغناء وتحليتها بما يشبه السكر • والحق أن تلك عادة رديئة تدل على وضاعة أصلها وعلى الأفكار العامية التي تكونت في ذهنها منذ طفولتها عن الآداب الاجتماعية • وقد بدا لأليوشا أن هناك تناقضاً لا يكاد يُطابق بين هذا النطق المتصنع والتنظيم المفتعل وبين ما يظهر في وجهها من تعبير عن الفرح البريء والابتهاج الساذج وما يشع في نظرتها

الودية وداعةَ نظرةَ الطفل من سعادة هادئة عذبة • وقد قامت كاترين
ايفانوفنا بتقيل جروشنيكا على شفتيها عدة مرات بحماسة وحرارة ، حتى
لكأنها هائمة بها غراماً ...

قالت كاترين ايفانوفنا مخاطبة أليوشا بفرح وافتتان :

– اتنا نلتقي اليوم لأول مرة يا ألكسى فيدوروفتش • كنت أتمنى
أن أعرفها ، أن أراها ، وقد فكرت في أن أزورها ، ولكنها جاءتني من
تلقاء نفسها منذ عرفت برغبتى • وكنت على ثقة سلفاً بأننى سأستطيع
التفاهم معها على كل شيء ، تفاهماً تاماً • قلبى أدرك ذلك وحدثنى به •••
وقد حاولوا أن يصدونى عن القيام بهذا المسعى وأن يتنوني عن انفاذ
هذه النية ، ولكننى كنت أتنبأ بالنتيجة الموفقة السعيدة ، فلم يخطيء ظنى
ولا خاب فألى • لقد شرحت لى جروشنيكا كل شيء ، وأطلعتنى على جميع
ما عقدت النية عليه • جاءتنى الى هنا تحمل الى السلام والفرح ، كملاك
طيب •••

قالت جروشنيكا بصوت منغم متباطيء ، وهى تبسم تلك الابتسامة
الباشة السعيدة نفسها :

– الفضل لك يا آستى العزيزة المحترمة ، فقد ارتضيت صحبتى
ولم تحتقريها •

– كيف تستطيعين أن تقولى مثل هذه الأشياء ، أيتها الساحرة !
أأحتقر صحبتك أنت ؟ دعينى أقبل هذه الشفة السفلى مرة أخرى •
لكأنها متورمة قليلا ، فلأزدها تورماً ! هذه قبلة ••• هات قبلةً أخرى
••• وقبلةً أخرى أيضا ••• انظر إليها كيف تضحك يا ألكسى
فيدوروفتش ! ان رؤية هذا الملاك تملأ القلب بهجة وفرحاً ••••

احمر أليوشا وأخذ يرتعش ارتعاشاً خفيفاً لا يرى •



جروشنيكا

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

– أنت تدليني يا آنسى اللطيفة ، مع أنتى قد لا أستحق ملاطفاتك
ومداعباتك •

– أنت ؟ دعيك من هذا الكلام ! تدعى أنها لا تستحقها •

كذلك صاحت كاترين ايفانوفنا تقول من جديد بحرارة شديدة ،
ثم أردفت :

– اعلم يا ألكسى فيدوروفتش أنها فتاة جامحة الخيال ، متسلطة
القلب ، ولكنها ذات كبرياء وكرامة . هى نيسة الروح يا ألكسى
فيدوروفتش ، سامية النفس كريمة الطبع ، هل تعلم ذلك ؟ ولكنها كانت
شقية عائرة الحظ • لقد تعجلت فأرادت أن تضحى بكل شىء فى سبيل
رجل خسيس الطبع ، أو ربما طائش العقل • كان ضابطا هو أيضا •
أحبته ووهبت له كل شىء • حدث ذلك منذ زمن طويل ، منذ خمس
سنين • ثم هجرها ، ونسيها ، وتزوج • وقد توفيت امرأته فهو الآن
أرمل ، وقد كتب اليها يبلغها أنه آت اليها • اعلم يا ألكسى فيدوروفتش
أن هذا هو الرجل الوحيد الذى أحبته فعلا وما تزال تحبه • وسيجىء
وستعود الى جروشنىكا سعادتها ، لأنها لم تزد على أن تتألم وتتعب منذ
خمس سنين • من ذا الذى يجرو أن يلومها ، من ذا الذى يستطيع أن
يتباهى بأنه حظى منها بشىء ؟ هو ذلك المعجوز وحده – التاجر – ولكنه
كان لها أباً ، كان لها صديقا ، كان لها حارساً • وجدها فريسة اليأس ،
قد هجرها الرجل الآخر ، الرجل الذى محضته ذلك الحب كله •••
وقد فكرت فى أن ترمى بنفسها الى الماء ، هل تعلم ذلك ؟ فأقنذها ذلك
المعجوز ، أقنذها •

عادت جروشنىكا تقول بصوتها المتباطىء :

– أنت تدافعين عنى بحرارة فيها غلو يا آنسى العزيزة ، ولعلك

فى هذا تسرفين فى التسجل •

- أأنا أدافع عنك ؟ هل علينا نحن أن ندافع عنك في حقيقة الأمر؟ وكيف يمكن أن نجرؤ على ذلك أصلاً ؟ جروشكا ، ملاكى ، هاتى يدك الصغيرة ! أنظر الى هذه اليد الجميلة يا ألكسى فيدوروفتش ، أنظر الى هذه اليد اللذيذة السمينة ! انظر اليها ! لقد حملت الى السعادة ، لقد ردتنى الى الحياة • سأقبلها ، هذه اليد الصغيرة ، وجهاً وقفا • • • هكذا ، وهكذا ، ومرة أخرى ! • • •

قبلت كاترين ايفانوفنا يد جروشكا ثلاث مرات فعلا ، وهى فى حالة تشبه أن تكون نشوة ووجداً • • • قبلت تلك اليد اللذيذة حقاً ، وان تكن مسرفة فى السمنة • وكانت جروشكا قد مدت اليها ذراعها ، وأخذت تلاحظ « الآسة اللطيفة » ، منتبطة اغتباطا واضحا بتقيلها على هذا النحو • قال أليوشا لنفسه سراً : « لعلها تسرف فى الحماسة » ، واحمر وجهه • ان نوعاً من القلق كان يعتلج فى قلب أليوشا طوال ذلك الوقت •

قالت جروشكا :

- لا تخجلينى يا آنستى اللطيفة بتقيل يدي هذا التقيل أمام ألكسى فيدوروفتش •

فأجابت كاترين ايفانوفنا مدهوشة بعض الدهشة :

- أأنا خطر ببالى أن أخجلك ؟ آه • • • يا عزيزتى انك تسيئين فهمى كثيراً !

- وأنت أيضا تسيئين فهمى فيما يخيل الى يا آنستى اللطيفة • أنا قد أكون أخبت كثيراً مما تقدرين • ان لى قلبا شريرا ذا نزوات • لقد اجتذبت دمترى فيدوروفتش الى منزلى لغاية واحدة هى أن أسخر منه وأستهزى به •

- ما قيمة هذا ما دمت مستقدينه الآن ؟ لقد قطعت على نفسك عهداً
 ... ستردينه الى الصواب ... ستقولين له انك تحيين رجلا آخر ، منذ
 زمن طويل ، وان هذا الرجل سيتزوجك الآن .
 - آه .. كلا ... أنا لم أقطع لك على نفسي هذا العهد . أنت قلت
 لي هذا الكلام كله ، أما أنا فلم أعد بشيء .

قالت كاترين ايفانوفنا في لين ورفق وقد بدت في وجهها صفرة
 خفيفة :

- أنا لم أفهم الأمر على هذا النحو ، وأحسب أنك وعدت ...
 - كلا يا ملاكى ، كلا يا آنستى ، أنا لم أعدك بشيء البتة .
 كذلك قالت جروشنكا بصوت متساوٍ هادئ ، وما تزال تبدو عليها
 هيئة السعادة والبراءة تلك . ثم أضافت تقول :

- فهأنت ذى ترين الآن ، يا آنستى المحترمة ، مدى ما يشتمل عليه
 سلوكى معك من خبث ونزوة . أنا أفعل ما يخطر ببالى ، أنا أفعل
 ما يبرق فى رأسى . قد أكون وعدتك بشيء منذ قليل ، ولكننى فى هذه
 اللحظة أقول لنفسى : « فماذا لو أعجبنى من جديد ميتيا هذا ؟ » ؛ ذلك
 أنه قد أعجبنى مرة فى الماضى ، بل لقد أعجبنى طوال ساعة بكاملها !
 وربما شعرت بأننى قادرة على أن أذهب اليه لأقول له : تعال اسكن فى
 منزلى نهائياً منذ الآن ... هكذا أنا : متقلبة لا أستقر على حال ...

قالت كاترين ايفانوفنا بصوت ضعيف واهن :

- كنت منذ لحظات تتكلمين ... بطريقة أخرى مختلفة كل
 الاختلاف ...

- منذ لحظات ؟ ربما ... ولكن لى قلباً خسواً غيباً ... فحين

أتصور كل ما قاساه من آلام بسببي .. ثم ماذا لو أخذتني به شفقة على
حين فجأة منذ أن أرجع الى الدار؟ ما عسى يحدث عندئذ؟
- لم أكن أتوقع أن ...

- أوه .. آنتسى العزيزة ! فما أطيبك وما أنبلك اذن بالقياس الى؟
لا شك أنك ستكفين عن حبي الآن ، أنا الحمقاء الغيبة ، بسبب سوء
طبعي . هاتى يدك الصغيرة أنت أيضا ، أيتها الملاك (قالت لها ذلك راجية
ضارعة بصوت رقيق ناعم ، ثم أمسكت يدها بنوع من الحماسة والحرارة) .
لقد قبلتني ثلاث مرات فيجب على أن أقبلك ألف مرة لأرد اليك دينك
على . ولندع الأمور على ما هي عليه الآن ، ولنسلم أمرنا الى الله ! من
يدري ؟ قد أنتهى الى الخضوع لارادتك خضوعا أعمى ، فأفعل كل
ما تأمريننى به . لندع الأمور تجرى على مشيئة الله ! فلا نقطع على أنفسنا
عهودا ، ولا نقيد أنفسنا بوعود ! ما أجمل يدك ! أوه ما أجملها يدا
فاتنة أخاذا ! آنتسى اللطيفة ، انك جميلة جمالا لا يتصوره الخيال ..
قالت جروشنكا ذلك ورفعت يد كاترين ايفانوفنا الى شفقتها ، على
تلك النية الغريبة حقاً ، وهى أن « ترد اليها دينها عليها » . لم تعارض
كاترين ايفانوفنا . كانت قد أصغت الى الوعد الذى وعدتها به
جروشنكا ، وهو أنها قد تخضع لارادتها خضوعا أعمى ، أقول كانت
قد أصغت الى ذلك الوعد مؤتملة خجلى ، رغم أن الوعد قد قيل على نحو
خاص . وهى تحديق الآن الى عينيها اللتين ماتزالان تعبران عن تلك البراعة
نفسها ، وعن تلك الثقة نفسها ، وعن تلك السعادة المشعة نفسها ...
وحدثت كاترين ايفانوفنا نفسها قائلة بسرعة : « لعلها ساذجة مسرفة فى
السذاجة » ، وعاد الأمل يشرق فى قلب كاترين ايفانوفنا . وفى أثناء
ذلك الوقت كانت جروشنكا التى تبدو نشوى أمام « اليد الصغيرة
اللذيذة » ، ترفع هذه اليد الى فمها على هون وبطء . ولكنها بعد أن

وضعتها على شفتيها ، لبثت بضعة لحظات لا تقبلها ، وكأنها تفكر في شيء ما ، ثم قالت فجأة وهي تجر كلماتها بطيئة وتسكب فيها أرق التثنيات وأطرى الترجحات العذبة :

– هل تعلمين يا ملاكى ؟ لقد قررت فجأة أن لا أقبل يدك

• الصغيرة

ثم انطلقت تضحك ضحكة خفيفة مرحة •

قالت لها كاترين ايفانوفنا وهي ترتعش :

– كما تشائين ... ولكن ماذا بك ؟

– لا شيء • عيشى بعد اليوم مع ذكرى تقيلك يدي ورفضى تقييل

يدك !

– وقحة !

بهذا قذفها كاترين ايفانوفنا كأنها أدركت شيئاً فى هذه اللحظة

• فقط

لقد تخضب وجهها بحمرة شديدة حتى صار كالأرجوان ، ونهضت

عن مكانها فجأة ، فنهضت جروشنكا أيضا ولكن بغير اسراع •

– بعد لحظة سأذكر لمتيا أنك قبلت يدي أما أنا فرفضت أن أفعل •

– شقية ! اخرجى من هنا !

– يا آنسة ؟ ألا تستعجين أن تتكلمى على هذا النحو ؟ ألا تعلمين

أنه لا يليق بك أن تستعملى مثل هذه الألفاظ يا آنستى العزيزة ؟

زأرت كاترين ايفانوفنا تقول :

– اخرجى من هنا أيتها المخلوقة التى تبيع نفسها بالمال •

- ها ها ! تبيع نفسها بالمال ؟ أنسييت اذن أنك حين كنت فتاة عذراء ،
كنت تذهين في الظلام الى منازل شباب لتحصلي على مال ؟ أما ذهبت تبيعين
جمالك ؟ تقى انتى على علم بهذا الأمر ! ...

صرخت كاترين ايفانوفنا صرخة قوية ، وانقضت عليها ، ولكن
ألكسى فيدوروفتش أمسكها بكل ما أوتى من قوة قائلًا لها :

- اياك أن تقولى كلمة واحدة ! لا تجيبيها بشيء ، لاتنطقى بحرف ،
سوف تنصرف ، سوف تمضى فوراً .

سمعت قريبتا كاترين ايفانوفنا صرختها ، فهرعتا الى الغرفة وتبعتهما
الخدام ، وأحطن بها جميعاً .

قالت جروشكا وهى ترفع شالها عن الديوان :

- أنا ذاهبة ! أنا ذاهبة ! أليوشا ، حيبى ، رافقنى !

فقال لها أليوشا متوسلاً متضرعاً ضاماً يديه احدهما الى الأخرى:

- اذهبي ، اذهبي ، ناشدتك الله ...

- صغيرى العزيز أليوشكا ، رافقنى ! سأقول لك أثناء الطريق شيئاً
يسرك ، يسرك كثيراً ... من أجلك أنت يا ملاكى انما مثلت هذه
المهزلة . رافقنى ، يا طائرى الصغير ، ولن تندم على أنك فعلت ...

تحول عنها أليوشا وهو يعقف يديه . وخرجت جروشكا راكضة
وهى تضحك ملء حلقها .

وأصيبت كاترين ايفانوفنا بعد انصراف جروشكا بنوبة عصبية
عنيفة ، فأخذت تبكى متتجة ، وأخذت تخنقها تشنجات قوية . ومن حولها
كان الجميع يتحركون ويضطربون .

قالت لها كبرى قريبتها :

- لقد حذرتك •• أردت أن أمنعك من الاحترام على هذه الخطوة
••• أنت مسرفة في الاندفاع ••• كيف أمكنك أن تقررى القيام بهذا
المسعى ؟ كان ذلك طيشاً وجنونا ! أنت لا تعرفين أمثال هاته المخلوقات ،
وهذه أخبثهن طراً ، وأسوأهن كافة ، فيما يؤكد الناس ! ••• انت
مسرفة في التشبث برأيك والاصرار على انفاذ ارادتك ! قلت لك ذلك ••
زأرت كاترين ايفانوفنا تقول :

- انها نمرة ! لماذا صددتني عنها يا ألكسى فيدوروفتش ؟ لقد أردت
أن أضربها ، أن أضربها •••

أصبحت كاترين ايفانوفنا لا تسيطر على نفسها بحضور أليوشا ،
ولعلها لم تشأ أن تكبح جماحها وتملك زمام نفسها •
- انها لا تستحق الا الجلد بالسياط • يجب أن يجلد لها جلاد على
رعوس الأشهاد !

اتجه أليوشا نحو الباب •

وهتفت كاترين ايفانوفنا تقول فجأة :

- آه ••• يارب ! وهو ! هو أيضاً ! لم يخجل أن يكون حقيراً
الى هذا الحد ، أن يكون بلا قلب ! لقد قصّ على هذه المخلوقة ما جرى
فى ذلك اليوم المشؤوم ، ذلك اليوم الملعون ، الملعون الى الأبد • « أما ذهبت
تبعين جمالك يا آنستى العزيزة ! » • هى تعلم اذن • ان أخاك وغد دنى •
يا ألكسى فيدوروفتش !

ودّ أليوشا لو يجيب ، ولكن الكلمات لم تسعفه • كان قلبه ينهصر
المأ •

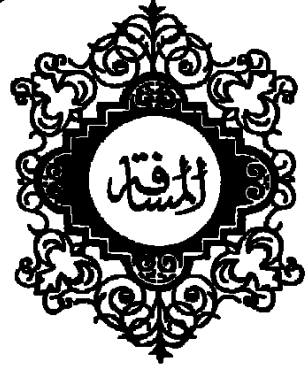
– اذهب يا ألكسى فيدوروفتشس ! اننى أشعر بالعار ، أشعر بالعار شعورا رهيبا ! عُدّ غدا ... أضرع اليك جائسة أن تجيئنى غدا • لا تؤاخذنى ، لا تحقد علىّ ، سامحنى ، اغفر لى • أصبحت لا أعرف ماذا أصنع بنفسى !

خرج أليوشا الى الشارع يمشى كالترنج ترنجاً • كان يود لو يبكى مثلها • وأدركته الخادم راکضةً بضع خطوات فقالت له :

– نسيت الآسة أن تودعك هذه الكلمة للسيدة هوخلاكوفا • لقد احتفظت بها الآسة لك منذ الغداء من أجل أن تنقلها اليها •

تناول أليوشا الظرف الوردى الصغير ، ودسّه فى جيبه دون أن يوليه انتباها •

أخرى تعرض نفسها للفتنة



بين المدينة والدير لا تزيد كثيرا على فرسخ واحد • كان أليوشا يسير بخطى سريعة على الطريق الخالي في تلك الساعة • لقد هبط الليل تقريبا ، فأصبح البصر لا يستين الأشياء واضحة على بعد ثلاثين مترا • وفي منتصف الطريق كان على أليوشا أن يجتاز تقاطع دروب • فيها هو ذا شبح يظهر تحت شجرة مزهرة عند ذلك التقاطع ، فما ان يصل أليوشا الى ذلك الموضع حتى يندفع الشبح هاجما عليه قائلا له بصوت صارخ مروّع :

– مالك أو حياتك !

ارتعش أليوشا ارتعاشا قويا ، ثم قال مدهوشا :

– كيف ؟ أهذا أنت يا ميتيا ؟

قال مترى فيدوروفتش وهو يضحك :

– هاهاها ! لم تكن تتوقع هذا ، أليس كذلك ؟ لقد تساءلت ' أين عساي أستطيع أن أترقبك ؟ قرب منزلها ؟ ثم تذكرت أن هناك ثلاث

طرق مختلفة يمكن أن تسلكها حين تخرج من عندها؛ وبذلك قد يفوتني أن ألقاك . فقررت أخيراً أن أربط هنا قائلاً لنفسي انك لا بد أن تمر بهذا المكان ، إذ ليس هناك طريق آخر يؤدي إلى الدير . طيب . . . قل لي الحقيقة الآن ، اسحقني كما تسحق حشرة خبيثة . . . ولكن ماذا بك ؟

– لا شيء يا أخي . . . هو الخوف وحده . آه يا دمترى ، يادمترى !
دم أبينا الذي سَفَح منذ قليل . . . (قال أليوشا ذلك وأخذ يبكي . كان يود لو يبكي منذ مدة طويلة ، وها هو ذا شيء ينفجر في نفسه في تلك اللحظة) . . . لقد أوشكت أن تقتله . . . وقد لعته . . . ثم هانت ذا الآن تمزح . . . وتفكه . . . قائلاً : مالك أو حياتك ! *

– آ . . . هذا هو الأمر اذن ؟ لعل فعلتي لم تكن لائقة ؟ يخيل لي أن موقفي لا يتفق والظرف القائم ، أليس كذلك ؟

– لا . . . ليس هذا ما أردت أن أقوله .

– لحظةً يا أخي . انظر من حولك . الظلام داس ، أليس كذلك؟ والغيوم تغطي السماء ، والرياح قد هبتت ، وهي ربيع متأوهة حزينة . لقد رابطت هنا ، تحت الشجرة ، لأنتظر . . . فاذا أنا أقول لنفسي فجأة (هيه . . . نعم . . .) : « فيم التأجيل يا هذا ؟ ماذا تنتظر ؟ هذه شجرة . . . ومعك منديل وعلبك قميص . . . فلا شيء أسهل من أن تصنع منهما جبلاً ببلّ القميص قليلاً ، ثم تكف عن ازعاج الآخرين ، ولا تدنّس الأرض بعد ذلك بحقارة حياتك ودناءة وجودك ! ، وفي تلك اللحظة بعينها ، في تلك اللحظة التي خطرت لي فيها هذه الفكرة ، انما سمعت وقع خطواتك على الطريق ! يا رب ! ومضت في رأسي عندئذ فكرة تشبه أن تكون الهاماً مباغتاً ، قلت لنفسي : « هناك اذن انسان أحبه أنا أيضاً . وهذا

هو ذلك الانسان ، هذا هو الانسان الذي أحبه ، هذا هو ، انه أخى الصغير الذى أعبدته أكثر من أى شىء فى هذا العالم ، انه الانسان الوحيد الذى أحبه حقاً ! « وشعرت نحوك فى تلك اللحظة بحب يبلغ من القوة أتى وددت لو أرتقى عليك معانقا . غير أن فكرة غبية خطرت فى ذهنى عندئذ . قلت لنفسى : « سأخيفه قليلاً لأسلّيه وأضحكه » . لذلك صرخت أقول كغيبى : « مالك أو حياتك ! » فاعفر لى هذه المزاحة الحمقاء البلهاء ، لقد فعلتها دون تفكير . . . أما عن حالتى النفسية فهى على ما يرام . . . تستطيع أن تصدقنى ! بثت هذه الأفكار كلها على كل حال ! الأحرى أن تقول لى أنت الآن : كيف جرت الأمور هناك ؟ ماذا قالت لك ؟ هيباً اعدمنى ، هيا اسحقنى ، بلا مراعاة ولا مداراة ! هل غضبت ؟ هل طاش صوابها ؟

- لا . . . ليس هذا هو الأمر . . . كان هناك شىء آخر يا ميتيا . . . كان هناك .. لقد وجدتهما كليهما هناك ...

- كليهما ؟ من هما ؟

- كانت جروشنكا عند كاترين ايفانوفنا ..

جمد دمترى فيدوروفتش دهشةً وذهولاً . ثم صرخ يقول :

- مستحيل ! لا شك أنك حلمت ! أجروشنكا عندها ؟

قصّ أليوشا على أخيه كل ما جرى منذ وصوله الى منزل كاترين ايفانوفنا ، قصّه عليه تفصيلاً . دامت روايته نحو عشر دقائق ، ولا نستطيع أن نقول هل كان حديثه واضحاً وضوحاً تاماً ، ومتسقاً اتساقاً كاملاً . لكنه استطاع أن يذكر ، بدقة ، الوقائع الأساسية التى جرت ، والأقوال الهامة التى تبودلت ، والبوادى الحاسمة التى تمت ، مستعينا

على ايضاحها بمشاعره الخاصة التي وصفها وصفاً حياً ، مركّزاً في بعض الأحيان على هذا الأمر أو ذاك من الأمور البارزة .

أصغى أخوه الى حديثه صامتاً وقد جمدت نظرتة جموداً مرعباً .
 وشعر أليوشا ، منذ الكلمات الأولى التي قالها ، أن أخاه قد فهم كل شيء منذ الآن ، وأنه أدرك دلالة الحادث ادراكاً صحيحاً . كان تعبير وجهه ، كلما أوغل أليوشا في سرد القصة ، يزداد تعجباً وعبوساً ، حتى ليفصح عن معاني التهديد . . فحاجباه يقطبان ، وأسنانه تكز ، وجمود نظرتة يتفاقم مزيداً من التفافم ، ويصبح مخيفاً مروّعاً . . ولكن ما كان أشد دهشة أليوشا حين رأى وجه أخيه الذي كان حتى ذلك الحين متوحشاً مفترساً مهدّداً ، يتغير على حين فجأة تغيراً عجبياً محيراً . فقد انفجرت شفثاه بغتةً ، وانفجر يضحك مقهقهاً قهقهة عريضة لا تغالب ولا تقاوم ، حتى أصبح جسمه يتلوى تلويّاً من شدة الضحك ، وظل على هذه الحال مدة طويلة لا يستطيع أن يتوقف عن القهقهة ولا يستطيع أن يقول كلمة . ثم صاح يقول بنوع من الحماسة المرضية التي كان يمكن أن تكون وقحة خالعة العذار لولا أنها عفوية منطلقة على سجيّتها :

– اذن لم تقبل يدها . . هاها . . رفضت أن تقبل يدها وانصرفت بكل بساطة . . هاها . . والأخرى زارت تقول عنها انها نمرة ؟ حقاً انها لنمرة ! وقالت عنها كذلك انها تستحق أن تجلد على رموس الأشهاد ؟ طبعاً . . أنا أيضاً أرى هذا الرأي . . انها تستحق ذلك . . تستحقه منذ زمن طويل . . هاها . . أنا لا أعارض أيها الأخ أن تنزل فيها هذه العقوبة ، ولكن يجب أن أشفي أولاً . انتى أفهمها هذه الملكة من ملكات الوقاحة ! ان هذه الحركة منها تصوّرها أحسن تصوير ، وتصفها أصدق وصف . ان رفضها تقبيل اليد يعبر عن حقيقتها ، انه هي بعينها ، هذه البنت الجهنمية ! انها ملكة جميع الأعمال الشيطانية التي يمكن أن تخرج

من جوف جهنم ! انها فى نوعها لا تضارع ، انها فى نوعها مدهشة ! اذن
لقد هربت وعادت الى منزلها .. هأها .. سأذهب اليها ، هه ؟ .. يجب
أن أراها ! لا تُدنى يا أليوشا ! أنا أعلم حق العلم أن ذبحها قليل
عليها ...

قال أليوشا فى حزن :

- وكاترين ايقاتوفنا ؟

- انى أتصورها هى أيضا ، أراها رؤية كاملة ، أنفذ الى نفسها
كما لم أنفذ اليها قبل الآن فى يوم من الأيام ! اكتشفها اكتشاف القارات
الأربع أو قل القارات الخمس ! ما هذه الفكرة التى راودتها ! أن تلقى
جروشنيكا ! ولكن هذه هى ، هذه هى بعينها ، هذه هى كاتنكا التى لم
تهيب ، بعد خروجها من المدرسة الداخلية بزمن قصير ، لم تهيب
لرغبتها الكريمة فى انقاذ أبيها ، أن تذهب الى بيت ضابط فظ غليظ غبى ،
معرضة نفسها لأسوأ الأذى وأبشع الاهانة ! ولكن يا ليتلك الكبرياء
التي تفيض بها نفسها ، يا لذلك الشمم الذى يملأ جوانب قلبها ، يا لهذا
الميل الى المخاطرة والتحدى للقدر والثقة التى لا حدود لها ! قلت ان
عمتها أرادت أن تمنعها ؟ هل تعلم أن عمتها هذه لا تقل عنها تشبهاً بالرأى
وميلاً الى التسلط ؟ انها أخت جنرالة موسكو ولقد كانت فى الماضى تتخذ
أوضاعاً فيها من الأبهة والعظمة أكثر مما فى الأوضاع التى تتخذها جنرالة
موسكو من أبهة وعظمة ، ولكن زوجها اتهم بالاختلاس ، فأقيل من
منصبه ، وفقد كل شيء ، حتى أراضيه ، فما لبثت زوجته المتكبرة أن
خفضت جناحها ، وغيّرت لهجتها . اذن لقد أرادت أن تمنع كاتيا من لقاء
جروشنيكا ، فرفضت كاتيا أن تتبع نصائحها ؟ « أستطيع أن أتغلب على كل
عقبة ، لا شيء يمكن أن يصمد فى وجهى ، يكفى أن أشاء كى أسحر حتى

جروشنيكا ، . ذلك ما قالته كاترين ايفانوفنا لنفسها ، وآمنت به منذ نبتت
الفكرة في ذهنها ! فمن المذنب في هذه الحالة ؟ لعلك تظن أنها كانت
البادئة في تقيل يد جروشنيكا ، عن عمد ومكر ، وبعد حساب وتفكير !
أبدا لقد كانت صادقة كل الصدق في توليها بجهها ، لا بحب
جروشنيكا الحقيقية ، بل بحب حلمها هي بها ، بحب الوهم الذي قام في
ذهنها هي عنها قل لي يا أليوشا : ماذا فعلت حتى استطعت أن تفلت
من تلك النساء ؟ أحسب أنك هربت تركض ركضاً ، شامراً ثوب الكاهن
الذي ترتديه ، مه ؟ هاهاها

- أخي ! أظن أنك لم تدرك ، بعد ، مدى الاساءة الكبيرة والاهانة
الضخمة التي ألحقتها بكاترين ايفانوفنا حين حكيت لجروشنيكا قصة
زيارتها لك في ذلك اليوم المشؤم ! لقد صرخت هذه المرأة في وجهها
قائلة في غلظة وفظاظة : « ذهبت سراً تبيعين جمالك لشباب ! » . ليس
هنالك اهانة أخطر من هذه الاهانة ، ولا مسبة أكبر من هذه المسبة
يا أخي !

لقد كان يعذب أليوشا تعذيباً خاصاً تصوره أن أخاه يبدو مغتبطاً
لمذلة كاترين ايفانوفنا ، رغم أن هذا التصور كان خاطئاً في أغلب
الظن !

- آه

كذلك تأوه دمترى فيدوروفتش في تلك اللحظة وقد اكفهر وجهه
اكفهراراً غريباً ، ولطم جبهته بيده .

لقد أدرك دمترى فيدوروفتش ، في تلك اللحظة فقط ، هذا
الجانب من جوانب الموقف ، رغم أن أليوشا لم يفقه أن ينقل إليه أثناء
سرده لوقائع المشهد الذي حدث ، منذ بضع لحظات ، الأقوال المهينة التي

وجهتها جروشكا الى كاترين ايفانوفنا ، والبرخة التي أطلقتها كاترين ايفانوفنا حين قالت تخاطب أليوشا « ان أخاك وغد حقيير ... » ، قال دمترى :

... من الجائز فعلا أن أكون قد حدثت جروشكا عن ذلك « اليوم المشئوم » ، على حد تعبير كاتيا ... صحيح ، لقد حدثتها عن ذلك ... تذكرت الآن .. وقع هذا أثناء تلك الرحلة الى موكرويه .. كنت تسلاً ... وكانت العجسريات تغنى ... ولكنني زويت القصة ضارعاً أمام صورة كاتيا ، وفهمتني جروشكا حق الفهم .. فهمت كل شيء ... أتذكر الآن هذا ... وأخذت تبكى هي نفسها .. شيطان يأخذ النساء ! كان ينبغي لى أن أتنبأ بهذا ... لقد بكيت فى ذلك الحين ، ثم ما هى ذى الآن « تسل خنجراً تطعن به القلب » ! ... هكذا هنّ النساء ! ...

قال دمترى فيدوروفتش ذلك ، ثم خفض بصره ، وأخذ يفكر . وقال بعد هنيهة بصوت فاتم حزين :

... أنا وغد حقيير .. هذا صحيح ... سيات أن أكون قد بكيت وأن لا أكون قد بكيت .. ليس لهذا من قيمة ! ليس ينبغي بكائى أنى وغد حقيير ! ... قل لهنّ هناك انى أقبل هذا النعت ، اذا كان فى ذلك تعزية لهن . وحسبنا الآن ما قلناه ! وداعا ! فيم المزيد من الثرثرة ؟ وليس هذا بالأمر السخيف .. ستسير أنت فى طريقك ، وأسير أنا فى طريقى .. لك سييلك ولى سييلى .. ثم انى لا أريد أن أراك بعد الآن ، اللهم الا أن يكون ذلك فى آخر نهاية ! أستودعك الله يا ألكسى !

صافح دمترى فيدوروفتش أخاه أليوشا بقوة ، ومضى يسير كأنه ينتزع نفسه فجأة من شيء ما ، مضى يسير غاضباً بصره ، دون أن يرفع رأسه . واتجه نحو المدينة بخطى سريعة . أتبعه أليوشا نظرة دون أن يستطيع أن يصدق أن أخاه مضى نهائياً .

— لحظةً يا ألكسى ! هناك اعتراف أخير . . .

قال دمترى فيدوروفتش ذلك ، وقفل راجعا على حين فجأة . وتابع

يقول :

— هو اعتراف لك وحدك ! انظر الى يا أخى ! أنعم النظر الى ! ان رجساً كريهاً يتهياً هنا ، هل ترى أين ؟ هنا (قال دمترى كلمة «هنا» وهو يلمطم صدره بقبضة يده وقد بدا في وجهه تعبير غريب ، كأن الرجس الذى يشير اليه انما يوجد مدفونا في هذا المكان بعينه ، مختبئاً في جيب السترة أو في كيس معلق بالعنق) . انك تعرفنى الآن : أنا وغد ، وغد أصيل ، وغد مشهود له معترف به ! ألا فلتعلم مع ذلك أنه لا شيء مما فعلته في الماضى ومما قد أن أفعله في الحاضر والمستقبل ، يمكن أن يعادل في حقارته اندنيئة الوغدة ما أحمله في نفسى ، في هذه اللحظة ، هنا ، في هذا الموضع ، على صدرى ، من رجس ينضج ويتخمر ويمكننى أن أكبته . . ذلك أننى حر أستطيع أن أحققه وأستطيع ان لا أحققه ، لاحظ هذا . . . ولكن ألا فلتعلم اننى سأحققه ، واننى لن أعدل عنه ! لقد حكيت لك كل شيء منذ بضع ساعات ، حكيت لك كل شيء الا هذا الامر وحده ، لأننى استحييت أن أعترف به ، نعم حتى أنا استحييت أن أعترف به ! ما يزال فى وقتى متسع لأن أتراجع ، واذا أنا توقفت عن الانحدار فى الهوة ، فسأستطيع منذ الغد أن أسترد نصف سعادتى الضائعة ، على الأقل . . . ولكننى لن أتوقف عن الانحدار ! سأمضى فى انفاذ خطتى السوداء حتى النهاية ، وأحب أن تكون شاهدا على قرارى الذى اتخذه وأنا فى كمال حرىتى وتمام وعيى ! رعب وظلمات ! لن أشرح لك شيئا ، ستعرف كل شيء قريبا . زقاق عفن وامرأة جهنمية ! وداعا . لا تصل من آجلى ، لا تدع لى . . . فأنا لا أستحق ذلك . . ثم

ان صلاتك من أجلى ودعاءك لى أمران نافلان لا حاجة بى اليهما ، أؤكد لك هذا • والآن ، انصرف ! •••

قال دمترى فيدوروفتش ذلك ، ومضى فى هذه المرة نهائيا • واستأنف أليوشا سيره فى الطريق الى الدير • « كيف هذا ؟ ألن أراه بعد اليوم قط ؟ ماذا يريد أن يقول ؟ » بهذا كان أليوشا يحدث نفسه دون أن يستطيع قبول هذه الفكرة • « دعك من كلامه ! سأذهب اليه غدا ، وسأراه حتما ، سأذهب اليه خصيصا • كيف يمكنه أن يقول كلاما كهذا ؟ » •

دار أليوشا حول الدير واجتاز غابة أشجار الصنوبر ليذهب الى الصومعة راسا • ففتح له الباب ، رغم أن القاعدة هى أن لا يسمح لأحد بالدخول فى هذه الساعة المتأخرة • وانقبض صدر أليوشا حين دخل الحجره • سأل نفسه : « لماذا ؟ لماذا ابتعدت ؟ لماذا أرسلنى الى العالم ؟ هنا مكان صمتٍ و قداسة ، أما هناك فيسود الاضطراب وتخيّم الظلمات ، هناك يتيه الانسان ويضل ، ثم يهوى آخر الأمر ••• » •

وجد فى الحجره الراهب المبتدىء بورفير ، والراهب الكاهن بائيسى الذى ظل طوال النهار يجيئ ساعةً بعد ساعة يستطلع أخبار صحة الأب زوسيمما • كانت حالة الأب زوسيمما تتفاقم مزيدا من التفاقم ، كما عرف أليوشا ذلك مروّعاً مذعوراً • حتى لقد ارتئى الاستغناء عن الحديث الذى اعتاد الأب زوسيمما أن يجريه فى المساء بغير انقطاع ولا تخلف مع رهبان الدير • لقد جرت العادة أن يجتمع الرهبان كل مساء ، بمسد القداس ، وقبل راحة الليل ، فى حجره الشيخ ، فكان كل واحد منهم يعترف له جهارا بالخطايا التى ارتكبها أثناء النهار ، وبالخواطر الأثمة التى ساورت ذهنه ، وبالأحلام المحظورة التى رآها ، وبالاعراض المبالغته التى فاجأته ، وحتى بالمشاجرات الداخلية اذا كان قد حدث شيء من

ذلك • وكان بعضهم يجنون على ركبهم ليعلنوا أخطاءهم • وكان الشيخ يصغى اليهم ، ويفصل فى أمورهم ، ويصالح بينهم ، ويصدر أوامره فيهم ، ويعرض عليهم كفارات ، ثم يبارحهم جميعا قبل أن يصرفهم. فينفضوا عنه • وعلى هذه الطريقة فى الاعتراف انما كان يعترض خصوم طريقة المشايخ ، قائلين انها تبذل هذا السر من الأسرار المقدسة ، أعنى الاعتراف الدينى ، وانها بدعة تفسد الدين وتدنس العقيدة ؛ وتلك تهمة باطلة فى واقع الأمر • حتى لقد حاول بعضهم أن يبرهن لسلطات الأسقفية أن هذا النوع من الاعتراف لا يقتصر شره على أنه لا يحقق الهدف الأخلاقى المنشود ، وانما هو يقود النفس الى الخطيئة والغواية أيضا • وقالوا فيما قالوا ان عددا كبيرا من الرهبان يكرهون أن يكشفوا عن أنفسهم للشيخ ، وانهم لا يذهبون اليه الا لأن الآخرين يفعلون ذلك، فهم يخشون أن يُتهموا بالتكبر والاستعلاء والتمرد اذا هم امتنعوا عن الذهاب الى الشيخ كسائر من عداهم • بل لقد حكى فيما حكى أن هناك رهباناً كانوا يتفقون فيما بينهم أحيانا قبل أن يذهبوا الى الاعتراف فى المساء ، على أن يمثلوا أدوارا معينة : « سأقول للشيخ اننى غضبت منك وتهجمت عليك ، فتؤكد أنت ذلك وتثبته » ، حتى يكون هنالك ما نقوله فتخلص من هذه المهمة وتنتهى من هذه السخرة • وكان أليوشا يعرف أن ذلك يحدث فعلا فى بعض الأحيان • وكان لا يجهل أيضا أن هناك رهبانا كانوا يستاءون استياء شديدا ويمتنعون امتعاضا قويا من أن رسائل أقربائهم نفسها ، التى يحملها اليهم حجاج ، انما يستلمها الشيخ أولا فيفضها ويطلع عليها قبل أن يطلع عليها أصحابها • الحق أن الأصل فى هذا الأسلوب أنه يُتبع برضى الرهبان أنفسهم ، عن اندفاع روحى ، وخضوع نفسى ، واذعان ارادى ، تحقيقا لأهداف السلامة ، وغايات الخلاص • ومع ذلك كان الرهبان فى الواقع يرضخون لهذا الأمر فى

كثير من الأحيان ، كما برهنت التجربة على ذلك ، رضوخا لا يشتمل على كثير من الصدق ، ويسلمون به تسليما فيه مذلة مصطنعة وخشوع مفتعل . على أن القدامى والحكماء من أفراد هذه الرهينة كان لا يسوؤهم هذا الأمر كثيراً ، فهم يرون أن « من دخل الدير نشدانا للخلاص والسلامة بنية صادقة فلا بد أن يجنى فائدة روحية وأخلاقية كبرى من مراعاة هذه القواعد او الكفارات المختلفة ، وأن التقيد بهذه القواعد والكفارات لا بد أن يعود عليهم بنفع عظيم على طريق الخلاص ؛ وأن أولئك الذين يشتكون من هذه الأمور ويرون فيها امتحانات لا فائدة منها ولا طائل تحتها ، ليسوا برهبان حقاً ، وما كان ينبغي لهم أن يدخلوا الدير ، لأن المكان الذي خلقوا له إنما هو العالم ؛ وأن هؤلاء لا يمكن أن يفلتوا من الخطيئة ولا أن ينجوا من الشيطان لا في العالم ولا في الدير على السواء ، فلا مجال والحالة هذه للقول بأن هذا الاعتراف اليومي يمكن أن يحض على الخطيئة .

أسرَّ الأب بائسي الى أليوشا بعد أن باركه ، أسرَّ اليه قائلاً بصوت خافت :

- انه ضعيف جدا قد سيطر عليه الوسن فيصعب ايقاظه ؛ والأولى أن لا يوقظ على كل حال . لقد فتح عينيه خمس دقائق ، ورجانا أن نبلغ الرهبان بركته وأن نطلب منهم أن يصلُّوا في الليل من أجله . وفي نيته أن يتناول القربان المقدس غدا مرة أخرى . وقد تذكر يا ألكسى ، وأراد أن يعرف هل ذهبت ، فأجبناه بأنك مضيت الى المدينة ، فقال : « لقد باركته من أجل أن يمضى الى المدينة ، فهناك مكانه الآن لا هنا ، . ذلك ما قاله عنك . وكان يتكلم عنك بمحبة واضحة ، وكان ظاهرا أنه مهتم بمصيرك اهتماما كبيرا . فهل تدرك هذا الشرف الذى تناله من اهتمامه بك هذا الاهتمام ؟ ولكنى أتساءل لماذا أمرك أن تعيش

فى العالم زمنآ • أترآه تنبأ بشىء عن قدرك ؟ اعلم مع ذلك يا ألكسى أن عليك ، اذا أنت عدت الى العالم ، أن تتصرف فيه بروح الخضوع للمقاعدة التى ألزمتك بها شيخك ، متحاشياً الأفكار الطائشة والمباهج المتبدلة •••

وخرج الأب بائسى • فأما أن الشيخ بسيل الانطفاء ، فذلك أمر أصبح أليوشا لا يشك فيه ، ولكن الشيخ يمكن أن يعيش يوماً آخر أو يومين آخرين • لذلك قرر أليوشا ، بصلافة وحرارة وحماسة ، أن لا يبارح الدير فى الغد رغم الوعود التى قطعها على نفسه بالذهاب الى أبيه ، وبالذهاب الى السيدتين هوخلاكوفكا ، الأم وابنتها ، وبالذهاب الى كاترين ايفانوفنا ، وكذلك رغم القرار الذى اتخذه هو نفسه بالذهاب الى أخيه دمترى • فلن يترك الدير ، وإنما يظل قرب شيخه حتى موته • وامتلأ قلبه بحب قوى للشيخ ، ولام نفسه لوماً مرآ على أنه أثناء زيارته للمدينة قد نسى ، ولو لحظة واحدة ، ذلك الانسان الذى تركه فى الدير بين يدى الموت ، والذى يحترمه أكثر مما يحترم أى انسان فى هذا العالم • ودخل أليوشا غرفة نوم الشيخ ، فجثا على ركبته ، وسجد امام الشيخ النائم • كان الشيخ يرقد ساجياً بلا حركة ، وكان تنفسه الضعيف جدا يجرى مطرداً منتظماً ، رغم أنه لا يكاد يدرك • وكان وجهه ساكناً هادئاً •

فلما عاد أليوشا الى الغرفة الأخرى - وهى الغرفة التى استقبل فيها الشيخ ضيوفه صباحاً - اضطلع ، دون أن ينضو عنه ملابسه ، وبعد أن خلع حذاءيه وحدهما ، اضطلع على الديوان الصغير الضيق الصلب ، المنجّد بالجلد ، الذى اعتاد منذ زمن طويل أن ينام عليه كل ليلة • كان أليوشا يكتفى بأن يضع تحت رأسه وسادة ، مستغنياً منذ مدة طويلة عن وضع الفراش الذى كلمه أبوه عنه • وكان يكتفى بأن يخلع عنه ثوب الراهب ليتخذ منه غطاء يلتحفه •

ومع ذلك جثا أليوشا على ركبتيه قبل أن ينام ، ولبث يصلي زمناً طويلاً . لم يدعُ الله في صلاته الحارة أن يخلصه من قلقه وأن ينقذه من مخاوفه ، لأن ظمأه الوحيد هو أن يظفر بمشاعر الحنان السعيد الذي عرفه من قبل والذي كان يغزو نفسه دائماً بعد تلاوة الآيات التي تمجد الله فتلك هي صلاة الليل كلها ان الفرح الذي يغمر قلبه في تلك اللحظات كان يكفل له نوماً هادئاً مريحاً .

وانه ليصلي في ذلك المساء اذا هو يحس فجأة بوجود ذلك الظرف الصغير الوردى الذي أعطته اياه خادم كاترين ايفانوفنا حين أدركه في الشارع . فاضطرب أليوشا ، ولكنه أكمل صلاته ، حتى اذا فرغ منها ، فض الظرف بعد لحظات من تردد ، ونظر الى ذيل الرسالة فاذا هو يقرأ توقيع « ليزا » ، بنت السيدة هوخلاكوفا ، الصبية الصغيرة التي سخرت منه ذلك السخر كله في الصباح بحضور الشيخ . وأخذ أليوشا يقرأ رسالتها اليه :

« ألكسى فيدوروفتش ! أكتب اليك خفيةً ، على غير علم أمي ، وذلك شر ، أنا أعرف ذلك . ولكن أصبح يستحيل عليّ أن أعيش دون أن أبوح لك بما يعتلج في قلبي ، ودون أن أطلعك على العاطفة التي وُلدت فيه والتي يجب أن يجهلها جميع الناس الآن ، الا نحن الاثنين . ولكن كيف أتدبر الأمر لأقول لك ما أتحرق شوقاً الى قوله ؟ يقال ان الورق لا يمكن أن يحمر خجلاً وحياء ولكنني أوكد لك أن هذا القول خطأ ، لأن الورق يحمرُ الآن أمامي مثلما أحمرُ أنا ! عزيزي أليوشا ، انى أحبك ، أحبك منذ طفولتي ، منذ سنى موسكو التي كنت فيها مختلفا عنك الآن اختلافا كبيرا . لقد أحبيتك منذ ذلك الحين مدى العمر . اختارك قلبي لأشاطرك الحياة كلها ، ولنختم أيماننا معا في الشبخوخة شريطة أن تترك الدير طبعاً أما عن السن ، فان

فى وسعنا أن نتنظر المدة التى يقتضيها القسانون • والى أن يحين ذلك الأوان أكون أنا قد شفيت من مرضى شفاء كاملا ، فأستطيع أن أمشى وأن أرقص كما كنت أمشى وأرقص ... ذلك أمر لا ريب فيه •

• هانت ذا ترى أننى فكرت فى كل شىء • ومع ذلك هناك نقطة عجزت عن أن أستجمع فيها شتات فكرى : ما عسى أن يكون حكمك علىّ ورأيك فىّ بعد أن تقرأ هذه الرسالة ؟ أنا صيبة « شيطانة » ، أكثر من الضحك عادة ، حتى لقد أغضبتك فى هذا الصباح • ولكننى أحلف لك أننى صليت منذ قليل أمام أيقونة العذراء المقدسة قبل أن أقرر الكتابة اليك ؛ واننى لأصلّى حتى هذه الدقيقة ، وأوشك أن أبكى !

• هذا سرّى وضعته بين يديك • وانى لأسأل كيف سأستطيع أن أنظر اليك غدا حين تجيء ؟ أوه ! ألكسى فيدوروفتش ! ما عسى يحدث اذا أنا لم أملك أن أسيطر على نفسى فاذا أنا الحمقاء أنفجر ضاحكةً مقهقهة حين أراك ، كما حدث لى هذا من قبل ! لسوف تظننى عندئذ فتاة خبيثة ساخرة ، ولن تصدق عندئذ ما عبّرت لك عنه فى رسالتى • لذلك أضرع اليك ، يا صديقى العزيز ، اذا كنت ترحمنى بعض الرحمة وتشفق علىّ بعض الشفقة ، أن لا تنظر الى عينيّ كثيرا حين تجيء الينا غداً ؛ ذلك أننى قد يملكنى ضحك لا سبيل الى مغالته متى التقى نظرى بنظرك ، ولا سيما بسبب هذا الثوب الطويل الذى ترتديه ! ... حتى فى هذه اللحظة ، أشعر برعدة تسرى فى جسمى حين أتصور أن من الممكن أن يحدث شىء من ذلك • أستحلفك أن لا تنظر الىّ البتة ، خلال مدة من الوقت ، حين تجيء الينا غدا ، وانما تلتفت بنظرك نحو أمى أو نحو النافذة •

• هاأذا كتبت اليك رسالة حب • رباہ ، ما هذا الذى فعلته ؟ آه

يا أليوشا ، لا تحتقرنى ! اذا كان ما أفضله شرا كبيرا واذا كنت أحدث لك ضيقا وألماً فاغفر لى ! واعلم على كل حال أن سرى الذى قد يضيّع سمعتى - ربما الى الأبد - هو الآن بين يديك •

« سأبكى فى هذا اليوم حتماً • والى اللغاء ، بانتظار المقابلة «المرعبة» فى الغد •

« ليزا »

حاشية : أليوشا ، يجب أن تأتى قطعاً ، قطعاً ، قطعاً !

« ليزا »

قرأ أليوشا الرسالة مدهوشا ، وأعاد قراءتها مرتين ، ثم فكر قليلاً ، فاذا هو يضحك فجأة بغير صوت ، شاعراً بسعادة ، ثم اذا هو يرتعد بعد ذلك حين تصور أن هذا الضحك قد يكون ائماً • ولكنه عاد يضحك ضحكاً هادئاً بعد لحظة ، وقد غمرته تلك الهناء الهادئة نفسها • وطوى الرسالة ببطء ، وأعادها الى الظرف ، ورسم على نفسه اشارة الصليب ، ورفد ••• زال من نفسه كل اضطراب بما يشبه السحر • « اللهم اشملهم برحمتك ، اشمل برحمتك جميع أولئك الذين لقيتهم فى هذا النهار ، لأنهم أشقياء ، لأن العاصفة تهمهم فى نفوسهم • اللهم احرسهم وسدد خطاهم ! أنت سيد المصائر ، وان لك طرقاً لا نعرفها : فانقذهم يا رب بطرقك • ارسل اليهم السعادة ، لأنك أنت المحبة • • •

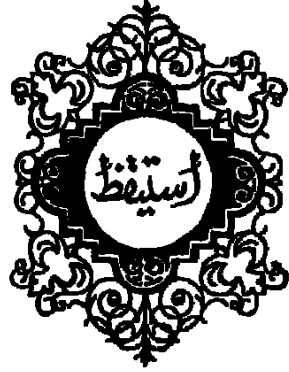
بهذا تمت أليوشا وهو يرسم اشارة الصليب ، ثم نام نوماً هادئاً •

الجزء الثاني

الباب السابع: التذقات

١.

الذوق نير البونى



• ألبوشا فى ساعة مبكرة قبل أن يطلع الصباحت
 وكان الشىخ قد صحتا فلا يستطيع النوم ، وكان
 يشعر بوهن شديد وضعف هائل ، ولكنه أصر
 مع ذلك على أن يبارح سريره وأن يجلس على
 مقعد • انه كامل الوعى ، وان وجهه يبدو مضيئاً حتى لكأنه فرح ، رغم
 آثار التعب الشديد الظاهرة فيه • وان نظرتة مرحة باشة هاشة مشجعة •

قال الشىخ لألبوشا :

— قد لا أعيش الى آخر هذا اليوم •

• ثم أعرب عن رغبته فى أن يعترف وأن يتناول القربان المقدس •
 وكان الأب بائسى هو الذى يقوم له بدور الكاهن فى اعترافه • فبعد أن
 أتم الشىخ تناول بنوعيه ، استعد للقيام « بالمسحة الأخيرة » • فاجتمع
 الرهبان الكهنة فى حجرتة التى أخذت تمتلئ بالنسك شيئاً بعد شىء •
 وكان النهار قد طلع حين أخذ الرهبان الذين يعيشون فى الدير يتوافدون
 هم أيضاً • وبعد القداس أظهر الشىخ نيته فى توديع الجميع ، فأخذ
 يقبل كل واحد • واذ كانت الحجرة ضيقة فقد كان الواصلون الأول
 يجلبون المكان للواصلين بعدهم • ولبث ألبوشا الى جانب الشىخ زوسيمًا

الذي كان قد جلس على مقعده • فكان الشيخ يتكلم ويعلم بقدر ما كانت تسمع له قواه ، وكان صوته ، رغم ما أصابه من ضعف شديد ، ما يزال قاطع اللهجة صارم النبرة •

— انقضت سنين كثيرة وأنا أعلمكم حقائق الدين • انقضت سنين كثيرة وأنا أتكلم اذن بصوت عالٍ ! وقد بلغت من شدة التعود على مخاطبتكم وعلى البحث عن الحقيقة معكم حين أتحدث اليكم ، أيها الآباء والاخوة الاعزة ، أنني أصبحت لا أستطيع الاستغناء عن هذا الامر ولو أردت ، وأن الكلام أصبح أسهل عليّ من الصمت في هذه اللحظة رغم ضعفي (كذلك قال مازحاً ، وهو يُجيب على الرهبان والزوار الذين يزدهمون حوله نظرة ودوداً حنوناً) •

تذكر اليوشا فيما بعد بعض الأفكار التي عبر عنها الشيخ في ذلك اليوم • ورغم ان الشيخ قد تكلم كلاماً واضحاً متميزاً ، ورغم أن صوته ظل صلباً صلابة كافية ، فان أقواله لم يكن فيها تسلسل كثير • لقد عالج مسائل كثيرة ، كأنه يريد أن يقول كل ما كان يزخر به قلبه ، وأن يفصح مرة أخيرة ، وهو على مقربة من الموت ، عن أعماق خطرات نفسه ، عن تلك الخطرات التي لا يتوصل المرء أثناء حياته أن ينقلها الى الناس نقلاً كاملاً • وكان لا يفعل ذلك بنية تعليم الآخرين بقدر ما كان يفعله مدفوعاً اليه بظماً حار الى اشراك الجميع في الفرحة والحماسة اللتين كانتا تملآن نفسه ، والى نشر حبه في العالم مرة أخيرة •••

كان الشيخ يعلم قائلاً :

— أحبوا بفضلكم بعضاً • أحبوا جميع أبناء الرب • لا تظنوا أنكم أقدس من العلمانيين لأنكم اخترتم أن تعيشوا في الدير ، ولأنكم مسجونون داخل جدرانها • بالعكس : ان كل واحد من الذين جاءوا الى

هنا قد أحس واعترف هو نفسه ، من مجرد اعتكافه في الدير ، بأنه كان
 شرأ من الانسان العادى وأسوأ من جميع أولئك الذين بقوا في الجهة
 الأخرى من الحاجز هذه الحقيقة يجب على كل راهب أن يشربها
 تشربا ما ينفك يزداد عمقا كلما طالت حياته في الدير . فلولا أن الامر
 كان كذلك ، لما كان ثمة أى سبب يبعث على الالتجاء الى الدير والاعتصام
 به . يجب على الراهب أن يدرك أنه ليس أسوأ من العلمانيين فحسب ،
 بل أنه كذلك مذنب في حق جميع البشر الآخرين ، مسئول عن كل
 الشر الذى يقع على الأرض بفعل الأفراد أو بفعل الجماعات . فهذا
 الشرط وحده انما يتحقق الهدف من اعتزالنا في الدير . اعلمو أيها
 الاخوة الأعزة أن كلا منا يتحمل مسئولية مظالم هذا العالم لا بسبب
 الخطيئة الأصلية المشتركة وحدها ، فهذه المسئولية ليست مسئولية جزئية ،
 بل هى مسئولية تامة كاملة ، مسئولية عن جميع ذنوب المجتمع وعن جميع
 أخطاء أفراده . ان الشعور بهذه الحقيقة هو الذى يتوج الحياة الرهبانية ،
 كما يتوَج من جهة أخرى حياة كل انسان أيا كان . ذلك أن الرهبان
 لا يختلفون عن سائر البشر ، كل ما هنالك أنهم يحاولون أن يصيروا
 الى ما ينبغى لكل الناس أن يصيروا اليه . فاذا تحقق هذا الهدف انفتحت
 قلوبنا أخيرا للحب اللانهائى ، الشامل ، الذى لا يعرف الحدود ولا
 يرتوى ظمؤه قط . وعندئذ سوف يجد كل منكم في نفسه القدرة على
 غزو العالم كله بالحب ، وعلى أن يكفّر بدموعه عن خطايا الأرض
 ألا فلتصنوا جميعا الى صوت قلوبكم ، ألا فلتعترفوا جميعا بأخطائكم
 لأنفسكم في غير مهادنة . لا تخشوا خطاياكم وان تكن واضحة
 لأبصاركم ، شريطة أن تدموا على ارتكابها وأن توبوا عنها ! ولكن اياكم
 و « التسويات » مع الرب ، وحاذروا أن تفرضوا عليه شروطا ! و اياكم
 والعجب والزهو والصلف ، قبل كل شيء وفوق كل شيء ! لا تتعالوا على

الصفار ، ولا تتألموا كذلك على الكبار ! لا تكرهوا أولئك الذين يبنونكم ويصدونكم ويهينونكم ويهاجمونكم ويفتابونكم • ولا تكرهوا الملحدين ، الانبياء الكاذبين ، الماديين ، لا تكرهوا حتى اسوا هؤلاء واخبثهم ، ناهيكم عن اختيارهم ، لان بينهم أختيارا ، فى عصرنا هذا خاصة • اذكروهم فى صلواتكم على النحو التالى : « انقذ جميع الناس يا رب ! انقذ جميع الذين لا يصلى لهم احد ، واولئك الذين لا يريدون ان يصلوا لك ! » • ولكن عليكم ان تبادروا فضيفوا الى ذلك فوراً : « اللهم انى لا أسألك هذا زهوا بنفسى ، فانتى شبر الناس طرا واشقاهم قاطبة ، • احبوا أبناء الرب ، احبوا الشعب ، لا تسمحوا للغرباء أن يسلبوكم القطيع • فاذا استسلمتم للكسل ، وسيطر عليكم وهم الاكفاء والتفوق ، أو اذا انسقتم الى حب الرخاء والخيرات المادية (وذلك أسوأ وأنكى) ، فان رجلا من جميع البلاد سيظهرون عندئذ ليسلبوكم قطيعكم • بشروا بالاناجيل فى صفوف الشعب بغير كلال ولا ملال ••• اياكم والطمع ، اياكم والتعلق بالذهب او الفضة ••• ازهدوا فى امتلاك الذهب والفضة ••• آمنوا بالله ، وارفعوا راية العقيدة بيد قوية صلبة ، ارفعوها عالية ، عالية •••

كان الشيخ يقول كلاما فيه من التقطع والتفكك أكثر مما يظهر منهما هنا فيما دونه بعد ذلك ألبوشا • كان يتوقف عن الكلام من حين الى حين ، كأنما ليستجمع قواه ، وكان يلهث لهاثاً واضحاً ، ولكنه كان يشعر بنوع من الحماسة • وكان الحشد يصفى اليه فى حميا وخشوع ، رغم أن أقواله بدت غريبة لبعضهم ، غامضة لبعضهم الآخر ••• وقد تذكر المستمعون هذه المعانى التى عبر عنها الشيخ ، تذكروها فيما بعد •

وقد تغيب ألبوشا عن الحجرة لحظات ، فما كان أشد دهشته حين عاد فلاحظ اضطرابا شديدا قد استولى على جميع من كانوا فى الحجرة ومن كانوا يحتشدون ويزدحمون وراء الباب ! كان جميع الرهبان فى

حالة انتظار شديد وتوقع عنيف يمازجه قلق لدى بعضهم ، ويصطبغ
بجلال وأبهة لدى بعضهم الآخر • كان يبدو عليهم جميعا أنهم يرتقبون
حدوث معجزة خارقة بعد موت الشيخ فورا • قد تدل هذه الحالة النفسية
على شيء من خفة وطيش ، ولكنها غزت قلوب جميع الرهبان ، حتى
أكثرهم هدوءا وأشدهم صرامة • وكان وجه الكاهن الراهب بائسي
يعبر عن خطورة خاصة •

لقد غاب اليوشا عن الحجيرة لحظة لان راكبتين الذي عاد من
المدينة حاملا اليه من السيدة هوخلاكوكفا رساله غريبه بعض الغرابه ،
قد أرسل اليه احد الرهبان يستدعيه خفية • ان هذه الرساله تبلغ اليوشا
حادثا غريبا جاء وقوعه الان في أنسب وقت • يتذكر القارئ أن بين
نساء الشعب المؤمنات اللواتي جئن امس الى الشيخ ليحيينه وليتلقين ببركة
كانت هنالك امراة عجوز قصيرة من بلدتنا اسمها بروخوروفنا وهي أرملة
صف ضابط • ان هذه المرأة قد سالت الشيخ هل في وسعها ان تطلب
اقامة صلوات في الكنيسة على روح ابنها فاسيا الذي سافر بمهمة الى منطقة
ناحية من سييريا تقع في جهة ايركوتسك ، ثم لم تصلها أبواؤه منذ سنة،
سألت هل في وسعها أن تطلب اقامة صلوات على روحه كما لو كان قد
مات ؟ ويتذكر القارئ أن الشيخ قد نهاها عن هذا نهياً قاسياً ، ووصف
اللجوء الى مثل هذه الأسباب بأنه شعوذة وسحر • ولكنه غفر لها بعد
ذلك بسبب جهلها ، وختم كلامه لها من باب المواسة قائلاً لها « كأنه قد
وُهب له القدرة على القراءة في كتاب المستقبل » (هذه هي العبارة التي
استعملتها السيدة هوخلاكوكفا في رسالتها) ، قائلاً لها ان ابنها فاسيا ما يزال
على قيد الحياة حتما ، وانه عائد اليها قريباً ، أو انه سيكتب اليها على كل
حال ، وان عليها أن ترجع الى بيتها مطمئنة تنتظر أوبته • « فما الذي
حدث ؟ » (هذا ما جاء في رسالة السيدة هوخلاكوكفا) « حدث أن النبوءة

قد تحققت كاملة ، بل أكثر من ذلك ! ، فان المرأة المعجوز ما ان رجعت
 أمس الى مسكنها حتى أُعطيت رسالة وصلت من سيريا أثناء غيبتها ،
 وفي هذه الرسالة التي كتبها اليها فاسيا في طريق عودته ، من
 ايكاتيرنبورج* ، يبلغ الولد أمه أنه عائد الى روسيا بصحبة موظف ،
 وأنه « يأمل أن يستطيع تقيل أمه » بعد ثلاثة أسابيع في أكثر تقدير .
 ان السيدة هوخلاكوفا ترجو أليوشا ملحه ان ينقل الى علم كبير
 الرهبان وسائر أهل الدير نبأ هذه « المعجزة الجديدة من معجزات
 النبوة » ، وتقول له هاتفة في ختام رسالتها : « يجب أن يعلم جميعهم
 هذا النبأ ، يجب أن يعلمه جميعهم حتما . . . » وكان واضحا أنها قد
 كتبت هذه الاسطر متعجلة تعجلا شديدا ، وكان واضحا أن كل كلمة
 من كلماتها تزخر بانفعال قوى وتأثر عميق . غير أن أليوشا لم يحتاج
 الى ابلاغ الرهبان النبأ ، لأنهم كانوا قد اطلعوا عليه ، لأن راكيتين ، حين
 كلف أحد الرهبان باستدعاء اليوشا اليه ، قد رجاء في هذه المناسبة نفسها
 أن « يبلغ الأب المحترم بائيسى ، بكثير من الاحترام ، أنه يود لو يراه
 حالا ليكلمه في أمر هام جدا يرى أن من واجبه أن يطلعه عليه في غير
 ابطاء ، بسبب ما تتصف به الظروف الراهنة من خطورة خاصة ، أملاً
 في كثير من المذلة والتواضع أن تُعتقر له هذه الجرأة» . ولما كان الراهب
 قد نقل هذه الرسالة الى الأب بائيسى قبل أن يستدعى أليوشا ، فانه لم
 يبق على أليوشا بعد عودته الى الحجرة الا أن يقرأ الرسالة وأن يُظهر
 عليها الأب بائيسى من باب الأدب وتقيداً بالشكل . أخذ هذا الرجل
 الصارم الرياب يقرأ الرسالة مقطباً حاجبيه ، فلم يملك هو أيضا حين
 اطلع على رواية هذه المعجزة أن يمسك عن اظهار بعض العواطف التي
 هزت نفسه ، فاذا نظرته تسطع ، واذا شفتاه تلينان قليلا ، واذا فمه يتسهم

ابتسامة رزينة عميقة ، واذا لسانه تفلت منه هذه العبارة على غير ارادة منه :

– سنرى معجزات أخرى كثيرة •

فردد الرهبان الذين كانوا يحيطون به ، ردّوا يقولون :

– سنرى معجزات أخرى كثيرة •

ولكن الأب بائسي قطب حاجبيه من جديد ، ورجاهم أن يمتنعوا ، الآن على الأقل ، عن التعليق على هذا الحادث جهارا ، وأن لا ينقلوه الى أحد قبل الأوان :

– يحسن أن تنتظر معرفة تفاصيل أخرى أشد اقناعا ، لأن العلمانيين كثيرا ما يظهرون خفة وطيشا في هذه الأمور •

ثم أضاف يقول بحذر كأنما ليهدىء ضميره :

– ثم ان الحوادث ، في هذه الحالة التي أماننا ، قد يمكن أن تُفسّر كذلك تفسيرا لا شأن له بما هو فوق الطبيعة •••

قال الأب بائسي ذلك ، ولكن هذا التحفظ لم ينقص من حماسه شيئا ، وذلك ما أدركه الحضور ادراكا قويا واضحا •

وسرعان ما انتقل نبأ « المعجزة » من فم الى فم ، فما هي الا برهه قصيرة حتى عرفه جميع سكان الدير ، وحتى عسرفه كذلك كثير من الزائرين الذين جاءوا الى الدير لحضور الطقوس • وكان أشد الناس انبهارا في الظاهر انما هو راهب « سان سيلفستر » ذاك القصير الذي وصل أمس من دير أوبدورسك بشمال سيبيريا • كان بالأمس قد انتظر الشيخ واقفا الى جانب السيدة هوخلاكوبا ، فبعد أن حيا الشيخ سأله ،

بمناسبة « شفاء » ابنة تلك السيدة ، « ما هي القوة التي تتيح له تحقيق مثل هذه الأمور ؟ » •

فهذا الراهب يشعر الآن بحيرة شديدة وتشوش كبير، فهو لا يعرف ماذا يجب أن يصدق وبماذا يجب أن يؤمن • ذلك انه في مساء أمس قد زار واحدا من رهبان الدير هو الاب تيرابونت ، في الحجرة الخاصة التي يسكنها وراء خلايا النحل ، وقد تأثر تأثرا عميقا بالحديث الذي جرى بينه وبينه ، حتى لقد شعر من هذا الحديث برعب ، وساوره منه جزع • والاب تيرابونت انما هو بعينه ذلك الراهب العجوز المنزوي الذي اشتهر بصيامه عن الطعام والكلام ، والذي كان يعدّ ، كما سبق أن ذكرنا ذلك من قبل ، خصما للشيخ زوسيما ، وكان يحارب نظام المشايخ خاصة ، ويرى فيه بدعةً طائشة ضارة • وانه لخصم خطر جدا رغم أنه لا يكاد يكلم أحدا من الناس ، تقيداً بقاعدة الصمت التي كان يجب أن يلزم بها نفسه • وكان يبدو مخيفا بوجه خاص لأن رهبانا كثيرين كانوا يشاطرونه آراءه مشاطرة تامة ، ولأن بين الزوار العلمانيين أناساً كانوا يرون فيه رجلا صالحا مقدسا ، رغم تسليمهم بأنه رجل محدود الفكر بسيط العقل • ولكن بساطة العقل هذه هي بعينها عنصر الجاذبية فيه • كان الأب تيرابونت لا يذهب الى الشيخ زوسيما قط • ورغم أنه عاش في المنسك ، فما من أحد كان يماحكه كثيرا في أمر مراعاة القواعد المتبعة في الدير لأن تصرفه في هذه النقطة أيضا كان تصرف رجل بسيط العقل • انه في الخامسة والسبعين من عمره أو تزيد ، وهو يعيش وراء خلايا النحل ، عند زاوية الجدار ، في حجرة قديمة جدا مبنية من خشب تشبه أن تكون أطلالا متداعية منذ الآن ، وقد بنيت هذه الحجرة خلال القرن الماضي فيما يقال ، لراهب آخر اشتهر هو أيضا بكفارات الصيام عن الطعام والكلام :: ذلك هو الأب جوناس الذي عمّر مائة سنة،

وعرف بأعمال قداسة ما يزال الناس في الدير وفي المنطقة المجاورة
 يذكرون عنها تفاصيل شائعة . وقد استطاع الأب تيرابونت أن يظفر
 أخيرا ، منذ سبع سنين ، بسكنى هذه الحجرة المنزوية التي تكاد تكون
 خربة بسيطة والتي فيها شبه غامض بمعبده ، لكثرة عدد أيقونات النذور
 التي تملؤها ولكثرة عدد مصابيح النذور أيضا التي تشتعل فيها أمام الصور
 المقدسة بغير انقطاع . وقد كُلف الأب تيرابونت نوعا من التكليف بأن
 يتولى صيانة هذه المصابيح الصغيرة وأشغالها . وكان طعامه ، كما يقال
 (وهذا صحيح) لا يزيد على كيلو واحد من الخبز في أكبر تقدير
 يحمله إليه كل ثلاثة أيام ، الراهب الذي يتعهد خلايا النحل ويسكن
 غير بعيد عن ذلك المكان أيضا . فكان الأب تيرابونت ، حتى مع هذا
 الراهب الذي يخدمه ، لا يتحدث الا نادرا جدا . وهو لا يأكل طوال
 الأسبوع ، الا هذين الكيلوين من الخبز ، اضافة الى لقم القربان المقدس
 التي كان كبير الرهبان يرسلها الى هذا الراهب الناسك بعد الصلاة الثانية .
 وكانت جرة الماء التي يشرب منها تملأ له كل يوم . وكان الأب تيرابونت
 لا يكاد يحضر القداس أبدا . وقد لاحظ زواره والمعجبون به أنه كثيرا
 ما كان يقضى أياما بكاملها في الصلاة جاثيا على ركبته طول الوقت لا ينظر
 حوله يمنة ولا يسرة . فاذا اتفق له في مناسبة من المناسبات أن يكلمهم ،
 كان كلامه لهم موجزا مقتضبا غريبا ، حتى ليكاد يكون فظا غليظا في جميع
 الأحيان . صحيح أنه كان يحدث ، في القليل النادر ، أن يندفع في
 مناقشات أطول ، ولكنه كان في أكثر الأحيان يكتفي باطلاق جملة عجيبة
 يكون وقعها في نفس زائرهم وقع لغز محير ، ثم يرفض أن يعقب عليها
 بأي شرح رغم جميع التوسلات . ولم يكن الأب تيرابونت في رتبة
 كاهن ، وانما ظل راهبا بسيطا . وقد راجت عنه في بعض الأوساط ،
 وهي الأوساط الجاهلة التي تؤمن بالخرافات والحق يقال ، راجت عنه

شائعة غريبة مفادها أن الأب تيرابونت على اتصال بالأرواح السماوية ، فهو لا يتحدث الا مع تلك الأرواح ، وهو لهذا السبب يكره أن يكون على صلة بالبشر الفانين •

استطاع راهب أوبدورسك القصير أن يهتدى الى الطريق المفضى الى حجرة الأب تيرابونت ، متبعا اشارات الراهب الذى يتعهد خلایا النحل ، وهو راهب صموت متجههم أيضا ، فاتجه نحو ركن الحائط الذى توجد عنده حجرة النامك • وقد قال له الراهب الذى يتعهد خلایا النحل :

- ربما رضى أن يخاطبك ببضع كلمات ، لأنك راهب حاج ، ولكن قد لا تستطيع مع ذلك أن تنتزع منه كلمة واحدة •

اقرب الراهب الحاج من حجرة الناسك وهو يشعر برعب شديد ، كما روى ذلك هو نفسه فيما بعد • وكان ذلك فى ساعة متأخرة • ان الأب تيرابونت جالس فى هذه المرة أمام باب مسكنه على دكة واطئة جدا وفوقه يُسمع حفيف أغصان شجرة دردار كبيرة ، والهواء قد أنعشته طراوة المساء •

سجد راهب أوبدورسك أمام الناسك المقدس ، وطلب اليه أن يباركه • فقال له الأب تيرابونت :

- أتراك تريد أيها الراهب أن أسجد أنا أيضا على الارض أمامك؟
هيا انهض •

• نهض الراهب الصغير •

- ألا فلتحل عليك البركة • اجلس بجانبى • من أين أنت ؟

دُهِش راهب أوبدورسك خاصة من أن الأب تيرابونت ، رغم أنه

طاعن في السن ، ورغم الصيام القاسي الذي يفرضه على نفسه ، ما يزال صحيح البنية قوى الجسم ، وهو فارغ الطول منتصب القامة ، له وجل نحيل لكنه نضر سليم . ان المرء يشعر أنه ما يزال محتفظا بقوة بدنية عظيمة . ولقد كانت بنيته بنية رجل رياضي على كل حال . ثم انه على تقدمه في العمر لم يشب تماما ، وما يزال شعر رأسه وليحيته ، الذي كان في الماضي فاحم السواد ، ما يزال غزيرا كثيفا . وعيناه الشهبوان كبيرتان ساطعتان ، ولكنهما جاحظتان كثيرا ، وتلك سمة تخطف البصر رأساً . وهو يتكلم مشددا حرف « الواو » تشديداً قويا . أما لباسه فعباءة طويلة حمراء من ذلك القماش الذي كان يسمى في الماضي « جوخ السجناء » ، مع حبل طويل يتخذه حزاما ، والعنق والصدر عاريان . وتحت الثوب يرى قميص من نسيج مبتدل يكاد يبدو أسود اللون لأن الاب تيرابونت لا يبدله خلال شهور . وكان يقال انه يثقل جسمه بسلاسل تزن ثلاثين رطلاً . وقدماه بلا جوربين ، وانما هو يتعلم حذاءين عتيقين قد تشوه شكلهما كل التشوه .

- أنا آت من دير سان سيلفستر الصغير في أوبدورسك .

كذلك قال الزائر مجيبا بلهجة ذليلة وهو ينظر الى الناسك بعينه الصغيرتين الحادثتين الغريبتين اللتين ما تزالان مروعتين قليلا .

- أنا أعرف صاحبك سان سيلفستر . لقد عشت عنده زما . كيف

حاله ؟ كيف صحته ؟

اضطرب الراهب الصغير .

- يا لكم من رجال حمقى مجانين ! كيف تصومون هناك ؟

- طعامنا تحكمه القاعدة الرهبانية القديمة : ففي أثناء الصيام الكبير

لا نطعم شيئا في أيام الاثنين والأربعاء والجمعة . وفي أيام الثلاثاء

والخميس يأكل الرهبان خبزاً أبيض وفاكهة مسلوقة أو عسلًا ، وتوتاً برياً أو كرنباً مملحاً ، مع شيء من طحين الشوفان مخلوط بالماء . وفي أيام السبت نأكل كرنباً أبيض وشعيرية بالحمص وبرغلاً خشناً ، وذلك كله مطبوخ بالزيت . ويضاف الى الكرنب شيء من سمك مقدّد وبرغل عادى فى أيام الأحد . أما فى الأسبوع المقدس فلا نأكل ، من صباح الاثنين الى مساء السبت ، أى خلال ستة أيام ، الا خبزاً وماء وخضاراً نيئة - وحتى هذا يجب أن نلتزم فيه حدود القصد والاعتدال . ذلك أنه اذا كان مباحاً لنا أن نأكل فى ذلك الأوان ، فيجب أن لا نفهم هذا بالمعنى الواسع ، ولا أن نفعله كل يوم . وفى يوم الجمعة من الأسبوع المقدس نصوم صوماً كاملاً ، وفى يوم السبت من هذا الأسبوع نمتنع عن الطعام حتى الساعة الثالثة ، ثم يُسمح لنا بعد هذه الساعة أن نصيب شيئاً من خبز وماء وأن نخشى قدحاً واحداً من النبيذ ؛ وفى يوم الخميس من الأسبوع المقدس يقدم الينا طعام مطبوخ بغير زيت ، وشيء من نبيذ ، وبعض المأكّل الناشفة . ذلك أن مجمع الأساقفة الذى انعقد فى لاوديسه قد أقر النظام التالى فى أمر يوم الخميس من الأسبوع المقدس : « لا يحسن قطع الصيام فى خميس آخر الأسبوع ، حتى لا يفسد بذلك الصيام كله ، . ذلك هو صيامنا . وهو مع ذلك لا يعد شيئاً مذكوراً بالقياس الى القاعدة التى فرضتها على نفسك يا أبانا المبجل (كذلك أضاف يقول الراهب الصغير الذى بدا أنه استرد شيئاً من رباطة جأشه) ، لأنك لا تتغذى الا بخبز وماء طوال السنة ، حتى فى يوم الفصح ، ولأن مقدار الخبز الذى نأكله فى يومين يكفيك أنت أسبوعاً كاملاً . فمن واجب المرء أن يعجب أشد الاعجاب حقاً بمثل هذا التقشف العظيم .

سأله الاب تيرابونت على حين فجأة بطريقته الخاصة فى نطق بعض الأحرف ولا سيما حرف « الجيم » :



الأب تيرابونت

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساقوفا

– وفطر الغابات ؟

فكرر الراهب الصغير يقول دهشاً :

– فطر الغابات ؟

– طبعاً ! أنا أستطيع أن أستغنى عن خبزهم ، فما بي اليه حاجة
قط : أذهب الى الغابة اذا لزم ذلك ، فأغذى فيها بالفطر والثمار • ولا
كذلك الرهبان هنا ، فانهم لا يستطيعون الاستغناء عن الخبز ، فهم
مشدودون الى الشيطان ، مرتبطون به • ان فى زماننا هذا كفره كريهين
يؤكدون أن الصيام لا حاجة اليه ولا ضرورة له • فتفكيرهم مشبع بالزهو
والصلف والكبر قد تسلت اليه روح الشيطان وسكته •

قال الراهب الصغير متهددا :

– ما أصدق هذا الكلام !

– هل رأيت الجن حين كنت عندهم ؟

– عندهم ؟ عند من ؟

كذلك سأل الراهب الصغير على خجل ووجل واستحياء •

قال الاب تيرابونت :

– زرت كبير الرهبان فى عيد الخمسين من السنة الماضية ، ولكنى
لم أعد اليه منذ ذلك الحين • لقد رأيت عندهم جنأ ! رأيت جنأ يتسلقون
صدور الرهبان ، ورأيت جنأ يختبئون تحت أثوابهم فما تظهر منهم الا
قرونيهم • حتى لقد رأيت واحدا من هؤلاء الجن يقبع فى جيب من
الجيوب ، فما يظهر منه الا رأسه ، فلاحظت عينيه الحادتين المتحركتين •
كان خائفا منى فيما يبدو • وبعض الرهبان يؤوون جنأ فى بطونهم بين

أحشائهم النجسة • وبعضهم يحملونهم على رؤوسهم حول الأعناق يتشبث بها الجن دون أن يلاحظهم الرهبان أنفسهم •

سأله الراهب الصغير :

- وهل ... وُهببت لك القدرة على رؤيتهم ؟

- قلت لك اننى أراهم • ان نظرتى تخترقهم اختراقاً • حين خرجت من عند كبير الرهبان ، فاجأت واحدا منهم حاول أن يختبئ وراء الباب حين لمحنى • كان هذا طويل القامة ، يبلغ طوله متراً • وكان له ذيل ضخمة أشقر ، طويل جدا ، قد انحسر فى شق الباب فى تلك اللحظة • ولم أكن غيباً فدفعت الباب بقوة فسحقت له ذيله ، فأطلق من صدره أنينا حادا ، فبينما كان يتخبط رسمت عليه اشارة الصليب ثلاث مرات ، فاذا هو يفتس . كما يفتس عنكبوت ديس بالقدم ، وقد تفسخت جثته منذ ذلك الحين عند زاوية الباب ، فصار الهواء هنالك موبوءا ، ولكن هؤلاء الرهبان لا يرون شيئا ولا يشمون شيئا ! وقد انقضت سنة لم أعد خلالها الى ذلك المكان • اننى أسرُّ اليك وحدك بهذا الامر ، لأنك غريب عن هذا الدير •

هتف الراهب الصغير يقول :

- رهيب ما تقوله !

ثم أضاف وقد ازدادت جرأته شيئا بعد شيء :

- وددت لو أعرف أيها الاب العظيم المحترم المبجل ، هل صحيحة تلك الشائعة المجيدة التى راجت حتى بلغت أبعد المناطق النائية ، وهى أنك على صلة مستمرة بالروح القدس ؟

- الروح القدس يأتى فيقف هنا أحيانا • ذلك يحدث •

- يقف هنا؟ في أية صورة؟
- في صورة طائر •
- الروح القدس يظهر لك في صورة حمامة؟
- يجب أن لا تخلط بين الروح القدس وبين روح القداسة • فأما روح القداسة فيمكن أن تتجلى في صور شتى ، فتارة تظهر في صورة سنونو ، وتارة تظهر في صورة حسون أو في صورة قرقب أيضا •
- فكيف تميزها عن قرقب عادى؟
- أعرفها لأنها تتكلم •
- كيف هذا؟ بأي لغة؟
- بلغة الانسان •
- ماذا تقول لك؟
- يختلف ما تقوله لى باختلاف الأحوال • ففي هذا الصباح مثلاً أبلغتني أن زائراً غيباً سيزورنى وسيزعجنى بأسئلة حمقاء • هل تعرف أيها الراهب أنك تسرف فى الاستطلاع؟
- أيها الاب المحترم جدا ، المقدس جدا ، ان هذا الذى تعلمنى اياه يطيش اللب ويذهب بالصواب !
- كذلك قال الراهب الصغير وهو يحرك رأسه • على أن شيئاً يسيرا من عدم التصديق قد ظهر فى عينيه اللتين عاد اليهما الروع والخوف •
- سأله الاب تيرابونت بعد صمت قائلاً :
- هل ترى هذه الشجرة؟
- أراها يا أبى المحترم •

– لا شك أنك تظنها شجرة دردار • أما أنا فأرى فيها شيئاً آخر •
 وانتظر الراهب الصغير بضع لحظات يرتقب أن يقول له الاب
 تيرابونت ماذا يرى فيها ، فلما لم يفعل الاب تيرابونت ذلك ، قرر أن
 يسأله ، فقال :

– فماذا ترى فيها ؟

– يحدث لي هذا في الظلام • هل ترى هذين الفصين ؟ ان المسيح
 يظهر لي في هذا الموضع حين يخيم الليل ، فيمد اليّ ذراعيه ويبحث
 عنى • اننى أراه رؤيية واضحة جلية ، فأرتعش عندئذ خوفاً • ذلك شيء
 يبث الذعر في النفس ، هل تعلم ؟

– لماذا الخوف ما دام هو المسيح ؟

– قد يقبض على ويرفعنى الى السماء •

– حياً ؟

– ألم تسمع اذن عن مار الياس ومجده ؟ سوف يحيطنى المسيح
 بذراعيه ويأخذنى •••

رغم أن راهب أويدورسك الصغير قد شعر باضطراب شديد وحيرة
 كبيرة حين رجع بعد هذا الحديث الى الحجارة التى عيّنت له والتي كان
 عليه أن يشارك فيها أحد رهبان الدير مدة اقامته ، فقد كان فى فرارة
 قلبه يشعر بأن الاب تيرابونت قد اجتذبه أكثر كثيرا مما اجتذبه الشيخ
 زوسيم • ان هذا الراهب الصغير ، وهو من الأنصار المتحمسين للصيام
 الذى يحترمه أكثر مما يحترم سائر شعائر الرهبانية ، قد اعتقد أن
 صائما يملك من القوة ما يملكه الاب تيرابونت يمكن حقا أن يكون قد
 أوتى موهبة « رؤيية المعجزة » ، صحيح أن الأقوال التى قالها الأب

تيرابونت تبدو مفككة بعض التفكك ، ولكن الرب وحده قادر على أن يعرف ما لعلها تشتمل عليه من دلالة عميقة . ثم ان جميع البسطاء ، جميع «اليورودينويس» المأخوذين بالمسيح انما يعبرون عن أنفسهم بهذه اللغة ، ويقولون كلاما أدعى الى الاستغراب أو يفعلون أفعالا أبعث على الدهشة . أما قصة الجنى الذى حشر ذيله الضخم فى شق الباب وسُحِق ، فان الراهب الصغير لم يصعب عليه أن يسلم بها ، لا بالمعنى المجازى بل بالمعنى الحقيقى ، وكان يشعر أنه مستعد لتصديقها بكل نفسه ، وبفرح أيضا . ثم انه ، عدا ذلك ، كانت تراوده ، حتى قبل وصوله الى الدير ، شكوك كثيرة حول نظام المشايخ ، حتى لقد كان يشعر بعداوة لهذا النظام الذى لم يكن يعرفه الا عن طريق السماع على كل حال ، وكان يعده بعد أنظمة كثيرة أخرى بدعةً ضارة ضرا صريحا . وكان قد أتبع له أثناء اقامته القصيرة فى الدير أن يسمع دمدمات الاستنكار من بعض الرهبان ذوى العقول السطحية ، الذين كانوا ينتقدون هذا النظام . واذ كان بطبيعته امرأً طلعة يعرف كيف يتسلل الى كل مكان ، فان النبأ الباهر الخارق عن آخر « معجزة » حققها الأب زوسيمما قد هزَّ نفسه هزاً قوياً وبث فيها اضطرابا شديدا وحيرة قصوى . وقد تذكر أليوشا فيما بعد أنه لمح ، عدة مرات ، فى زحمة الرهبان المحتشدين قرب الشيخ أو فى جوار الحجر ، أنه لمح هذا الراهب الصغير ينتقل من جماعة الى جماعة ، يصغى الى كل شىء ويسأل كل واحد . ولكن أليوشا لم يهتم بذلك فى حينه ، وانما تذكره فيما بعد وهل كان يمكن الالتفات الى ذلك الراهب الصغير فى ذلك اليوم ؟

كان الأب زوسيمما الذى خارت قواه من جديد ، قد انتقل الى سريره ، فلما أغمض عينيه تذكر أليوشا فجأة ، فطلب احضاره ، فهرع اليه أليوشا فورا . ولم يكن الى جانب الشيخ عندئذ الا الأب بائيسى ،

والراهب الكاهن جوزيف والراهب المتديء بروفير • فتح الشيخ عينيه
المتعبين بكثير من العناء ، وحدث الى أليوشا ، ثم بادر يقول له :

– هل ينتظرك ذووك يا بنى المحبوب ؟

فاضطرب أليوشا •

وعاد الشيخ يسأله :

– أليسوا فى حاجة الى حضورك ؟ هل وعدت أحدا بالعودة اليه

اليوم ؟

– وعدت أبى ••• وأخوى ••• وآخرين أيضا •

– ذلك ما قدّرتّه • فاذهب اليهم حتماً • ولا تحزن • اعلم اننى

لن أموت قبل أن أنطق آخر كلماتى على هذه الأرض بحضورك • اليك

سأوجه آخر أقوالى يا بنى المحبوب ، اليك سأعهد بها ••• اليك أنت

يا بنى لأنك تحببى • امض الآن الى من ينتظرونك •

سارع أليوشا بطبع أمر الشيخ ، رغم أنه قد شق على نفسه أن

ينصرف فى هذه اللحظة • ولكن الوعد الذى قطعه له الشيخ ، وهو أن

يُسمعه آخر كلماته على هذه الأرض ، ولا سيما ما ذكره الشيخ من أنه

سيوجه هذه الكلمات اليه هو ، وأنه سيعهد بها اليه على أنها وصيته

الروحية ، قد ملأ نفس أليوشا نشوةً وسكراً • لذلك أغدّ خطاه حتى

يستطيع أن يفرغ مما كان عليه أن ينجزه فى المدينة وأن يعود الى الدير

بأقصى سرعة • وقد تحدث الأب بائيسى هو أيضا الى أليوشا عند انصرافه؛

وما قاله له الأب بائيسى عندئذ ليسدد خطاه فى طريقه ، قد أحدث فى

نفسه أثراً عميقاً لم يكن فى الحسبان • لقد قال له الأب بائيسى :

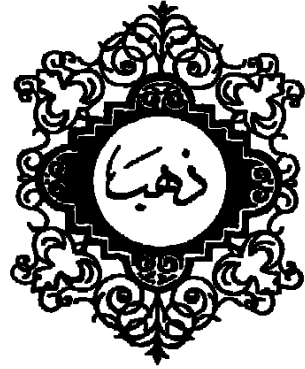
– تذكر أيها الفتى (بهذا انما بدأ الأب بائيسى كلامه دون أى

تمهيد) ، تذكر أن المعرفة العلمانية التي نمت نمواً كبيراً وأصبح لها سلطان عظيم ، قد هجمت ، في خلال هذا القرن خاصة ، على كل ما تركه لنا النصوص المقدسة من حقائق سماوية • فعلماء هذا العالم ، بعد أن قاموا بنقد حاد لا يشفى غليله ، لم يحتفظوا بشيء ، لم يحتفظوا بشيء البتة مما كان يُعدُّ مقدماً في القرون الماضية • لقد حللوا بكثير من التدقيق والامعان كل جزء من أجزاء التعليم الديني على حدة ، ولكن فاتهم ادراك الدين في مجموعه ، وبلغوا من ذلك أن المرء تذهله فيهم هذه العماوة حقا • ذلك أن «الحقيقة» انما هي في «المجموع» ، فلن يستطيعوا أن ينالوا منها ، ولن يستطيعوا أن يمسوها بسوء ، وستظل باقية ثابتة خالدة كما كانت من قبل ، لا تقدر أبواب الجحيم أن تنقياً شيئاً يؤذيها ، ولا تتمكن قوى الشر أن تغلبها وأن تنتصر عليها • ألم تعش هذه الحقيقة تسعة عشر قرناً ؟ ألا تزال تعيش اليوم في أشواق جماهير الناس ؟ ألا انها لباقية ، هذه الحقيقة ، حتى في قلب أولئك الملحددين الذين أرادوا أن يدمروها • ذلك أن هؤلاء أنفسهم الذين جحدوا المسيح وعصوه وتمردوا عليه ما يزالون يحتفظون بصورته حية في أنفسهم ، كما كانت في الماضي ، شاعوا أم أبوا • ذلك أنه استحال عليهم في الواقع ، رغم الرغبة القوية التي اضطرت في نفوسهم ورغم الجهود الكبيرة التي بذلها عقلهم ، استحال عليهم أن يتصوروا مثلاً أعلى ، أسمى وأجدر باعجاب الانسان من المثل الأعلى الذي قدمه إلينا المسيح في الزمان القديم • ان جميع المحاولات التي من هذا النوع لم تؤدِّ الى غير الحطة والغلطة • فاحفظ هذا جيداً أيها الفتى ما دام شيخك المحتضر قد أرسلك الى العالم • فلعلك حين تذكر في المستقبل هذا اليوم العظيم تفكر أيضاً في هذه الكلمات التي قلتها لك صادرة من أعماق قلبي لتضىء لك طريقك • ذلك لأنك شاب ، ولأن مغريات العالم قوية ذات سلطان ، ولن

تكنيك قواك وحدها للتغلب على هذه المغريات دائما • والآن امض أيها
اليتيم •

وبعد أن قال الأب بائسي هذا الكلام بارك أليوشا • وقد أدرك
أليوشا فجأة ، وهو يتعد عن الدير ويتدبر هذه الأقوال التي لم يكن
يتوقعها ، أدرك فجأة أن هذا الراهب الذي كان الى ذلك الحين صارماً
تلك الصرامة كلها فاسياً تلك القسوة كلها في معاملته ، سيكون له بعد
اليوم صديقاً جديداً وموجهاً روحياً يحمل له أعمق المودة والعطف
- كأن الأب زوسيم هو الذي عهد إليه بهذه المهمة وهو يحتضر • قال
أليوشا يحدث نفسه : « من يدري ؟ لعلهما قد اتفقا على هذا ! » • ألا تدل
هذه الشروح العليمة النقية التي سمعها من فم الأب بائسي ، وهي شروح
أدهشته في أول الأمر وأثارت استغرابه ، ألا تدل أكثر مما يمكن أن
يدل أي حديث آخر ، على أن الأب بائسي يضم له عاطفة صادقة حارة ؟
لقد أسرع الأب بائسي يزوّد عقله بالأسلحة التي تسهل عليه مكافحة
مغريات هذا العالم ، وأراد بغير ابطاء أن يحصّن نفسه الفتيّة المراهقة
التي عهد إليه بها بأقوى الدروع الروحية الأخلاقية •

في منزل الأب



أليوشا أولا الى منزل أبيه • فتذكر وهو يقترب
من المنزل ان أباه قد ألح عليه كثيرا بالأمس أن
يتدبر أمره بحيث يدخل دون أن يراه ايفان •
فتساءل فجأة : لماذا ؟ اذا كان أبي يريد أن
يبوح لي بشيء من الأشياء سرا ، فهل هذا سبب كاف لأن أدخل المنزل
دون أن يعلم أخى بذلك ؟ أحسب أن أبي قد أساء التعبير من شدة
اضطرابه ، فلم يجد الكلمات المناسبة التي يفصح بها عن مراده • • •
هذا ما قاله لنفسه • ومع ذلك شعر بارتياح شديد ورضى عظيم حين
فتحت له مارفا اجناتفنا الباب الحديدى (كان جريجورى قد مرض فلزم
سريره فيما قالت مافرا) ، فعلم منها ، جوابا على سؤال ألقاه عليها ، أن
ايفان فيدوروفتش قد خرج من المنزل منذ ساعتين •

– وباتيوشكا ؟

– نهض من فراشه ، وهو يحتسى الآن قهوته •

• هكذا أجابته مارفا اجناتفنا بشيء من الجفاف والخشونة •

دخل أليوشا ، فوجد أباه وحيدا الى المائدة ، منتعلا خفين ، مرتديا
مبدلا عتيقا • كان الأب بسبيل التدقيق فى بعض الحسابات تزجية

للوقت ، دون أن يبدو عليه أنه مهتم فعلا بهذا العمل الذي يقوم به • ولم يكن في المنزل أحد غيره (كان سمردياكوف قد خرج هو أيضا لشراء بعض الأشياء من أجل اعداد طعام الغداء) • كان الأب يتصفح حساباته اذن ، ولكن فكره منحرف الى غير ذلك • وكان يبدو عليه التعب والوهن والضعف ، رغم أنه صبحا في ساعة مبكرة من الصباح وحاول أن يستجمع قواه وأن يسيطر على نفسه • وقد عقد على جبينه الذي ظهرت فيه بقع أرجوانية كبيرة أثناء الليل ، عقد عليه منديلاً أحمر • وكانت على أنفه الذي تورم كثيرا منذ البارحة ، كانت على أنفه بقع مماثلة ان لم تكن واسعة كثيرا فهي تضي على وجهه تعبيراً عن غضب حائق خبيث • وكان العجوز يعرف هذا على كل حال ، فهذا هو يرشق أليوشا حين دخل ، بنظرة فيها عداوة • وصاح يقول له بلهجة قاطعة :

– الفهوة باردة ، فلن أقدم لك منها شيئاً • وأنا نفسي ألتمز اليوم حمية قاسية ، فلا أطعم الا حساءً بالسّمك ولا أدعو الى مائدتي أحدا • لماذا رأيت أن عليك أن تجيء ؟

قال أليوشا :

– أردت أن أسأل عن صحتك •

– أعرف • ثم اننى أمرتك أنا نفسي بالأمس أن تزورنى • تلك كلها سخافات ! لقد أزعجت نفسك فى غير طائل • على أننى تبتأت بأنك ستسارع الى المجيء •••

قال الأب هذه العبارة الأخيرة بلهجة منفرّة كريهة ، ونهض فى الوقت نفسه ليرى حالة أنفه فى المرآة وقد بدا فى وجهه الهم والقلق (لعله ينظر فى أنفه للمرة الأربعين منذ هذا الصباح) ؟ وفى هذه المناسبة

عدل المنديل الأحمر الذي يلف جبينه وجهه أن يعقده على آتق طريقه •
وقال بلهجة متكلفة :

– لقد اخترت اللون الأحمر ، لأن الأبيض يذكر بالمستشفى •
هيه ! ماذا وراءك من جديد ؟ ماذا يقص الناس ؟ كيف حال شيخك ؟

فأجابه أليوشا قائلاً :

– حاله سيئة جدا ، وقد يموت في هذا النهار •

ولكن الأب لم يصغ الى جواب ابنه ، وكان قد نسي السؤال الذي
ألقاه عليه •

قال العجوز بدون تمهيد :

– خرج ايفان • انه يهيب • جميع المكائد لينتزع من ميتكا* خطيبته •
ثم أضاف يقول بخبث وقد لوى شفقيه على ابتسامة مكشّرة :
– وذلك هو الهدف الوحيد الذى جاء من أجله الى هنا •

فسأله أليوشا :

– هل باح لك بهذا فعلاً ؟

– طبعاً • قال لى ذلك منذ زمن طويل ؟ ماذا كنت تظن اذن ؟
اعترف لى بهذا منذ ثلاثة أسابيع • ما أحسب أنه جاء الى هنا ليزبىخنى
خفية هو أيضا • فلا بد أن يكون هنالك سبب يدفعه الى المكوث فى هذه
المدينة •

سأله أليوشا مضطربا اضطرابا رهيبا :

– ولكن ما هذا الذى تقوله ؟ لماذا تتكلم هكذا ؟

- صحيح انه لم يطلب منى مالا ، ولن أعطيه قرشاً واحداً على كل حال . اننى أريد ، يا ألكسى فيدوروفتش المحترم جدا ، أن أعيش فى هذا العالم أطول عمرٍ ممكن ضع هذا فى ذهنك ! . . . لذلك سأكون فى حاجة كبيرة الى كل كوبك مما أملك .

ثم أضاف وهو يسير فى الغرفة طولاً وعرضاً ، واضعاً يديه فى جيبي مبدله الفضفاض المتسخ المصنوع من نسيج صيفى خفيف أصفر اللون :

- وكلما طعنت فى السن وتقدمت فى الشيخوخة ازدادت حاجتى الى المال . أنا الآن ما أزال رجلاً ، فعمري لا يزيد على خمسة وخمسين عاماً ، وأريد أن أعيش عشرين سنةً أخرى دون أن أتنازل عن رجولتى . واذ أننى سأشيخ طبعا ، فسأصبح منفراً ، فلا يأتين الى من تلقاء أنفسهم راضيات ، فيصبح المال عندئذ ضرورة لا بد منها و لاغنى عنها . لذلك ترانى الآن أجمع أكبر مقدار ممكن من الثروة لنفسى وحدها يا بنى العزيز ألكسى فيدوروفتش ضع هذا فى بالك ذلك أننى أعزم عزماً قاطعاً جازماً - اعلم هذا أيضا - على أن أسترسل فى خلاعتى الى آخر أيام عمري . ان الخلاعة تلتف الحياة : جميع الناس يعيون الخلاعة ، ولكنهم جميعاً يتعاطونها . كل ما هنالك أنهم يتعاطونها سراً على حين اننى أتعاطها علانية . ان صراحتى وسنداجتى هما اللتان تعرضانى لهجوم ونقد تلك العصبة الفاسقة من الواعظين بالأخلاق . أما جنتك يا ألكسى فيدوروفتش فاتنى لا أريدها لنفسى اعلم هذا ان الانسان اللائق ليس له فى الجنة ما يعمله ، هذا اذا وجد انسان لائق ، وسيكون من غير الحشمة أن يذهب مثل هذا الانسان الى الجنة . وفى رأى أنا أن المرء يموت فينتهى بموته كل شيء ينام ثم لا يستيقظ ، ولا شيء بعد الموت أبداً . صلوا من أجلى بعد موتى اذا شئتم ، وان لم

تشاءوا فلا وصلوا *** شيطان يأخذكم *** تلك هي فلسفتي كلها •
 لقد تكلم ايفان بالأمس فأحسن الكلام ، رغم أننا كنا جميعا سكارى • ان
 ايفان انسان متبجح • ليس هو بالعالم قط • بل انه ليس على شيء من
 ثقافة حقيقية • انه لا يزيد على أن يسكت ، وأن يسخر من جميع الناس
 صامتا • ذلك كل ما يعرف أن يفعله ايفان هذا •

كان أليوشا يصنى الى أبيه دون أن يقول كلمة واحدة •
 وتابع الأب كلامه قائلاً :

— لماذا لا يكلمني أبدا من تلقاء نفسه ؟ انه اذا كلمني كان يمثل
 تمثيلا ! انه وغد حقير ، أخوك ايفان هذا ! أما جروشكا* فسأتزوجها متى
 حلا لي أن أتزوجها • ما دمت أملك المال ، فيكفي أن أريد حتى أبلغ
 كل شيء يا ألكسى فيدوروفتش ! وذلك بعينه هو ما يخشاه ايفان ! انه
 يعيش هنا ويراقبني حتى لا أتزوج ، ويحضر ميتيا في سبيل تحقيق هذا
 الهدف على أن يتزوج جروشكا : هو يأمل أن يبعدني عن هذه المرأة
 بهذه الوسيلة (كأنه يظن أنني سأورثه مالا حتى ولو لم أتزوج
 جروشكا !) • ومن جهة أخرى سيسلب ميتيا خطيبته اذا تسنى لميتيا أن
 يتزوج جروشكا • ذلك هو الحساب الذي يجريه • انه وغد ، صاحبك
 ايفان هذا !

قال أليوشا :

— ما أشد احتياجك اليوم ! ان مرد هذا الى ما حدث لك بالأمس •
 فالأفضل أن ترقد في السرير •
 أجاب الأب العجوز يقول وكأن هذه الفكرة قد ساورت ذهنه في
 هذه اللحظة وحدها :

– قد تكون على حق فيما تقول • انك الآن تنصحنى فما أغضب •
ولكن لو سمح ايفان لنفسه بأن يقول لى ما قلته أنت ، اذن لثارت ثائرتى •
معك وحدك انما أتبع لى أن أقضى لحظات ممتعة مبهجة ، وأن أكون طيباً ،
لأننى شرير فى العادة •

قال أليوشا مبتسماً :

– ما أنت بشرير •

– اسمع يا أليوشا • لقد أردت اليوم أن أطلب اعتقال هذا اللص
ميتكا ، ولا أدرى حتى الآن هل أعزم أمرى على ذلك أخيراً . أنا لا أجهل
أن « الموضة » الرائجة الآن هى أن يُعدَّ احترام الأبناء آباءهم وهماً
باطلاً وعادة سخيفة • ولكن القانون لا يجوز ، حتى فى عصرنا هذا ،
أن يجزَّ ابن أباه العجوز من شعره ، وأن يركل وجهه بكمب حدائه ،
فى منزله نفسه ، وأن يتباهى كذلك أمام شهود بأنه سيعود ليجهز عليه
فيما بعد • فلو شئت لرميته فى السجن منذ هذا اليوم لما جرى بالأمس •

– وقد عدلت عن شكواه ، أليس كذلك ؟

– ثنائى ايفان عن عزمى • على أننى لا أحفل برأى ايفان ، وانما
خطر ببالى شىء آخر •••

قال الأب ذلك ثم مال على أليوشا وتابع كلامه بلهجة البوح وهو
يكاد يهمس همساً :

– لو اعتقل هذا الوغد، لعلمتُ هى بأننى أودعته السجن ، فهرولت
تسعى اليه فوراً • أما اذا رُوى لها اليوم أن هذا اللص قد أوشك أن
يقتلنى أنا الشيخ العجوز ، فقد لا تهجره ولكنها ستعودنى ••• ذلك هو
طبعها الذى فطرت عليه : تحب أن تفعل نقيض ما يُنتظر منها ، بدافع

حب المناقضة وحده ! اننى أعرفها حق معرفتها ! بالمناسبة ، هل لك بقليل من الكونياك ؟ اشرب هذه القهوة الباردة ، سأضيف اليها ربع قدح من الكونياك فيطيب مذاقها •

- لا ••• شكرا ••• لا أريد ••• ولكننى فى مقابل ذلك سأخذ هذا الرغيف من الخبز اذا سمحت بذلك •

قال أليوشا هذا وتناول رغيفا صغيرا من خبز أبيض ثمنه ثلاثة كوبكات ، ودسّه فى جيب توبه • ثم أضاف يقول فى خشية وهو يتفرس فى وجه أبيه :

- أما الكونياك فلعلك تحسن صنعاً اذا عدلت عنه أنت أيضا •
قال الأب :

- أنت على حق • ان الكونياك يثيرنى بدلا من أن يهدئنى • لذلك لن أشرب الا كأسا واحدا ••• كأسا واحدا ••• الكونياك هناك ، فى الخزانة الصغيرة •••

وأدار مفتاح « الخزانة الصغيرة » ، فملاً كأساً ، وأفرغه فى جوفه ، ثم أقفل الخزانة من جديد ، وردّ المفتاح الى جيبه •

- يكفينى هذا • كأس واحدة لن تقتلنى •

قال أليوشا وهو يتسم :

- ها قد عدت طيباً •

- طيب ؟ هم ••• اعلم أننى أحبك أنت دون أن أشرب شيئاً من الكونياك ••• أما الأوغاد فانى أعرف كيف يجب أن يُعامَلوا ! لم يذهب فانكا* الى تشرماشنيا ! لماذا ؟ لأنه يريد أن يبقى هنا ليتجسس على :

انه يجب أن يعرف هل سأعطي جروشنكا مالا كثيرا اذا هي جاءت •
 انهم أوغاد ! هم جميعا أوغاد ! أما ايفان فانتى لا أعترف به ابناً لى •
 من أين جاء ، هذا الوبش ؟ انه ليس مثلنا ، ان له نفساً غير نفوسنا !
 أيلظن أنتى سأورثه شيئاً من مال ؟ ألا انتى لن أكب حتى وصية •••
 اعلم هذا ! ••• وأما ميتكا فلاسحقه كما تسحق خنفساء قذرة • انه
 يتفق لى أن أسحق خنفساوات فى الليل ، فتطق طقيقاً جافاً حين تفتس ،
 فهذه الطريقة سأسحقه ، صاحبك ميتكا هذا ••• واذا قلت صاحبك ،
 فلأنك تحبه ••• أنا أعرف ذلك • ولكن تطلقك به لا يقلقنى ••• على
 حين أنه لو أخذ ايفان يحبه لاتابنى خوف ، ولخشيت عندئذ على نفسى •
 غير أن ايفان لا يحب لحددا • انه ليس منا • ان أناسا مثل ايفان ليسوا
 بشراً مثلنا ، هم تراب أنارته الريح ••• تذهب الريح ويعود يتساقط
 التراب ••• لقد خطرت ببالى فكرة سخيفة أمس حين أمرتك بأن تجىء
 اليوم • أردت أن أكلفك بأن تسأل ميتكا : هل اذا أنا نقدته ألف روبل
 أو حتى ألفين ، هل يوافق هذا الشقى ، هذا الشحاذ ، هل يوافق عندئذ
 على أن يبارح هذه المدينة خمس سنين ، بل خمساً وثلاثين سنة ، بدون
 جروشنكا طبعاً ، متنازلاً عنها الى الأبد ؟

تمتم أليوشا يقول :

- سوف •• سوف •• أسأله •• واذا زدت المبلغ فجعلته ثلاثة

آلاف ، فمن الجائز أن •••

- خطأ ! لا تكلمه فى هذا الامر ! لا تقل له كلمة واحدة ، هل

تسمع ؟ لقد غيرت رأى منذ أمس • هي فكرة غبية خطرت ببالى •
 لن أعطيه شيئاً ، لن أعطيه كوبكا واحدا ، لأنتى فى حاجة الى هذا المال
 أنا نفسى (كذلك صرخ الأب المعجوز وهو يحرك ذراعيه) • لسوف
 أعرف كيف أسحقه كما تسحق خنفساء ، بدون هذا • لا تقصص عليه

شيئاً ، والا فقد تراوده آمال • ثم انه ليس ثمة ما تفعله عندي • فإذهب
الآن ، امض الى ديرك • ولكن قل لي : هل تريد خطيبته ، هل تريد
كاترين ايفانوفنا تلك التي حرص أشد الحرص على أن يخفيها عني ،
هل تريد أن تتزوجه أم لا ؟ لقد ذهبت أنت اليها بالأمس ، فيما أظن ،
أليس كذلك ؟

– انها لا تريد أن تتركه ، مهما يحدث !

– هؤلاء هم الرجال الذين تحبهم بنات الصالونات الرقيقات هاته !
انهن يحبين شبابا عابثين لاهين أوباشاً ! ثق أن هذه الأنسة الشاحبة الراقية
لا تساوي شيئاً • ما أكبر الفرق بينها وبين ••• الخلاصة ! آه لو كان
لي عمره ووجهي أيام شبابي (لقد كنت أجمل منه في صباي) •• اذن
لكانت لي غزوات أنا أيضا •• ألا انه لشقي ! أما جروشكا فلن ينالها ،
لن يحظى بها •• لأمرغته في الوحل !••

استمر حنق العجوز من جديد وهو ينطق بهذه الكلمات • ثم قال
بلهجة جافة خشنة :

– اذهب الآن • لا عمل لك اليوم هنا •

اقرب ألوشا من أبيه ليودعه ، وقبله في كتفه • فسأله الأب
دهشاً :

– لماذا هذه القبلة ؟ سوف نلتقي بعد الآن • أم تُراك تقدر أننا لن
نلتقي قط !

– لم يخطر ببالي هذا • لقد قبلتك بغير نية ، وعلى غير قصد •
– ولا خطر ببالي أنا أيضا • وانما ألقيت عليك هذا السؤال سهواً
وغفلة •

كذلك قال العجوز وهو ينظر الى أليوشا قلقاً • وفيما كان أليوشا
يبتعد صرخ الأب يناديه :

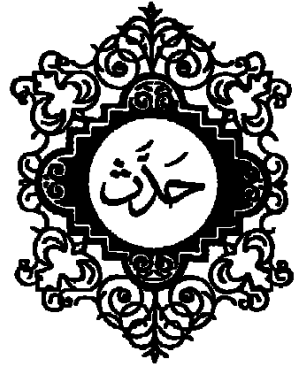
- لحظة • انتظر لحظة ! تعال الىّ في أقرب فرصة • سأذيقك
ما أعدّه من حساء السمك ، هو حساء خاص ، لا كحساء اليوم ! تعال
حتماً ، هل فهمت ؟ تعال منذ الغد ، هل سمعت ؟ منذ الغد !

وحين أُغلق الباب وراء أليوشا ، اقترب العجوز من الخزانة
الصغيرة مرة أخرى فأفرغ في جوفه نصف كأسٍ دفعة واحدة • ثم
دمدم يقول وهو يتخننح :

- سأتوقف عن الشراب الآن •

ثم أقفل الخزانة ، وردّ المفتاح الى جيبه ، ومضى بعد ذلك الى
غرفة نومه ، واضطجع على سريره وهو يشعر بأنه منهك مرهق • وسرعان
ما نام •

لقاء مع تلامذة



أليوشا نفسه قائلاً حين خرج من عند أبيه متجهاً نحو منزل السيدة هو خلا كوفاً : « الحمد لله على أنه لم يُلَقَ عليَّ أسئلةٌ عن جرّوشنكا ، فلو فعل لاضطرت أن أحدثه عن مقابلة الأمس » .

وقد قدّر أليوشا ، وهو يشعر بكثير من الشجن ، أن الأهواء قد ازدادت استعاراً أثناء الليل ، وأن الخصوم يستعدون للمواجهة والمجابهة بقوى غضة جديدة ، وأن الصبح قد طلع عليهم وهم أقسى قلباً وأعتى نفساً .

قال يحدث نفسه : « الأب حانق سيء المزاج خيبت النية وقد نبتت في رأسه فكرة لن يتخلى عنها ... ودمتري ؟ لا شك أن كرهه قد اشتد رسوخاً واصراراً منذ أمس ، وأن قلبه هو أيضاً قد امتلأ حقداً ومقتناً وغبضاً . ولا شك أنه أخذ يبيت أمراً ... أوه ! يجب عليّ حتماً أن أستطيع رؤيته في هذا اليوم ، يجب أن أراه اليوم مهما كلف الأمر » .

ولكن أليوشا لم يتسع وقته للتفكير طويلاً . فقد وقعت له أثناء الطريق حادثة قد لا يكون لها شيء من خطورة الشأن طبعا ، ولكنها أحدثت في نفسه أثراً قويا جداً . كان قد اجتاز الميدان إلى شارع ميشيل الذي يوازي « الشارع الكبير » ، ولكن تفصله عنه قناة صغيرة (ان مدينتنا تقطعها في جميع الاتجاهات حفر وقنوات صغيرة) ؟ وانه ليسير في هذا

الزقاق اذا هو يلمح تحت ، قرب الجسر الصغير ، عصابة من التلاميذ هم جميعا أطفال تتراوح أعمارهم بين التاسعة والحادية عشرة في أكثر تقدير . انهم عائدون من المدرسة ، يحملون على ظهورهم ذلك الكيس الصلب الذي يحمله التلاميذ ، ويحمل بعضهم على الجنب كيساً لينا من جلد له سيور طويلة يضعونها فوق الكتف . بعضهم يرتدى دراعة ، وبعضهم يرتدى معطفا قصيرا ، وبعضهم يتعل جزمة عالية على ساقيها أخايد ، من تلك الجزمات التي يجب اتعالها الاطفال الذين يدلهم آباؤهم الأغنياء . وكان الاطفال يتناقشون بحرارة ، وكان يبدو أنهم أجمعوا أمرهم على شيء . ان ألبوشا لا يمكن أن لا يحفل يوما بمنظر الاطفال ، فكذلك كان شأنه أيضا في موسكو ؛ ولئن كان يؤثر الصغار الذين تحوم أعمارهم حول السنة الثالثة ، فان التلاميذ الذين هم في العاشرة أو الحادية عشرة يعجبونه كثيرا أيضا . لذلك أحب فجأة ، رغم الهموم التي كانت ترهق نفسه ، أن ينضم الى هؤلاء التلاميذ وأن يدخل معهم في حديث . فلما اقترب منهم متفرساً في وجوههم الملونة المتعشة لاحظ ان كلاً منهم يحمل بيده حصاة ، حتى أن بعضهم يحمل حصاتين اثنتين . ورأى في البجته الأخرى من القناة ، على مسافة ثلاثين خطوة من عصابة التلاميذ هذه تقريبا ، طفلاً آخر واقفا قرب سياج من أوتاد . ان هذا الطفل تلميذ هو أيضا ، يحمل كيسه على الجنب ، وأغلب الظن أنه في العاشرة من عمره وربما كان أصغر من ذلك سناً ، كما يدل على هذا طول قامته . كان الصبي يراقب عصابة التلاميذ الستة الذين يقابلونه ، وكان واضحاً أنه يعدهم أعداءه . انه يبدو شاحب الوجه عليل الصحة ، ولكن عينيه السوداوين تسطعان . تقدم ألبوشا بضع خطوات أخرى ، فلما لمح صيياً أشقر مجعد الشعر متورد الوجه يرتدى دراعة سوداء ، نظر اليه بانتباه وقال له :

– أيامَ كنتَ أحملُ أنا كيساً مثلَ كيسك ، كانت العادة أن نضعه في الجنب الأيسر ، حتى تناله اليد اليمنى بسهولة أكبر . أما أنتم فالكيس يتدلى عندكم على الجهة اليمنى ، فلا تستطيعون امساكه على وجه مريح .

وقد أبدى أليوشا هذه الملاحظة الجدية العملية بطريقة عفوية* ، دون أن يعمد الى أية حيلة نفسية يتودد بها الى الطفل ويكسب ثقته . ومن المؤكد على كل حال أن خير وسيلة لكسب ثقة طفل من الاطفال ، ولكسب ثقة عصابة من الاطفال خاصة ، هي أن تدخل في الحديث معهم على الوجه الذي عمد اليه أليوشا، أى أن تخاطبهم جادا في أمور محسوسة ملموسة جاعلا نفسك نداءً لهم ، واقفاً على قدم المساواة معهم . وكان أليوشا يدرك ذلك بفريزته .

– ولكنه أعسر !

كذلك أسرع يجيب واحد من الصبية جرىء الهيئة قوى الجسم ظاهر الصحة يبدو في نحو الحادية عشرة من عمره .
وأخذ الصبية الخمسة الآخرون يتحدثون الى أليوشا .
وقال تلميذ ثالث :

– وهو يستعمل يده اليسرى أيضا في قذف الحجارة .

وفي تلك اللحظة نفسها سقط حجر على عصابة الأطفال ، فلامس الأعسر الصغير لكنه أخطأه رغم أنه قد قذف بمهارة واحكام وقوة . ان ذلك الصبي المرابط في الجهة الأخرى من القناة هو الذى رمى الحجر .

هتف جميع الصبية يقولون دفعة واحدة :

– هيا يا سموروف .. سدّد اليه .. ارمه بحجر ! ..

ولكن سموروف (الصبي الأعرس) لم ينتظر أن يشجعه رفاقه هذا التشجيع ، وانما بادر الى الرد فوراً ، فرمى الصبي الواقف فى الجهة الأخرى من القناة بحجر ، ولكنه لم يصبه ، وانما سقطت الحصاة على الارض . وسرعان ما ردد الصبي على ذلك ، فرمى الجماعة بحجر ثانٍ ، ولكنهرمى فى هذه المرة مستهدفاً أليوشا ، فأصابه فى كتفه ، فأوجعه وجعاً شديداً . وكانت جيوب الصبي مملأى بالحصى ، فذلك ما يراه الرائي حتى على بعد ثلاثين خطوة ، لأنها كانت بارزة من تحت المعطف .

صاح الصبية يقولون وهم يضحكون ضحكاً قوياً :

— انه حاقد عليك أنت ، حاقد عليك أنت ! لقد استهدفك خصيصاً .
ألست من آل كارامازوف ؟ ألست من آل كارامازوف ؟ أصحيح أم لا ؟
هياً بنا يا أولاد ، فلنحكم التسديد اليه جميعاً ، جميعاً فى هذه المرة !

وطارت حجارة ست فى آن واحد معاً . فأصابت احداها الصبي فى رأسه ، فسقط ، ولكنه لم يلبث أن نهض حائقاً مسعوراً ، وأخذ يقصف عصابة الصبية ، فكانت الحجارة تطير بلا توقف فى الاتجاهين . وكانت جيوب عدة أطفال حول أليوشا مملأى هى أيضاً بقذائف .

صاح أليوشا يقول لهم :

— ما هذا الذى تفعلونه ؟ ألا تستنحون ؟ أسته على واحد ؟ سوف

تقتلونه .

ووثب أليوشا الى أمام ، ووقف فى مسار القذائف ليحمى بجسمه الصبي الواقف فى الجهة الأخرى من القناة . فهدأ ثلاثة أطفال أو أربعة بضع لحظات .

وصرخ صبي يرتدى دراعة حمراء ، صرخ يقول بصوت حائق :
— هو الذى بدأ . انه قاطع طرق . . . لقد جرح كراسوتكين فى

المدرسة بطعنة موسى • وتدفق دم كراسوتكين غزيراً • ولم يشأ
كراسوتكين أن يشكوه • ولكنه يستحق عقاباً •••

– ماذا كان السبب ؟ لاشك أنكم شاكتموه فى البداية ، أليس
كذلك ؟

صاح الأطفال يقولون :

– ها هو ذا قد ضربك مرة أخرى فى الظهر • لقد عرفك • انه
يستهدفك أنت الآن ولا يستهدفنا نحن • هياً بنا ! عليه يا أولاد !
لا تخطئه يا سموروف !

وعاد القصف يتالى من الجهتين ، أشدّ هولاً فى هذه المرة •
فأصيب صدر الصبى الواقف فى الجهة الأخرى من القناة ، فأطلق صرخة
ألم ، وأخذ يبكى ، ثم هرب راكضاً نحو قمة الراية فى اتجاه شارع
ميشيل ، فأخذت عصبة الصبية تقول مولولة :

– آه •• خاف •• هرب •• جبان •• خرقة مبللة ••

وعاد الصبى الذى يرتدى دراعة حمراء ، عاد يقول لأليوشا وقد
اشتعلت عيناه بهمى :

– أنت لا تعرف حتى الآن أى لص هو هذا الصبى يا كارامازوف •
ان قتله قليل عليه •

وكان واضحاً أن هذا الفتى هو أكبر أفراد العصبة سنّاً •

– ماذا تأخذون عليه ؟ أهو واشٍ مثلاً ؟

تبادل الصبية نظرة تتسم بالسخرية •

وتابع الصبى نفسه كلامه فقال :

- أأنت ذاهب في اتجاهه ، نحو شارع ميشيل ؟ أدركه اذن ...
 أنظر ! لقد توقف ... يبدو عليه أنه ينتظر ... وهو يتفرس فيك ...
 وردّد الصبية الآخرون يقولون جوقة واحدة :

- هو يتفرس فيك ، يتفرس فيك .

- أدركه اذن ... واسأله هل يحب ليفة الحمام ! أسأله هذا
 السؤال ، وسترى ...

ما ان سمع الصبية هذا الكلام حتى انفجروا ضاحكين . فنظر اليهم
 أليوشا ونظروا اليه صامتين .
 وصرخ سموروف يقول له محذراً :
 - اياك أن تذهب اليه ، فلسوف يقتلك ...
 قال أليوشا :

- لن أكلمه عن ليفة الحمام ، لأننى أظن أنكم تشاكسونه وتغيظونه
 بهذه الكلمة . ولكنى سأعرف منه لماذا يكرهكم هذا الكره .

فأجابه الصبية ضاحكين :

- فسأله اذن ، أسأله !

عبر أليوشا الجسر الصغير ، واتجه الى قمة الراية ، ماراً قرب
 سياج الأوتاد ، بحيث يصل الى الصبي المعتزل .
 قال الأطفال يحذرونه مرة أخرى وهو يتعد عنهم :

- اتبه ! انه لا يخاف منك ، وسوف ينبجس فجأة ليطعنك من

خلف ، كما فعل بكراسوتكين .

كان الصبي ينتظره دون أن يتحرك من مكانه . فلما اقترب أليوشا
 كل الاقتراب رأى أمامه طفلاً في التاسعة من عمره على أكثر تقدير ،

ضعيفاً هزيبلاً له وجه مستطيل نحيل. تسطح فيه عينان واسعتان دكناوان
ترشقانه بنظرات شريرة خبيثة • انه يرتدى معطفاً عتيقاً جسداً أصبح
صغيراً على قامته وجعل منظره مضحكاً ؛ وذراعاه العاريتان تخرجان من
الكمين المسرفين فى القصر • وعلى السروال تُرى رقعة عنسد الركبة
اليمنى • ومن ثقب فاغر فى حذاء القدم اليمنى يظهر الابهام مطلياً بالحبر
من قبيل الاخفاء • وجيبا الرداء متفتختان بما فيهما من حجارة •

وقف أليوشا على بعد خطوتين منه ، وألقى عليه نظرة سائلة ،
فأدرك الصبى من نظراته فوراً أنه لا ينوى أن يضربه • فبدأ عليه شىء من
التأس ، حتى لقد بدأ هو الكلام :

– أنا واحد وهم ستة ••• ولكننى سأغلبهم دون أية مساعدة •

قال ذلك واشتعلت عيناه •

قال أليوشا :

– لا شك أن احدى تلك الحجارة قد أوجعتك كثيراً •

فهتف الصبى يقول :

– ولكننى أنا أصبت سموروف فى رأسه •

سأله أليوشا :

– هم يزعمون أنك تعرفنى ، وأنتك ريمتى بالحجر عامدا •

فلماذا ؟

لم يجب الطفل وانما ألقى على أليوشا نظرة قاتمة •

قال أليوشا ملحاً :

– أما أنا فلا أعرفك ، أفهل تعرفني أنت ؟

فصرخ الصبي فجأة يقول بصوت حائق ولكن دون أن يتحرك
فكأنه ينتظر شيئاً ما :

– دعني وشأني • انك تزعجني وتضايقني !

قال أليوشا :

– طيب • سأصرف • ولكن لاحظ أنتي لا أعرفك ولم أشاكسك
أبدا • وقد ذكروا لي كيف يمكنني أن أغضبك ، ولكني لا أنوي أن
أفعل ذلك • استوعك الله !
ومضى أليوشا •

– راهب منافق ! انك ترتدى تحت مسوحك سروالاً !

بهذا الكلام قذف الصبي أليوشا وهو يتابعه بنظرة كارهة ، وسرعان
ما وقف وقفة دفاع ، لاعتقاده بأن أليوشا لا بد أن يهجم عليه الآن •
ولكن أليوشا لم يزد على أن التفت الى وراء ، فنظر الى الصبي
صامتا ، ثم ابتعد ••• ومع ذلك فإنه ما كاد يسير ثلاث خطوات حتى شعر
بألم شديد في ظهره • لقد أصابه الصبي بحصاة ضخمة جدا هي أثقل
حصاة كان يحملها في جيوبه ؟ فاستاء أليوشا ، والتفت من جديد ، فقال
للصبي :

– آ ••• تهاجم من خلف ؟ لقد صدق الصبية اذن حين ذكروا

أنك تضرب بفتة كما يفعل جبان !

غير أن الصبي وقد استبد به غيظ شديد قد رماه في هذه المرة
بحجر على وجهه ، فلولا أن أليوشا سارع يحمي وجهه بذراعه ، اذن
لأصيب وجهه ، وهكذا أصاب الحجر كوعه •

هتف أليوشا يقول له :

– ألا تستحي ؟ ماذا فعلت لك ؟ ماذا صنعت بك ؟

صمت الصبي جامداً في مكانه وقد لاح في وجهه الشر والعدوان . كان مقتنعاً بأن أليوشا سيهجم عليه في هذه المرة ، فلما أدرك أن أليوشا لا يخطر بباله ، حتى بعد هذه الضربة ، أن يهاجمه ، استبد به حنق مسعور كوحش صغير مفترس ، فوثب هو نفسه على أليوشا . وقبل أن يتسع وقت أليوشا للقيام بأية حركة ليدافع عن نفسه كان الولد الشقي الشربير قد خفض رأسه فأمسك ذراع أليوشا اليسرى بكتفا يديه ، وعض خنصره عضّةً قاسيةً رهيبة ، غارساً أسنانه في لحم الاصبع بكل ما أوتى من قوة مدةً ثانيتين . صرخ أليوشا من شدة الألم ، وحاول أن يسحب اصبعه من بين أسنان الصبي . فلما أرخى الصبي أسنانه أخيراً ، أسرع يهرب ثم وقف على مسافة من أليوشا هي المسافة السابقة نفسها . كانت العضة قوية ، قريبة من الظفر ، قد وصلت إلى العظم . انبجس الدم من اصبع اليوشا ، فأخرج منديله وربط به الجرح ربطاً قوياً ، ففضى في هذا التضميد دقيقة كاملة . وفي أثناء ذلك ظل الصبي واقفاً في مكانه ينتظر . وعندئذ رفع أليوشا رأسه ، وألقى عليه نظرة هادئة وقال له :

– هل رأيت الجرح العميق الذي أحدثته في اصبعي ؟ أحسب أن هذا كاف ، ألا ترى هذا الرأي ؟ فقل لي الآن : بماذا أسأت إليك ؟ أي أذى ألحقته بك ؟

فنظر إليه الصبي مشدوهاً . وتابع أليوشا كلامه يقول بتلك اللهجة الهادئة نفسها :

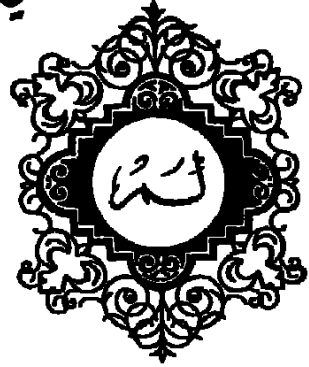
– أنا لا أعرفك . . . صدقني . . . وهذه أول مرة أراك فيها . . . ومع

ذلك لا أستطيع أن أتصور أنني لم أسيء اليك أية اساءة ، فلولا أنني
أسأت اليك لما عذبتني هذا التعذيب بغير سبب حتما . فما هو الذنب الذي
اقترفته في حقك ، وما هو الشر الذي أنزلته فيك ، قل لي ! ...

ولكن الصبي ، بدلا من أن يجيب ، أخذ يبكي بكاء قويا جدا على
حين فجأة ، ثم ولَّى هاربا ... وتبعه أليوشا بخطى بطيئة ، متجهاً نحو
شارع ميشيل ، وظل مدة طويلة يرى أمامه الطفل الهارب لا يخفف
سرعته ولا يلتفت الى وراه ولعله ما يزال يبكي . وعزم أليوشا عزمًا قاطعاً
على أن يسعى الى رؤية الطفل متى أتاحت له لحظة من حرية ، ليجلو
هذا السرّ الذي أحدث في نفسه أثراً قوياً . أما الآن فان وقته لا يتسع
لهذا .

٤

في منزل السيدة هوخلاكوف



يلبث اليوشا أن وصل الى منزل السيدة هوخلاكوف وهو مبنى أنيق من حجر ، مؤلف من طابقين ، تملكه السيدة هوخلاكوف . انه من أجمل مباني مدينتنا . ورغم أن السيدة هوخلاكوف قد عاشت أكثر وقتها في مقاطعة أخرى تملك فيها أرضا ، وعاشت كذلك في موسكو حيث تملك قصرآ خاصا ، فقد احتفظت بالمنزل الذي تملكه في مدينتنا والذي ورثته عن آبائها وأجدادها . يجب أن نذكر مع ذلك أن أرضها في مدينتنا هي أوسع الاراضي الثلاث التي تملكها . ورغم هذا لم تكن السيدة هوخلاكوف قد أقامت بمدينتنا الا نادرا حتى الآن .

هرعت السيدة هوخلاكوف تستقبل أليوشا في الدهليز ، وسألته بسرعة عصبية :

– هل تلقيت ، هل تلقيت رسالتي بشأن المعجزة الجديدة ؟

– تلقيتها .

– هل نقلت النبأ ، هل أطلعت الناس على الرسالة ؟ لقد ردَّ الشيخ

الى هذه المرأة ابنها .

قال أليوشا :

– سيموت الشيخ في هذا اليوم !

– أعلم ، أعلم ، لقد قيل لي هذا • آه ••• ما أشد رغبتى في التحدث اليك ! ما أشد رغبتى في التحدث عن جميع هذه الأشياء اليك ، أو الى شخص آخر •• بل اليك •• اليك أنت ! خسارة أنتى لا أستطيع أن أزوره ! ان المدينة كلها مضطربة ، المدينة كلها قائمة قاعدة ! جميع الناس ينتظرون ••• ولكن هل تعلم أن كاترين ايفانوفنا هي الآن عندنا ؟ هتف أليوشا قائلاً :

– صحيح ؟ هذا حظ موفق ! سأراها اذن عندكم ! لقد أصرت أمس أن أزورها اليوم •

– أعرف هذا • أنا على علم بكل شيء • لقد روى لي ما حدث في منزلها بالأمس تفصيلاً ••• عرفت كل قطاعات تلك ••• المخلوقة ! هذه فاجعة ! ••• لو كنت في مكانها ••• حقا اننى لا أعرف ماذا كان يمكن أن أفعل في هذه الحالة ! ولكن ما رأيك أيضا في أخيك هذا الكريه دمترى فيدوروفتش ؟ آه ••• يارب ! ••• أصبحت لا أعرف ماذا أقول يا ألكسى فيدوروفتش : تصور أن أخاك موجود الآن هنا ••• لا أقصد أخاك ذاك نفسه ، أخاك ذاك الرهيب الذى فعل ما فعل بالأمس ، بل أخاك الآخر ايفان فيدوروفتش ! هو الآن هنا يتحدث معناه ان حديثاً فحماً يدور بينهما ! ••• ليتك تعلم ما يجرى بينهما الآن ! شيء فظيع ، شيء فظيع ، أوكد لك ••• تمزق حقيقى ! قصة لا يصدقها العقل ، حكاية لا يتصورها الخيال : كل منهما يضيّع نفسه الآن ، لا يدرى أحد لماذا ! وهما يدركان ذلك ، ويجدان فيه نوعاً من لذة • أوه ! لقد انتظرت وصولك ••• كنت في حاجة الى أن أراك • يستحيل على ، يستحيل

على إطلاقاً أن أشهد هذه الدراما مكتوفة الأيدي عاجزة كل العجز !
سأقص عليك هذا فيما بعد • ولكن يجب على الآن أن أقول الشيء
الأساسي •• آه •• كدت أنسى الشيء الأساسي • هل تستطيع أن تشرح
لي لماذا أصيبت ليزا بنوبة عصبية منذ قليل ؟ انها ما كادت تعلم نبأ وصولك
حتى ألت بها نوبة هستريا !

– ماما ، أنت المصابة بنوبة هستريا الآن ، لا أنا •

بهذا ارتفع صوت ليزا المزقزق ، من خلال شق الباب ، في الغرفة

المجاورة •

ان شق الباب ضيق جداً والصوت يبدو متوتراً الى أقصى حدود
التوتر ، حتى ليوشك أن ينكسر كما يحدث حين يحس المرء برغبة في
الضحك لا سبيل الى مقاومتها ثم هو يكظم ضحكته ويكبحها بكل ما أوتي
من قوة • ولم يلبث أليوشا أن لاحظ هذا الشق ، فأيقن أن ليزا تنظر اليه
من خلاله ، جالسةً على مقعدها المتحرك ، ولكنه لا يستطيع أن يلمحها •

– أنا مصابة بنوبة هستريا ؟ لو أصبت بنوبة هستريا لما كان في

هذا غرابة يا ليزا ، لما كان فيه غرابة البتة ! ••• ان نزواتك المستمرة
الدائمة خليقة بأن تجعلني مجنونة • ليتك تعلم يا ألكسى فيدوروفتش
الى أي حد هي مريضة ! لقد لازمتها الحمى طوال الليل ، وكانت لاتزيد
على أن تئن ••• ولم أكد أملك القدرة على الانتظار حتى هذا الصباح
لاستشارة الدكتور هرتسنشتوبه • وقد أكد الدكتور أنه لم يفهم من
الأمر شيئاً ، وأن علينا أن نصبر ، فبرى كيف ستتطور حالتها • ان
هرتسنشتوبه لا يعرف أن يقول شيئاً غير هذا الكلام ! يجيء فيصرخ في
كل مرة أنه لا يفهم من الأمر شيئاً ! وما ان اقتربت أنت من المنزل حتى
أطلقت صرخة وألت بها نوبة ، ثم طالبت بأن تنقل الى غرفتها القديمة
• هنا •

- ولكننى يا ماما لم أكن أعرف أبداً أنه هنا . فأتانا لم أهرب الى هذه الفرقة بسببه هو .

- غير صحيح يا ليزا ! لقد أسرعْتُ جوليا تبليغك أن ألكسى فيدوروفتش وصل ، وكنت قد كلفتها بأن ترابط هنا لترقب وصوله .
- ماما ، ملاكى الصغير ! ليس هذا الذى تدعيه بالدعاية الفكهة .
فاذا أردت أن تصلحى الخطأ وأن تقولى شيئاً يكون على جانب كبير من الذكاء فأبلغى ألكسى فيدوروفتش المحترم جداً ، الذى وصل منذ هنيهة أنه قد أخطأه الذكاء حين قرر أن يجيء بعد الذى حدث بالأمس ، وبعد أن أصبح جميع الناس يسخرون منه ويضحكون عليه .

- ليزا ، انك تسرفين ! تقى أنتى سأأخذ فى حقتك اجراءات قاسية آخر الأمر . من ذا الذى يسخر منه أو يضحك عليه ؟ انتى من جهتى سعيدة جداً برؤيته . أنا فى حاجة اليه ، أنا لا غنى لى عنه . آه يا ألكسى فيدوروفتش ! ليتك تعرف مدى شقائى وتعاستى ! ...

- ماذا بك يا ماما ، يا ملاكى ؟

- هى نزواتك يا ليزا ، وتقلب مزاجك ، ووطأة مرضك وهذه الليلة الرهيبة التى عانيت فيها الحمى ، ثم هذا الطيب الفظيع الأبدى هرتسنشتوبه ، هذا الطيب الأبدى خاصةً ، هذا الطيب الأبدى الذى لا مفرّ منه ولا معدى عنه ! ثم كل شيء ، نعم كل شيء ، كل شيء اطلاقاً ... وحتى هذه المعجزة ! ... لا تستطيع أن تصور يا عزيزى ألكسى فيدوروفتش مدى الاضطراب الذى أحدثته هذه المعجزة فى نفسى ! ثم هذه التراجيديا التى تجسرى الآن فى الصالون والتى يستحيل على احتمالها ، يستحيل ، يستحيل كل الاستحالة ... أوكد لك ذلك منذ الآن ، وأنبهك اليه وأحذرك منه ... ولعلها كوميديا لا تراجيديا ! قل

لى : هل يعيش الأب زوسيما حتى الغد ، حتى الغد على الأقل ؟ آه ...
يا رب ! ... أصبحت لا أدري ماذا يقع لى • فى كل لحظة أغمض عيني ،
فأرى أن كل شيء باطل لا معنى له ...

قاطعها أليوشا سائلا :

– هل أستطيع أن أرجوك أن تعطينى خرقه نظيفة أعصب بها
اصبعى ؟ لقد جرحت جرحاً عميقاً يؤلمنى الآن ايلاًماً شديداً •
نزع أليوشا الضماد عن جرح العضة ، فكان المنديل أحمر من
الدم ، فأطلقت السيدة هوخلاكوفا صرخة وأغمضت عينيها وغمضت
حاجبيها •

– يا رب ! يا لهذا من جرح ! فظيع ! ...

ولكن ما ان لمحت ليزا اصبع اليوشا من شق الباب حتى فتحت
الباب بدفعة قوية ، وصاحت تقول بصوت أمر صارم :

– ادخل الى هنا ، ادخل فوراً ، لا محل الآن لتبادل أقوال سخيفة!
آه ... يا رب ! كيف أمكنت أن تسكت عن هذا طوال هذه المدة ؟ كان
يمكن أن يفقد دمه يا ماما ! كيف جرحت هكذا ؟ هاتوا ماءً قبل كل
شيء ، هاتوا ماء ... يجب أن تغسل الجرح أولاً ثم تغطس اصبعك
فى الماء البارد تهدئة للألم • لن يكون عليك الا أن تبقى اصبعك مدة
طويلة فى الماء ... اسرعى يا ماما ، هاتوا ماءً على الفور ، وهاتوا طستاً !

ثم صاحت تقول فى عصبية :

– هلاً أسرعتم !

كانت ليزا مروعة مذعورة ، فقد أحدث جرح أليوشا فى نفسها
أثراً رهيباً •

هتفت السيدة هوخلاكوفا تقول :

– ألا يستحسن أن نستدعى الدكتور هرتسنشتوبه ؟

– سوف تقتلينى يا ماما ! ان صاحبك هرتسنشتوبه سيجي فيقول انه لم يفهم من الأمر شيئاً • هاتوا ماءً ، هاتوا ماءً ! هاتى الماء بنفسك يا أماء ، ناشدتك الله ، أو قولى لجوليا أن تسرع • ان جوليا بطيئة دائماً ولا تستطيع أن تقوم بما يجب القيام به فى حينه • أسرعى يا ماما ، انك تميتينى •••

تدخل أليوشا يقول وقد أفلقه جزعهما :

– ولكن ليس هذا الجرح الصغير بشئ •

وهرعت جوليا فى تلك اللحظة حاملةً طستاً مملوءاً بالماء • فغطس فيه أليوشا اصبعه •

– ماما ! ناشدتك الله ، هاتى لنا شاشاً ، وهاتى لنا أيضاً من ذلك السائل العكر الذى يحرق والذى يستعمل فى مداواة الجروح ••• لقد نسيت اسمه ••• عندنا منه ••• نعم عندنا منه ••• أنت تعرفينها يا ماما ••• تلك القارورة الموجودة فى غرفتك ، فى الخزانة ، على اليمين ••• ويوجد هنالك شاش أيضاً •••

– سأجىء لك به ، ولكن لا تصرخى ولا تضطربى يا ليزا ، أرجوك ، أتوسل اليك ••• انظرى كيف يحتمل ألكسى فيدوروفتش الألم صابراً ! ولكن أين جُرحت هكذا يا ألكسى فيدوروفتش ؟

وخرجت السيدة هوخلاكوفا مسرعة • وذلك بعينه ما كانت ترغب فيه ليزا وتمناه •

قالت ليزا لأليوشا متعجلة :

- أجب عن سؤالى أولاً : أين جُرحت هذا الجرح ؟ ثم تكلم بعد ذلك فى أمرٍ آخر • هيه ؟

وإذ أدرك أليوشا بفطرته أن الدقائق القليلة التى ستبقى الى حين وصول الأم ثمينة جداً فى نظر ليزا ، فقد روى لها قصة لقائه بالتلاميذ ، موجزاً مقتضباً مسقطاً تفاصيل كثيرة ، ولكنه روى لها القصة مع ذلك واضحة دقيقة • فبعد أن أصغت ليزا الى روايته ، ضمت يديها احداهما الى الأخرى ، وصاحت تقول غاضبة حائقة ، كأن من حقها أن تؤنبه وتقرعه بعد الآن :

- فىم كنت تفكر ؟ كيف أمكنك أن تتدخل فى أمر أولاد صغار وأنت فوق ذلك ترتدى مسوح راهب ؟ ألا انك لطفل صغير ، ألا انك لصبي عر أنت أيضا ••• ومع ذلك اسأل عن هذا الولد الشقى الشرير ، ثم حدثنى بعد ذلك فى أمره ، فلا شك أن ههنا سرأ • شئ آخر الآن • قل لى أولاً يا ألكسى فيدوروفتش : هل أنت قادر رغم الألم على أن تتحدث فى أمور لا تشوقك ولا تهتك ، شريطة أن تتحدث فيها جاداً •
- أنا قادر على ذلك كل القدرة • ثم انتى أصبحت لا أشعر بالألم فى اصبعى •

- لأنك غطستها فى الماء • يجب تغيير الماء حالاً ، لأنه يذفاً بسرعة • جوليا ! أسرعى الى القبو فائينى بقطعة من نلج ، واثينى كذلك بطست آخر فيه ماء بارد • ها هى ذى قد مضت الآن فلنتحدث جاداًين : هل لك أن ترد الى فوراً ، أيها العزيز ألكسى فيدوروفتش ، الرسالة التى بعثت بها اليك أمس ؟ هياً ردها الى بسرعة ، لأن أمى قد تصل من لحظة أخرى ، وأنا لا أريد لأمى أن •••

- ليست الرسالة معى !

- كذب ! هي معك ! كنت أتوقع هذا الرد • الرسالة معك ، فى هذه الجيب ! ••• ما كان أشد ندمى طوال الليل على هذه المزحة • رد الى الرسالة فوراً ! اعطينها !

- تركتها فى الدير •

- لا بد انك أصبحت تحسبني طفلة صغيرة ، صغيرة جداً ، بعد مهزلة هذه الرسالة ••• انها مهزلة خيثة سيئة ! ••• أرجوك أن تغفر لى هذا الشذوذ الأحمق • أما الرسالة فيجب أن تأتيني بها حتماً ، اذا هى لم تكن معك الآن • بل يجب أن تأتيني بها فى هذا اليوم نفسه ، قطعاً ••• اننى أطلب ذلك ، وأصرُ عليه !

- أما أن آتيك بها اليوم فهذا مستحيل • ذلك اننى عائد الى الدير، ولن أراك قبل انقضاء يومين أو ثلاثة وربما أربعة ، لأن الأب زوسيمًا ••

- أربعة أيام ؟ هذا جنون ! قل لى بصراحة : هل سخرت منى كثيراً ؟

- لم أسخر البتة •

- لماذا ؟

- لأننى صدقت كل ما كتبته تصديقا قاطعا •

- أنت تهيننى !

- أبدا • اننى بعد أن قرأت رسالتك قلت لنفسى فوراً : لتجربين الأمور على هذا النحو فمتى مات الأب زوسيمًا ، سأضطر الى مفارقة الدير ، وسأستأنف دراستى ، وسأقدم الى الامتحانات • حتى اذا انقضت المدة القانونية تزوجنا • وسوف أحبك • فرغم اننى لم يتسع وقتى لأن

أفكر فى الأمر ملياً ، قد قدّرت أننى لن أجد لى نفسى زوجة أفضل منك ،
وقد أمرنى الشيخ بأن أتزوج ...

هتفت ليزا تقول وهى تنفجر ضاحكة ، بينما اشتعلت وجنتاها بحمرة
شديدة :

– ولكننى ديمة ، مقعدة ، كسيحة •

– سأجر الكرسى المتقل بنفسى اذا لزم الأمر • ثم انى على يقين
من أنك ستكونين قد شفيت أثناء هذه المدة •

قالت ليزا بعصية :

– ألا انك لمجنون ! أنا انما كنت أمزح ، فاذا بك تبنى على هذا
المزاح مشاريع سخيفة مضحكة ! آ ... هذه ماما قد رجعت • أحسب
أنها عادت فى الوقت المناسب • ماما ، لماذا تأخرت هذا التأخر كله ؟ أنت
دائماً تتأخرين ! هذه جوليا قد جاءت بقطعة الثلج !

– أوه ! ليزا ! لا تصرخى هذا الصراخ ! أرجوك ، أستحلفك
بالله ! ... ان هذا الصراخ يطيش عقلى ... ليس ذنبى أنك قد دسست
هذا الشاش فى غير الموضع الذى ذكرته لى ... لقد بحثت عنه فى كل
مكان فلم أظفر به ... انى لأتساءل ألم تفعلى هذا عامدة •

– تماماً ... عامدة ! لم يكن فى وسعنى أن أتنبأ مع ذلك أنه سيصل
بجرح فى اصبعه ، ولو قد تنبأت بذلك لأخفيت الشاش فعلاً ! ماما ،
ملاكى الصغير ، انك تقولين اليوم فكاهات ظريفة حقاً !

ظريفة أو غير ظريفة ! المهم أننى أخذت أرى أنك لا تشفقين
على ألكسى فيدوروفتش من جرحه ، كما لا تشفقين على أحد من شىء
على كل حال ! ليتك تعلم يا عزيزى ألكسى فيدوروفتش مدى ما أفاسى



ليزا هوخلاكوفا
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

من ألم وعذاب ! ليست هذه التفاصيل الصغيرة هي التي تقتلني ، ليس هذا الطبيب هرتسنشتوبه وحده هو الذي يرهقني ... بل جملة الأمر ... جملة الامر ... ذلك هو ما أصبحت لا أملك القدرة على احتمالها .
قاطعتها ليزا تقول وهي تضحك مرحة :

ـ كفى كلاما عن هرتسنشتوبه يا ماما ! ناولينى الشاش والسائل .
هو مرهم بسيط من محلول الرصاص يا ألكسى فيدوروفتش . تذكرت الآن ... ولكنه نافع جدا . اعلمى يا ماما أنه أقتل فى الشارع مع ضيية صفار ، وأن طفلا قد عضه فى اصبعه ! أليس هو نفسه صيبا صغيرا ؟ ما رأيك يا ماما ؟ هل يمكنه بعد هذا أن يتزوج ؟ ذلك أنه ينوى أن يتزوج يا ماما . تخيلي هذا ... هل تتصورينه متزوجا ؟ شيء يُميت من الضحك ! ... أليس هذا فظيما ؟

وكانت ليزا تضحك ضحكها العصبى بلا توقف ، وهي تلقى على أليوشا نظرة مأكرة .

ـ ما هذا الذى تقولينه يا ليزا ؟ كيف يمكنه أن يتزوج ؟ دعيك من هذه السخافات ! ثم ان هذا الامر لا يعنيك ... أما ذلك الصبى الذى عضه ، أفلا يمكن أن يكون مصابا بداء الكلب ؟

ـ ولكن يا ماما ، هل يوجد أطفال مصابون بداء الكلب ؟

ـ ما هذا السؤال يا ليزا؟ لكأنتى قلت اذن سخافة حمقاء ! ان من الجائز أن يكون الصبى قد عضه كلب مصاب بداء الكلب ، فاذا هو يعرض بدوره كل من يقتربون منه ! لقد ضمدت اصبعك تضميدا رائعا يا ألكسى فيدوروفتش ! ما كان لى أنا أن أتقن التضميد هذا الاتقان ! أما تزال تشعر بوجع ؟

- قليلا جدا •

وسألته ليزا :

- ألا تخشى الماء ؟

قالت الأم :

- لا تسرفى يا ليزا • لقد تعجبت أنا حين تكلمت عن داء كلب
بصدد ذلك الصبي ، فأخذت تستتجين استنتاجات ا يا ألكسى فيدوروفتش
ان كاترين ايفانوفنا ، وقد علمت الآن أنك هنا ، تصرُّ على أن تراك
حالا ... انها فى أشد الحاجة الى التحدث اليك !

قالت ليزا :

- اذهبي اليها وحدك يا ماما ! أما هو فاته لا يستطيع أن يمضى اليها،
لأن اصبعه توجهه كثيرا ••

فقاطعها أليوشا قائلا :

- كلا ! ... اننى لا أشعر الآن بوجع • فى امكانى أن أذهب

اليها •

- ها ! •• تذهب ؟ أهكذا اذن ؟ طيب •••

- ولم لا ؟ متى فرغت من الحديث معها عدت الى هنا ثانية ، فاستطعنا
أن نتكلم عندئذ ما شئنا أن نتكلم • اننى أحرص فى الواقع حرصا شديدا
على أن أرى كاترين ايفانوفنا بأقصى سرعة ، لأننى أريد أن أرجع الى
الدير فى أقرب وقت •

- خذيه يا ماما ، خذيه ! ويا ألكسى فيدوروفتش ، وقر على نفسك
عناء العودة الى بعد مقابلة كاترين ايفانوفنا • ارجع الى الدير رأساً ،

فهناك انما يطيب لك المقام أكثر مما يطيب لك في أى مكان آخر • أما
أنا فأحب أن أنام ، لأننى قضيت فى البارحة ليلة بيضاء !

هتفت السيدة هوخلاكوفا تقول :

- أنت تمزحين يا ليزا ! ومع ذلك سأكون سعيدة جدا اذا أنت
استطعت أن تنامى قليلا •

وتتم أليوشا يقول :

- لا أدرى ماذا فعلت حتى ••• وعلى كل حال ، سأبقى معك ثلاث
دقائق أخرى ، بل وحتى خمس دقائق اذا كنت تحرصين على ذلك .
- وحتى خمس دقائق ؟ ياه ! •• خذيه يا ماما •• ماذا تنتظرين ؟
هذا مخلوق عجيب ، هذا مخلوق مشوه !

- ليزا ! أنت مجنونة ! هيا بنا يا ألكسى فيدوروفتشس ! انها اليوم
شديدة النزوات ، وأخشى أن تثير أعصابها ••• ما أشقى التعامل مع نساء
عصيات يا ألكسى فيدوروفتشس ! على كل حال ، لعلها شعرت حقا بحاجة
الى النوم أثناء حديثكما • ماذا فعلت حتى استطعت أن ترد اليها النعاس
بهذه السرعة ؟ ذلك توفيق فى الواقع •••

- مرحى يا ماما ! هانت ذى الآن تقولين كلاما لطيفا ! أحب أن
أقبلك •

- وأنا أيضا يا ليزا !

كذلك قالت السيدة هوخلاكوفا لابنتها ثم أضافت تخاطب أليوشا
وهما يخرجان من الغرفة :

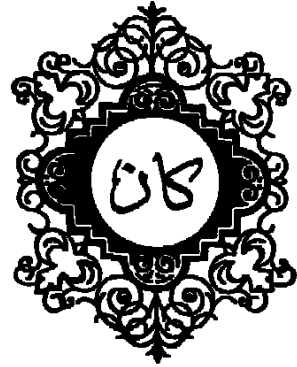
- اصغ الىّ يا ألكسى فيدوروفتشس •••

وراحت تكلمه متعجلاً بصوت خافت ، وقد لاح في وجهها الاهتمام
والجد والتعجب ، قالت :

- لا أريد أن أؤثر فيك ... لن أزيح الحجاب قبيل الأوان ،
ولكنك ستري بعينك ما يجري الآن هناك ، وستحكم عليه بعقلك • شيء
رهيب • تمثيلية عجيبة ! ... انها تحب أخاك ايفان فيدوروفتش ، ثم
هي تحاول أن تقنع نفسها ، بكل ما أوتيت من قوة ، بأنها تحب دمترى
فيدوروفتش • شيء مروّع ! سأدخل معك ، فاذا لم أطرده بقيت لأرى
خاتمة هذا كله •

٥

التمزق في الصالون



الحديث في الصالون يشارف نهايته • ان
 كاترين ايفانوفنا تبدو مضطربة اضطرابا شديدا،
 رغم أن في وجهها تعبيراً عن عزم وحسم • وحين
 دخل أليوشا والسيدة هو خلا كوكا كان ايفان
 فيدوروفتش ينهض استعدادا للانصراف • انه شاحب الوجه • لاحظته
 أليوشا في قلق • ذلك أن أليوشا قد اتضحت له ، في تلك اللحظة، شبهة
 كانت تعذبه منذ زمن طويل ، فاذا هو يرى الآن حل ذلك اللغز المقلق
 الذي كان يشغل باله • ان أشخاصا كثيرين كانوا قد أكدوا له مرارا ،
 منذ أكثر من شهر ، أن أخاه ايفان يحب كاترين ايفانوفنا ، وأنه خاصةً
 ينوى أن « ينتزعا من ميتا ، فعلا • ولم يستطع أليوشا حتى هذه الأيام
 الاخيرة أن يصدق هذا الامر ، لأنه كان يبدو له عجيبا شاذا شيطانيا ،
 غير أن تلك المزاعم كانت تقلقه مع ذلك • انه يحب أخويه كليهما ويخشى
 أن يقوم بينهما تنافس كهذا التنافس ، وأن تشب بينهما خصومة كهذه
 الخصومة • على أن دمترى فيدوروفتش قد قال له من تلقاء نفسه أمس
 ان حب ايفان لكاترين ايفانوفنا يسعده وبهجه ، لأنه سهل وضعه
 ويسر أموره • وكان أليوشا يتساءل : لماذا ؟ لأنه يتبع له أن يتزوج

جروشكا؟ ولكن هذا فعل يائس وحل رهيب ! ثم ان أليوشا كان الى أمس مقتنعا اقتناعا جازما بأن كاترين ايفانوفنا تحب أخاه دمترى حباً قوياً عارماً . ولكن هذا الاقتناع قد تزعزع فى نفسه الليلة البارحة . يضاف الى ذلك أنه كان يخيّل اليه ، دون أن يعرف لماذا ، ان كاترين ايفانوفنا لا يمكن أن تحب رجلاً من نوع ايفان ، وأنها انما تحب دمترى كما هو ، على علاته ، رغم ما فى هذا الحب من أمور عجيبة مستحيلة سخيفة ! غير أن المشهد الذى جرى أمس مع جروشكا قد أثبت فى نفسه على حين فجأة شعوراً معارضا لهذا الشعور تماما ، لم يتضح له على الفور . ان تعبير « التمزق » الذى استعملته السيدة هوخلاكوفا منذ لحظات قليلة قد جعل أليوشا يرتعش ، لأنه فى ذلك اليوم نفسه ، أثناء « شبه النوم » الذى ينامه المرء عند الفجر ، قد كرّر كلمة « حب التمزق » هذه عدة مرات ، جواباً على أحلام لم تكد تبدد . وكانت جميع أحلامه فى الليلة البارحة انما تدور على المشهد الذى وقع أمس فى منزل كاترين ايفانوفنا . فلما قالت له السيدة هوخلاكوفا جازمةً ان كاترين ايفانوفنا انما تحب فى الواقع ايفان ، وانها تكذب على نفسها لبعاً ، من قبيل الميل الى « التمزق » ، ومن باب التحدى ، أو بسبب اندفاعه شكران غامضة غير مفهومة ، اهتز أليوشا اهتزازاً قوياً واضطرب اضطراباً شديداً ، وتساءل : « ألا يمكن أن تكون هذه هى الحقيقة رغم كل شيء ؟ » . ولكن اذا صحّ هذا فما هو وضع ايفان الآن ؟ لقد كان أليوشا يقدر بفطرته وغريزته أن امرأةً مثل كاترين ايفانوفنا تشعر بحاجة الى السيطرة والتسلط ، وهى لا تستطيع أن تمارس هذه السيطرة وهذا التسلط الا على رجل مثل دمترى ، أو هى على الأقل لا تستطيع أن تمارس هذه السيطرة وهذا التسلط على شخصية من طراز ايفان . ذلك ان دمترى وحده قادر على الازعان لارادتها والخضوع لسلطانها (لا على

الفور طبعا ، بل بمرور الزمن) ، وذلك « يحقق له الخير كله » ، وهو ما يتمناه له أليوشا من جهة أخرى • ولا كذلك ايغان • فان ايغان لن يقبل الرضوخ في يوم من الايام ، ولن يجعله الخضوع سعيدا بحال من الاحوال ؟ أو هذا على الأقل ما كان أليوشا يقدره على أساس معرفته بطبع ايغان ، وعلى أساس الفكرة التي قامت في ذهنه عن ايغان •

هذه الترددات وهذه الخواطر قد ازدحمت في فكر أليوشا لحظة دخل الصالون • ثم هاجمته فكرة أخرى ، فاذا هو يتساءل : « فماذا لو كانت لا تحب لا هذا ولا ذلك ؟ » • ويحسن أن نلاحظ هنا أن أليوشا كان يشعر بخجل واضطراب من اطلاق أحكام من هذا النوع ، وأنه قد لام نفسه على ذلك مرارا أثناء هذا الشهر الأخير ، « ما معرفتي أنا بالنساء وبالحب ، وكيف أجزئ لنفسي أن أرى آراء من هذا القبيل ؟ » كذلك كان أليوشا يقول لنفسه ستماءً كلما اتفق له أن يسترسل في تأملات أو تخمينات وتقديرات في هذا المجال • ولكن كان يستحيل عليه من جهة أخرى أن لا يفكر في هذه المسائل • كان يدرك بغيريته ، مثلا ، أن هذا التنافس بين أخويه الآن يجرم ثقيلًا على مصيريهما ، وأنه يحمل في طياته عواقب ضخمة • « فلنأكل السرطين بعضها بعضا ! » كذلك قال ايغان بالأمس وهو يتحدث خائفاً عن أبيه وعن أخيه دمتری • معنى ذلك أنه يعدُّ أخاه سرطانا ، ولعله يعده كذلك منذ زمان طويل • أفلا يمكن أن يكون قد أصبح يعده سرطانا في اللحظة التي عرف فيها كاترين ايغانوفنا ؟ صحيح أن هذه الكلمة قد أفلتت من ايغان على غير ارادة منه ، ولكن هذا نفسه يجعلها أصدق دلالة وأبلغ كسفاً عن الحقيقة • فكيف يمكن والحالة هذه أن نأمل أن يحل السلام والوثام بينهما ؟ أليس في هذا مزيد من أسباب الخلاف وعوامل الكره في داخل الأسرة ؟ وتساءل أليوشا خاصة أيهما في هذا النزاع أحق بالشفقة عليه والثناء له ؟ وما

الذى ينبغى أن يتمناه لكل منهما ؟ انه يجبهما كليهما • ولكن فى أى مكان بين جميع هذه التناقضات توجد السعادة التى يتمناها لهما ؟ لقد ارتبك عقل أليوشا أشد الارتباك بين خيوط هذا الظرف المعقد المتشابك المشوش • وهو انسان ذو قلب لا يطيق الحيرة ، لأن حبه يتصف دائما بأنه حب فعال • انه لا يعرف الحب الذى يقف ساكنا بغير حركة • فمتى أحب أصبح يحترق شوقا الى أن يبادر الى المساعدة ، ولا غنى له من أجل هذا عن أن يحدد لنفسه غاية ، وأن يعرف على وجه الدقة والوضوح ما هو خير وما هو ضرورة لكل من أخويه ، حتى اذا عرف ذلك كان سهلا عليه عندئذ أن يخدم قضيتهما • ولكن كل شىء فى حياتهما كان اضطرابا واختلاطا وتعقيدا وابهاما ، واأسفاه ! فأين يمكن الاهتداء الى غاية معينة وهدف محدد فى داخل ذلك كله ؟ لقد ذكر أمامه تعبير « الميل الى التمزق » أو « حب التمزق » • فكيف يؤول هذا التعبير ؟ يبدو أن الكلمة الأولى فى هذا اللغز كانت تفوت فكر أليوشا •

ما ان دخل أليوشا فرأته كاترين ايفانوفنا ، حتى أسرع تقول لايفان فيدوروفتش الذى وقف استعدادا للخروج ، حتى أسرع تقول له فرحة فرحا واضحا :

– لحظة أخرى ! لا تنصرف فورا • أحب أن أعرف رأى هذا الشاب الذى أمحضه ثقة مطلقة •

ثم أضافت تخاطب السيدة هوخلاكوفا :

– ابقى أنت أيضا يا كاترين أومسيوفنا •

وأجلست أليوشا قربها بينما اتخذت السيدة هوخلاكوفا مجلسها أمامهما الى جانب ايفان فيدوروفتش •

وبدأت تقول بحرارة ، والدموع التى يدرك المرء أنها تهم أن تسيل من عينيها ، تهدج صوتها بانفعل صادق أليم :

أتم جميعاً أصدقائي ، أتم أصدقائي الوحيدون في هذا العالم ••
يا أصدقائي الأخيار ، الأوفياء •••

أحسّ أليوشا في تلك اللحظة أن المرأة الشابة قد غزت قلبه من
جديد •

وتابعت كلامها تقول :

– لقد شهدت بالأمس ذلك المشهد يا ألكسي فيدوروفتش •••
شهدت ذلك المشهد الفظيع ، ورأيت كيف تصرفت أنا ••• أنت لم ترني
في تلك اللحظة يا ايفان فيدوروفتش ، أما هو فقد رآني • لا أدري
ما الذي رآه فيّ من رأى في تلك الظروف • ولكنني في مقابل ذلك
أعلم علم اليقين أنني لو وُجدت اليوم في موقف مماثل لكان ردّي هو
الرد الذي بدر مني أمس ، مع تلك العواطف نفسها ، وتلك الأقوال
نفسها ، وتلك الحركات نفسها • انك تتذكر يا ألكسي فيدوروفتش
الحركات التي بدرت مني أمس ، وقد اعتقدت أن من واجبك أن تشينني
••• (احمر وجهها واشتعلت عيناها حين نطقت بهذه الكلمات) • فاعلم
يا ألكسي فيدوروفتش ، وأنا أعلن لك هذا جازمة قاطعة ، أنني عاجزة
عن الازعان لأي شيء ، عاجزة عن الرضوخ لأي شيء • واعلم أيضاً
أنني أصبحت لا أدري في هذه الساعة أنا أحبّه « هو ، أم لا • انني
الآن أشعر نحوه « بشفقة » ، والشفقة علامة حب تافهة مسكينة حقيرة •
وإذا ظللت أحبّه ، إذا ظللت أحبّه رغم كل شيء ، فلن أرثي لحاله ، وإنما
سأكرهه من غير شك •••

أخذ صوتها يرتجف ، والتمعت دموع صغيرة في أطراف أهدابها •
واضطرب أليوشا • قال لنفسه : « هذه الفتاة انسان مخلص صادق ،
و ••• قد أصبحت لا تحب دمري ! » •

هتفت السيدة هوخلاكوفنا تقول :

- هذا صحيح ، صحيح كل الصحة !

- انتظري يا كاترين أوسيوفنا ! أنا لما أقل بعد الشيء الأساسي ، لم أذكر القرار الذي اتخذته الليلة ولن أتراجع عنه • انتى أوجس أن قرارى هذا سيعود على بعواقب رهيبة ، ولكننى أعلم أنتى لن أنكص على عقبى ، لن أتقهقر الى وراء ، مهما يحدث ، بأية حال من الأحوال • لقد حسمت الامر على مدى حياتى كلها • وان صديقى المخلص الوفى ، ان ناصحى النيل الطيب الذى يعرف قلبى معرفة عميقة ، ان ايفان فيدوروفتش الصديق الوحيد الذى أنعم بصداقته فى هذا العالم ، يؤيد رأى تأييدا تاما ، ويطرى قرارى اطراء كاملا ، ويشجعنى على المضى فيما عقدت النية عليه ••• وقد عرف قرارى •••

قال ايفان فيدوروفتش بصوت رفيق لكنه حازم :

- أنا أويد قرارك ••• هذا صحيح !

. - أحب مع ذلك أن يقول لى أليوشا (أوه ••• اغفر لى يا ألكسى فيدوروفتش انتى سميتك أليوشا) ، أحب أن يقول لى ألكسى فيدوروفتش هو أيضا ، بحضور صديقى ، أأنا على حق أم لا ؟

وتابعت تقول بحماسة وهى تمسك بيدها الحارة يد أليوشا الباردة:

- أنا على يقين غريزى ، يا أليوشا أخى (ذلك أنك أخى العزيز الغالى) ••• أنا على يقين ••• أنا أحس أن جوابك وتأيدك سيعيدان السلام الى نفسى رغم كل ما أقاسيه الآن من ألوان العذاب ، وانتى سأقبل مصيرى وأرتضى قدرى بعد أن أسمع لكلامك ••• نعم ، أنا أحس ذلك !

قال أليوشا وقد تخضب وجهه بحمرة قانية :

- لا أعرف ما هو الامر ! ولكننى أحبك بكل قلبى ، وأحرص على
 سعادتك أكثر من حرصى على سعادتى ...
 ثم أسرع يضيف ، لا يدري أحد لماذا :

- على أننى لا أفهم فى هذه الأمور شيئاً .

- فى هذه الامور ، يا ألكسى فيدوروفتش ، المسألة الآن مسألة
 شرف وكرامة وواجب ، وربما شئ آخر أيضا ، شعور لا أستطيع أن
 أعرفه ، ولكنه فوق الواجب . هو نداء أعلى أسمعه فى قلبى ، وقوة
 لا تقاوم تهيب بى أن ألييه . وأجمل فأقول اننى قد اتخذت قرارى ،
 واليك هذا القرار : هبّ تزوج هذه ... المخلوقة (هنا أصبح صوتها
 مهيباً) ... هبّ تزوج هذه المخلوقة التى لن أعفّر لها أبدا ، أبدا ...
 فانتى لن أتركه هو ، حتى فى هذه الحالة ! ... لن أتركه بعد اليوم ،
 وسأظل دائما الى جانبه (كذلك قالت بنوع من حماسة غريبة حزينة) .
 لن أتعلق بكمّ طبعاً ، لن أحاصره بوجودى دائما ، لن أعذبه بحبى
 أبدا ... بالعكس ... سأسافر الى مدينة أخرى ، الى مدينة نائية ،
 نائية كل النأى اذا اقتضى الامر ذلك ، ولكننى سأظل أهتم به من بعد ،
 وأسهر عليه طوال حياتى لا أكل ولا أمل . فاذا شقى مع الأخرى
 - وذلك أمر لن يتأخر كثيرا - فلن يكون عليه الا أن يعود الىّ ، فيجد
 فى صديقة مخلصه ، أختاً حنوناً ... أختاً لا أكثر ... طبعاً ... ذلك
 أن كل شئ بيننا لن يتجاوز هذه الحدود فى المستقبل . يجب أن يعلم
 يومئذ اننى أخت له حقا ، أخت مخلصه ضحّت فى سبيله بحياتها كلها .
 سوف أحسن التصرف بحيث يعرفنى أخيرا ، سوف أجبره على أن
 يعرفنى ، وسيصل من ذلك الى الاعتماد علىّ بلا خجل . سأكون الاله
 الذى يصلى له : ذلك أقل ما يجب عليه لى تكفيرا عن خيائته وعمّا قاسيته
 أمس بسببه ! يجب أن يعرف وأن يرى فى جميع أيام حياته أننى وفية له

الى الأبد ، وأنتى أحفظ العهد رغم أنه خانتى وهجرنى • سأكون •••
 سأصبح ••• سأجعل نفسى أداةً لسعادته (أحسب أننى لا أجد التعبير
 عما بنفسى) ، سأجعل نفسى آلة تصنع له السعادة ، وذلك طوال حياتى ،
 طوال حياتى ••• ليرى هو هذا طوال حياته ! ذلك هو قرارى ! ان ايفان
 فيدوروفتش يؤيدنى تأييدا كاملا •

كانت تلهث • لا شك أنها كانت تمنى أن تفصح عن نفسها افصاحا
 أرسن وأبرع وأيسر ، غير أن كلماتها قد تدفقت سريعة ، مترجمة
 عواطفها بلغة فيها كثير من الانطلاق المباشر العنيف • ان المرء يحس ،
 فى جميع ما قالته ، اندفاع شبابها وبقايا غضب الأمس وحاجتها الى تأكيد
 عزتها وكبريائها من جديد • وقد أدركت هى ذلك على حين فجأة ،
 فأظلم وجهها والتمع فى عينيها تعبير شرير • ولاحظ أليوشا هذا ، فأخذته
 بها شفقة • وتدخل ايفان فى تلك اللحظة يقول :

— أنا لم أعبرَ الا عن رأى الشخصى • ان عواطف من هذا النوع
 كان يمكن أن تبدو ، عند أية امرأة أخرى غيرك ، عواطف مصطنعة
 مقتعلة هى ثمرة جهد ارادى شاق أليم معذب ، أما عندك أنت فلا •••
 لو تصرفت امرأة أخرى هذا التصرف لكنت على خطأ ، أما أنت فلا ••
 لست أدرى كيف أعبرَ عن شعورى ، ولكنى ألاحظ أنك صادقة الى
 أبعد حدود الصدق ، فاستنتج من ذلك أنك على صواب •

فلم تستطع السيدة هوخلاكوفا أن تمنع نفسها من أن تقول :

— هى صادقة ، ولكن خلال لحظة واحدة ! ما قيمة قرار عابر سريع
 تتخذه وهى تحت وطأة اهانة الأمس ؟ ذلك هو السبب فى قرارها هذا !

كان واضحا أن السيدة هوخلاكوفا لم تكن تريد أن تقحم نفسها

فى المناقشة ، ولكنها لم تستطع أن تكبح جماح نفسها ، فأفلتت منها هذه الملاحظة السديدة .

فقال ايغان بعنف مكظوم ، وقد بدا عليه الاستياء والحنق من مقاطعته :

— صحيح . . . غير أن ما يمكن أن لا يكون لدى امرأة أخرى الا اندفاعاً مؤقتاً مردّه الى حادث الأمس ، لا يمكن الا أن يبقى مدى الحياة لدى امرأة لها طبع كطبع كاترين ايفانوفنا . ان ما يمكن أن لا يكون من فتاة عادية الا كلاماً يُطلق فى الهواء ووعداً ما يلبث أن ينسى ، لا بد أن يصبح لدى فتاة مثل كاترين ايفانوفنا واجباً باقياً والتزاماً مستمراً قد قد يكون قاسياً أليماً حزيناً ، ولكنه لا مفر منه ولا عدول عنه . ان كاترين ايفانوفنا ستحيا على هذا الشعور بأنها قامت بواجبها . ان حياتك ، يا كاترين ايفانوفنا ، ستقضى بعد اليوم فى تأمل أليم لعواطفتك وبطولتك وشقاكتك . على أن هذا الشقاء ستخف وطأته مع الزمن ، وسيستحيل شيئاً فشيئاً الى رضى هادىء عذب عن أنك عرفت كيف تخلصين حتى النهاية لقرار جرىء فيه كبرياء . . . نعم فيه كبرياء بمعنى من المعانى ، ولكن فيه يأس فى الدرجة الأولى . . . وستتصرين آخر الأمر . . . وسيملؤك هذا الشعور يومئذ بفرح هادىء وغبطة ناعمة ، وسيصالح بينك وبين كل ما عدا ذلك . . .

تكلم ايغان بلهجة نافذة فيها غضب مكبوح . وكان واضحاً أنه يسخر وأنه لا يريد أن يتخفى ، ولعله كان يتمنى أن تدرك سخريته .

هتفت السيدة هوخلاكوفا تقول :

— هذا كله خطأ ، هذا كله زيف !

فقالت عندئذ كاترين ايفانوفنا وقد أخذت الدموع تسيل على خدها :

ـ ألكسى فيدوروفتش ! هلاً قلت رأيك أخيراً ! اننى أشعر بحاجة
شديدة قاهرة الى معرفة رأيك •

• نهض أليوشا عن الديوان •

وتابعت كاترين ايفانوفنا كلامها قائلة من خلال دموعها :

ـ ليس هذا بشيء ، ليس هذا بشيء البتة • اننى مرهقة الأعصاب
بسبب هذه الليلة التى قضيتها أرقّة مسهّدة • ولكننى ، بحضور صديقين
مثلكما أنت وأخيك ، أشعر بأننى قوية ••• ذلك لأننى أعلم أنكما لن
تتركانى أبدا •

قال ايفان فيدوروفتش فجأة :

ـ آسف • قد أضطر أن أسافر الى موسكو منذ الغد ، وأن
أتركك فترة طويلة •

ـ الى موسكو ؟ منذ الغد ؟

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك وتقبض وجهها • ثم أردفت تهتف
قائلة بصوت تغير فجأة ، وقد كفت دموعها عن المسيل حتى أصبحت
آثارها لا ترى :

ـ ولكن ••• ولكن هذا يقع فى حينه ••• يجىء فى وقته !

يا رب !

فما كان أشد دهشة أليوشا لهذا التغير المذهل الذى حدث فى
نفسها ! ان الفتاة الشقية المهانة التى كانت تبكى عواطفها منذ برهة ، وهى
فى حالة توتر ممزّق ، قد حلّت محلها الآن امرأة تسيطر على نفسها كل
السيطرة ، وتبدو راضيةً ذلك الرضى الذى يعقب فرحاً مباغتاً •

وسرعان ما استدركت تصحح موقفها وهى تبسم ابتسامة مهذبة :

- أوه ... لا يذهبن بك الظن الى أنني ابتهجت لتركك ...
 طبعاً لا ... ان صديقاً مثلك لا يمكن أن يذهب به الظن هذا المذهب ،
 وأن ينسب لي مثل هذه العواطف ... بالعكس : اننى لأحزن أشدَّ
 الحزن حين أتصور أنني سأفقدك (قالت ذلك واندفعت نحو ايفان
 فيدوروفتش ، فأمسكت يديه وشدتهما بكثير من الحرارة) • ولكنه حظ
 سعيد موفق أن تستطيع أن تشرح بنفسك لعمتى ولأختى آجاتى ، فى
 موسكو ، الظرف الذى أنا فيه • حدثهما عن فطاعة الأيام التى عشتها
 هنا ، فأما مع آجاتى فبصراحة ، وأما مع عمتى العزيزة فبشئ من المداراة •
 وانى لواقفة على كل حال من أنك ستجد بنفسك الصيغة المناسبة لاطلاعهما
 على حقيقة الأمور • لا تستطيع أن تتصور مدى ما عانيته أمس واليوم من
 عذاب وأنا أتساءل كيف أتدبر أمرى لأكتب اليهما هذه الرسالة الرهيبة
 ... ذلك أن من المستحيل على المرء أن يروى هذه الأشياء كتابةً ...
 أما الآن فقد أصبح الأمر سهلاً : ستلقاهما بنفسك فتشرح لهما كل شئ! •
 آه ... ما أسعدنى ! هذا هو السبب الوحيد فيما رأيت من فرحى •
 صدقنى ! ... وانك لتعلم أنت نفسك على كل حال ، أنه مامن شئ
 يمكن أن يحل عندى محلَّ صداقتك ...

وختمت كاترين ايفانوفنا كلامها قائلة وهى تتجه نحو باب
 الغرفة :

- سأكتب الرسالة حالا •

فسألتها السيدة هوخلاكوفا بلهجة لازعة حاتقة :

- وأليوشا ؟ أليوشا الذى كنت تحرصين ذلك الحرص كله على
 أن تعرفى رأيه ؟

فأجابتها كاترين ايفانوفنا قائلة :

– ما نسيته •

ثم سألتها بلهجة عتاب فيها مرارة ومودة :

– ولكن لماذا ، لماذا تظهرين لى الآن هذه العداوة كلها يا كاترين أوسيوفا ؟

وتابعت تقول :

– ما زلت مصرّة على ما قلته • انتى لا غنى لى عن معرفة رأيه • بل انتى أريد منه أكثر من هذا : أريد منه أن يتخذ لى قرارا • وسأبج ما ينصحنى به • فانظر يا ألكسى فيدوروفتش الى أى مدى أنا فى ظمأ الى سماع كلامك ••• ولكن ماذا بك ؟

صاح أليوشا يقول فى ألم :

– ما كان لى أن أصدق هذا فى يوم من الايام ! ما كان لى أن أتخيل هذا فى يوم من الايام !

– ماذا ؟

– يسافر الى موسكو ثم تهتفين قائلة : ما أسعد ذلك ! لقد قلت هذا عامدة ! وما كدت تقولينه حتى استدركت تؤكدين له أنك لا تقبطين لسفره ، وأنت على عكس ذلك يحزنك فقدته • وهذا أيضا قلته عامدة ••• كما فى المسرح ••• كما لو كنت تمثلين تمثيلاً ! •••

– كما فى المسرح ؟ كيف ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

كذلك سألت كاترين ايفانوفنا بحرارة وقد بلفت أوج الدهشة • لقد احمر وجهها احمرارا شديدا ، وقطبت حاجبيها • واستأنف أليوشا كلامه :

- وفيما تردددين على مسامعه أنك حزينة لحرمائك من صديق عزيز ، تصرحين له وجهاً لوجه أن سفره الى موسكو يملؤك ارتياحاً •
- الى ماذا تريد أن تصل ؟ ما الذى تريد أن تستتجه ؟ اننى لا أفهم •

- أنا نفسى لا أعرف تماما ••• لقد تراءت لى الحقيقة فجأة كأنما فى ضوء برق •••
وقابع ألبوشا كلامه يقول بصوت يختلج ألماً حتى ليسوشك أن ينكسر :

- أنا أحس أننى أرتكب خطأ اذا عبرت عن مشاعرى ، ولكننى سأقول ما بنفسى مع ذلك • اليك ذلك الضوء الذى رأيته : انك لا تحيين أخى دمترى •• ولعلك ما أحببته فى يوم من الأيام ••• ثم ان دمترى أيضا لا يحبك ••• فيما أظن ••• لا هو يحبك الآن ، ولا هو أحبك فى الماضى •• وانما هو يقدرك ويحترمك فحسب ••• اننى أتساءل : ما الذى يجيز لى أن أكلمك هكذا ••• ولكن لا بد أن يعزم أحد أمره على أن يقول الحقيقة أخيراً ••• ما دام لا يريد أحد هنا أن يعترف بها •••

صاحت كاترين ايفانوفنا تقول بصوت فيه شيء من الهستيريا :

- أى حقيقة تعنى ؟ عن أية حقيقة تتكلم ؟

فتمتم ألبوشا يقول وهو يحس أنه يهوى فى هاوية :

- عن أية حقيقة أتكلم ؟ اليك الحقيقة التى أتكلم عنها • استدعى دمترى - وأنا أعرف كيف يمكن العثور عليه عند الضرورة - استدعيه ، وليتناول يدك فيضعها فى يد أخى ايفان • انك لا تزيدين على أن تعذبى

ايغان ، وذلك بسبب بسيط ، هو أنك تحيينه - وأنت انما تعذيبه لشغفك بالتمزق ... لأنك تخيلت حباً مصطنعاً لدمترى ... حباً لا تشعرين به البتة ... وتحاولين أن تقنعى نفسك به .

قال أليوشا ذلك ثم توقف عن الكلام فجأة وصمت .

- ما أنت ... ما أنت الا أبله صغير ... ما أنت الا يوروديفوى ... ذلك أنت !

كذلك قالت كاترين ايغانوفنا بصوتها القاطع الجازم ، وقد شحبت وجهها شحوباً شديداً وظهر على شفيتها انهما تنعقان غضباً مسعوراً .

وأخذ ايغان فيدوروفتش يضحك في تلك اللحظة ، ونهض عن مكانه حاملاً قبعته بيده . وقال يخاطب أليوشا وقد ظهر في وجهه تعبير لم يره فيه أليوشا قبل ذلك يوماً ، تعبير يفيض صدقاً كصدق المراهقين ، ويفيض صراحة منطلقة على سجيتهما :

- أنت مخطيء يا أليوشا . فان كاترين ايغانوفنا ما أحببتى في يوم من الأيام . وكانت تعلم منذ البداية أنني أحبها ، رغم أنني لم أأحدثها في حبي قط . كانت تعلم ذلك ، ولكنها لم تحيينى . لا ولا كنت صديقتها في ظرف من الظروف . ان هذه المرأة التكبرة لم تكن في حاجة الى صداقتى . وهى لم تحتفظ بى الى جانبها الا لتستطيع ارواء ظمئها الى الانتقام ، الا لتسأرنى ، نعم منى أنا ، لجميع الاذلالات والاهانات التى أنزلها فيها دمترى منذ أول لقاء بينهما ... ذلك أن ذكرى هذا اللقاء الأول قد بقى في نفسها اهانة أليمة وجرحاً بالغاً . هذه هى كاترين ايغانوفنا ! وأنا لم أجيء الى هنا الا لأصنى اليها متحدثاً عما تحمله من حب لدمترى . وسأنصرف الآن . ولكن اعلمى يا كاترين ايغانوفنا أنك لا تحيين حقاً الا دمترى . وستحيينه مزيداً من الحب على قدر ماسيدلك

مزيدا من الازلال • ذلك هو تمزقك كله ! فأنت انما تحيينه كما هو ؟
 أنت انما تحيين فيه الرجل الذى يهينك ! ولو أصلح نفسه فى يوم من
 الأيام ، اذن لكفت عن الاهتمام به فوراً ، ولأشحت وجهك عنه حتماً •
 ولكنك محتاجة اليه ، كيما تستطيعى أن تتأملى منظر وفائك البطولى ،
 وكيما يتاح لك أن تأخذى عليه خياناته ••• وذلك كله زهواً وصلفاً
 وتكبراً ! ان ههنا ججما من مذلة تريدنيها وتحمليتها ، والكبرياء هى
 التى تدفعك دفعا الى السعى وراء هذا الجحيم ••• اننى ما زلت فى ريعان
 الشباب ، ولقد أحبيتك فأسرفت • والآن أدرك أن ابتعادى صامتا أحفظ
 لكرامتى أنا ، وأخف وطأة على جسروحك أنت • ولكننى سأسافر الى
 مدينة نائية ، ولن أراك بعدئذ أبداً • لقد سئمت من أن أكون شاهداً أبدياً
 على تمزقاتك النفسية ! ••• أحسب أننى لا أحسن التعبير الآن عما يعتلج
 فى قلبى ويدور فى خلدى • ولقد انتهى الأمر على كل حال ••• لقد
 قيل كل شيء ••• فوداعاً يا كاترين ايغانوفنا • وليس من حقتك أن
 تؤاخذينى وأن تحقدى على ، لأن العقاب الذى أناله أنا أقسى كثيراً من
 العقاب الذى تتأليه أنت • حسبى عقاباً أننى لن أراك بعد اليوم أبداً •
 وداعاً ! لا تمدى الى يدك • لقد آلتنى ايلاماً فيه من الوعى والعمد
 ما يجعلنى لا أستطيع أن أغفر لك فى هذه اللحظة • قد أنساك فى
 المستقبل ، أما الآن فلا أستطيع أن أصافح يدك •

ثم أضاف ينشد هذا البيت من الشعر :

بالشكر يا سيدتى لا احفل *

وقد أنشد هذا البيت من الشعر وهو يتسم ابتسامه يجبر نفسه
 عليها اجباراً ، مبرهنناً بهذا الاستشهاد ، على نحو لم يكن فى الحسبان ،
 أنه يستطيع هو أيضاً أن يقرأ الشاعر شيلر فى هوى وشفق ، وأن

يحفظ أبياتا من شعره على ظهر القلب ، وذلك أمر ما كان لأليوشا أن يتخيله من قبل • ثم خرج من الغرفة حتى دون أن يودع ربة البيت • صاح أليوشا يناديه بصوت تائه ، ضاماً يديه احدهما الى الأخرى:

– ايقان ، ايقان ! ارجع يا ايقان ، ارجع !

ثم أضاف يقول بمرارة كأنما رسخ في نفسه يقين مبالغت :

– لا ••• لا ••• انه لن يعود ••• لن يعود مهما يكن الثمن ••• أنا أعرف ذلك • هي غلظتى ، هي غلظتى أنا ••• اننى بما قلته سبب هذا كله ! لقد قال ايقان أشياء شريرة ظالمة ••• ما كان ينبغى له أن ••• هذا ظلم ! •••

وكان أليوشا يصيح بهذه الأقوال مفككة غير مترابطة ، كمجنون ! وفى تلك اللحظة مضت كاترين ايغانوفنا الى الغرفة المجاورة • وهمست السيدة هوخلاكوفا تقول لأليوشا فى أسف ولوعة :

– ليس هناك ما تؤاخذ نفسك عليه • بالعكس : لقد تكلمت كملاك • سأفعل كل ما يمكن أن أفعله حتى لا يسافر ايقان •

وقد أضافت هذه الجملة الأخيرة متحمسة ، وأشرق وجهها فرحاً، رغم ما كان فيه أليوشا من حزن شديد • ولكن كاترين ايغانوفنا رجعت فى تلك اللحظة من الغرفة الثانية حاملةً ورقتين تقديتين كل منهما بمائة روبل •

وقالت تخاطب أليوشا مباشرة ، بلهجة هادئة طبيعية الى أقصى حد، كأن شيئاً لم يحدث :

– لى عندك رجاء كبير يا ألكسى فيدوروفتش • منذ أسبوع •••

نعم ، أحسب أن هذا وقع منذ أسبوع ... نار دمتری ثورة عنيفة ظالمة ، فأباح لنفسه ارتكاب فعلة كريهة . ان في هذه المدينة مكانا مشبوها هو نوع من « كاباريه » ، التقى فيه دمتری ، في ذلك اليوم ، بضابط محال على التقاعد هو ذلك الضابط الذي يستعين به أبوك في بعض شئونه . وقد غضب دمتری من هذا الرجل غضبا شديدا ، لا أدري لماذا ، فأمسكه من لحيته وجرّه الى الشارع جرّاً سفيهاً على مرأى من جميع الناس ، وأخذ يضربه ضرباً مبرحاً خلال مدة طويلة . وقد ذكر الذين شهدوا الحادث ان ابن هذا الضابط ، وهو صبي يختلف الى مدرسة المدينة ، صبي صغير فيما يبدو ، قد أخذ يركض الى جانب أبيه باكياً ناشجاً منتحباً ، متوسلاً الى أخيك أن لا يؤذي أباه ، متضرعاً الى شهود الحادثة أن يتدخلوا لحماية أبيه ، ولكن أحدا لم يسمع له ولم يصنع اليه ، وانما كانوا جميعاً يضحكون . معذرة يا ألكسى فيدوروفتش ! ولكنني لا أستطيع الا أن أشعر باستياء شديد واستنكار عظيم حين أتذكر هذا السلوك المخزى الذي سلكه أخوك في ذلك الظرف ، حين أتذكر تلك الفعلة المشينة التي لا يستطيع أن يقدم عليها أحد في هذا العالم غير دمتری فيدوروفتش بأهوائه الجامحة وعيوبه الكثيرة ! بل انني لأعجز عن رواية هذه الحادثة على النحو المناسب ، فذلك يفوق طاقتي ... لذا تراني أتبه في سردها واضطرب ... وقد سألت عن الرجل الذي أهانه أخوك هذه الاهانة ، فعرفت أنه يعيش في فقر مدقع وبؤس رهيب . ان اسمه هو سنيجيريف . لقد ارتكب خطيئة ما أثناء خدمته في الجيش ، فسُرِّح ... لا أدري تماما . وقد صار هو وأسرته البائسة ، أولاده المرضى وامراته المجنونة فيما أظن ، صاروا أخيرا الى حالة رهية من العوز والفاقة . انه يعيش في هذه المدينة منذ مدة طويلة ، وكان قد وجد وظيفة في مكتب من المكاتب فيما يبدو ولكنهم قطعوا عنه راتبه على حين

فجأة • عندئذٍ خطرتَ أنتِ ببالي ••• أو قل اننى قدّرت أن •••
لا أدري ماذا دهاننى حتى صرت لا أعرف ماذا أقول ••• ان كلامى
مضطرب • أردت أن أرجوك يا ألكسى فيدوروفتش ، يا عزيزى الطيب
الشهم ألكسى فيدوروفتش ، أردت أن أرجوك أن تذهب الى هذا الرجل
متذرعاً بحجة مناسبة ، متغلاً بعذر لائق ، فتراهم ، أقصد ترى هذا
الضابط ••• أوه ••• رياه ! اننى أخلط كل شىء ••• فتعطيه هذه
المساعدة الطفيفة بطريقة لبقة ، كريمة ••• كما لا يستطيع أحد أن
يفعل ذلك مثلك على كل حال (احمر وجه أليوشا عند سماعه هذه
الكلمات) ، أن تعطيه هاتين المائتين من الروبلات بأسلوب مرهف حكيم
محاذر • انه سيقبل هذه المساعدة حتماً ••• أقصد أن عليك أن تلح فى
سبيل أن يقبلها ••• هل فهمت ما أقصده ؟ اللهم الا أن ••• ولكن لا •••
يجب أن تشرح له أن الامر ليس استرضاءً له حتى لا يشكو أمره الى
القضاء (بدو أنه نوى أن يشكو أمره الى القضاء فى لحظة من اللحظات) ،
وانما هو شعور بالمودة له ، ورغبة فى مد يد المساعدة اليه ••• وليعلم أيضاً
أن هذا المبلغ هو منى أنا ، منى أنا ، أى من خطية دمترى فيدوروفتش ،
لا من دمترى فيدوروفتش نفسه ••• الخلاصة : ستعرف كيف
تتصرف ••• كان يمكن أن أذهب اليه أنا ، ولكنى أعلم أنك ستدبر
الأمر خيراً منى • انه يسكن فى « شارع البحيرة » عند امرأة من سكان
المدينة اسمها كالميكوفا ••• قدم لى هذه الخدمة يا ألكسى فيدوروفتش ،
أرجوك ، أتوسل اليك ••• أشعر الآن بأنى متعبة ••• أشعر شىء من
الاعياء ••• الى اللقاء •••

قالت ذلك واستدارت على عقيها وبلغت من الاسراع الى الاختفاء
وراء الباب أن وقت أليوشا لم يتسع حتى لقول كلمة واحدة • وكان
أليوشا مع ذلك يشعر بحاجة قوية الى أن يكلمها • كان يريد أن

يستغفرها ، أن يعتذر اليها ، أن يتهم نفسه أمامها ، لأن قلبه كان يفيض في تلك اللحظة حياً ، فلم يعزم أمره على مبارحة الغرفة . ولكن السيدة هوخلاكوفا أمسكته من يده وقادته الى خارج الحجيرة ، ثم توقفت في الدهليز ، كما فعلت قبل ذلك ، من أجل أن تكلمه .

قالت له السيدة هوخلاكوفا بصوت خافت :

- انها متكبرة تصارع نفسها ، ولكنها طيبة ، رائعة ، كريمة ، الى أقصى الحدود . ليتك تعلم كم أحبها ، ولا سيما في بعض اللحظات ، وكم يعاودني الشعور بالرضى من جديد ، وكم ترتد الى السعادة بكل شيء ! يجب على يا ألكسى فيدوروفتش أن أبوح لك بشيء كنت تجهله حتى الآن . اعلم اننا جميعا ، جميعا ، أقصد أنا وعمتيها ، أي جميعا ، وحتى ليزا ، كنا نتمنى ونتوقع ، منذ أكثر من شهر الى الآن ، أن تعزم أمرها أخيرا على أن تقطع صلتها بدمتري فيدوروفتش الذي تؤثره أنت ، وذلك لأنه لا يريدنا ولا يحبنا ، وأن تتزوج ايفان فيدوروفتش الذي هو على جانب عظيم من سعة الثقافة وامتياز الطبع ، والذي يحبها أكثر مما يجب أي شيء في هذا العالم . حتى لقد دبّرنا مؤامرة لبلوغ هذا المآرب وتحقيق هذا الهدف ، ولعل ذلك أيضا هو السبب في أنني لم أسافر بعد

صاح أليوشا يقول :

- ولكنها عادت تبكى من شعورها بالمدلة .

- لا تصدّق دموع النساء يا ألكسى فيدوروفتش ! أنا في هذه

الحالات أتحيز للرجل على المرأة . أنا مع الرجال .

وهنا دوى صوت ليزا الناحل من وراء الباب يهتف :

– ماما ، انك تفسدينه بالدلال ، انك تودين بك الى الهلاك !
وردّ أليوشا الحزين الذى لا سبيل الى عزائه ، ردد يقول وهو
يشعر بخزى شديد من غضبه ، ويخفى وجهه بيديه خجلاً وحياء
واضطراباً :

– شىء رهيب ! أنا سبب هذا كله ! لقد قارفت خطيئة لا تغتفر !
فقال له السيدة هو خلا كوكبا :

– بالعكس : لقد تصرفت تصرف ملاك ، تصرف ملاك ... لن
أمل من تكرار هذا ...

وصاح صوت ليزا الناحل يقول مرة أخرى :

– كيف كان تصرفه تصرف ملاك ؟

وتابع أليوشا كلامه قائلاً وكأنه لم يسمع سؤال ليزا :

– لقد تراءى لى فجأة ، وأنا أنظر اليهما ، تراءى لى فجأة أنها
تحب ايفان ، فأقلت منى ذلك الكلام الأحمق ... ما عسى يحدث
الآن ؟ ...

– عنن تتكلمان يا ماما ؟ عنن تتكلمان ؟ انك تميتيننى يا ماما ! ألقى
عليك أسئلةً ولا تجيبين ! ...

وفى تلك اللحظة دخلت الخادم مسرعة تقول :

– كاترين ايفانوفنا فى حالة سيئة ... الأسة تبكى ... تتخبط
كأنها فى نوبة هستريا ...

وعادت ليزا تصيح قائلةً فى هذه المرة بصوت قلق مروّع :

– هلاًّ قلت لي يا ماما أخيراً ما هي الفضية ؟ ماما ، أنا التي سأصاب
الآن بنوبة هستيرية ، لا هي ! ...

– هدئي نفسك يا ليزا ، ناشدتك الله ! انك تقتلينني بهذا الصراخ!
ان عمرك لا يسمح لك بعدُ أن تعرفي كل شيء كما يعرفه الكبار .
سأجىء اليك بعد قليل فأطلعك على ما يمكن أن أطلعك عليه . أوه !
رباه ! رباه ! أنا ذاهبة اليها ، أنا ذاهبة اليها ... نوبة عصبية ... ولكن
هذه علامة طيبة يا ألكسى فيدوروفتش ! حسنٌ جداً أن تتابها نوبة من
هذا النوع ... ذلك ما يجب أن يحدث ... أنا أفف دائماً ضدّ النساء
في هذه المناسبات ، ضد نوباتهن ودموعهن . يا جوليا ، امضي اليها فقولي
لها انني آتية اليها حالاً . سأدركها فوراً . على كل حال ليس عليها الا
أن تحمّل نفسها تبعه خروج ايفان فيدوروفتش على ذلك النحو ! ولكنه
لن يسافر . ليزا ، لا تصرخي ، لا تصرخي ، ناشدتك الله ! صحيح أنك
لا تصرخين . فأنا التي صرخت . سامحني أمك يا ليزا ، ولكنني سعيدة ،
سعيدة جداً ، سعيدة سعادة رهيبية ! هل لاحظت يا ألكسى فيدوروفتش كم
كان وجهه فتياً ، أخوك ايفان ، حين تكلم وحين خرج على ذلك النحو ؟
انه يُشعر بأنه مثقف جداً ، عالم جداً ، ثم ها هو ذا يكشف فجأة عن أنه
شاب حقا ، حار القلب ، صادق النفس ، يزخر بنضارة الفتوة ، وهو قليل
التجربة ، قليل التجربة جداً . آه ... ما أروع هذا ، ما أجمله ،
ما أعظم أثره في الفؤاد ! هو مثلك تماما ! .. وهذا البيت من الشعر
الذي رواه ، هذا أنت أيضا ... أنا ذاهبة اليها الآن ، أنا ذاهبة اليها ..
أسرع يا ألكسى فيدوروفتش ، فقم بالمهمة التي عهدت بها اليك ، ثم
ارجع الى هنا بأقصى سرعة . ليزا ! أأست في حاجة الى شيء ؟ أستحلفك
بالله أن لا تؤخري ألكسى فيدوروفتش ، سيعود اليك بعد بضع لحظات ..

• وخرجت السيدة هوخلاكوفا أخيراً مسرعة •

حاول أليوشا ، قبل انصرافه ، أن يدخل على ليزا ، ولكن الباب كان مغلقاً • وهتفت ليزا تقول له :

- أبداً ••• مستحيل ••• لن أطيق الآن أن تجيء الى ••• تكلم من خلف الباب • ما الذى جعلك تستحق أن توصف بأنك ملاك ؟ هذا هو الأمر الوحيد الذى أحب أن أعرفه •

- هو قولى كلاماً سخيفاً غيباً يا ليزا !

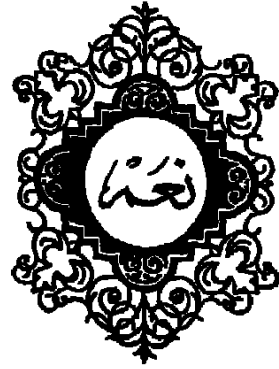
صاحت ليزا تقول :

- لا أسمع لك أن تمضى هكذا !

- ليزا ! ان بى حزناً كبيراً • سأعود بعد قليل • ان عذابى كبير ، كبير جداً ، صدقيني •
• وخرج مسرعاً •

٦

التمزق في العزيمة



كان حزنه كبيراً جداً فلما شعر بمثله من قبل •
 لماذا تعجل فقال ذلك الكلام ؟ لقد ارتكب
 « حماقة » ! وفي أي موضوع ؟ في موضوع
 حب ••• « أنا أعلم حق العلم أنني لا أفهم في
 هذا الأمر شيئاً ، فكيف أمكن أن أدعي ادراك شأن من هذه الشؤون
 ادراكاً واضحاً ؟ » • كذلك ردّد يسأل نفسه للمرة المائة وهو يحمر
 خجلاً وحسرة • « ليس العار الذي أشعر به شيئاً يُذكر ، فهو العقاب
 الذي أستحقه وإنما الشقاء الحق هو أنني سأكون سبب كوارث جديدة ••
 لقد أرسلني شيخى العالم لأوحد بين المختلفين وأصالح المتخاصمين ،
 أفبهذه الطريقة يكون ذلك ! » • وتذكر أليوشا في تلك اللحظة اليدين
 اللتين أراد أن يضع أحدهما في الأخرى ، فازداد اضطرابه الى أقصى
 حد • وأخيراً قال لنفسه دون أن يتخفف من ألمه ، ودون أن يسرّ
 عنه : « لئن كان تصرفي مخلصاً في تلك المناسبة ، فيجب أن أبرهن في
 المستقبل على مزيد من الذكاء والعقل » •

ان المهمة التي كلفته كاترين ايفانوفنا أن يقوم بها ، تضطّره أن
 يذهب الى « شارع البحيرة » • وأخوه دمترى يسكن غير بعيد عن هناك ،
 في زقاق جانبي • فقرر أليوشا أن يرى أخاه على أية حال قبل أن يمضي

الى الضابط المتقاعد ، رغم احساسه بأنه لن يجده في منزله • كان أليوشا يشعر أن أخاه سيحاول أن يتجنبه بعد اليوم ، ولكنه أراد أن يعثر عليه مهما كلف الأمر • والوقت يمضى في أثناء ذلك سريعا • وصورة الشيخ المحتضر لم تبارح أليوشا لحظة واحدة منذ خرج من الدير ، فهي تلاحقه حيثما يذهب •

هناك نقطة أشارت اليها كاترين ايفانوفنا ، فأثارت انتباهه اثاره قوية • لقد جاءت على ذكر ابن ذلك الضابط ، تلميذ المدرسة الذي كان يركض الى جانب أبيه باكياً متجنباً ؛ وقد قال أليوشا لنفسه في تلك اللحظة : لا بد أن هذا الولد هو الصبي الذي عضه في أصبعه ، حين سأله فيم أساء اليه • وأصبح أليوشا الآن على مثل اليقين من أنه هو ذلك الصبي نفسه ، دون أن يدرك سبب هذا اليقين ادراكاً واضحاً • وقد صرفته هذه التأملات لحظةً عن همومه الثقيلة ، واذا استرد شجاعته ورباطة جأشه قرر أن لا « يجتر » بعد الآن طويلاً فكرة تلك الخرافة التي بدرت منه وتلك « المصيبة » التي سببها ، وأن لا يرهق نفسه بعد الآن بحسرات عميقة وأسف لا جدوى منه ولا طائل تحته ، وانما يعمل ويرى كيف ستجري الأمور • وقد سرى عنه هذا القرار وخفف ما كان يشعر به من حزن ثقيل • ولاحظ عندئذ أنه جائع ، فلما دخل في الزقاق المؤدى الى حيث يسكن دمترى ، أخرج من جيبه رغيف الخبز الصغير الذي أخذه من عند أبيه ، فأكله ، فاسترد شيئاً من قوته •

لم يكن دمترى في المنزل • فلما سأل أليوشا أهلَ المنزل - وهم تجار عجوز وامرأته وابنهما - أخذ هؤلاء يلقون على أليوشا نظرات متعطسة فيها شك وحذر وتخوف •

قال العجوز لأليوشا الذي ألح في السؤال عن أخيه :

- انه لم يبت هنا منذ ثلاث ليال ، فلعله سافر •

فيدا لأليوشا أن جواب العجوز تنفيذ لأوامر أصدرها اليه دمترى •
قال أليوشا يسأل العجوز مرة أخرى ، متعمداً أن يذكر هذه
المعلومات السرية :

– أترأه عند جروشنيكا ؟ أم ترأه مخبئاً عند توماس مثلاً ؟

ولكن أصحاب الدار رشقوه بنظرة تشبه أن تكون مذعورة • فقال
أليوشا لنفسه : « هم يحبونه اذن ، ما داموا ينحازون الى صفه • » •

فقل أليوشا راجعا ووصل أخيرا الى « شارع البحيرة » ، أمام منزل
ساكنة المدينة الصغيرة كالكيفا ، وهو خربة عتيقة متداعية ليس لها الا
ثلاث نوافذ تطل على الشارع ، وفناؤها قدر جدا رأى فيه أليوشا بقرة •
ان الدخول الى الفناء يتم عبر حجرة صغيرة تتصل من الجهة اليمنى
بمسكن صاحبة البيت العجوز وابتها المقدمة في السن كثيرا هي الأخرى •
والمرأتان تبدوان صماوين قليلا ، فقد اضطر أليوشا أن يكرر لهما سؤاله
عن الضابط عدة مرات • وفهمت احدهما أخيرا أن أليوشا انما يسأل
عن الرجل القاطن في دارهما مستأجرا ، فأومأت باصبعها نحو الجهة
الأخرى من حجرة الدخول ، مشيرة الى الغرفة التي هي أفضل غرفة
في الدار • ان الضابط المتقاعد يحتل في الواقع غرفة واحدة •

وضع أليوشا يده على قبضة الباب وهمّ أن يفتحه ، ولكنه لم يلبث
أن أمسك عن فتح الباب ، ذلك أنه قد ذهل من الصمت المطبق الذي
يخيم في الجو • لقد كان يعرف مما قالته له كاترين ايفانوفنا أن الضابط
المتقاعد له أسرة كبيرة العدد فقال لنفسه : « انهم نائمون ، أو انهم
أحسوا بمقدمي فهم ينتظرون دخولي عليهم ، فالأفضل أن أقرع الباب » •
وقرع الباب فعلاً ، فأجيب ، ولكن الجواب لم يجيء رأساً ، وانما تأخر
نحو عشر ثوانٍ •

قال صوت خشن حانق :

- من ؟

ففتح أليوشا الباب واجتاز العتبة ، فاذا هو يجد نفسه فى غرفة واسعة سعة كافية ، ولكنها مزدحمة أشد الازدحام بالأشخاص وأنواع الأمتعة المنزلية . فعلى الشمال مدفأة روسية كبيرة ؛ وفى تلك الجهة نفسها جبل مشدود من أول الغرفة حتى النافذة ، قد علقت عليه أنواع الملابس الداخلية ؛ وعلى طول الجدارين الجانبيين يمتد سريران فوق كل منهما غطاء من نسيج التريكو ، فأما سرير الجهة اليسرى فعليه أربع وسادات مختلفة الأحجام من النوع الهندى قد نُضد بعضها فوق بعض على شكل هرم ، وأما سرير الجهة اليمنى فليس عليه الا وسادة واحدة صغيرة ؛ وفى ركن ضيق تفصله عن الغرفة ستارة مشدودة بجبل أيضا قد هُيئت زاوية لسرير ثالث يتألف من دكة يكتملها كرسى ، والسريـر لا يرى الا جزء منه ؛ وتحت النافذة الوسطى مائدة من خشب مستطيلة الشكل بسيطة كل البساطة ، هى من نوع تلك الموائد التى ترى كثيرا فى بيوت الفلاحين . والنوافذ الثلاث ذات الألواح الزجاجية الضيقة ، تبدو مغبرة فلا يتسلل منها الا ضوء قليل ؛ ولقد كانت مغلقة على كل حال ، فالغرفة بسبب ذلك مظلمة يشعر فيها المرء باختناق . وعلى المائدة ترى قدر صغيرة ذات مقبض ، وصحفة فيها بقايا بيض ، وقطعة خبز ناقصة، وابريق خمر يتسع لنصف لتر ، ولكنه يكاد يكون فارغاً . وقرب السرير الأيسر تجلس امرأة لها شئ من مظهر سيدة . انها ترتدى ثوباً من قماش هندى ، وهى ناحلة الوجه شاحبة اللون لها خدان خاسفان جدا ينبئان بحالتها المرضية من أول وهلة . وقد فوجئ أليوشا خاصة بتعبير نظرتها الذى ينم عن تساؤل وتعالٍ فى آن واحد . وفيما كان أليوشا يكلم رب المنزل ، والى أن تدخلت هى فى الحديث ، لم تكف عن تقيل نظرتها

بين الرجلين معبّرة عن ذلك التساؤل نفسه ، وذلك الاستعلاء نفسه ، والى جانب السيدة ، على مسافة غير بعيدة عن النافذة اليسرى تقف فتاة يمكن أن تعد دميعة الوجه ، ترتدى ثياباً فقيرة ولكنها محتشمة ؛ لها شعر قليل الغزارة يضرب لونه الى حمرة ؛ وكانت تنفرس في أليوشا باحتقار وازدراء . وعلى اليمين ، قرب السرير أيضاً ، تجلس امرأة أخرى هي مخلوقة بائسة ، فتاة في نحو العشرين من عمرها ، حدباء الظهر مقعدة متيبسة الساقين ، كما سُرح ذلك لأليوشا فيما بعد ؛ وتُرى عكازاتها في الزاوية بين السرير والجدار . غير أن لها عينين رائعتين تشعان طيبة ، وهي تلقي على أليوشا نظرة متواضعة عذبة حلوة . وهذا رجل في نحو الخامسة والأربعين من عمره قد جلس الى المائدة ينتهي من أكل بيضة مقلية . انه قصير القامة ، جاف الجلد ، نحيل الجسم أعجف يضرب لونه الى حمرة هو أيضاً ، تذكر لحية الحمراء المتناثر شعرها بليفة من الليف الذي يستعمل في الحمام . (ان هذا الشبه بين لحية الرجل وبين ليفة الحمام قد خطف بصر أليوشا رأساً ، فسرعان ما برق في ذهنه تعبير « ليفة الحمام » الذي استعمله تلاميذ المدرسة ، كما تذكر أليوشا ذلك فيما بعده . واضح أن هذا الرجل هو الذي صاح من وراء الباب يسأل : من ؟ ذلك أنه لم يكن في الغرفة رجل سواه . فلما رأى أليوشا نهض عن المائدة بحركة مفاجئة ، وبعد أن مسح فمه بمنشفة مثقبة ، تقدم نحو الزائر مسرعاً .

قالت الفتاة الواقعة في الزاوية اليسرى :

— هذا راهب يجمع الصدقات لديره . يمينا لقد عرف الى أين

يجي . ! . . .

ولكن الرجل الذي اقترب من أليوشا التفت اليها بسرعة عسكرية ، وأجابها يقول بصوت قلق متقطع :

- فى هذه المرة أخطأت يا بربارا نيكولايفنا ! ليس الأمر ماتصورت.

ثم استأنف كلامه يقول ملتفتاً الى أليوشا من جديد :

- هل لى أن أسألك ما الذى جعلنى أستحق شرف زيارتك ...

فى هذا المكان الحقيقى ؟

تفرس أليوشا فى هذا الرجل الذى يراه أول مرة • ان فى مظهره شيئاً من التكسر والتعجل والحنق • لا شك أنه كان قد شرب ، ولكنه لا يبدو نملاً • وفى وجهه تئرى وقاحة قصوى ، ولكن يُرى فى الوقت نفسه جبن شديد ، وهذان أمران يدهش المرء اجتماعهما ••• ان هيئته هيئة انسان اضطر زمنا طويلا الى احتمال الذل وقبول الخضوع والاستكانة ولكنه يهب الآن فجأة ليؤكد ذاته من جديد ؛ أو قل بتعبير أدق ان هيئته هيئة رجل يشعر برغبة قوية فى أن يضرب ، ولكنه يخاف خوفاً قويا من أن يضرب هو نفسه • ان المرء يلمح فى أقواله ، وكذلك فى نبرات صوته الحاد ، نوعاً من سخرية دنيئة مبتذلة هى تارة شريرة خبيثة ، وهى تارة أخرى خائفة وجلية ، فهو لا يستطيع أن يجريها على نمط واحد ، حتى لتتأثر وتتحطم فى بعض اللحظات • لقد ألقى سؤاله عن « المكان الحقيقى » وهو يرتعش من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، محملاً عينيه ، بالنأ من الاقتراب من أليوشا أن أليوشا تراجع خطوة الى وراء بغيريزته • كان الرجل يرتدى معطفاً حقيراً مهترئاً رثاً خلقاً ، قاتم اللون ، مرقماً فى مواضع كثيرة ، متسخاً ببقع كبيرة • أما سرواله فهو فاتح اللون جداً ، عليه رسوم مربعة الأشكال ، وذلك نوع من السراويل أصبح منذ زمن طويل لا يُرى فى أى مكان • والسروال من نسيج رقيق ، قد تجعد أذناه وانشمر ، فكان لابسهُ صبياً طالت قامته وكبر جسمه فأصبح السروال صغيراً قصيراً عليه •

قال أليوشا يعجيب عن سؤال الضابط المتقاعد :

– أنا *** أنا ألكسى كارامازوف *

– لى شرف معرفة ذلك من قبل *

كذلك أجاب الرجل ليدل على أنه لا يجهل شخصية الزائر * ثم
أضاف يقول :

– فاسمع لى أن أقدم لك نفسى أنا أيضا : الضابط الرائد
سينيجيريف – س* * ولكن هل لى أن أعرف الهدف الذى ترمى اليه
من ***

– لم أجبىء لهدف معين * كل ما أردته هو أن أقول لك بضع
كلمات باسمى *** اذا كنت لا ترى فى ذلك ضيراً ***

– فى هذه الحالة ، اليك هذا الكرسي ! تفضل فاجلس *** أليس
هذا ما يقال فى الدرامات الكلاسيكية : تفضل فاجلس !

قال الضابط المتقاعد ذلك وتناول كرسيًا بحركة مباغتة عنيفة (هو
كرسي بسيط غير منجد ، من كراسى الفلاحين) ، فوضعه فى وسط
الغرفة تقريبا ؛ ثم تناول كرسيًا آخر من ذلك النوع نفسه فجلس عليه
أمام أليوشا ، ولكنه بلغ من تقريبه من كرسي أليوشا أن ركّب الرجلين
يحتك بعضها ببعض *

– اسمى نيكولا ايلتش سينيجيريف ، نعم ، رائد سابق فى سلاح
المدفعية بالجيش الروسى * واننى لأظل ضابطا رغم عيوبى ووزائلى التى
هوت بى الى الحضيض * ولقد كان ينبغى أقول الرائد – س ، لا الرائد
سينيجيريف ، ذلك أننى فى الشطر الثانى من حياتى قد أخذت أستعمل
«س» * تلك عادة ناشئة عن الانحطاط *



سنيچيريف

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوف

قال أليوشا وهو يتسسم ابتسامه متحرجة :

- نعم • ولكن هل يعود المرء هذه العادة عامدا أم هو يعودها على غير ارادة منه ؟

- بل على غير ارادة منه ، شهد الله ! يمينا ما كنت أتكلم بهذه الطريقة في الماضي ! ولكن حرف «س» قد هبط على لساني أثناء سقوطي ، كهبوط الذباب على القاذورات • ذلك يحدث بتأثير قوة عليا • ولكني أراك تهتم بشئون الحياة الحديثة ، فهل لي أن أعرف السبب الذي جعلني أستحق شرف زيارتك ؟ انني أعيش هنا في ظروف لا تؤهلني للقيام بواجبات الضيافة •

قال أليوشا :

- أنا انما جئت ••• من أجل ذلك الامر الذي •••

فقاطعته الرجل سائلا :

- أى أمر ؟

فأجاب أليوشا وقد اضطرب قليلا :

- أمر لقائك ذاك بأخي دمترى فيدوروفتش •••

- أى لقاء تعنى ؟ ها ••• ذلك اللقاء ! هو اذن موضوع الليفة ؟

قال الضابط المتقاعد ذلك ، وازداد اقترابا من أليوشا حتى صدم في

هذه المرة ركبته •

ودقت شفتاه في تلك اللحظة حتى لكأنهما خيط نحيل •

تمتم أليوشا يسأله :

- أية ليفة ؟ لست أفهم !

فصاح من وراء الستارة صوت " عرف أليوشا فوراً أنه صوت الصبي
الذي لقيه منذ قليل ، صاح صوت الصبي يقول :

- بابا ! لقد جاء يشكونى أنا • أنا الذي عضت اصبعه !

وانزاحت الستارة فلمح أليوشا عدوه فى الركن تحت الايقونات
مضطجعا على السرير الذى يتألف من دكة وكرسى • كان الصبي مغطى
بمعطفه الرث وبلحاف عتيق • كان واضحا أنه مريض ؛ واذا صدق
ما يدل عليه بريق عينيه فلا بد أن تكون به حمى • انه يحدث الى أليوشا
بغير خوف ولا وجل ، واثقا ثقة لم تظهر عليه فى الشارع ، كأنه يريد
أن يقول : « أنا الآن فى بيتى ، فى بيتى ، فلن تستطيع أن تصنع بى
شيئا • • •

سأل الضابط المتقاعد وهو ينتفض :

- عضك فى اصبعك ؟ أنت من عضه فى اصبعه ؟

- نعم أنا • كان يقتل فى الشارع مع أطفال آخرين بتراشق
الحجارة • وكان واحدا وكانوا ستة • فاقربت منه ، فرماني بحجر ،
ثم رماني بحجر آخر مستهدفا رأسى ، فلما سألته ماذا فعلت له ، انقض
علىّ فجأة فعضنى فى يدي ، لا أدري لماذا !

صاح الرائد يقول وهو يثب عن كرسيه :

- لأجلدته ، لأجلدته !

- ولكننى لم أجيء لأشكوه ، ولا رويت لك الحادث لتعاقبه • اننى
لا أحب أن تعاقبه قط • ثم انه مريض فيما يبدو •
- أفصدقت حقا أننى سأجلده ؟ أفصدقت أننى سأجلد عزيزى

الطيب الشهم ايلوشا * ، هكذا ، فورا ، لأسرك وأبهجك ؟ أنت نحرص
على هذا اذن حرصا شديدا ؟

كذلك قال الضابط السابق ملتفتا نحو أليوشا وقد لاح في وجهه
التهديد كأنه يهم أن ينقض عليه . ثم أضاف :

- يؤسفنى ، يا سيدى العزيز ، ما نال اصبعك من أذى . ولكنى
أوتر على ضرب ايلينوشا ، اذا شئت ، أن أبتز الآن أملك أربعا من
أصابعى بهذه السكين ، ارضاء لك . . . أرجو أن يكون بتر أربع أصابع
من أصابعى كافيا لارواء ظمئك الى الانتقام ، وأن تسمح لى بالابقاء على
الاصبع الخامسة !

قال هذا وتوقف عن الكلام فجأة كأنه اختق ، وكانت عضلات
وجهه جميعا ترتعش ، وكانت نظرتة تفيض تحديا واستفزازا . لقد
أصبح عاجزا عن كبح جماح نفسه والسيطرة على سلوكه .

قال أليوشا بصوت خافت حزين ، دون أن يتحرك عن كرسية :

- أحسب أنتى فهمت كل شىء . ان لابنك قلبا طيبا ، فهو يحب
أباه ، وقد هجم على لآنتى أخو الرجل الذى أساء اليك . . . فهمت الآن
. . . (كذلك استأنف كلامه يقول مطرقا مفكرا) . . . ولكن أخى
دمترى نادى على فعلته . . . أنا أعرف ذلك . . . فاذا أذنت له أن يبيئك
الى هنا ، أو حتى أن يلقاك فى ذلك « الكاباريه » نفسه مرة أخرى ،
فسيكون مستعدا لأن يعتذر اليك أمام جميع الناس . . . متى رغبت فى
ذلك . . .

- أهكذا اذن ؟ تتنف لحيه الانسان ، ثم يعتذر اليه ، فينتهى كل
شىء ويسوى كل شىء ، أليس كذلك ؟



نينوتشكا ابنة سنيچيريف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

– كلا ••• كلا ! ••• انه مستعد لأن يفعل ما تطلبه منه ، على النحو الذى يرضيك •

– معنى هذا أن فى وسعى أن أطلب من « سموه » أن يجثو على ركبتيه فى ذلك « الكاباريه » نفسه – كاباريه « العاصمة الكبرى » – أو حتى فى الميدان العام ، فاذا هو يلبي طلبى اذا صدق ما تقول •
– نعم ، يجثو على ركبتيه !

– كلامك يهز قلبى ، ويؤثر فى نفسى ، حتى ليكاد يفجر الدموع من عيني ! اننى أقدر هذا الكلام حق قدره ••• فاسمح لى اذن أن أقدم اليك أفراد أسرتى • هذه أسرتى : بنتاى ، وابنى ••• هذه ذريتى المحترمة • فمن ذا الذى يُعنى بأمرهم ، من ذا الذى يلاطفهم ويداريهم ، اذا أنا مت ؟ ومن ذا الذى يمكن أن يحبنى ، أنا الانسان الشقى ، من ذا الذى يمكن أن يحبنى ما دمت حياً ، من ذا الذى يمكن أن يحبنى غيرهم ؟ ان الرب قد شاءت رحمته أن يكون لأمثالى عزاء كهذا العزاء ••• ذلك أنه لا بد لأمثالى أن يجدوا ، هم أيضا ، شيئا من الحب فى هذا العالم •••

– صحيح ، هذه حقيقة كبرى •

كذلك هتف يقول أليوشا •

فصاحت الفتاة الواقعة قرب النافذة ، وهى تلتفت نحو أبيها معبرة بهيئتها عن ازدراء واشمئزاز ، صاحت مستاءة تقول :

– ألا تستحى أن تصطنع هذا التهريج ؟ أيكفى أن يظهر معنوه ما حتى تظهروا جميعا بمظهر أناس مضحكين ؟

فأجابها أبوها بلهجة قاسية صارمة ، وهو ينظر اليها مع ذلك نظرة تأييد وتشجيع واستحسان :

– مهلاً يا بربارا نيكولايفنا ... تذرعى بشيء من الصبر ...
دعيني أكمل ما أريد أن أقوله ...

ثم أضاف يقول ملتفتاً الى أليوشا :

– ان لها طبعاً صعباً ... يصدق عليها قول الشاعر :

ليس في الطبيعة كلها ما يرضيها*

ولكن اسمح لي أن أقدم اليك زوجتي : ايرين بتروفنا ، سيدة
مقعدة ، عمرها ثلاثة وأربعون عاماً ، فقدت استعمال ساقيها تقريباً ؛ هي
من أصل وضع جيد . يا ايرين بتروفنا ، هلاً بسطت أسارير وجهك
قليلاً ! هذا ألكسى فيدوروفتش كارامازوف . وأنت يا ألكسى
فيدوروفتش ، هلا نهضت ! (قال ذلك وأمسك ذراع أليوشا بقوة
لا يُتوقع مثلها منه ، وأنهضه عن كرسيه وتابع كلامه) ... اننى
أقدمك الى سيدة ، فعليك أن تنهض ... اسمعى يا عزيزتى ، هذا ليس
ليس نفس كارامازوف الذى ... الذى ... هم ... هذا أخوه ...
شاب يشع فضائل وتزخر نفسه تواضعاً ومسألة ووداعة . اسمعى لي
يا ايرين بتروفنا ، اسمعى لي يا امرأتى الكريمة المحترمة ، اسمعى لي
أن أقبل يدك أولاً .

وقبل الضابط المتقاعد يد امرأته باحترام ، بل وبخنان . فرفعت
الفتاة الواقعة قرب النافذة كتفيها وأشاحت بوجهها حتى لا ترى بعد ذلك
شيئاً . غير أن وجه الزوجة الذى كان يعبر عن تساؤل واستعلاء ، هس
وبش على حين فجأة .

قالت :

– تفضل فاجلس يا سيد ألكسى تشرنومازوف ! *

فقال زوجها مصححاً :

– بل كارامازوف ... اسمه كارامازوف •

ثم أضاف يقول لأليوشا همساً :

– هي من أصل وضع ، وضع جدا •

قالت المرأة :

– طيب ... كارامازوف ... فليكن اسمه كارامازوف ما ذمت
تحرص على ذلك • كارامازوف أو تشرنومازوف ، الاسمان عندي
واحد • تفضل فأجلس يا سيدي • أما لماذا أنهضك ؟ فلأنتى مقعدة ، كما
قال لك ذلك • صحيح أن لى ساقين ، ولكنهما منتفختان انتفاخ قادوسين ،
أما باقى جسمى فهو يصوّح • كنت فى الماضى سمينة جدا ، وهأنذا الآن
نحيلة مثل ابرة ...

ردّد الضابط قوله :

– هي من أصل وضع ، من أصل وضع جدا •

فصاحت الفتاة الحدياء الظهر التى كانت الى ذلك الحين صامته على
كرسيها ، صاحت فجأة تقول :

– بابا ! أوه ! بابا !

وغطت وجهها بمنديلها •

وقالت الفتاة الواقفة قرب النافذة ، قالت بلهجة احتقار شديد

عنيف :

– جان !

وقالت الأم وهى تمد ذراعها مشيرة الى ابنتيها :

.. أنظر ما يحدث لنا • سحاب ثم تنقشع • وستنقشع • وستعود
الموسيقى • فى الماضى ، حين كنا فى الجيش ، كنا نستقبل فى كثير من
الأحيان زيارات كزيارتك • لا أقصد أن أجرح شعورك بهذا التشبيه •
يجب على الانسان أن يحب جميع الناس • وفى ذات يوم جاءت امرأة
الشماس فقالت : « الكسندر ألكسندروفتش رجل ممتاز ، أما ناستازيا
بتروفنا فهى نفثة من نفثات جهنم ! » قلت لها : « لكل امرئ أذواقه
الخاصة • وما أنت الا كرة صغيرة ، ولكنك كرة عفنة تته » قالت :
« سنعرف كيف تؤدبك ونردك الى الصواب » ، فأجبتها : « يا سوداء !
من أباح لك حق المجيء الى هنا لتلقى دروساً ؟ » فقالت لى عندئذ : « أنا
أجيئكم بهواء نقى ، على حين أن الهواء الذى تنفثينه أنت موبوء يفسد
الجو » ، فأجبتها : « اذا كان هوائى كسريه الرائحة ، فاذهبى واسألى
أولئك السادة الضباط » • ومنذ ذلك الحين بقى هذا فى قلبى لا يبارحه •
وهكذا حدث لى منذ قليل ، أن رأيت ، وأنا جالسة هنا ، ذلك الجنرال
الذى أتى يزورنا فى عيد الفصح » ، فقلت له : « يا صاحب السعادة ، ان
من حق امرأة مرموقة أن تدخل هواء نقياً الى منزلها ! » فقال لى : « هذا
صحيح ، ليس الهواء هنا نقياً • يجب فتح الباب أو النافذة • • هم
جميعا سواء ! لماذا يكرهون هوائى ؟ ان الأموات ينشرون رائحة كريهة
أكثر من رائحتى • قلت : « لن أفسد الهواء الذى تستنشقه ؛ سأشترى
لنفسى حذاءين ، ثم أمضى ، مادام الأمر كذلك • • يا أولادى ،
يا صغارى ، لا تدينوا أباكم • يا نيكولا ايلتش ، يا زوجى الطيب ،
أأصبحت لا أرضيك ولا أعجيبك ؟ لم يبق لى الا ايلوشا • • • فهو الذى
ما يزال يجنبى • يعود من المدرسة ، فيغمرنى بملاطفاته • وقد جاءنى
أمس بتفاحة • ارحمونى يا صغارى ، يا أولادى الذين أعبدهم ، اشفقوا

على أممكم المسكينة التي أصبحت الآن وحيدة • بماذا أفسد الهواء الذي تستشقونه ؟

وأخذت المرأة التعيسة تبكى منتحبة على حين فجأة ، فسكب سيولاً من دموع • اسرع اليها الضابط •

- عزيزتى ، عزيزتى ، حمامتى ، هدثى روعك ، أرجوك ، أتوسل اليك • الجميع هنا يحبونك ، نحن جميعا نعبدك !

قال لها ذلك وغمر يديها بالقبل ، ثم دغدغ خديها فى رفق ولطف • ثم تناول منشفة فأخذ يجفف وجهها الذى أغرقته الدموع • وتراءت لأليوشا فى تلك اللحظة دموعٌ فى عيني الضابط السابق أيضا • والتفت هذا فجأة نحو أليوشا ، فهتف يسأله مشيراً الى امرأته ، وقد استبد به يأس شديد :

- هل رأيت وهل سمعت ؟

فدمدم أليوشا يقول :

- رأيت وسمعت •

وصرخ الصبي وقد نهض عن سريره نصف نهوض وأخذ يحدق الى أبيه بعينه الملتهتين ، صرخ يقول :

- بابا ! بابا ! أتراك ستعقد الآن صلةً بهذا ال... قل له أن

ينصرف !

وهتفت بربارا نيكولايفنا تقول من زاوية الغرفة ، وقد استبد بها فى هذه المرة غضب شديد فقرعت الأرض بقدمها ، هتفت تقول لأبيها :

- دعك من هذه التهريجات المستمرة والتمثيلات الهزلية البلهاء

التي لا تؤدى الى شيء ! كفى كفى ! ...

فقال الأب :

ـ حقاً ان لحنقك ما يسوِّغه الآن يا بربارا نيكولايفنا ، وسألبي
 أمرك على الفور • يا ألكسى فيدوروفتش ، خذ قبعتك ، وسأخذ أنا
 قبعتي ، فنخرج • أريد أن أكلّمك جاداً ، ولكننى لا أستطيع ذلك هنا •
 ان هذه الفتاة القاعدة هناك هى ابنتى نينا نيكولايفنا التى نسيت أن أقدمها
 اليك • انها ملاك تجسد وهبط على الأرض ••• ملاك حق نزل من
 السماء ••• هل فى وسعك أن تفهم هذا الكلام ؟

وعادت بربارا نيكولايفنا تتكلم ، فقالت مستاعة :

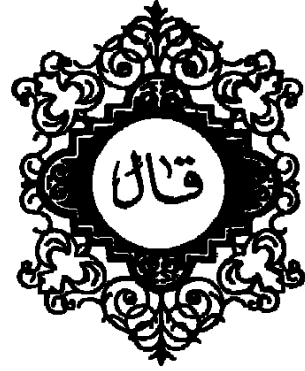
ـ ها هو ذا يرتجف ويضطرب كأن تشنجات قد هزته هزاً
 قوياً ! •••

ـ أما هذه التى قرعت الأرض بقدمها ووصفتنى بأننى مهرج منذ
 هنيهة ، فهى أيضاً ملاك من السماء ، وهى على حقٍ اذ تعاملنى هذه
 المعاملة • لنخرج يا ألكسى فيدوروفتش ، يجب أن نفرغ من هذا
 الأمر •••

قال الرجل ذلك ، وأمسك ذراع أليوشا ، وجرّه الى الشارع •

٧

وفي الهواء الطلق



الضابط المتقاعد :

- هنا يتنفس المرء ، أما في مسكني فيخنتق ،
 • بجميع معاني هذه الكلمة • سنمشي الهويني •
 أرجو أن لا تبعث أحاديثي السأم والضجر في

نفسك !

قال أليوشا :

- هناك أمر أريد أنا أن أحدثك فيه ... ولكني لا أعرف من
 أين أبدأ •

- لقد تصورت أن هناك شيئاً تريد أن تقوله لي • ولولا ذلك لما
 جئت الى مسكني بغير سبب ... اللهم الا أن يكون الهدف الوحيد من
 مجيئك هو أن تشكو الى الصبي ؟ ولكن هذا قليل الاحتمال ! ... وعلى
 ذكر هذا الصبي ... انني لم أكن أستطيع أن أقول لك كل شيء
 بحضوره • فسأشرح لك الأمر الآن • لقد كانت الليفة منذ أسبوع أكثف
 مما هي الآن ... أعني بالليفة لحتى ... وأولئك التلامذة هم الذين
 سموا لحتى ليفة ... فمذ أسبوع أمسك أخوك دمترى فيدوروفتش
 لحتى هذه ، في ذلك « الكاباريه » ، وجرني الى الميدان • وكان التلاميذ

راجعين من المدرسة في تلك اللحظة نفسها ، وكان ايلوشا بينهم ، فما ان رانى على هذه الحال حتى ارتمى على صارخا : « بابا ! بابا ! » ، وأمسكنى بدراعيه الصغيرتين ، وشدنى بجماع قواه ليخلصنى ، وتثبت بى ، باكياً صائحاً مناشدا المعتدى بقوله : « دعه ! هذا أبى ، هذا أبى ، اتركه ، اغفر له ! » نعم قال هكذا : « اغفر له ! » . وأمسك أيضا ذراع أخيك ، حتى لقد قبّل يده ، يده تلك نفسها التى كانت قابضة على لحيتى . ما زلت أتذكر كيف كان وجه الصبى فى تلك اللحظة . لم أنسه ولن أنساه ما حييت ! ...

هتف أيلوشا يقول منفعلًا :

— أحلف لك ، أحلف لك أن أخى سيعبر لك عن ندمه أصدق التعبير وأكمله ، ولو اضطر أن يجثو أمامك على ركبتيه فى ذلك الميدان نفسه ... سأجبره على أن يفعل ذلك ، والا فلن يكون أخى .

— آ ... آ ... فهذا الاعتذار ليس حتى الآن اذن الا مشروع اعتذار ؟ وهذه النية ليست صادرة عنه ، بل عنك أنت ، عن قلبك النيل الحار . كان عليك أن تذكر لى هذا فوراً . أما وأن الأمر كذلك ، فاسمح لى أن أصف لك روح الغروسية التى أظهرها أخوك فى ذلك الظرف . انه بعد أن جرّنى من هذه الليفة ، تركنى وقال لى : « أنت ضابط ، وأنا ضابط أيضا ، فاذا استطعت أن نعثر على رجل شريف يرضى أن يكون لك شاهداً ، فأرسله الىّ : انتى أهب لك فرصة استرداد اعتبارك بالسلاح ، رغم أنك حقير دنىء » . هذا ما قاله أخوك ، كفارس حق . انصرفت بعد ذلك مع ايلوشا ، ولكن هذا المشهد العائلى الجميل النيل قد استقر فى نفس الصبى الى الأبد ، فهو لا يبارح ذاكرته فى لحظة من اللحظات . كيف يمكن أن يخطر ببالنا بعد الآن أن نستطيع المحافظة على مركزنا كأناس شرفاء ؟ واقض فى الأمر بنفسك على كل حال ، ما دمت

قد رأيت مسكننا ! مسكن جميل ، أليس كذلك ؟ ثلاث سيدات ، احدهن عاجزة ومجنونة ، والثانية مقعدة وحدهاء ، أما الثالثة فليست ساقاها مريضتين ولكنها أذكى مما يحتمله ظرفنا من ذكاء . انها طالبة ، وليس لها من حلم الا أن تعود الى سان بطرسبرج لتدافع عن حقوق المرأة الروسية على ضفاف نهر نيفا . ولن أقول شيئاً عن ايليوشا . انه لم يتجاوز التاسعة من عمره ، وهو وحيد ليس هناك أحد يحميه . فاذا مت أنا ، فما الذى سيحدث لهم جميعاً ؟ اننى ألقى عليك هذا السؤال . اذا دعوت أخاك الى المبارزة فقتلنى ، فما هو الوضع الذى سيصرون اليه ؟ من الذى سيغنى بهم وسيهتّم بأمرهم ؟ والأنكى من ذلك أن لا يقتلنى ، وانما يصيبنى بعاهة تقعدنى : لن أستطيع بعدئذ أن أعمل ، بل أصبح فماً لا فائدة منه ، أصبح عالةً عليهم . من ذا الذى سيطعمنى وسيطعمهم عندئذ ؟ وقد أضطر أن أخرج ايليوشا من المدرسة ، وأن أرسله الى الشوارع كل يوم يستعطى الصدقات . ذلك ما يمكن أن تجرّه على مبارزة من عواقب . هي كلمة سخيفة ، لا أكثر

هتف أليوشا يقول من جديد وقد التهبت نظرتة ناراً :

- ليستغفرنك ، ليرتمين على قدميك فى وسط ذلك الميدان .
 - خطر ببالى أن أشكوه الى القضاء . ولكن يكفى أن نرجع الى نصوص القسوانين حتى ندرك أن مقاضاته لن تشارلى من الالهانة التى ألحقها بى . زد على ذلك آجرافين ألكسندروفنا استدعتنى وقالت لى غاضبة أشد الغضب : « اعدل عن هذه الفكرة ، فلتن سمحت لنفسك بأن ترفع قضية ، لأكتشفن اختلاساتك للقضاء ، فأبرهن على أنه انما ضربك معاقبة لك ، وستكون أنت الملاحق يومذاك ! » والله يعلم هل ارتكبت أنا تلك الاختلاسات بارادتى ، أم أننى أمرت بها فكنت أداة لا أكثر ! اننى لم أفعل ما فعلت الا بأوامر منها ، وبأوامر من فيدور بافلوفتش ! وقد أضافت

تقول لى : « واعلمّ عدا هذا أنتى سأطردك من خدمتى عندئذ طرداً حاسماً ، فما تجنى منى بعد ذلك قرشاً واحداً . وسأقول كلمة لصاحبى التاجر (بهذا الاسم تسمى عجوزها) ، فيطردك هو أيضا ، . فتساءلت حينذاك : ما عسى تصير اليه حالى اذا استغنى التاجر عن خدماتى ؟ ما عسانى أصنع بعد ذلك فى سبيل أن أكسب رزقى ؟ ذلك أنه لم يكن قد بقى لى الا هذان الزبونان بعد أن أصبح أبوك لا يثق بى ، لسبب آخر . . . حتى أن أباك يفكر فى جرّى الى المحاكم مستندا الى الايصالات التى وقتتها بامضائى . فلهذه الأسباب مجتمعة ، انما ارتضيت أن لا أشرع فى شىء . لقد رأيت بنفسك الظروف التى نعيش فيها . ولكن قل لى الآن : هل أوجعتك كثيرا عضة صغيرى ايلبوشا ؟ اننى لم أجرؤ أن ألقى عليك هذا السؤال أمامه .

- نعم . أوجعتنى كثيرا . فقد كان غاضبا غضبا شديدا . لقد نأر منى أنا للاسائة التى أُلحقت بك ، لأننى واحد من آل كارامازوف . لقد اتضحت المسألة الآن . ولكنك لم تتر كيف اقتسل مع رفاق مدرسته بتراشق الحجارة . ذلك خطر جدا . ان من الممكن أن يقتلوه . هؤلاء أطفال ، لا يفكرون . رب حجر يُقذف بقوة فاذا هو يصيب رأسه فيشق جمجمته .

- أصيب اليوم بخجر ، ولكن لا على الرأس بل على الصدر . أصابه الحجر فى موضع يعلو القلب قليلا ، فوصل الى البيت مزرقا باكيا ، يئن أنينا شديدا ، وها هو ذا الآن مريض . . .

- يظهر أنه هو الذى يبادى رفاقه بالهجوم . ان غضبه مما أصابك لا يهدأ له أوار . والتلاميذ يزعمون أنه جرح الصبى كراسوتكين فى جنبه بطعنة من موسى . . .

– قيل لي هذا • شيء مزعج • ان كراسوتكين هذا هو ابن موظف من الموظفين ، وأخشى أن يجرب علينا هذا الحادث وبالأحرار •••

تابع أليوشا كلامه قائلاً :

– أنا أنصح بأن تخرجه من المدرسة الى حين ، الى أن تهدأ نفسه ، الى أن يخف هذا الغضب الشديد الذي يتقد في قلبه •

قال الضابط المتقاعد مؤمناً :

– الغضب ! الغضب ! تلك هي مشكلته • غضب كبير في كائن صغير • وأنت لما تعرف بعد كل شيء • فاسمح لي أن أقص عليك كيف جرت الأمور في الواقع • بعد ذلك حادث « الكاباريه » ذاك أخذ جميع التلاميذ يناكدونه ويغيطونه ، ويسمونهم ليفة • ان الأطفال الذين هم في هذه السن لا تعرف قلوبهم الشفقة • هم ملائكة اذا نظرت الى كل واحد منهم على حدة ، ولكنهم متى اجتمعوا ولا سيما في المدرسة أصبحوا وحوشاً لا ترحم • لقد أخذوا اذن يشاكسونه ، فثار طبع ايلوشا الصغير النيل وتمرد • رب صبي آخر ، رب ولد فاطر المزاج ، كان يذعن ويستسلم ويرضخ ، وكان يشعر بالخزي والعار من أبيه ، أما هو فقد هبّ وحيداً ضد جميع الأطفال ، يدافع عن أبيه ، يدافع عن أبيه ، ويدافع عن الحقيقة أيضاً ••• نعم ، عن الحقيقة ••• ما من أحد يعرف في الواقع ، ما من أحد يعرف الا الله وأنا ، كم قاسى من ألم حين قبّل يد أخيك متوسلاً اليه « أن يغفر لأبيه » • فانظر كيف يعرف أطفالنا – أطفالنا نحن لا أطفالكم أنتم ، أقصد أطفال الفقراء الهينين عليكم الكرام على أنفسهم – أنظر كيف يعرفون الحقيقة على هذه الارض منذ السنة التاسعة من عمرهم ! ان الأغنياء لا يستطيعون ذلك • فهم مهما يعيشوا ويكبروا لن يروا أعماق الهوة في يوم من الايام ! أما ابني

ايليوشا فقد غاص الى فرارة الحقيقة في تلك اللحظة التي قبل فيها يد أخيك بالميدان لقد نفذت الحقيقة كلها اليه عندئذ ، وانحرفت في كيانه الى الأبد .

انتعش الضابط المتقاعد وهو يقول هذا الكلام ، وألمت به حماسة مفاجئة وحمياً قوية ، حتى أنه ضرب بقبضة يده اليمنى راحة يده اليسرى كأنما ليوضح مزيداً من التوضيح كيف انخرست «الحقيقة» في نفس ايليوشا .

وتابع الرجل كلامه فقال :

- وفي الليلة التالية اتابته حمى ، فظل يهذى طوال الوقت . ولم يكلمنى في الغداة ، وانما التزم صمتاً يشبه أن يكون مستمراً ، ولكنى لاحظت أنه كان يرقبني ويرصدني من الركن الذي هو فيه ، رغم ميله على النافذة وتظاهره بأنه يهوى واجباته المدرسية . لقد أدركت أنه لم يكن يفكر في دروسه في تلك اللحظة . حتى اذا جاء اليوم التالي شربت فأصبحت لا أتذكر شيئاً يا لى من شقى ! نعم لقد شربت ، من شدة ما استولى على الكرب والكدم واليأس . وأخذت زوجتى عندئذ تبكى - اتنى أحبها كثيراً - ولكن ماذا تريد ؟ لقد أنفقت آخر كوبك أملكه لأسكر فأنسى . لا تحقرني يا سيدي . ان أصحاب القلوب الحساسة هم الذين يسكرون أكثر من غيرهم في بلادنا روسيا . ونمت ، ولم أحفل بايليوشا . وفي ذلك اليوم بعينه انما أخذ الصية يعيرونه ، صارخين : « يا ليفة ! أخرج أبوك من الكاباريه مشدوداً من لحيته ، فأخذت تركض الى جانبه تستغفر له وتستغفى عنه ! » . وفي اليوم الثالث حين عاد من المدرسة ، لاحظت أنه شاحب اللون ، مهشم الوجه . سألته : « ماذا بك ؟ » فلم يجب . وكان يستحيل علينا التحدث في الغرفة ، فلو قد تحدثنا في الغرفة لتدخلت الأم والبنات في الحديث وكانت بناتي

على علم بالقضية منذ أول يوم • كانت بربارا نيكولايفنا ما تنفك تبدي استياءها وغضبها قائلة : « مهرجون ! جناء ! ما عسى يُنتظر منكم ؟ » • قلت لها : « أنت على حق ، مانحن بقادرين على شيء غير ارتكاب الحماقات تلو الحماقات • • » • وبذلك أرحت نفسي منها • وفي نحو المساء خرجت أتنزه مع الصغير • يجب أن أذكر لك أنني كنت قد تعودت أن أقوم بنزهة مع ابني كل مساء • وكنا في العادة نسلك هذا الطريق الذي نسير فيه الآن أنا وأنت : نخرج من البيت ونصل الى تلك الصخرة الكبيرة التي تراها على الطريق قرب السياج • ان البرية تبدأ هنا • المكان خال جميل • سرت في ذلك اليوم وابني الى جانبي • يدي في يده • ان يده صغيرة ، وأصابه نحيلة باردة • انه يشكو من داء في صدره ، ابني هذا قال لي فجأة : « بابا ! بابا ! » ، فسألته : « ماذا ؟ » قال : « في ذلك اليوم ، حينما شدك ••• » قلت : « ما العمل يا صغيرى ايليوشا ؟ » ، قال : « لا تصالحه يا بابا ! لا تصالحه أبدا ! ان الأولاد في المدرسة يدعون أنه أعطاك عشر روبلات تعويضا لك عما فعله بك » • قلت له : « لا ، لا يا صغيرى ايليوشا ، لن أقبل منه مالا في يوم من الايام ! » • أخذ الصبي يرتجف جسمه كله ، وقبض على يدي بيديه الصغيرتين ، وغمرها بالقبل • ثم عاد يقول : « بابا ! اطلبه الى المباراة ! فالأطفال يدعون في المدرسة أنك جبان ، وأنت لن تطلبه الى المباراة ، وانما ستقبل منه عشر روبلات • • » • فشرحت لابني عندئذ كيف أنني لا أستطيع أن أبارز أخاك ، وأطلعتة بايجاز على الاسباب التي تعرفها ، فأصغى الى باتباه ، ثم هتف يقول وقد اشتعلت نظرتة : « بابا ! لا تصالحه أبدا • ولأطلبنه أنا الى المباراة حين أكبر ، فأقتله ! » • وأنا أبوه على كل حال ••• فاعتقدت أن من واجبي أن أقول له كلمة حق • قلت له : « انه لائم أن يقتل انسان انسانا ولو في مباراة • • » • فصاح عندئذ يقول : « لسوف



إيليوشا
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

أقاتله في مبارزة حين أكبر ، فألقيه على الأرض بعد أن أنسقط له سلاحه بضربة من سيفي ، ثم ارتمى عليه وأشهر سيفي فوق رأسه قائلاً له : اننى أستطيع الآن أن أقتلك ، ولكننى أعفُ عنك ، فذلك كل ما تستحقه ! » . فانظر يا سيدى فى أى شىء قد فكَّر هذا الصبى طوال يومين ، انظر الى الخواطر التى شغلت رأسه الصغير طوال ذينك اليومين! لقد ظل يفكر خفيةً فى هذا الثأر الفروسى ، ولا شك أن هذيانه فى الليلة الأولى كان يدور حول هذا الثأر . ولكنه الآن يعود من المدرسة كل يوم مضروباً ، مضروباً ضرباً قاسياً . ولم أعلم بأمر اشتباكات هذه مع رفاقه الا أمس الاول . وأظن أنك على حق : يجب أن لا يعود الى هذه المدرسة . لقد خفت عليه خوفاً شديداً حين بلغنى أنه واجه كل تلاميذ فصله وناصبهم العداً وأنه هو الذى تحداهم أولاً . ان الغضب يعصف فى قلبه ، ويحضه على الاعتداء والهجوم . لقد خرجنا ننتزه مرة أخرى فى يوم من الايام ، فاذا هو يسألنى : « بابا ، هل الأغنياء أقوى من غيرهم اذن فى هذا العالم ؟ » فقلت له : « نعم يا ايليوشا ، ان الرجل الغنى يملك قدرة لا حدود لها » فقال لى بعد ذلك : « بابا ، سأصبح غنياً أنا أيضاً فى يوم من الايام ، وسأصبح ضابطاً ، أغلب الأعداء ، فيكافئنى القيصر ، فأعود فما يجرؤ أحد بعدئذ أن ... » . وصمت بضع لحظات ، ثم أخذت شفتاه ترتجفان كما كانتا ترتجفان من قبل ، وأضاف يقول : « أليست هذه المدينة مدينة شريرة ؟ » قلت له : « نعم يا بنى ايليوشا ، ليست هذه المدينة محيبة الى القلب كثيراً » ، فقال : « فلماذا لا تتركها الى مدينة سكانها خير من سكان هذه المدينة ، لماذا لا تتركها الى مدينة أخرى لا يعرفنا فيها أحد ؟ » ، فأجبت بأن هذه هى نيتى فى الواقع وأنا ستغادر هذه المدينة متى جمعت قليلاً من المال . لقد أسعدنى أن أصرفه بذلك عن خواطره السوداء ، وأخذنا نتحدث عن هذا الرحيل ، وناقش

تفاصيله • قلت له : « سنشتري حصانا وعربة كارة ذات عجلتين •
نركب ماما والأختين على العربة ونطيهما جيدا ، ونمشي نحن الاثنين
الى جانبهما • وقد أركبك أنت أيضا من حين الى حين ، أما أنا فسامني
على قدمي ، لأن علينا أن نراعي الحصان وأن نداريه ، والا فستهد قواه
إذا اضطر أن يجبر الأسرة كلها • سرحل قريبا ، • بهذا وعدته •
تحمس الصبي تحمسا شديدا ، وكانت فكرة امتلاك حصان يستطيع هو
أن يقوده وأن يركبه هي التي تلهب حماسه أكثر من أي شيء آخر •
ان الصبيان في روسيا يولدون فرسانا كما تعلم • وقد ثررنا مدة طويلة
في ذلك المساء • قلت لنفسي : « الحمد لله على أنه استرد طمأنينته وهذأت
نفسه ، وسررتي عنه • » • حدث هذا في مساء أمس الأول • ولكن كل
شيء تغير أمس من جديد • لقد عاد من المدرسة في الظهر مظلم الوجه
مكفهر الأسارير أكثر من أي يوم مضى • وفي المساء أمسكته من يده
لنقوم بنزهتنا اليومية • كان مصرا على الصمت فما ينطق بكلمة • الريح
تهب قليلا ، والسحب تغطي الشمس ، والنسق يهبط • ان المرء يحس
قدوم الخريف • كنا نسير دون أن نتكلم ، وفي قلب كل منا حزن
دفين • قلت له آملا أن نستأنف حديث الليلة البارحة : « هيه ! يجب
علينا يا بني أن نفكر قريبا في الاعداد لسفرنا ، • فلم يجب • ولكنني
شعرت بأصابعه الصغيرة ترتجف في يدي متشنجة • قلت لنفسي : « حالته
سيئة • • لا شك أن هناك جديدا • » • ومضينا الى تلك الصخرة التي
تراها هناك • جلست على الصخرة • كان في السماء طيارات كثيرة من
طيارات الورق التي يطلقها الأولاد • انها تهمهم في الفضاء وتفرقع •
كان في السماء يومئذ ثلاثون طائرة من هذه الطيارات على الأقل • ذلك
هو الفصل الذي تطلق فيه هذه الطيارات في الفضاء • قلت له : « لقد
آن لنا يا ايليوشا أن نطلق طيارتنا نحن أيضا ، طائرة العام الماضي • سوف

أتولى أنا اصلاحها • أين وضعتها ؟ • لم يجب بشيء ، وإنما أدار لى ظهره ناظراً الى جانب • وفجأة هبت علينا ريح مثقلة بسحابة كبيرة من غبار ••• فاذا هو يرتمى على ، ويحيطنى بذراعيه الصغيرتين ، ويشدنى اليه بجماع قواه • تعلم أن هذا النوع من الاطفال الصموتين المتكبرين يستطيعون أن يكلموا ألمهم وأن يجلسوا دموعهم مدة طويلة ، ولكن حين ينفجر بكأؤهم أخيراً ، لأن عذابهم أصبح فوق طاقتهم ، فان عبراتهم تتدفق عندئذ كالسيول • فما هى الا طرفة عين حتى كان وجهه غارقاً فى هذه الدموع المنهمرة الحارة • كان ينتحب فى تشنج ، ويرتعد ارتعادا قويا من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، ويشد جسمه الى وهو جالس على الصخرة • قال لى منتحباً : « بابا ! ما أشد ما أذلك ! » • فأجهشت أبكى أنا أيضا • وتماقتنا عناقا شديدا والدموع نهزنا كلينا • فكان ما ينفك يردد قوله : « بابا ••• حيبى بابا ! » ، وكنت أجيبه : « بنى ••• بنى الطيب ايلوشا ! » • لم يرنا أحد فى تلك اللحظة ••• لم يرنا الا الرب من علياء سمائه ••• الرب الذى قد ينتصف لى • أشكر أخاك يا ألكسى فيدوروفتش • لا يا ألكسى فيدوروفتش ، لن أجلد ابنى لأسرك وأرضيك ! •••

عاد الضابط المتقاعد ، حين ختم قصته ، الى سخريته المرة الحاتقة الوضيعة • ومع ذلك أحس أليوشا أنه قد حظى بشيء من ثقة هذا الرجل ، وأن هذا الرجل ما كان له أن « يتحدث » الى غيره بهذه الطريقة ، وأن يقص على غيره ما قصه عليه هو • وسرّ أليوشا من ذلك • كان يرتعش من شدة التأثر ، وكانت دموعه تهم أن تسيل •

قال أليوشا :

— أوه ! لشدما أتمنى أن أصالح ابنك ! لبتك تستطيع أن تهيب •••

فدمدم الضابط المتقاعد يقول :

– كما تشاء ... طبعاً ...

وتابع أليوشا كلامه يقول بحرارة :

– يجب علىّ الآن أن أكلمك في شيء آخر • اصنع الى • ان أخى
 ذاك نفسه ، ان دمترى ذاك نفسه ، قد أهان خطيبته أيضا ، وهى فتاة
 نبيلة جدا أغلب ظنى أنك سمعت عنها • ومن حقى أن أكلمك عن الاهانة
 التى ألحقها بها ، بل ان ذلك واجبى أيضا ، لأن هذه الفتاة ، بعد أن علمت
 بالاساءة التى نالتك ، وبعد أن عرفت الظروف البائسة التى تعيش فيها •
 قد كلفتنى ... قد عهدت الىّ منذ قليل بمعونة صغيرة طلبت منى أن
 أقدمها اليك • اعلم أن هذه الفتاة هى التى ترسل اليك المعونة لا أخى
 دمترى الذى هجر الفتاة من جهة أخرى ... والمعونة ليست من دمترى
 على كل حال ، ولا منى أنا أخيه ، ولا من شخص آخر ، بل منها هى
 وحدها • وهى تتوسل اليك أن تقبل معونتها ... ألم يذلكما كليكما
 شخص واحد بعينه ؟ ثم انها لم تتذكرك الا بعد أن ألحقت بها الاهانة
 نفسها التى ألحقت بك (الاهانة نفسها بضخامتها) • فهى اذن أخت
 تريد أن تساعد أخاها ... لقد كلفتنى أن أطلب اليك قبول هاتين المائتين
 من الروبلات ، معونة من أخت لأخيها • ولن يعلم أحد بالأمر ، ولن
 تروج أقاويل شريرة حول هذا الموضوع • اليك المائتى روبل ...
 عليك أن تقبلها ... أحلف لك ... والا كان على البشر أن يعدوا
 أنفسهم أعداء على هذه الأرض ! ولكن الأخوة موجودة فى هذا العالم ...
 انها موجودة أيضا ... ان لك نفساً نبيلة ... فلسوف تفهم ... لسوف
 تفهم حتماً ! ...

قال أليوشا ذلك ومدّ الى الرجل ورقين قديتين جديديتين كل

الجدة ، كل منهما بمائة روبل • وكانا في تلك اللحظة قد وقفا قرب الصخرة الكبيرة الى جانب السياج ، ولم يكن حواليهما أحد • بدا أن الورقتين النقديتين قد أحدثتا في نفس الضابط المتقاعد أثرا خارقا • ارتعش في أول لحظة ، ولكن ارتعاشه كان من الدهشة خاصة • انه لم يحلم بشيء من هذا ، ولا كان يتوقع أن ينتهي الحديث بهذه الخاتمة • انه لم يخطر بباله في لحظة من اللحظات ، حتى ولا أثناء النوم ، أن أحدا يمكن أن يهبَّ الى مساعدته ، ولا سيما بمبلغ ضخم كهذا المبلغ • تناول الورقتين النقديتين ولبث قرابة دقيقة لا يستطيع أن يتكلم • وطاف في وجهه تعبير جديد كل الجدة •

- أهذا لي ، لي أنا ، كل هذا المال ؟ مائتا روبل ؟ يا رب السماء ! انتى لم أر مبلغا ضخما كهذا المبلغ منذ أربع سنين ! أوه ! رباه ! وهى تعطينى هذا المبلغ كما تعطى أخت أخاها ؟ أهذا صحيح ؟ أهذا صحيح ؟ هتف أليوشا يقول :

- يمينا ما قلت لك الا الحقيقة !

- قل لي يا صديقى العزيز : أأكون جبانا اذا أنا قبلتها ، هذه الروبلات المائتين ؟ لن أكون جبانا ، أليس كذلك ؟ أأكون جبانا فى نظرك ؟ اصغ الىّ يا ألكسى فيدوروفتش ، اصغ الىّ حتى النهاية (كذلك أضاف يقول محموما وهو يلمس أليوشا بكلتا يديه فى كل لحظة) :

انك تشجعنى على قبول هذا المال ، لأنه مرسل الىّ من أخت ، ولكن ألن تشعر تحوى باحتقار وازدراء ، فى قرارة نفسك ، سرآ ، اذا أنا أخذته؟

قل ...

- يمينا لا ... أحلف لك على هذا أغلظ الأيمان • ثم ان أحدا لن يعلم بالأمر ، لن يعلم به أحد قط الا نحن ، أعنى أنا وأنت وسيدة أخرى هى صديقتها الكبرى ...

– لا تهمنى السيدة • دعنى أقول لك كل شيء • اننى فى لحظة كهذه اللحظة أشعر بحاجة الى الافصاح عن كل ما بنفسى •

ثم أضاف الرجل البائس الذى أخذت تغزوه شيئاً فشيئاً حماسة مضطربة مشوشة توشك أن تكون وحشية :

– انك لا تستطيع حتى أن تتخيل قيمة هذه الروبلات المائتين بالنسبة الى اليوم •

كان يبدو على الضابط المتقاعد أنه فقد السيطرة على أفكاره ، فهو يتكلم بتعجل قلق كأنه يخشى أن لا يسمح له باتمام كلامه ، وتابع يقول :

– ان هذا المبلغ ليس مالاََ حلالاً ترسله الى « أخت » محترمة مبعجلة فحسب ، وانما أنا أستطيع أن أستعين به أيضا على مداواة الأم المسكينة وعلى معالجة بنتى الحبيبة ، ملاكى الحدباء ، نينوتسكا التى يمكنتى أن أداويها ! لقد جاء الينا الدكتور هرتسشتوبه فى ذات يوم ، شهامةً منه ونبلاً ، ففحصهما كليهما خلال ساعة كاملة ، فبعد أن قال « انه لم يفهم من الأمر شيئاً » ، ذكر أن الماء المعدنى (الذى وصفه للأم العزيزة) قد ينفعها كثيرا ، ويمكن شراؤه من الصيدلية • وقد وصف لها أيضاً حمامات للرجلين بأملح طيبة • وسعر الماء المعدنى ثلاثون كوبكا ، وعليها أن تشرب منه قرابة أربعين زجاجة • لقد أخذت الوصفة من الطبيب ، واذ كنت لا أستطيع أن أسمح لنفسى بهذا البذخ والترف ، فقد وضعتها على الرف تحت الأيقونات ، وما تزال راقدةً هناك • وقد وصف كذلك لنينوتسكا حمامات ساخنة ببعض المحاليل ، قائلاً ان عليها أن تستحم مرتين فى اليوم ، مرةً فى الصباح ومرةً فى المساء • فكيف يكون فى وسعها أن تتبع هذا العلاج فى مسكننا الفقير ، بغير خادم ، بغير أحد

يساعدها ، وليس عندنا لا ماء ولا حوض ؟ ان نينوتشكا المسكينة تشكو من الروماتزم - لم أذكر لك هذا من قبل - وهى تشعر فى الليل بالآلام شديدة فى كل الجانب الأيسر من جسمها • ولكن هل تصدق ؟ ان هذه الملاك تغالب عذابها حتى لا تفلقنا ، وتمسك عن التوجع والأنين حتى لا تعكر علينا صفو نومنا • ونحن نأكل بقدر ما تتيح له مواردنا الضئيلة أن نأكل ، وذلك يختلف باختلاف الايام • فهل تصدق أنها تختار لنفسها فى كل مرة أسوأ قطعة من الطعام ، قطعة يتردد المرء أن يرميها لكلب ؟ وكأن عينها الملائكيتين تقولان حينذاك : « أنا لا أستحق حتى هذا • أنا أحرمكم من نصيبكم ، وأنا عبء عليكم جميعا • ونحن نساعدها ماوسعنا أن نساعدها ، فيؤلمها أننا نكلف أنفسنا عناء فى سبيلها ، وكأنها تقول لنفسها: « أنا لا أستحق هذا ! فما أنا الا مقعدة بلهاء لا خير فيها ولا فائدة منها ، أهى تستحق ؟ هى ؟ مع أنها هى التى تفقدنا عند الرب بطيبتها الملائكية ! ألا ان الحياة لتصبح فى بيتنا جحيما بدونها ، وبدون الكلمات الحلوة الرقيقة العذبة التى تعرف كيف تقولها فى اللحظة المناسبة ! لقد استطاعت أن تليّن حتى فاريا ! واياك أن تظلم فرفارا نيكولايفنا ! انها هى أيضا ملاك ••• هى ضحية ••• مثلنا جميعا ••• لقد وصلت الينا هذا الصيف وفى جيها ستة عشر روبلاً كانت قد كسبتها من اعطاء دروس خاصة ، وقد ادخرت هذا المبلغ لتستطيع أن تدفع أجور سفرها حين عودتها الى سان بطرسبرج ، التى يجب أن تكون فى شهر ايلول (سبتمبر) ، أى الآن • ولكننا أخذنا هذا المال وأنفقناه فى سدّ رمقنا • فبأية وسيلة يمكنها أن تعود الآن الى سان بطرسبرج لاتمام دراستها ؟ هأنت ذا عرفت كيف تجرى أمورنا • ثم انها لن تستطيع أن تسافر ، لأنها تعمل فى خدمتنا بالمنزل كما تعمل بهيمة مقرونة : تهتم بكل فرد من أفراد الأسرة ، وتصلح ما يحتاج الى اصلاح ، وترقع ما يجب ترقيعه ، وتغسل الثياب ،

وتنظف الارض ، وترقد الأم فى سريرها ، والأم ذات نزوات وبدوات ،
تبكى لأيسر سبب ، تبكى لغير سبب ، فهى مجنونة هـى مجنونة ،
الأم العزيزة ! وهأنذا سأستطيع بهذه الروبيلات الماتتين أن أستخدم خادما
. . . . هل تفهم يا ألكسى فيدوروفتش ؟ سأستطيع أن أدارى المريضين
العزيزين ، وتستطيع الطالبة أن تملك ما تسافر به الى سان بطرسبرج ،
وسوف أشتري لحماً ، فأحسّن ما نصيبه عادةً من طعام . آه يارب
السماء ! ما أجمله من حلم !

أسعد أليوشا كثيرا أنه استطاع أن يفرح الرجل المسكين هذا
الفرح كله ، وهنأ نفسه على أن الرجل قد ارتضى قبول هذه السعادة .
ولاحت للضابط المتقاعد رؤية جديدة فأوقدت فى نفسه حماسة
جديدة ، فاستأنف كلامه يقول بسرعة محمومة جياشة :

- لحظةً يا ألكسى فيدوروفتش ، لحظة أخرى ! هل تعلم أنتى
أملك الآن أن أحقق أمنية ايليوشا وأن أفى بوعدى له ؟ لسوف تشتري
حصانا وعربة كارّة . وسيكون الحصان أكحل . ان ايليوشا يصرّ على
هذا اللون . وسنسافر ، كما وصفت له سفرنا أمس الاول . اننى أعرف
فى مدينة «ك» محاميا هو من أصدقاء الطفولة . وقد علمت من شخص
موثوق به أن صديقى هذا سيعينى كتابا فى مكتبه اذا أنا ذهبت الى تلك
المدينة . من يدرى ؟ قد يستخدمنى فعلا ! سأقعد الأم اذن على العربة ،
وسأقعد عليها نينوتشكا أيضا ، ثم يمسك ايليوشا بزمام الحصان فيجره ،
وأسير أنا على قدمى الى جانب العربة . وهكنا نرحل جميعا ! يا رب
السماء ! ليتنى أستطيع أن أسترد ذلك المبلغ الصغير الذى يدين لى به
أحدهم هنا ، اذن لملك من المال ما يكفينى لهذه الرحلة !

صاح أليوشا يقول :

- ستملك ما أنت في حاجة إليه ! سترسل اليك كاترين ايفانوفنا من المال كل ما ستحتاج اليه . وأنا أيضا عندي بعض المال ، هل تعلم ذلك ؟ خذ مني ما أنت في حاجة اليه ، خذ مني كما يأخذ أخ من أخيه ، كما يأخذ صديق من صديقه . وسترده اليّ في المستقبل (ذلك انك ستقتني ، هذا مؤكد) . صدقتي اذا قلت لك ان فكرة السفر الى اقليم آخر هي خير فكرة يمكن تخيلها . ان فيها خلاصك ، وخلص ابنك خاصة . وأؤكد لك أن الاسراع أفضل شيء . سافر قبل حلول الشتاء ، سافر قبل اشتداد البرد . وستكتب الينا من هناك ، وسنظل اخوة . ليس هذا حلمًا ، ليس هذا حلمًا البتة !

ودّ أليوشا لو يقبله وهو في غمرة الفرح هذه . ولكنه أمسك فجأة حين نظر اليه . لقد مدّ الرجل عنقه ، وقدمّ فمه ، شاحب اللون منقلب السحنة . ان شفّيته تخرجان ، كأنما هو يهمس بشيء أو يحاول أن يتكلم . ولكن لم يخرج من فمه أي صوت ، وظل يحرك شفّيته صامتًا . منظر غريب مقلق .

سأله أليوشا وهو يرتعش دون أن يدري لماذا ؟ :

- ما بك ؟

فتمتم الضابط المتقاعد يقول بصوت متقطع ، محدقا الى أليوشا بنظرة غريبة شاردة ، وقد بدا كأنسان يهم أن يهوى في فراغ ، بينما شفّته تصطنعان ابتسامة :

- ألكسى فيدوروفتش .. اننى .. أ .. نعم .. اننى أ ..

ثم قال فجأة بهمس سريع ، ولكن ب لهجة جازمة ليس فيها الآن شيء من تقطع :

- هل تريد أن أريك براعة صغيرة من براعاتي ؟

- براعة ؟

- نعم ، براعة من نوع براعة الحواة !

كذلك أجاب الضابط المتقاعد في همس أيضا •

فهتف أليوشا مذعورا كل الذعر :

- ولكن ماذا بك ؟

فقال الضابط المتقاعد فجأة بصوت حاد :

- نعم •• هي براعة •• أنظر •

قال ذلك ثم أراه الورقتين التقديتين اللتين ظل طوال الحديث
يمسكهما مشدودتين بين السبابة والابهام من يمينه ، ثم اذا هو يقبض
عليهما فما يزال يدعكهما في قبضة يده بعنف وقوة حتى سحقهما سحقاً
وقد أخذ منه الحقن كل مأخذ •

ثم صرخ يقول لأليوشا بصوت ثاقب :

- فهل رأيت ؟ هل رأيت هذه المرة ؟

ثم رفع قبضة يده شاحباً الوجه مرتعد الجسم ، فرمى الورقتين
المسحوقتين على الرمل •

وعاد يعول من جديد قائلاً وهو يشير اليهما باصبعه :

- هل تراهما ؟ اليك هما ! ••

ثم رفع قدمه اليمنى ، فأخذ يدوسهما بحقن مسعور وحشى ، وهو
يصرخ بصوت لاهث بعد كل دوسة عليهما :

- أنظر ماذا أفعل بمالك ، أنظر ماذا أفعل به ! انظر اليهما ،

ورقتيك •••

ثم تراجع خطوة الى وراء ، على حين فجأة ، ووقف أمام أليوشا
مشدود الجسم منتصب القامة • كان وجهه يعبر عندئذ عن كبرياء
لا تغلب •

وهتف يقول وهو يمد ذراعه :

— قل للذين أرسلوك ان ليفة الحمام لا تبيع شرفها !

ثم استدار فجأة ، ومضى راكضا • ولكنه ما ان قطع خمس خطوات
حتى التفت نحو أليوشا ، وحرك له يده مودعا • ثم ما ان قطع خمس
خطوات أخرى حتى توقف ملتفتا نحو أليوشا مرة ثانية • كانت الابتسامة
الساخرة قد اختفت من وجهه وحلت محلها دموع • وبصوت مختلج
تقطعه شهقات انتحاب ، صاح يسأل أليوشا من خلال عبرات يحاول أن
يكظمها فتشطر كلماته شطرين :

— ماذا كان يمكنني أن أقول لابني لو قبلت مالكم ثمنا لعارنا ؟

قال ذلك وانصرف راكضا دون أن يلتفت مرة أخرى • تابعه
أليوشا بنظره وهو يشعر بحزن عميق • وأدرك أليوشا أن هذا الرجل لم
يكن قد خطر بباله ، حتى آخر لحظة ، أنه سيدعك الورقتين النقديتين
وأنه سيرميها • انه الآن يركض ، ولن يرجع • ذلك أمر كان منه أليوشا
على يقين • ولم يشأ أليوشا لا أن يناديه ، ولا أن يجرى وراءه ليدركه ،
لأنه أحس أن عليه أن لا يفعل ذلك • حتى اذا غاب الرجل عن بصره ،
تناول الورقتين اللتين كاتتا مدعوكتين مسحوقتين غائرتين في الرمل ،
ولكن دون أن يصيبهما أي تمزق ، وأخذ يبسطهما فيسمع قرقتهما بين
أصابعه كأنهما جديدتان • حتى اذا أزال عنهما ما نالهما من دعك ، عاد
قطواهما ودسهما في جيبه • ثم سار في طريقه ليبلغ كاترين ايغانوفنا
ثمرة مساء في انفاذ ما عهدت اليه بانفاذه •

حواش

الصفحة

- ١٢ * « الحق الحق أقول لكم ٠٠٠ » : يرى بعضهم أن تصدير دوستويفسكى كتابه بهذه الآية من الانجيل يعبر عن اقتناع دوستويفسكى بأن النفس الانسانية (والنفس الروسية) لن تبعث بعثا جديدا الا بعد أن تجتاز أزمة عميقة .
- ١٩ * ان اسم كارامازوف ، كغيره من أسماء بعض الأسر النبيلة ، يرجع الى أصل تترى . ولكن بعض النقاد يرون ان اختيار دوستويفسكى هذا الاسم لأبطال روايته قد تأثر خاصة باسم دمترى كاراكوزوف ، الثورى الذى حاول يوم ٤ نيسان (أبريل) ١٨٦٦ اغتيال القيصر الاسكندر الثانى بينما كان القيصر يتنزه فى حديقة الصيف . ويقال ان دوستويفسكى قد هزته كثيرا محاولة الاغتيال هذه . ويشير آخرون الى ان كلمة كارا (قره) تعنى فى اللغة التترية الاسود ، ويرون فى ذلك رمزا .
- ١٩ * «وقعت منذ ثلاثة عشر عاما على وجه الدقة ٠٠٠» يشير النقاد الى أن معنى ذلك أن دوستويفسكى يضع أحداث رواية « الاخوة كارامازوف » فى خريف ١٨٦٦ ، وبذلك يكون قد أخطأ فى الحساب حين أشار فى الفصل الثامن من الباب الثانى من هذه الرواية الى مقتل فون سون الذى وقع فى نهاية سنة ١٨٦٩
- ٢٧ * « ميتيا » تصغير اسم دمترى ، تحببا
- ٢٨ * بيير - جوزيف برودون (١٨٠٩ - ١٨٦٥) وميشيل باكونين (١٨١٤ - ١٨٧٦) : من أقطاب حركة « المذهب الفوضوى » منذ ١٨٤٠
- ٢٨ * « الايام الثلاثة الاولى من ثورة شباط (فبراير) ١٨٤٨ » : هى الايام التى تمتد من ٢٢ الى ٢٤ فبراير ، والتي أدت الى تنازل لويس فيليب عن العرش .

- ٢٨ * يملك ثروة مستقلة يمكن أن تقدر في ذلك العصر «بألف نفس»: ألف نفس ، أى ألف قن ، وهذا يدعو الى افتراض أن الاراضى المملوكة تزيد على عشرة آلاف هكتار .
- ٣٥ * « كليكوشى » : الكلمة مشتقة من فعل كليكات الروسى ومعناه صرخ ، وهو اسم يطلق على النساء الهستريات اللواتى يأخذن فى صراخ كان بهن مسا من جن .
- ٤٠ * « لقد تناول المقال مسألة القضاء الاكلىركى » : ان مسألة المحاكم الاكلىركية (التى كانت تفصل فى شئون الطلاق خاصة) ترتبط باصلاح المحاكم المدنية سنة ١٨٦٤ ، وقد نوقشت فى الصحافة مناقشة حادة فى ذلك العهد .
- ٤٤ * « الشيخ » : بالروسية « ستارتس » ، وهو اسم يطلق تعظيما وتبجيلا على الرهبان الطاعنين فى السن . أما العجوز العادى فاسمه بالروسية « ستاريك » .
- ٥٤ * « الشيخ زوسىما » : ان هذه الشخصية تذكر بشخصية الشيخ أمفروسى الذى زاره دوستويفسكى فى أوبتينا سنة ١٨٧٨ ، ولكن دوستويفسكى قد استوحى أيضا كتابا بعنوان : « حياة الشيخ الراهب زوسىما وأعماله المجيدة » ، وقد نشر هذا الكتاب فى موسكو سنة ١٨٦٠ ، ان هذا الراهب (١٧٦٧ - ١٨٢٥) هو ابن حاكم مقاطعة سمولنسك المسمى فرخوفسكوى ، وقد كان فى شبابه ضابطا فى حرس كاترين الثانية ، ثم ترهب وأصبح شيخا يعيش حياة نيك قاسية . وقد جمع أحد مريديه أقواله ومواعظه ونشرها ، فاستخدمها دوستويفسكى فى اعداد الباب السادس من روايته « الاخوة كارامازوف » .
- ٥٦ * « رأيت طيف حوذى ٠٠٠ » : عرض بتصرف لمقطع من النشيد الرابع من « الانياذة المزورة » (التى تصف الجحيم) ، وقد نشرها سنة ١٦٤٣ الاخوة شارل ونيقولا وكلود بيرو .
- ٥٩ * « أعلن الرسول توما ٠٠٠ » : ان ما يذكر عن هذا الرسول من

عدم تسرعه في التصديق قد أشير اليه في انجيل يوحنا
(الاصحاح العشرين ، ٢٤ - ٢٩) .

٦٢ * بائيسى فيليتشكوفسكى (١٧٢٢ - ١٧٩٤) : ناسك يرجع أصله الى روسيا الصغرى ، كان راهباً في جبل آثوس ، وفالاشيا ، ومولدافيا ، وهو الذى أدخل نظام « المشايخ » الى روسيا ، ترجم كتب اسحاق السورى وتيودور ستوديت . وقد نشرت مؤلفاته سنة ١٨٤٧

٦٣ * كوزلسكيا أوبتينا (بوستين) ، منسك أوبتا : دير يقع قرب كوزلسك في مقاطعة كالوجا ، أنشأه رجل من قطاع الطرق تائب ، اسمه اوبتا ، وقد اشتهر هذا الدير في القرن التاسع عشر بتقوى رهبانه . وزاره دوستويفسكى في شهر حزيران (يونيه) سنة ١٨٧٨ بصحبة الفيلسوف الشاب فلاديمير سولوفييف (١٨٥٣ - ١٩٠٠) بعد موت ابنه أليوشا . وكان فى هذا الدير الشيخ أمفروسى ، الذى اتخذه دوستويفسكى نموذجاً للشيخ زوسيمافى فى هذه الرواية .

٦٤ * « راهب من الرهبان الذين كانوا يعيشون فى عصرنا ، ٥٠٠٠ » . هو الراهب بارتين نيبوزا (١٦٤٨ - ١٧٠٤) الذى قضى حياته فى الدير بتركيا وفلسطين ، ثم أصبح أسقف هولوجورى ، ومات فى روسيا . كان دوستويفسكى مطلعاً على حجرات هذا الراهب الى الشرق .

٧٢ * يطلق على كبير الرهبان أو رئيس الدير فى الكنيسة الارثوذكسية اسم « ايجومين » ، والكلمة يونانية .

٨١ * « فون نسون » موظف مسن قتل وسرق ماله سنة ١٨٦٩ فى ماخور بموسكو ، ووضعت جثته فى صندوق وأرسل الصندوق الى سان بطرسبرج بالقطار .

٨٢ * « لكل دير قواعد ٠٠٠ » : هناك مثل روسى يقول : « لا تذهب الى دير أجنبى لتفرض عليه قواعدك أنت » .

٨٧ * « يرجع تاريخها الى عهد سابق على الانشقاق » : أى الى سنة ١٦٦٠ ، حين حدث انشقاق « قدامى المؤمنين » فى روسيا .

- ٨٩ * « هلا تنازلت يا سيدى الايسبرافنك ، فكنت لنا نابرافنك ٠٠٠ » :
 ها هنا لعب لعظي على كلمتى ايسبرافنك ونابرافنك ، فأما كلمة
 ايسبرافنك التى يسمي بها رئيس الشرطة فهى مشتقة من فعل
 ايسبرافت ومعناه أدب أو عاقب ، وأما نابرافنك فهو اسم ادوار
 نابرافنك (١٨٣٩ - ١٩١٦) رئيس الاركسترا الشهير فى دار
 الاوبرا الكبرى بمدينة سان بطرسبرج منذ سنة ١٨٦٩ ، وهو
 من أصل تشيكي ، وقد شاعت المصادفة أن يكون اسمه هذا
 مشتقا من فعل نابرافيتى ومعناه : وجه ، أدار ، أصلح .
- ٩١ * الفيلسوف الشهير دينيس ديدرو (١٧١٣ - ١٧٨٤) ، دعتة
 كاترين الثانية الى سان بطرسبرج سنة ١٧٧٣ ، وقد ركب
 الناس هذه النادرة عن محاورته مع ذلك الواعظ الممتاز أفلاطون
 لفشين (١٧٣٧ - ١٨١٢) ، الذى كان مربى الدوق الاكبر ولى
 العهد بافل ، ثم أصبح رئيس أساقفة موسكو .
- ٩١ * الاميرة كاترين داخكوبا (١٧٤٣ - ١٨١٠) لعبت دورا كبيرا
 فى الفتنة التى أوصلت كاترين الثانية الى العرش سنة ١٧٦٢ ،
 وهى امرأة مثقفة ثقافة واسعة ، وقد كانت فى وقت من الاوقات
 رئيسة الاكاديمية الروسية للآداب .
- ٩٥ * « بورك البطن الذى حملك ، وبورك الثديان اللذان أرضعاك » :
 كلام قالته امرأة من الشعب ليسوع المسيح (انجيل لوقا ،
 الاصحاح الحادى عشر ، ٢٧) .
- ٩٨ * هل صحيح ٠٠ ان كتاب أسماء الشهداء ٠٠ يروى ٠٠٠ قصة
 قديس ٠٠ قطعوا رأسه ٠٠ فتناوله من الارض ٠٠ : هذه القصة
 لا وجود لها فى كتاب الشهداء الروسى ، وانما هى تحكى عن
 شهيد سان دينيس اسقف باريس ، وهى رائجة جدا فى فرنسا :
- ١٠٧ * ناتاسيوشكا : تصغير اسم ناستازيا ، ويستعمل تحببا .

- ١٠٧ * « ثلاثة أعوام الا ثلاثة أشهر » : في هذه السن تماما مات اليوشا ابن دوستويفسكى . وقد كتبت أرملة دوستويفسكى تقول : « هذه ثمرة تأثر فيدور ميخائيلوفتش بموت ابنا اليوشا الذي مات سنة ١٨٧٨ وعمره ثلاثة أعوام الا ثلاثة أشهر . ففي تلك السنة انما شرع فيدور ميخائيلوفتش في كتابة الرواية » .
- ١٠٧ * نيكيتوشكا : تصغير اسم نيكيتا ويستعمل تحببا .
- ١١٠ * « هذه راشيل . . . تبكى صغارها . . . » : تروى زوجة دوستويفسكى أن هذه الكلمات هي الكلمات التي وجهها الشيخ أمفروسي الى دوستويفسكى محاولا مواساته عن موت ابنه .
- ١١٢ * « سأذكره في صلواتي » : علقت زوجة دوستويفسكى على ذلك قائلة : ان فيدور ميخائيلوفتش قد نقل الى أقوال الشيخ هذه حين عاد من أوبتينا بعد حديثه مع أمفروسي ووصفه له مدى ما نعانيه من لوعة لموت ابننا .
- ١١٥ * النص في انجيل لوقا (الاصحاح الخامس عشر ، ٧) كما يلي : « أقول لكم انه هكذا يكون فرح في السماء بخاطيء واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين بارا لا يحتاجون الى توبة » .
- ١٢٢ * « أوبدورسك » : مدينة صغيرة في أقصى شمال سيبيريا الغربية، بين الأورال والمحيط المتجمد .
- ١٣٤ * « كان أحد رجال الدين قد نشر كتابا ضحكا في هذه المسألة » : ان أستاذا في القانون الكنسي هو الراهب ميخائيل جورتشاكوف قد نشر كتابا عنوانه : « بحث في الاسس العلمية للقضاء الاكليركي » ، وكانت مكتبة دوستويفسكى تضم هذا الكتاب .
- ١٣٥ * « ولكن هذا ليس الا عقيدة مما وراء الجبال » : المقصود بما وراء الجبال هو ايطاليا ، والكلام ينطبق على العقيدة اللاهوتية التي تتفق ودعاوى بابا روما . وهكذا تفهم النكتة التي ترد في الحوار بعد ذلك « - نحن ليس لدينا في روسيا حتى جبال » .

- ١٤٦ ★ كان البابا جريجوار السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) أكبر ممثل لفكرة الحكم القائم على السلطة الدينية ، وقد خاصم الامبراطور هنرى الرابع وغلبه .
- ١٥٠ ★ « باتيوشكا » : بهذا اللقب ينادى رب الأسرة والكهنة وغيرهم من الاشخاص المحترمين ، من باب الملاطفة .
- ١٥٦ ★ « تعرف هذين البطلين من أبطال قصة شيللر ٠٠٠ » : فى هذه الدراما التى كتبها شيللر سنة ١٧٨١ ، أخرج المؤلف على المسرح اخوين متنافسين هما ابنا الكونت دى مور . فأما الاول وهو كارل مور فيتراس عصابة من قطاع الطرق ، وأما الثانى وهو فرانتس مور فيهىء مقتل أبيه .
- ١٦٤ ★ « المسيح نفسه غفر للمرأة التى أحبت » : اشارة الى غفران المسيح للخاطئة « من أجل ذلك أقول لك قد غفرت خطاياها لانها أحبت كثيرا » (انجيل لوقا ، الاصحاح السابع ، ٤٧) .
- ١٧٦ ★ « جروشنيكا » : لقب ملاطفة ، ومن عجب أن يشتمق من اسم أجرافين تصغيرا .
- ١٧٧ ★ « ان شاعرنا بوشكين ٠٠٠ قد مجد ساقبيها الصغيرتين فى شعره : ذلك فى الفقرتين ٣٠ ، ٣٤ من النشيد الاول من قصة بوشكين « أوجين أونيجين » .
- ١٨٠ ★ « كاتنكا » : تصغير اسم كاتيا (كاترين) توددا وملاطفة .
- ١٨٨ ★ كان الرهبان الروس لا يأكلون اللحم أبدا .
- ١٩٦ ★ « ملة الخلستيس » : ظهرت فى القرن الثامن عشر ، وكان لها أنبيأؤها واجتماعاتها التى تتسم برقص محموم وأعمال خليعة .
- ١٩٨ ★ « قبلة على الشفتين وطعنة فى القلب » : كلمات كارل مور فى المشهد الثانى من مسرحية شيللر « قطاع الطرق » .

- ١٩٨ * أحسن متجر لبيع المواد الغذائية في سان بطرسبرج .
- ٢٠١ * « فانيا » : تصغير اسم ايفان
- ٢١١ * « اسحاق السورى » : ناسك من القرن السابع نشرت ، مجموعة من مواعظه سنة ١٨٥٨ في موسكو . وقد ضمت مكتبة دوستويفسكى هذا الكتاب .
- ٢١٢ * « اليزابت سمردياستشاييا » : اسم مشتق من فعل سمرديت ، ومعناه النتنة . وقد روى أخو دوستويفسكى الاصغر (وهو آندره دوستويفسكى) في مذكراته التي نشرت سنة ١٩٣٠ أن امرأة معتوهه اسمها أجرافين كانت تسكن في أراضى أبيهما أيام شبابهما : « كان عمرها ٢٠ - ٢٥ سنة . وكانت قليلة الكلام ، فاذا تكلمت تكلمت كارهة على مضمض ، وقالت كلاما غامضا مفككا . فاذا سمع السامع ما تقول فهم أنها تتذكر ابنها المدفون في المقبرة . ويظهر أنها كانت معتوهه منذ ولادتها، وقد اغتصبت فولدت ولدا مات في سن مبكرة . فحين قرأت قصة اليزابت في رواية الإخوة كارامازوف تذكرت تلك المرأة المعتوهه أجرافين » .
- ٢١٤ * « يوروديايا » : اسم يطلقه الشعب على بعض ضعاف العقول ممن يعدون « مجذوبين الى الله » .
- ٢٢٤ * « ان مدينتنا مبعثرة جدا . . . » . ان دوستويفسكى يسمى هذه المدينة في روايته بهذا الاسم الساخر: سكوتوبريجونيفسك المنحوت من كلمتين (قاد - بهائم) . وفي المسودات يسميها توبولسك ، وفي رأى زوجة دوستويفسكى أنه وصف سترايا روسا ، تلك المدينة الصغيرة الهادئة الوداعة ، بأقنيتها ، وحفرها وحدائقها ذات الاسيجة الخشبية .
- ٢٢٧ * هذان الشطران هما من نظم دمترى نفسه ، وسينشدهما مرة أخرى (الجزء الثانى ، الباب الثامن ، الفصل الخامس) .
- ٢٢٨ * « اكاذيب يروجها أناس لا خلاق لهم ، فلا تسمح لها أبدا وبدد

كل أوهامك » : بيتان من قصيدة للشاعر نكرا سوف ، نشرت سنة ١٨٤٦ ، وفيها يخاطب الشاعر فتاة ضائعة يريد اصلاحها وبعثها بحبه . وقد استشهد المؤلف بأبيات من هذه القصيدة في غير هذه الرواية (« قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها » ، و « في قبوى ») .

٢٣١ * « كن نبيلاً يا أيها الانسان » : مطلع قصيدة للشاعر جوته عنوانها : « الالهى » ، وقد نظمها سنة ١٧٨٣

٢٣٢ * « سيلين ذو الوجه المزهري » : من قصيدة للشاعر شيللر عنوانها . « آلهة اليونان » ، في ترجمة قام بها ليخاتشيف ، وهنا يتلاعب دمترى بالالفاظ مستغلاً الجناس بين كلمة سيلين ، وكلمة سيلون (ومعناها قوى) .

٢٣٣ * « سكان الكهوف الخائفون الوجلون » : ان دمترى لا يتلو هنا نشيد الفرح بل قصيدة أخرى للشاعر شيللر هي « عيد ايليثوزيس » (١٧٩٨) في ترجمة روسية قام بها ف . آ . جوكوفسكى (الفقرات ٢ ، ٣ ، ٧) .

٢٣٥ * « روح العالم التى خلقها الله » : هاتان هما الفقرتان الثالثة والرابعة من قصيدة شيللر الشهيرة « الى الفرح » ، فى الترجمة الروسية التى قام بها ف . آ . تيوتشيف ، وقد استخدم تهوفن هذه الابيات لخاتمة سمفونيته التاسعة .

٢٧٠ * « الكوليبياكا » : فطائر بالسلك .

٢٧١ * « حمارة بلعام » : ان الأتان التى ركبها الرسول بلعام قد نطقت فجأة حين رأت ملاك الرب (التوراة ، الاعداد ٢٢ ، الآيات من ٢٣ الى ٣٠) .

٢٧٣ * « سهرات فى المزرعة قرب ديكانكا » : مجموعة اقاصيص خيالية رومانسية كتبها نيقولا جوجول (١٨٣٢) .

٢٧٤ * « التاريخ العام » من تأليف سماراجدوف : هو موجز فى التاريخ للمدارس الابتدائية ، طبع مرارا منذ سنة ١٨٥٤

- ٢٧٦ ★ « ثلاث أوراق نقدية ملونة » : هما أوراق نقدية من فئة المائة روبل .
- ٢٧٧ ★ « هناك لوحة جميلة رسمها الرسام كرامسكوى » : هو ايفان كرامسكوى (١٨٣٧ - ١٨٨٧) ، زعيم الحركة الواقعية في ذلك العصر ، وقد رسم وجوه تولستوى ونكراسوف وغيرهما في لوحات رائعة .
- ٢٨٦ ★ « جاء في الكتاب المقدس أن الذى يملك الايمان الحق ٠٠٠ » : تحوير لما ورد فى الأناجيل : « الحق أقول لكم لو كان لكم ايمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل ، ولا يكون شئ غير ممكن لديكم » (انجيل متى ، الاصحاح السابع عشر ، ٢٠) .
- ٢٩٢ ★ « ولكن الفلاحين مستمررون على جلد أنفسهم بأنفسهم » : ان الاصلاح القضائى الذى صدر سنة ١٨٦٤ قد ألغى العقوبات الجسدية فى محاكم الدولة ، ولكنه تسامح فى تطبيقها فى محاكم القرى .
- ٢٩٧ ★ ليس المقصود هنا الشاعر الانجليزى بايرون ، بل الشاعر الهجاء الكسى بيرون (١٧٧٣ - ١٦٨٩) .
- ٢٩٧ ★ « آربنين » : ان الاب كارامازوف ، وهو قليل الحظ من الثقافة يخلط هنا بين بطل رواية الشاعر ليرمونتوف الشهيرة « بطل من زماننا » ، واسمه فى الواقع هو بتشورين ، وبين بطل مسرحية لهذا الشاعر نفسه عنوانها « التنكر » ، وبطل هذه المسرحية هو الذى اسمه آربنين .
- ٣٠٦ ★ « فانيا ، ليوشا » : تصغير اسمى ايفان وأليوشا .
- ٣٠٨ ★ « لا تقل لايزوب كلمة واحدة » : ان دمترى يسمى اياه هنا باسم الشاعر اليونانى الشهير ايزوب فى معرض الاحتقار ، ومعروف

- أن هذا الشاعر قد ولد عبدا ، وأنه كان دميم الوجه عى اللسان
أحذب .
- ٣٦٠ * « ايكاتيرنبورج » : مدينة فى منطقة المناجم من الاورال ، على
طريق سيبيريا . وتسمى الآن سفردلوفسك .
- ٣٧٨ * « ميتكا » : تصغير تحقيرى لاسم ميتيا (دمترى) .
- ٣٨٠ * « جروشكا » : تصغير تحقيرى لاسم جروشكا (أجرافين) .
- ٣٨٢ * « فانكا » تصغير تحقيرى لاسم فانيا (ايفان) .
- ٣٨٨ * « أبدى اليوشا هذه الملاحظة الجدية العملية بطريقة عفوية » :
روت أرملة دوستويفسكى أن هذه الطريقة هى التى كان يستعملها
زوجها فى مخاطبة أطفال لا يعرفهم .
- ٤٢٤ * « بالشكر ياسيدتى لا أحفل » : آخر بيت من قصيدة شيللر
« القفاز » (١٧٩٧) . ان كاترين قد عذبت ايفان كثيرا وسببت
له آلاما شديدة ، مثلما فعلت تلك السيدة الجميلة بفارسها
دولورج .
- ٤٣٨ * « الرائد سينجيريف - س » : يشير سينجيريف هنا ، باستعمال
حرف السين (س) ، الى انحطاط مكانته الاجتماعية الآن . فهكذا
يتكلم الحقراء أمام العظماء ، مضيفين هذا الحرف الى أواخر
الكلمات .
- ٤٤٢ * « ايليوشا » : تصغير اسم ايليا ، تحببا .
- ٤٤٥ * « ليس فى الطبيعة كلها ما يرضيها » : استشهاد بقصيدة
ليرمونتوف التى عنوانها «الشیطان» . وهاهنا تحريف ، فالنص
الأصلى لهذا البيت يجب أن يكون هكذا : « لا تريد أن تبارك
شيئا فى الطبيعة بأسرها » .
- ٤٤٥ * « تشرنومازوف » : لعب لفظى على اسم كارامازوف الذى يعنى
نصفه (كارا) : أسود (تشرنى) فىكون معنى تشرنومازوف :
«المسود» أو «الملطخ بالسواد» .

فهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
الاهداء	١١
الى القارئ	١٣
الجزء الأول	١٧
الباب الأول (قصة أسرة صغيرة طيبة)	١٩
١ - فيدور بافلوفتش كارامازوف	١٩
٢ - كيف تخلص من ابنه الاول	٢٧
٣ - الزواج الثاني وابنا الفراش الثاني	٣٣
٤ - اليوشا الابن الثالث	٤٤
٥ - مشايخ الرهبان	٥٨
الباب الثاني (اجتماع في غير محله)	٧٥
١ - الوصول الى الدير	٧٥
٢ - المهرج العريق	٨٥
٣ - ايمان نساء الشعب	١٠٢
٤ - السيدة الضعيف ايمانها	١١٨
٥ - لتكن مشيئة الرب	١٣٢
٦ - لماذا يجب أن يعيش مثل هذا الرجل	١٤٩
٧ - طالب اللاهوت	١٧٠
٨ - فضيحة	١٨٧

الصفحة	الموضوع
٢٠٣	الباب الثالث (الشهوانيون)
٢٠٣	١ - فى الخدمة
٢١٣	٤ - اليزابت سمردياستشايا
٢٢١	٣ - اعتراف قلب حار « شعرا »
٢٣٧	٤ - اعتراف قلب حار « نثرا »
٢٥٢	٥ - اعتراف قلب حار « والقدمان فى الفضاء »
٢٦٨	٦ - سمردياكوف
٢٧٩	٧ - مجادلة
٢٩٠	٨ - أثناء شرب الكونياك
٣٠٥	٩ - الشهوانيون
٣١٦	١٠ - المرأتان كلتاهما
٣٢٨	١١ - أخرى تعرض نفسها للضياع
٣٥٢	الجزء الثانى
٣٥٥	الباب الرابع (التمزقات)
٣٥٥	١ - الأب تيرابونت
٣٧٦	٢ - فى منزل الأب
٣٨٦	٣ - لقاء مع تلامذة
٣٩٦	٤ - فى منزل أسرة هوخلاكوف
٤١٠	٥ - التمزق فى الصالون
٤٣٢	٦ - التمزق فى الخربة
٤٥٠	٧ - وفى الهواء الطلق
٤٦٩	حواش

دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة

إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كائناً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" والمذللين الميائين "فاذا عالج مشكلات ما تنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشهّر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."
الكسندر في سرلوفيف